دولة الكويت

المركز العالمي للوسطية

أبحاث
مؤتمر نحن والآخر

الكويت
٦-٨ صفر ١٤٢٧ هـ
٦-٨ مارس ٢٠٠٦ م

We & Other

أبحاث

مؤتمر نحن والآخر

الكويت

٦ - ٨ صفر ١٤٢٧ هـ

٦ - ٨ مارس ٢٠٠٦ م

الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨ م

الكويت - حولي - الدائري الثالث -بجوار مسجد الوزان
تليفون: ٠٠٩٦٥٢٦٦٣١٧٠ -٠٠٩٦٥٢٦٦٣١٨٠ - فاكس: ٠٠٩٦٥٢٦٦٣١٥٠
ص . ب: ١٣ الصفاة - ١٣٠٠١ الكويت
الموقع الإلكتروني: www.wasatiaonline.net

نحن والآخر

WE & THE OTHER

أبحاث

مؤتمر نحن والآخر

الكويت

٦ - ٨ صفر ١٤٢٧ هـ

٦ - ٨ مارس ٢٠٠٦ م



حضرة صاحب السمو الشيخ

صباح الأحمد الجابر الصباح

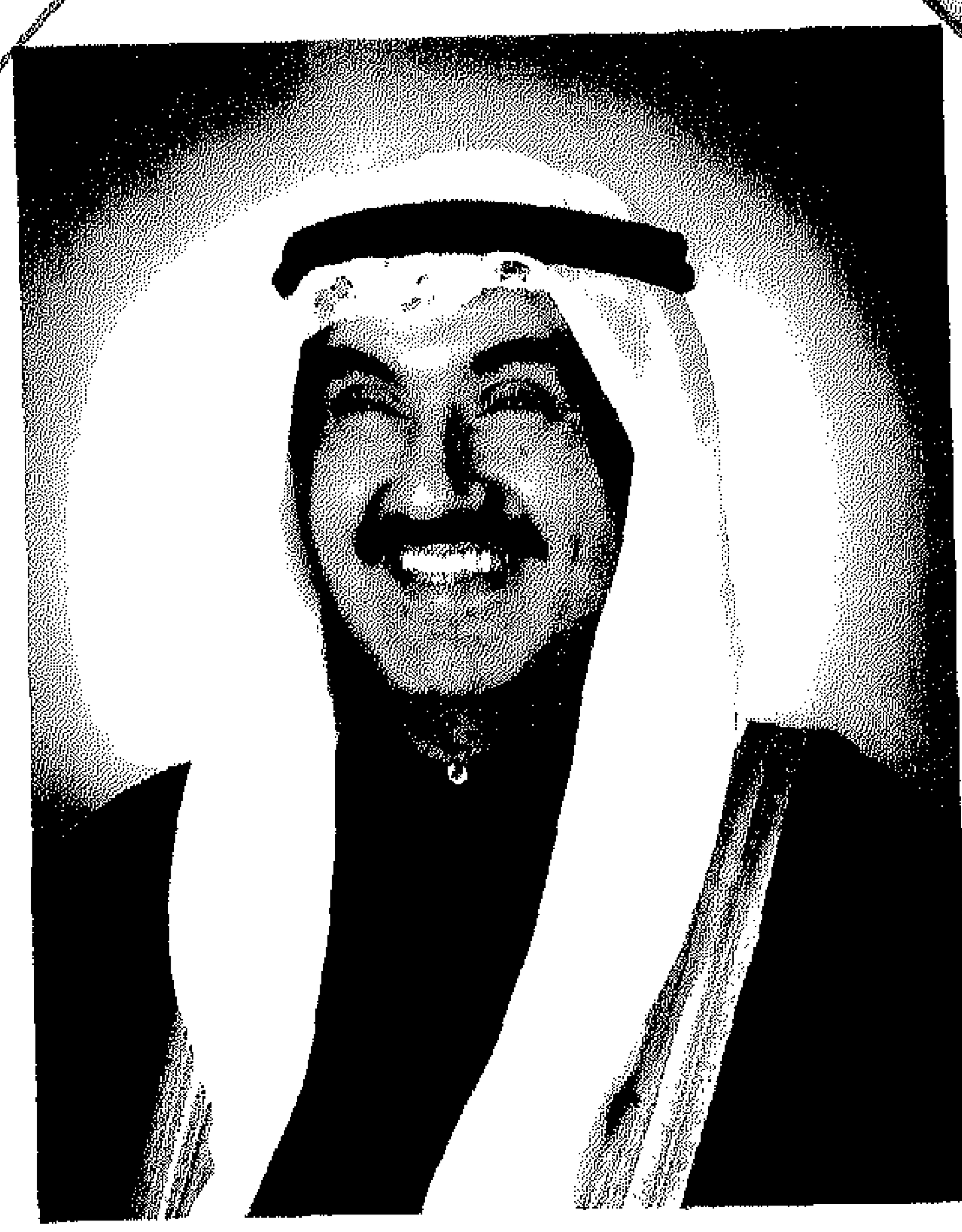
أمير دولة الكويت



سمو الشيخ

نواف الأحمد الجابر الصباح

ولي عهد دولة الكويت



سمو الشيخ

ناصر المحمد الأحمد الجابر الصباح

رئيس مجلس الوزراء - دولة الكويت

تصدير عام

الحمد لله حمد العارفين لفضله، المقرّين بنواله، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فالرأي والرأي الآخر واقع إنساني وسنة كونية وحقيقة كائنة لا ينكرها أحد.. وهذا التنوع والاختلاف عرفته أمتنا الإسلامية من البداية، فكانت هناك تعددية دينية وحضارية وفكرية ومذهبية ودعوية وسياسية.

والمتأمل في الخطاب الإسلامي في مراحله المختلفة يرى أنه اتسم بالرحمة، وبمدٍّ يد التفاهم، وبعرض الحلول السلمية والدعوة إلى التعايش ونبذ العنف في التعامل مع الآخرين حتى في حالة الحرب.. وما زال المسلمون مطالبين بمد أيديهم وفتح عقولهم وتوسعة صدورهم مع مخالفيهم من أهل الأديان للبحث عن خط مشترك يجمع البشرية بعيدًا عن تحويل اختلاف الفكر إلى عداوات قاتلة وحروب طاحنة.

وللحوار في المفهوم الإسلامي مستويات: الأول: الحوار مع النفس ومحاسبتها وطلب الحق، والثاني: الحوار بين أفراد المجتمع الإسلامي وفق اجتهاداته المختلفة عملا بمبدأ التعاون في المتفق عليه والإعذار في المختلف فيه؛ حفاظًا على وحدة الصف الإسلامي. والثالث: الحوار بين المسلمين وغير المسلمين الذين يشتركون معًا في إعمار الكون، وهو حوار يجرى وفق مبدأ المدافعة الذي يمنع الفساد وينمي عوامل الخير.

ولكي يكون الحوار فعالا لا بد له من ضوابط وأسس تراعى، ولكن دون أن تتحول هذه الضوابط إلى كوابح تعوق الحوار؛ فقد يصبح الحوار وسيلة لضياع الوقت وتمييع القضايا، وإضاعة حقوق العباد والبلاد إذا فقدت الضوابط والمقاييس الصحيحة.

من هنا جاء مؤتمر (نحن والآخر) الذي عقد بالكويت في الفترة ٦-٨ صفر ١٤٢٧هـ الموافق ٦-٨ مارس ٢٠٠٦م، تحت رعاية كريمة من سمو أمير البلاد الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح حفظه الله.. ليبحث مفهوم المعايشة مع الآخر، وتأصيله ونشره بين مختلف المجتمعات الإسلامية والأجنبية. وبيان كيفية التواصل بينها، والمشروعات والبرامج التي تكفل مخاطبة الآخر باللغة التي يفهمها، مع مراعاة أسلوب التفكير الذي يأخذ به في تقويمه للأمور، ويحقق الوسطية والاعتدال والعدل في التعامل مع الآخر.

وأخيرا .. بحث المتطلبات التي يريدها كلٌّ طرف من الآخر على وجه يحقق التعايش بين المجتمعات من دون إخلال بالثوابت والخصوصيات.

وبعد تلاقح علمي ثري، ومناقشات مخلصة بنَّاءة خرج المؤتمرون بمشاريع وبرامج عملية يسعى المركز العالمي للوسطية إلى تحقيقها على أرض الواقع، وهذه المشاريع كالتالي:

- يوصي المؤتمر المنظمات الدولية والإقليمية إلى إصدار قانون يجرم التمييز الديني والتعدي على المقدسات الدينية لكافة الأديان.
- إنشاء قناة فضائية تعنى بنشر ثقافة قبول الآخر والتعايش معه يكون مقرها دولة الكويت.
- يوصي المؤتمر بإنشاء مرصد فكري وعلمي تكون مهمته الرصد والتحليل لكل ما ينشر عن الإسلام باللغات المختلفة ودعم الإيجابيات، والرد على الشبهات والإساءات.
- استحداث مقرر دراسي ضمن المناهج التربوية للتعرف على الآخر وفهم ثقافته ومعرفة خصوصياته.

وأملنا أن نؤسس لحوار جديٍّ يوسع مداركنا، ويعدد خياراتنا، وينضج عقولنا، ويدفعنا للتفاعل مع العالم الخارجي وفهمه دون انكفاء أو ذوبان، ويؤكد على الضوابط ويحترمها.

أ. د/ عصام أحمد البشير

الأمين العام للمركز العالمي للوسطية

كلمات
الافتتاح

كلمة معالي الدكتور عبد الله معتوق المعتوق وزير العدل.. وزير الأوقاف والشئون الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، أشرف خلق الله كافة، وعلى آله وصحبه أجمعين..

أصحاب المعالي والفضيلة والسعادة والإخوة والأخوات ضيوفنا الكرام:

يسعدني باسمي وباسم دولة الكويت -أميرًا وحكومةً وشعبًا- أن أرحِّب بكم أجمل ترحيب على أرض الكويت الطيبة، معربين لكم عن تقديرنا العميق وشكرنا الجزيل على مساهمتكم في انعقاد مؤتمر "نحن والآخر" في بلدكم الثاني الكويت وبين أهليكم، متمنين لكم طيب الإقامة.

وإن ألفاظ اللغة العربية -بالرغم من ثرائها وغناها- لا تكفي للتعبير عما تجول به نفسي عندما أجدها بين يدَيَّ حملة الشريعة ومشاعل الهدى، جاءوا من كل حدب وصوب إلى الكويت التي عُرفت بدعمها للقضايا الإسلامية والعربية والإنسانية، وحرصها الدائم على الالتقاء بالعلماء والمخلصين؛ لمناقشة قضايا أمتنا والإسهام بالفكر المستنير في تشخيص أدواء هذه الأمة، واقتراح العلاج الأمثل لمشكلاتها.

الإخوة الأعزاء والسادة الحضور، لقد جاء مؤتمر "نحن والآخر" في وقت تعيش فيه أمتنا الإسلامية فترة عصيبة من تاريخ البشرية وتاريخ المسلمين؛ حيث اجتمعت عوامل كثيرة داخلية وخارجية بوعي وبغير وعي لتسهم في تشويه صورة الإسلام والإساءة إلى عقيدته؛ الأمر الذي مكَّن الأعداء من رمي أمتنا وإلصاق تهم العنف والإرهاب بمقدساتنا.

ومن منطلق إحقاق الحق وإقرار الحقائق التاريخية، وجدنا أن من مسؤولية الكويت -باعتبارها قلبًا نابضًا في جسد الأمة الإسلامية- مواجهة هذا التزييف

المتعمد. وحينما استقر الرأي على اختيار موضوع "نحن والآخر" ليكون عنوانًا للمؤتمر لم نقصد من وراء ذلك أن نشغل أنفسنا بالرد على الاتهامات الباطلة التي تصف الإسلام بالدموية والقضاء على الآخر وإقصائه، وإنما أردنا أن يكشف المؤتمر عن وجه الإسلام الحقيقي الذي يسعى إلى مد الجسور مع الآخر واحترامه وتقدير رأيه.

لقد جاء اختيارنا لموضوع المؤتمر لسببين مهمين، هما:

أولا: إبراز قيمة التسامح في الإسلام على الصعيدين النظري والعملي، والتأكيد على أنه لم يكن يومًا ما مجرد شعار لا مضمون له، وإنما كان التسامح وسيظل واقعًا معيشًا له رسوخه في العقول ومكانته في القلوب.

الثاني: الانتقال بالأمم والحضارات من طور الجدل حول طبيعة العلاقة فيما بينها، وما إذا كانت علاقة تصادم أم علاقة حوار، إلى طور تحالف الحضارات الذي يأخذ في اعتباره البعد التطبيقي العملي أكثر من الجانب التنظيري الذي تم الوقوف عليه كثيرًا، لا سيما بعد شيوع نظرية صدام الحضارات.

الإخوة الأعزاء، لقد بلغت السماحة وقبول الآخر في الإسلام حدًّا لا مثيل له في أي دين آخر؛ فقد اعترف الإسلام بواقع الأديان واللغات والقوميات، وعامل المسلمون أهلَ الملل الأخرى معاملة كريمة بلا خداع ولا ظلم ولا تعسف، وعاش في المجتمع المسلم اليهوديُّ والنصرانيُّ والمجوسي وغيرهم كمواطنين لهم حقوق وعليهم واجبات. وكذا عاشت الدولة الإسلامية علاقة جوار وتعاون مع الدول الأخرى؛ لأن الأصل في علاقة الشعوب والدول على هذه الأرض أن يعيشوا بتفاهم وتعاون من أجل خير الجميع، يأخذ بعضهم بيد بعض، وليس لأحد أن يفرض على أحدٍ لغته أو دينه أو مبادئه أو موازينه بالقوة..

وقد عبَّر الشيخ محمد عبده عن ذلك بعبارة رشيقة، آخذًا ذلك من كلام علمائنا قائلا: إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد، حُمل على الإيمان ولا يجوز على حلمه على الكفر. ويعقب الشيخ على ذلك بقوله: فهل رأيت تسامحًا مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا؟!

وبهذا يكون الهدف الأكبر للحوار هو إثراء الفكر من خلال البحث عن القواسم المشتركة التي تشكل الأساس المتين للتعاون البنّاء بين الأمم والشعوب.

أيها السادة العلماء، لا أبالغ إذا قلت لكم إن مصداقيتنا الدينية كأتباع شرع سماوي، وإن فاعلية جهودنا وأهميتها في هذا الوقت على المحك أكثر من أي وقت مضى، وإن العالم ينتظر منا ما يتناسب مع حجم تأثيرنا المعنوي..

وأصدقكم القول: إننا في لحظة تشبه إلى حد ما قول القائل: "نكون أو لا نكون"، فإما أن نفعل شيئًا له معنى وجدوى يساهم في توجيه الأحداث على الوجهة السليمة، بما يتفق مع روح الوسطية التي ننتسب إليها، إما هذا وإما أن نكتفي بالوجود زخرفًا يزين الاحتفالات، وأخبارًا باردة في عناوين الصحف الطيارة هنا وهناك.. يقول سبحانه وتعالى: **﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**(١).

لكم منا كل التقدير، راجين لكم إقامة طيبة في بلدكم الكويت، وسائلين الله تعالى أن يوفقنا جميعًا إلى ما فيه الخير والسلام لعالمنا الإسلامي والعالم أجمع.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(١) التوبة: ١٠٥.

كلمة سعادة الدكتور عادل عبد الله الفلاح
وكيل وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية (*)

الإخوة الحضور، يقول الله جل وعلا: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۞ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۞ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾.

قد تعجز الكلمات أحيانًا عن التقاط المعنى المراد، لا سيما إذا تعلق الأمر برجل قد نذر حياته كلها لله تعالى. نعم.. لقد فقدنا عالما فاضلا ومفكرًا واثقًا وعلمًا بارزًا، أبى إلا أن يبذل ما آتاه الله من عافية وقوة في نشر وسطية ديننا الحنيف، بعيدًا عن الإفراط والتفريط.

لقد كان الأستاذ سالم البهنساوي واحدًا من دعاة الإسلام العظام، ومن كبار رجال الإصلاح، اجتمع له ما لم يجتمع إلا لقليل من النابهين، وهو مؤمن صادق الإيمان، مجاهد في ميدان الدعوة والفكر، امتلك الإسلام حياته فعاش له ونذر حياته كلها لخدمته، وسخر قلمه وفكره للدفاع عنه، وبيان مقاصده وتجلية أهدافه وشرح مبادئه والذود عن حماه، والدفاع عنه ضد خصومه أو الجهال المنتسبين إليه. لم يدع وسيلة تمكنه من بلوغ هدفه إلا سلكها، فاستعان بالكتّاب والصحيفة والإذاعة والتلفاز في تبليغ ما يريد، رزقه الله فكرًا عميقًا وثقافة إسلامي واسعة ومعرفة رحيبة بالإسلام، فأثمر ذلك كتبًا عدة في ميدان الفكر الإسلامي ساهمت في صنع جيل وتربية شباب وبناء عقول وتربية فكر..

لقد عرفته -رحمه الله- منذ خمسة وعشرين عامًا في حلٍّ وترحال، فوجدته كريم الطباع دمث الخلق خفيف الروح، كريمًا مضيافًا، لا يضنُّ بإفادة ولا يبخل بنصيحة، يفاكه بالحل والترحال، يستذكر تاريخه المليء بالتجارب والفوائد، ونوادر ما وقع له، ويمازح جلساءه، صاحب كلمة موجهة وجواب حاضر، وما زال أحباؤه يتندرون بذكر ما سمعوا من كلماته وما كان يقع له معهم، ومع ذلك كان صادعًا بالحق لا يجامل فيه، حريصًا على بيانه مهتمًا بإجلائه.

رحم الله فقيدنا رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته، وألهم أهله وذويه الصبر والسلوان.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(*) ألقيت هذه الكلمة عرفاناً بفضل المستشار البهنساوي الذي توفي قبل انعقاد هذا المؤتمر بأيام.

كلمة معالي الدكتور محمد سيد طنطاوي
شيخ الأزهر الشريف

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا وشفيعنا رسول الله ﷺ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين. ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً. ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

كما قال معالي الصِّدِيق الدكتور عبد الله معتوق المعتوق: عندما يجد الإنسان منا نفسه بين صفوة من العلماء قد اجتمعوا على طاعة الله ومن أجل خدمة دينهم وأمتهم، لم يجتمعوا من أجل متعة فانية ولا من أجل شهوة عاجلة، إنما اجتمعوا لخدمة دينهم وأوطانهم، عندما يجد الإنسان نفسه بين إخوة كرام، وبين صفوة من العلماء يجد أن ألفاظ اللغة العربية على اتساعها وغناها لا تكفي للتعبير عما يشعر به الإنسان منا من سعادة غامرة، وينطلق لسانه بقول الله عز وجل: ﴿**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللهُ**﴾..

وإنني في هذه المناسبة الكريمة، وفي هذا الجمع الكريم يسعدني باسمي وباسم جميع الوفود المشاركة في هذا المؤتمر العظيم الذي تقيمه وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة الكويت الشقيقة أن نبتهل إلى الله -سبحانه وتعالى- أن يتغمد برحمته ورضوانه صاحب السمو الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح الذي أدى رسالته في هذه الحياة بشغف وأمانة، وأداها بكل ما يستطيع أن يفعله خدمةً لدينه وأمته، فنسأل الله -سبحانه وتعالى- أن يلحقنا به مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليمًا.

كذلك نتضرع إلى الله -سبحانه وتعالى- أن يديم على صاحب السمو الأمير الوالد الشيخ سعد العبد الله السالم الصباح نعمة الصحة والعافية، وهو صاحب المواقف المشهودة والشجاعة من أجل خدمة دينه وأمته.

كما نسأله عز وجل أن يتولى بالسداد والتوفيق صاحب السمو الشيخ صباح الأحمد الصباح أمير دولة الكويت، وسمو ولي عهده الشيخ نواف الأحمد الصباح، وكذلك سمو رئيس الوزراء الشيخ ناصر محمد الأحمد الصباح، وأن يديم على دولة الكويت وعلى شقيقاتها وعلى العالم أجمع نعمة السلام ونعمة الأمان ونعمة الرخاء ونعمة الاطمئنان، إنه على ما يشاء قدير، وهو نعم المولى ونعم النصير.

وإن هذا المؤتمر الذي موضوعه " نحن والآخر" يكفيه شرفًا أنه جمع هذه الصفوة من علماء الأمة ليتعاون الجميع على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.. والعقول الإنسانية السليمة النفسية عندما تتلاقى يكون مثلها كمثل تلك الثريات التي نراها من حولنا، كلما تقاربت وكلما تضامّت وتلاصقت زاد ضوؤها وعمَّ نورها.

وكلمة الآخر إذا كان المقصود بها مَنْ يختلف معنا في عقيدتنا ومن يختلف معنا في قِبْلتنا ومن يختلف معنا في ديننا، إذا كانت كلمة الآخر تعني هذا الصنف من الناس فلا أجد أحْكَم وأبلغ من قول الله سبحانه وتعالى، الذي يبين لنا فيه ما يجب علينا نحو هذا الآخر إذا لم يعتدِ علينا أو يسئ إلينا، وماذا يجب نحو الآخر إذا كان قد أساء إلينا واعتدى على ديننا أو على أوطاننا أو على أموالنا؟! لا نجد أحكم من قول الله ﷻ في سورة الممتحنة: ﴿**لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ❖ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾(١).

هاتان الآيتان الكريمتان هما الدستور الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي يحكم العلاقة بيننا وبين غير المسلمين: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾؛ أي أن الله ﷻ أباح لكم أيها المسلمون أن تقدموا العون والكلمة الطيبة والمعاملة الحسنة لمن

---

(١) الممتحنة: ٨ - ٩ .

خـالفكم في عـقـيـدتكم، ولكنـه لم يسئ إليكم بـأي لون من ألـوان الإسـاءة. إنما ينهـاكم الله ﷻ عن مودة ومحبـة والتواصل مع أولئك الذين قـاتلوكم، بل إنهم لم يكتفوا بهذا القتال بل أخـرجوكم من دياركم، بل إنهم لم يكتفوا بإخـراجكم من دياركم، بل تعاونوا مع أعـدائكم على إذلالكم وعلى الاعتداء عليكم.. هكذا نجد عدالة الإسلام؛ فهو دين يمد يده بالسلام إلى كل من يمد يده إليه بالسلام.

ونقرأ سيرة سيدنا رسول الله ﷺ فنجد أنه نهى أتباعه عن العدوان.. في غزوة بدر خرج المسلمون لكي يدافعوا عن أنفسهم بعد أن أذن الله لهم بذلك، وبعد أن عاشوا في مكة ١٣ سنة يُعتدى عليهم أذن الله لهم بأن يدافعوا عن أنفسهم **﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾**(١).

في غزوة أحد لم يبدأ المسلمون القتال، وإنما المشركون هم الذين جاءوا من مكة إلى أن وصلوا لجبل أحد بالقرب من المدينة المنورة. والمسلمون لم يعتدوا على يهود بني قينقاع، وإنما بنو قينقاع هم الذين بدءوا بالعدوان واعتدوا على عرض امرأة مسلمة. والمسلمون لم يعتدوا على بني النضير، وإنما بنو النضير هم الذين أضمروا السوء وهمُّوا بقتل النبي ﷺ، ولكن الله ﷻ حفظه من مكرهم السيئ. والمسلمون لم يعتدوا على بني قريظة وإنما بنو قريظة هم الذين خانوا الأمانة ونقضوا العهد، وانضموا إلى من جاء ليقاتل المسلمين.

المسلمون لم يعتدوا في يوم من الأيام، والرسول ﷺ علمهم ذلك وأمرهم بذلك. فدين الإسلام هو دين -كما قلت- يمد يده بالسلام إلى كل من يمد يده له بالسلام، والاختلاف في العقائد لا يمنع من التعاون؛ لأن الذي يحاسب على العقائد هو الله ﷻ ولا إكراه في العقائد؛ لأن الإكراه في العقائد لا يأتي بمؤمنين صادقين، إنما يأتي بمنافقين كذابين.. والقرآن الكريم في آيات كثيرة يؤكد هذا المعنى **﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾**(٢)، **﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ❖**

---

(١) الحج: ٣٩ .

(٢) البقرة: ٢٥٦ .

لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾(١)، ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾(٢).

ومن المقاصد الأساسية التي أوجد الله ﷻ الناس من أجلها أن يتعارفوا وأن يتحاوروا، وأن يجلس بعضهم إلى بعض: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾(٣).

وعندما نقرأ القرآن الكريم نجد أن مادة القول وما اشتق منها، مثل (قال، يقول، قل، يقولون، قلنا ...) تكررت في القرآن الكريم أكثر من ألف مرة؛ (لفظ قال أو الفعل قال أكثر من ثلاثمائة مرة)، (لفظ قل أكثر من ثلاثمائة مرة، وهكذا...) لماذا؟ لأن باب الحوار عندما يأتي بالطرق التي أمر بها؛ بالكلمة الطيبة، وبالعقل المتفتح، وبالقلب السليم، وبالفطرة النقية الخالية من الحقد والغل والخداع، عندما يأتي الحوار من القلب السليم تكون له آثاره الطيبة..

ونقرأ القرآن الكريم فنجد أن الله ﷻ قد حاور الملائكة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(٤)، وحاور الأنبياء: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾(٥)، فنجد الحوار في مئات الآيات بين الرسل عليهم الصلاة والسلام.. حوار كثير وطويل ومتنوع، ونجد أن الأقوام يقولون لرسلهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾(٦)، فيرد عليهم رسلهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن

---

(١) الغاشية: ٢١ .

(٢) الشورى: ١٥ .

(٣) الحجرات: ١٣ .

(٤) البقرة: ٣٠ .

(٥) المائدة: ١٠٩ .

(٦) إبراهيم: ١٠ .

نَّأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ❖ وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾(١).

هل اكتفى الكفار؟ أبدًا.. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا -ملة الكفر- فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ❖ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾(٢) .

فتح الخالق ﷻ باب الحوار حتى مع إبليس، والآيات في سورة الأعراف وفي غيرها تؤكد ذلك: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ❖ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ❖ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ❖ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ❖ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾(٣).

هكذا فتح الخالق ﷻ باب الحوار مع ملائكته ومع رسله، وفتح الرسل أبواب الحوار مع أقوامهم، وهناك الحوار بين الأخيار والأشرار، والحوار بين الأشرار والأشرار، كل ذلك من أجل أن يتعارف الناس ويصلوا إلى الطريق المستقيم عن طريق المناقشة والمحاورة.

ونحن عندما نقرأ القرآن الكريم ونقرأ سيرة سيدنا وشفيعنا محمد ﷺ نجدهما يؤكدان أن علاقتنا بغيرنا -ولو كان على غير ملتنا-يجب أن تكون علاقة جيدة، ما لم يسئ إلينا، أما إذا كان المقصود بالآخر مَنْ تجمعنا معه عقيدة واحدة وملة واحدة، فعلينا في هذه الحالة أن نحسن به الظن، وأن نمد يدنا إليه، وأن نتعاون معه على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، وأن ننصحه إذا ضَلّ،

---

(١) إبراهيم: ١١، ١٢ .

(٢) إبراهيم: ١٣، ١٤ .

(٣) الأعراف: ١١-١٥ .

وأن نبين له ما هو الصواب.. "انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا، قالوا: يا رسول الله، ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالمًا؟! قال عليه الصلاة والسلام: أن تحجزه عن ظلمه، فذلك نصره".

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذه اللقاءات في ميزان حسناتنا جميعًا يوم نلقاه، يوم لا تملك نفسٌ لنفس شيئًا والأمر يومئذ لله.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كلمة الدكتور عبد العزيز الجار الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه،

ممثل سمو رئيس مجلس الوزراء الدكتور عبد الله معتوق المعتوق وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية..

أصحاب المعالي والسعادة، السيدات والسادة، الحضور الكريم.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

يطيب لي أن أنقل إليكم جميعًا تحيات معالي الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري، المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم الثقافية (الإيسسكو) الذي كان حريصًا على المشاركة في هذا المؤتمر، إلا أن ظروفًا حالت دون ذلك..

كما أحمل إليكم امتناني لوزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة الكويت وللجنة الشرعية لتعزيز الوسطية والرد على الفكر المتطرف على الدعوة الكريمة التي تفضلتا بتوجيهها له، وتقديره للجهات التنظيمية على جهودها، وتمنياته للمؤتمر بكامل النجاح والتوفيق. وقد شرفني معالي الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري بإلقاء كلمة المنظمة بالنيابة عنه في هذا المؤتمر المهم.

أصحاب المعالي والسعادة، السيدات والسادة، الحضور الكريم: إن اختيار موضوع مؤتمركم هذا هو اختيار موفق، ويتزامن مع سياق حضاري وثقافي بصفة خاصة، ومع مناخ إقليمي ودولي في طابع دقيق؛ حيث لم تتلقَّ أمتنا في تاريخها المعاصر إساءة مثل الإساءة التي تلقتها في الصحف الأوربية في الفترة الأخيرة، ولم يشهد العالم العربي والإسلامي أزمة ثقة مع الآخر مثل الأزمة التي يشهدها اليوم، لذا فإن القضايا المتعلقة بعلاقتنا بالآخر تتطلب منا الوعي والتساؤل عن مدى هشاشة قواعد هذه العلاقة وتباين أسسها واختلاف منظورها، فما يعتقده المسلمون مقدسًا ومصونًا عن كل تدنيس يعتقده الآخر مقصدًا للسخرية

والتهكم.. وما نفهمه نحن أنه تطاول وتجاسر وتجاوز لكل حدود المسؤولية واللياقة يعتبره الآخرون شكلا من أشكال الحرية والتعبير التي لا يجب أن تقيد بأي قيد، ولو كان ذلك يجرح شعور البعض ويمس معتقداتهم ويسيء إلى مقدساتهم ورموزهم. ولا شك أن هذا الاختلاف في المنظور بدأ يتجسد على أرض الواقع في الممارسات اليومية.

أصحاب المعالي والسعادة، السادة والسيدات الحضور الكريم:

إن لنا في رسولنا أسوة حسنة، ولنا في تعاليم القرآن الكريم قدوة مباركة حيث نجد فيها الأمر الصريح بالمعروف والنهي الواضح عن المنكر. ومن هذا المنطلق فإن ردودنا على سوء فهم الآخر ستظل مستنيرة بتعاليم الإسلام السمحة ومستمرة في مقاصد الشريعة الإلهية العادلة التي تؤكد أن المسلم القوي خير من المسلم الضعيف، وتدعو كذلك للتعارف والدفع بالتي هي أحسن.

ومن منطلق الحوار والتواصل، فقد قامت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم الثقافية (إيسسكو) بجهود مستمرة وعقد عدة مؤتمرات وندوات، وكان آخرها تنظيم الندوة الدولية حول الحضارات والثقافات الإنسانية من الحوار إلى التحالف، التي عقدت في تونس وحضرها عدد من رؤساء المنظمات العربية والإسلامية والدولية والمفكرين، وكانت مناسبة سانحة لاعتماد دولة الرئيس (مهاتير محمد) سفيرًا للإيسسكو للحوار بين الثقافات والحضارات، وهو البرنامج الذي أعدته اليونسكو وصادق عليه المكتب التنفيذي للمنظمة في ديسمبر الماضي، ويهدف إلى الاستفادة من المكانة المرموقة للشخصيات السامية في العالم الإسلامي، من أجل تشجيع الحوار وتعزيز التواصل مع الآخر..

كما أجرت المنظمة عددا من الدراسات والبحوث في مجال المناهج التربوية والمقررات ووسائل الإعلام الغربية، وإنني إذ أجدد باسمي وباسم معالي الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري أجزل الشكر لوزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة الكويت واللجنة الشرعية لتعزيز الوسطية والرد على الفكر المتطرف، متمنين للجميع النجاح والتوفيق.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

محاور
المؤتمر الرئيسة

محاور المؤتمر الرئيسة

المحور الأول: معالم التعايش مع الآخر

يبحث هذا المحور مفهوم المعايشة مع الآخر، وتأصيله ونشره بين مختلف المجتمعات الإسلامية والأجنبية.

المحور الثاني: آفاق التواصل مع الآخر

يبحث هذا المحور كيفية التواصل بين المجتمعات الإسلامية والأجنبية من خلال التحاور لتصحيح المفاهيم الخاطئة التي تسبب التباعد في فهم الآخر. كما يعرض المشروعات والبرامج التي تكفل مخاطبة الآخر باللغة التي يفهمها، مع مراعاة أسلوب التفكير الذي يأخذ به في تقويمه للأمور، ويحقق الوسطية والاعتدال والعدل في التعامل مع الآخر.

المحور الثالث: ماذا يريد كل منا من الآخر؟

يبحث هذا المحور في المتطلبات التي يريدها كل طرف من الآخر على وجه يحقق التعايش بين المجتمعات الإسلامية والأجنبية من دون إخلال بالثوابت والخصوصيات.

أبحاث المحور الأول: معالم التعايش مع الآخر

التعايش مع الآخر..
حقيقة تاريخية وضرورة واقعية

فضيلة الشيخ العلامة

محمد الحسن ولد الددو الشنقيطي

رئيس مركز تكوين العلماء والدعاة

بموريتانيـــا

مقدمة:

خلق الله الإنسان وسخر له الكون ليكون خليفة الله في الأرض، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ**﴾(١).

ومن قديم الزمان انقسم بنو الإنسان إلى مؤمن وكافر وبر وفاجر، ولم يمنع ذلك من عيشهم على هذا الكوكب، بل وتعاونهم في شؤونهم اليومية في غير أوقات الحروب والنزاعات.

وبحكم الاختلاف الحتمي والطبيعي بين الناس فليس أمامهم من خيار غير التعاون في المتفق عليه الذي يفترض أن يتوصل إليه بواسطة حوار بنّاء أطرافه متكافئة ومتسامحة، وبهذا يمكن التعايش بين الناس وإن اختلفت عقائدهم وتعددت مشاربهم وتباينت أهدافهم، وبغيره يقع ما لا تحمد عقباه من تنافر وتناحر يقطع الأرحام ويهلك الحرث والنسل، ويأتي على الأخضر واليابس. ومحاولة لبيان هذا الموضوع أكثر أورد النقاط التالية:

من نحن ومن الآخر؟

أما المقصود بـ (نحن) فهم مَنْ عنتهم الآية الكريمة ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ❖ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ**﴾(٢).

---

(١) الأحزاب: ٧٢ .

(٢) الحج: ٧٧-٧٨ .

وأي فرد شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وعمل بمقتضى ذلك داخل في هذا التعريف، ولما كان محمد صلى الله عليه وسلم آخر نبي وآخر رسول، وكانت أمته آخر أمة أنزل إليها وحي من الله - لما كان ذلك كذلك- اقتضت حكمة الله أن تكون هذه الأمة متميزة عن غيرها من الأمم، وهذا التميز شامل لمناحي الحياة؛ عقدية واقتصادية وسياسية واجتماعية.

إذ ليس مقبولا شرعا ولا مستساغا عقلا أن تكون آخر أمة أخرجت للناس لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله تابعة لأمة أخرى مهما علا شأنها، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾[1].

أما (الآخر) فنعني به من لا يعتقد عقيدتنا ولا يؤمن بديننا، وهذا التعريف يشمل أتباع الديانات السماوية السابقة يهودا ومسيحيين، كما يشمل من يدينون بديانات أخرى، ومن لا يدينون بشيء مع استحضار واستدراك المكانة الخاصة لأهل الكتاب لدى المسلمين، والفروق بين الفريقين (المسلمين وغيرهم) عديدة لكنها لا تصل إلى التضاد والتناقض المطلق، ولا تمنع التعايش، ولذا لزم البحث عن أرضية مشتركة يمكن أن يقف عليها الفريقان ليعيشا في سلام وأمان ويعملا لتعمير الأرض وسعادة الإنسان.

أرضية التعايش

لا يخفى على دارس تعدد وتنوع واختلاف عقائد وعادات وتقاليد البشرية، فلكل قوم ملّتهم ومذهبهم ونظرتهم إلى الكون وإلى الحياة، وهذا التنوع الذي قد أوجد هذا الاختلاف يمكن فهمه والتعايش معه إذا وجد الجميع أرضية صلبة يقفون عليها يرتضونها جميعا. وللوصول إلى تلك الأرضية أقترح ما يلي:

---

(١) البقرة: ١٤٣ .

أ - أن ينطلق الجميع من حقيقة لا جدال فيها، وهي أن الناس لا يمكن أن يكونوا نسخة مكررة لأن الله لم يفطرهم على ذلك؛ بل جعل الاختلاف سنة فيهم، قال تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ❁ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾(١)، أي لو شاء الله لجعل الناس كلهم مؤمنين مهتدين على ملة الإسلام، ولكنه لم يفعل ذلك لحكمة.

﴿**ولا يزالون مختلفين ❁ إلا من رحم ربك**﴾؛ أي ولا يزالون مختلفين على أديان شتى وملل متعددة ما بين يهودي ونصراني ومجوسي إلا ناسا هداهم الله من فضله وهم أهل الحق.

﴿**ولذلك خلقهم**﴾ اللام لام العاقبة؛ أي خلقهم لتكون العاقبة اختلافهم ما بين شقي وسعيد. قال الطبري: المعنى: للاختلاف بالشقاء والسعادة خلقهم.

ب - احترام المعتقدات والمبادئ الأساسية لكل طرف:

وهذه مسألة بالغة الأهمية ولها أثرها الطيب على العلاقات بين الأمم والمجتمعات، فلكل أمة عقيدة أو مبادئ تقدسها وتلتزم بها وتعتبرها أسمى من غيرها ويدخل في هذا أركان الإيمان عند المسلمين، من إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.. ولغير المسلمين ما يقدسونه ويحتفون به من آلهة يعبدونها، أو مبادئ يعتزون بها، ومبدأ الاحترام مبدأ قرآني أصيل دل عليه قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾(٢).

أي لا تسبوا آلهة المشركين وأصنامهم فيسبوا الله جهلا واعتداء لعدم معرفتهم بعظمة الله، قال ابن عباس: قال المشركون: لتنتهين عن سبك آلهتنا أو لنهجون ربك، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم.

ومعاملة أي من الطرفين للآخر بعدم احترام، وخاصة في هذا الجانب، لها

---

(١) هود: ١١٨-١١٩ .

(٢) الأنعام: ١٠٨ .

آثار مأساوية، وأنصع مثال على ذلك ما اقترفته الصحيفة الدانماركية ورساموها من تعريض وسخرية بمحمد صلى الله عليه وسلم، وهو المكر الشنيع الذي أوقد نارا لا تزال مشتعلة، وقد أتى حريقها على الأرواح والأموال، وسبب هذا المنكر الشنيع شرخا يصعب تجاوزه بين المسلمين والغرب ما لم يبادر الغرب إلى الاعتذار وتشريع ما يحول دون فعل مماثل.

ج - العمل على إرساء مبدأ التعاون والتشارك بدل الاستعمار والاستغلال والقهر:

وفي هذا السياق، على الغرب أن يقنع أن ثروات المسلمين وبقية العالم الثالث ليست ملكا للغرب ينهبها مباشرة أو عن طريق أعوان يصنعهم على عينه؛ بل هي ملك للشعوب التي جعلها الله في أرضها وخصها بها... وليس خافيا أن نهب الدول الغربية لثروات الغير في الماضي والحاضر سبَّب مجاعات وكوارث لا حصر لها.

د- احترام المبادئ الإنسانية المشتركة كالحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان:

فهذه قيم إنسانية سامية إن لم تتخذ مطية للإساءة إلى الغير والتهجم عليه بحجة حرية التعبير، ويؤخذ على الغرب ترسيخه لهذه القيم في دوله وتشجيعه للاستبداد والظلم في الدول الأخرى، وخاصة في بلاد المسلمين، وهو أمر له ضرره البَيِّن على الجانبين.

هـ- احترام إرادة الشعوب في الاختيار:

اختيارها لدساتيرها وقوانينها ومَنْ يحكمها، ولا مجال لوصاية أمة على أخرى، فكما لا تقبل الدول الأوربية مثلا أن تحكم بشريعة الإسلام، عليها ألا تحاول فرض نموذجها العلماني الليبرالي على المسلمين، وما الضجة الكبرى التي أعقبت الفوز الساحق لحركة المقاومة الإسلامية (حماس) في فلسطين وما

رافقها من تهديد ووعيد إلا دليل صارخ على النفاق والأنانية وحتى العنصرية المتنامية في الدول الغربية.

وقد آن الأوان لاعتراف الرجل الأبيض أنه ليس وحده القاطن في هذا الكوكب، وليس وحده المؤهل للتفكير والتنظير والتنفيذ أصالة عن نفسه ونيابة عن غيره، فتلك مرحلة في طريقها إلى الانتهاء بعد عودة المسلمين إلى أصالتهم وحضارتهم وبزوغ نجم الصين والهند كدولتين تزداد قوتهما البشرية والاقتصادية؛ ليستمر التدافع والتوازن الذي إذا اختفى اختفت الحياة، قال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾(١).

و- إعادة النظر في المؤسسات الدولية القائمة:

كالأمم المتحدة ومؤسساتها المختلفة من مجلس أمن.. إلخ؛ لأن النظام الذي تقوم عليه يخدم الأقوى ولا مصلحة فيه للضعيف، والعلاقة بين البشر لا يمكن أن تكون قائمة على ذلك، وقد باتت المؤسسات الدولية تابعة لدولة واحدة هي الولايات المتحدة تغزو بها من تشاء، وتحاصر من تريد، وتكافئ من يدور في فلكها، وهو أمر أفقد المؤسسات الدولية مصداقيتها ومبرر وجودها.

ز- وضع أسس جديدة للاقتصاد العالمي:

بخلاف ما هو قائم من سيطرة البنك وصندوق النقد الدوليين على مقدرات الشعوب المختلفة لتسخيرها لخدمة دول بعينها هي أمريكا وأوربا، ولو هلك بقية الخلق عن بكرة أبيهم.. ولا بد أن تكون الأسس الجديدة مبنية على ما يخدم مصلحة الجميع، وأن تتيح للأمم المختلفة إبراز مبادئها وخصوصياتها. وفي هذا

---

(١) البقرة: ٢٥١ .

السياق ليس من حق النافذين في العالم العربي أن يفرضوا على المسلمين التعامل بالربا وهو في دينهم من أعظم المحرمات، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ ❁ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾(١).

وفي الصحيحين: «اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»(٢).

ح - إتاحة فرص التطور التكنولوجي والاقتصادي والسياسي أمام كل الأمم:

فالسياسة الحالية التي يحتكر فيها الغرب الصناعي إبراز العلوم والتقنيات، والسعي الحثيث بوضع القواعد الصارمة لحرمان المسلمين خاصة من التكنولوجيا المتقدمة، تَنَكُّر لأيادي المسلمين البيضاء، وأنانية وعنصرية يتحتم التخلي عنها واستبدالها بنشر أسرار العلوم التجريبية لتعم فائدتها الجميع.

ط- معالجة الأزمات الكبرى:

بعدالة تزيل أو تقلل الشعور بالظلم والمهانة السائدة بين المسلمين بسبب سلب أرضهم وانتهاك عرضهم ونهب ثرواتهم واستهداف مقدساتهم.. والأمثلة على هذا أوضح من الشمس في رائعة النهار؛ ففلسطين مغتصبة والأقصى مدنس، والعراق تسيل الدماء فيه كالأنهار، وأفغانستان مستباحة والشيشان مستلبة... والاستمرار في هذا الطريق لا يترك للمسلمين إلا خيارا واحدا هو خيار الجهاد

---

(١) البقرة: ٢٧٨-٢٧٩ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب: رمي المحصنات. ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها.

والمقاومة، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسمُ اللهِ كَثِيراً﴾(١).

ي - ألا تكون التكتلات الكبرى حكرا على غير المسلمين:

فالولايات المتحدة موحدة، والاتحاد الأوروبي مجتمع، والصين تجمع شملها.. أما المسلمون فيفرض عليهم التشرذم والتفرق والتجزؤ؛ لإبقائهم ضعافا مفككين عاجزين رغم أن دينهم لا يقرهم على ذلك ولا يقبله منهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾(٢).

فوائد التعاون

التعايش والتفاهم والتعاون بين الأمم المختلفة أمر تحتاجه الإنسانية حاجة ماسة، وقد شرع الإسلام التسامح وأمر بالعدل والرحمة والبر بين البشرية، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(٣)، وقال: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٤).

وقد ضرب المسلمون طيلة تاريخهم أنصع مثال على حسن معاملة غيرهم فلم يفعلوا ما فعلته أوروبا باليهود، كما لم يقترفوا ما اقترفه الأسبان بالمسلمين. وامتدت معاملة المسلمين الحسنة لغير المسلمين قرونا عديدة ولا تزال إلى اليوم، ويشهد لذلك وجود النصارى وغيرهم بين المسلمين في أماكن كثيرة.

---

(١) الحج: ٤٠ .

(٢) الأنفال: ٤٦ .

(٣) الممتحنة: ٨ .

(٤) النحل: ٩٠ .

والتعاون بين بني الإنسان لا غنى عنه وفيه فوائد كثيرة، منها:

- انتشار المبادئ والأخلاق الأكثر إقناعا وجاذبية كالمساواة والحرية والديمقراطية والعدالة والصدق والأمانة والوفاء.
- استفادة كل فريق من خبرات وتجارب الفريق الثاني في كل مناحي الحياة: سياسية واقتصادية واجتماعية وإعلامية.
- تنمية وتعزيز القواسم المشتركة بين الفرقاء جميعا؛ لأن مركبا واحدا يجمعهم، وأي خلل فيه سيدفع الجميع ثمنه غاليا.
- ازدهار العلوم والفنون المختلفة بتلاقح الحضارات، وإثراء بعضها للبعض الآخر.
- سرعة التطور العلمي والتكنولوجي لما فيه مصلحة الإنسانية.
- تكامل الموارد الاقتصادية بتبادل السلع والخدمات بشكل منصف يكفل للكل العيش الكريم للفرقاء جميعا.
- حرية التنقل والتملك.
- الشعور بالأمان والسلام.

أضرار التصادم

التصادم بين الحضارات والأمم عواقبه مدمرة لا تخفى على أحد ولا يسعى إليها عاقل، وقد روّج العديد من المنظِّرين الغربيين لصراع الحضارات كالأمريكي هنكتتن وغيره، والهدف الأول لهم المسلمون والحضارة الإسلامية، وإنّ عدّوا معها أحيانا الحضارة الصينية.

وما لم يبادر العقلاء إلى استدراك الأمر والسعي للسير بالبشرية في الطريق الآخر، طريق تعاون وتكامل الحضارات، فإن الحياة على هذه الأرض لن تكون سعيدة، بل ستكون مليئة بالأحزان والأحقاد التي هي حتميةٌ للظلم والجور والقهر.

خاتمة:

مرت حتى الآن حقب طويلة على الجنس البشري على هذا الكوكب الأرضي تراوحت العلاقة فيها - بين بني الإنسان - بين التفاهم والتكامل والتعاون، وبين الخلاف والنزاع والشقاق.

وكانت نتيجة الأولى إيجابية على الجميع، أما الثانية فكانت سلبية بكل المقاييس، ولذا من المصلحة بل من المتحتم أن يعمل المخلصون لمبادئهم وأوطانهم للوصول إلى قواسم مشتركة يتفق عليها الجميع، ويعمل من أجلها لتقل أسباب ودواعي صراع وتصادم الحضارات الذي أباد أمما وشعوبا في الماضي والحاضر، وقد يبيدها في المستقبل - لا قدر الله - ما لم يتدارك الموقف.

والمسلمون - من جانبهم - ممثلين في التيار الوسطي العقلاني المعتدل جاهزون للتعاطي إيجابيا مع أي قوم يعاملونهم باحترام، ويضعون قدراتهم وإمكانياتهم معهم في خدمة الإنسانية.

محتويات البحث

التعايش مع الآخر..
حقيقة تاريخية وضرورة واقعية

د/ منـــى يكـــن

رئيسة جامعة الجنان بلبنان

مقدمة:

خلق الله الإنسان على الأرض ليؤدي الأمانة التي حملها والخلافة التي جُعلت له، والعبادة التي خُلق من أجلها، وعمارة الأرض بحضارة الإيمان والتوحيد كما أمره الله سبحانه.

تعبيرات أربعة: العبادة، الأمانة، الخلافة والعمارة، تمثل مهمة واحدة للإنسان في الحياة الدنيا وسيحاسب عليها في الآخرة؛ فإما محسن وإما مسيء.. إما إلى الجنة وإما إلى النار.

ومنذ أن وجد الإنسان على الأرض وهو بَيْن مُقْبل على العيش مع الآخر وبين مدبر عنه ورافض له.. مقبل على التعايش مع آخر يشبهه.. يريده.. يحبه.. يتجانس معه. ومدبر عن التعايش مع آخر مختلف عنه.. يرفضه.. لا يحبه.. يخافه.. لا يثق به.. ولا يجد أي ثقافة تجمعه معه. لهذا نرى المجتمعات تتشكل على هيئة القبيلة التي تجتمع على دستور واحد، ومن يرفضه يخرج من أفراد القبيلة.

وحدود الوطن اليوم هي حدود القبيلة بالأمس التي كانت ترتضيها لنفسها أو حدود الحي للعائلة الواحدة، أو أسوار المدينة التي ارتضى سكانها أن يعيشوا داخلها.

إذن كل من يرتضي بانتمائه لا بد أن يتعايش مع من حوله كائنًا من كان، على أن يحتكم الجميع إلى حَكَم واحد أو حاكم واحد يعود إلى قانون وضعه وارتضاه الجميع. ولا يحق بالتالي لأي مواطن الاعتداء على الآخر تحت طائلة المساءلة الشفافة.

وإذا كان البعض ينادي بالتعايش في ظل الدولة الواحدة، والبعض الآخر ينادي بحوار الشمال والجنوب، وغيرهم ينادون بحوار الثقافات أو حتى بصراع الحضارات، فإن النظرة الشمولية للإسلام تعدّت كل ذلك وفتحت آفاق التلاقي والتعايش الذي يوحِّد ولا يفرّق، والذي يتجاوز حدود القبيلة والقومية والأممية..

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(١).

فالخطاب موجّه للناس جميعًا ليدلل على أن المدخل لصياغة العلاقة بين هذا التنوع العرقي والقومي والجنسي هو التعارف، الذي يفتح باب التلاقي والتعايش، فالحركة الكونية حركة انسجام وتناسق، وصورة البشر يجب أن تكون كذلك لتستقر الحياة.

والمطلب الثاني هو الذي يروِّج له أصحاب القوة والشأن ليبرروا طغيانهم وتدخلهم وتسلطهم، وليمحقوا الآخر في أبشع صور الإبادة العرقية والدينية "البوسنة والهرسك في العصر الحديث"، و"محاكم التفتيش في العصور الوسطى".

ماذا يقول التاريخ في حقيقة التعايش مع الآخر؟

أولا: النفس الإنسانية لها حرمة ومكانة في الإسلام.

يروى أن جنازة مرت على رسول الله ﷺ فقام لها واقفًا، فقيل له: يا رسول الله، إنها جنازة يهودي! فقال: أليست نفسًا؟.

ثانيًا: أهل الكتاب لهم احترام خاص في الإسلام، ولا سيما إذا كانوا معاهدين أو أهل ذمة.

ثالثًا: يحق للمسلم الاستعانة بغير المسلم في أمور الدنيا:

فقد استأجر رسولُ الله ﷺ عبدَ الله بن أريقط وهو مشرك ليكون دليلا له في الهجرة. كما استعان بناس من اليهود في حربه. قال العلماء: ويجوز أن يستعين المسلمون بغير المسلمين -وبخاصة أهل الكتاب- في الشؤون الحربية، وأن يسهَم لهم في الغنائم كالمسلمين، وهكذا (٢).

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) القرضاوي، الحلال والحرام: ص ٣٠٤-٣١٢.

وعلى هذا المبدأ سار المسلمون في علائقهم مع أهل الأديان الأخرى، وتعايشوا مع أهل البلاد التي فتحوها. وخير مثال على ذلك العهد الذي كتبه أبو بكر رضي الله عنه لأهل نجران المسيحيين؛ حيث كتب لهم بأنه "أجارهم بجوار الله وذمة محمد النبي ﷺ على أنفسهم وأراضيهم وملتهم وأموالهم وحاشيتهم وعبادتهم وغائبهم وشاهدهم وأساقفتهم ورهبانهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يخسرون ولا يعسرون، ولا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته وفاء لهم بكل ما كتب لهم محمد ﷺ" (١).

أما دعوتهم ومناقشتهم دينيًا فكانت تحت شعار: **﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾** (٢).

أما المعاملة فكانت بالعدل والبر، وما أجمل وصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال في آخر أيامه: "أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيرًا: أن يوفي بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وأن لا يكلفهم فوق طاقتهم" (٣).

وقد دل تاريخ المسلمين على أن الإسلام يسمح أن يتجاور المسلم مع غيره من أهل الأديان الأخرى. وهذا ابن عباس الصحابي الشهير يذبح شاة فيقول لغلامه: "لا تنسَ جارنا اليهودي، ثم كررها حتى قال له الغلام: كم تقول هذا! فقال: إن النبي أوصانا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه"(٤).

كما أن الإسلام سمح لغير المسلم أن يقاضي أرفع إنسان مسلم وينتصف منه. وقصة شكوى اليهودي لعمر بن الخطاب من علي -كرم الله وجهه- معروفة للجميع. وكذلك قصة القبطي وابن عمرو بن العاص، التي كانت مقولة عمر الشهيرة فيها: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟ ".

---

(١) أبو يوسف، الخراج: ص ٧٩ .

(٢) العنكبوت: ٤٦ .

(٣) يحيى بن آدم، الخراج: ص ٧٤ .

(٤) الكاساني، البدائع: ٥/ ٢٨١ .

ورغم الصورة القاتمة عن حقيقة التعايش بين المختلفين عرقيًا أو دينيًا وما شابه، فإن الحركة التاريخية برمتها عانت من قضية التعايش التي كانت تنجح حينًا وتفشل أحيانًا في صور مختلفة. فمنذ الإغريق والرومان كان التمييز على أساس العرق واللون والطبقة، واستمر ذلك إلى عصور متقدمة شهدت صراعات طبقية وقومية هائلة أفرزت حروبًا عالمية وانقلابات ثورية "الثورة الشيوعية".

والتعايش منذ القدم كان موجودًا بين الطبقات بين مستغِلّ ومستغَلّ، فكانت طبقة الأرقاء تبني اقتصادات البلاد بينما تجني طبقة الملاك الثمار. هذا التعايش القهري بين السادة والعبيد حكم المجتمعات العالمية لفترات طويلة من الزمن.

وفيما يخص منطقتنا العربية، ورغم الواقع الصعب الذي تعيشه في هذه المرحلة الحرجة، فإنها حفلت بصيغ تعايش كانت نافرة عن كل ما عداها، وهذا ما سجله المؤرخون في مؤلفاتهم وما أثبتته الوقائع.

فبالإضافة إلى ما أطلقه رسول الله ﷺ من أنه "لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود.. إلا بالتقوى". حيث حطم أشكال التمييز العنصري القومي والعرقي.. جاءت الآيات القرآنية لتعطي الإنسان قيمة خاصة به كإنسان مجردة عن أي ارتباط، قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾** [1].

هذه المعاني والنصوص التي تشكل جزءًا من أيديولوجية المسلم تجسدت في واقع الدولة الإسلامية؛ حيث برز غير المسلمين في مواقع مهمة في هيكلية الدولة، وبذلك تعدّت درجة التعايش إلى درجة التوحّد والحياة الطبيعية، حتى إنه ولكثرة إسناد الوظائف العامة إلى غير المسلمين في الدولة الإسلامية قال آدم متز أحد مؤرخي الغرب: "من الأمور التي نُعجب بها كثرة عدد العمال والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الإسلامية"[2].

---

(١) الإسراء: ٧٠ .

(٢) مصطفى الرافعي، الإسلام انطلاق لا جمود، ص١٦، دار ومكتبة الحياة، ١٩٥٩م.

فالحقائق التاريخية تشير على سبيل المثال وليس الحصر أنه: "لما فتح المسلمون مصر أبقوا العمال البيزنطيين، وكان من هؤلاء شخص يدعى ميناس، كان هرقل قد ولاه أعمال المنطقة الشمالية من مصر، ومن الأشخاص المعروفين "أثناسيوس" الذي شغل بعض مناصب الحكومة في مصر زمن الأمويين حتى بلغ مرتبة الرئاسة في دواوين الإسكندرية. وكان لمعاوية بن أبي سفيان كاتب نصراني اسمه سرجون. وقد تولى الوزارة في زمن العباسيين بعض النصارى أكثر من مرة، منهم نصر بن هارون وعيسى بن نسطورس.. واستمر الحال على ما هو عليه إبان الدولة العثمانية؛ حيث كانت تُسند الوظائف المختلفة إلى غير المسلمين، وقد جعلت أكثر سفرائها ووكلائها في بلاد الأجانب من النصارى" (١).

وكان مما يعمق مفهوم الحياة المشتركة والتعايش الفعلي الإحساسُ بالحرية والحماية وإبعاد كل أشكال الخوف والصراع والتحقير. ففضلا عن نظرة الإسلام العامة لتكريم بني البشر، فإنه تم تخصيص غير المسلمين في الدولة الإسلامية بالرعاية والحماية والحقوق كي يعيشوا حياة حرة هنيئة. وقد روي عن رسول الله ﷺ قوله: "من ظلم معاهدًا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه" (٢). وفي حديث آخر: "من آذى ذميًا فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة"(٣).

وحديث رسول الله تشريع سار عليه المسلمون، أما صور التقاتل والتنافر فإنما هي ثقافة غريبة وخارجة عن روح ومفهوم وتاريخ الإسلام، ولم تظهر تلك الصور البشعة إلا بعد انهيار الدولة الإسلامية، ودخول ثقافات غريبة وقوى استعمارية عديدة من سياساتها وأدواتها التحريض العرقي والديني والقومي.. من أجل إثارة الفتن وإضعاف المنطقة واستساغة السيطرة عليها ونهب ثرواتها وتحطيم مكوناتها. وما نشهده في العصر الحديث لا يخرج عن هذا الإطار.

---

(١) عبد الكريم زيدان، أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، ص ٨١ -٨٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٢م.

(٢) رواه أبو داوود، كتاب الخراج، باب (في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات).

(٣) الحديث عن ابن مسعود، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير.

فالتعايش في ظل الدولة الإسلامية هو التعايش الكريم الحرّ غير المهيمن؛ لأن الحرية مضمونة للفرد في اختياراته ومعتقداته، قال تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[١]، ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[٢].

وهذه الحرية هي التي تفسر لنا الفسيفساء الرائعة للوجود المتنوع في ظل الدولة الإسلامية التي جمعت إلى المسلمين المسيحيين واليهود والصابئة والوثنيين. وبقي الجميع يمارس حياته واستمرت معيشته ولم يتعرض لما يشهده العصر الحديث لاضطهاد أو لإبادة كما حصل في الأندلس التي نقل الغرب منها علوم المسلمين، ثم جعلوها مقبرة للمسلمين في أبشع حملات الإبادة.

التعايش مع الآخر أصبح ضرورة واقعية:

لقد نالت البشرية مبدءًا أخلاقيًا ما كانت لتعرفه قبل الإسلام،وهو من أعظم المبادئ الإنسانية والدولية، ألا وهو التسامح مع المخالفين في الدين.

من هنا، لم تعرف الأمم فاتحين متسامحين مثل العرب، كيف لا وهو الذي يعتبر أن البشر جميعًا عبيد لرب واحد وأبناء لأب واحد، فلا فرق بين جنس ولون ولغة ونسب وأرض وطبقة. ووقف علماء النفس على أسرار النفس الإنسانية، وكيف أنها تختلف في الحكم على الأشياء حديثًا في حين أن الإسلام توصل إلى نزع الأحقاد الدينية من عقول متبعيه.. فصرح القرآن بأن اختلاف الناس في معتقداتهم من سنن الله في خلقه حيث قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [٣]، كما خاطب رسوله الكريم بقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [٤].

---

(١) الكافرون: ٦ .

(٢) البقرة: ٢٥٦ .

(٣) هود: ١١٨-١١٩ .

(٤) يوسف: ١٠٣ .

فكم من مذابح وحشية سودت وجه التاريخ، وما من شك في أن زعماء الأديان والسياسة هم مِنْ وراء هذه المذابح. ولم تعرف الأمم الغربية الدعوة لحرية المعتقد سوى في القرن الثامن عشر مع بدايات الثورة الفرنسية، في حين أقر هذه الحرية الدينية الإسلام منذ ما يزيد على أربعة عشر قرنًا، حين نادى **﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾** (١)، **﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾** (٢).

إن العالم اليوم بما يمتلكه من وسائل قتالية متطورة أصبح يهدد البشرية بالإبادة، وإن الاختلاف العرقي والقومي والديني لا بد حاصل في شتى بقاع الأرض، فالتعايش إذن أصبح ضرورة واقعية لحفظ كرامة الإنسان وقيمته، ولا بد من إحياء هذا التوجه؛ لأن فيه مصلحة عامة تحفظ الجنس والنسل والممتلكات. ولقد وعت العديد من الأمم والشعوب والدول هذه المصلحة فاتجهت إلى الكيانات الكبيرة في سبيل التوحد والتكامل لتحقيق المزيد من الفائدة والخيرات، وهذا مدخل عظيم للتعايش إذا ما تم احترام إرادة الجميع دون فرض سياسات وهيمنة تحاول أن تطبع العالم بطابعها دون احترام للخصوصيات.

---

(١) البقرة: ٢٥٦ .

(٢) يونس: ٩٩ .

خاتمــــة:

لا بد أن يبدأ التعايش بالحوار، والإسلام هو دين الحوار، يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١)، ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(٢)، على أن يكون للحوار أصول وشروط، أهمها: ضمانة حرية الكلمة، والانفتاح على الآخر، وعدم إضمار الشر، والفرص المتكافئة، وتعزيز الوسائل المتاحة.

والحوار الجيد هو الحوار الهادف وليس المقصود منه تمييع الخصوصيات وإضعاف التعلق بالدين. ولكي يتسنى للمسلمين أن يمارسوا هذا الحوار يجب إعطاؤهم الفرصة بإبعاد كل أشكال الضغوطات عنهم، التي لا تتناسب مع منطق الحوار، فلا يعقل مثلا أن يكون المسلمون مضطهدين كما في فلسطين والعراق ومحاورين في آن.

إن التعايش يبدأ من الاعتراف بالآخرين، والعمل على قبولهم كما هم، ولا يمنع ذلك من الحوار الدائم المستمر المتبادل، فرسول الله ﷺ حاور سائر الأمم بملوكها وبعمومها، وحدد لنا إطار هذا الحوار بالتي هي أحسن، وبالحكمة والموعظة الحسنة.

هذه الروحية تبعث على التعايش الإيجابي التي ينشدها الجميع، وبدونها سيكون شكل العالم مختلفًا، هذا إذا تبقى للعالم من شيء يختلفون عليه.

فالحوار وتقبل الآخر سمة من سمات الحضارة الإسلامية، وعلى الخطاب الإسلامي الجديد إعادة إحيائها. وتلك السمة ساعدت على دخول الأمم والشعوب في الإسلام، وقد بقيت على عهدها رغم ما تعرضت له لاحقًا من قهر

(١) النمل: ١٢٥ .

(٢) العنكبوت: ٤٦ .

وجور. وبالمقابل حافظ الإسلام على سائر الأقليات الدينية والعرقية في الدول العربية والإسلامية، وهذا دليل عملي على تقبل الآخر والحفاظ على خصوصياته ضمن احترام متبادل.

هذا الخطاب ساد مع الراغبين في حياة إنسانية، أما الذين ظلموا منهم وعدوا فكان لهم شأن آخر **﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾**(١).

إن في تاريخنا الإسلامي الشاهد الأكبر على التعددية رغم أن الإسلام كان المرجعية الكبرى لأهم القضايا، ولكن قوة الكلمة ورقَّة الخطاب كانا الفيصل في العديد من المنازعات؛ حيث كان يجد غير المسلم في ظل هذا الخطاب المتوازن ما يريح صدره ويضمن استمراريته وحريته.

تبقى الإشارة إلى أن معظم مؤتمرات الحوار بين الأديان والحضارات ومضامينها تظل أسيرة جدران قاعاتها، ولا تأخذ مداها في الانتشار، بينما تُغرق الناس صراعاتُهم السياسيةُ التي غالبًا ما تأخذ طابعًا دينيًا؛ وهو ما يؤثر سلبًا على الحوار الممكن بين أتباع العقائد المختلفة.

---

(١) العنكبوت: ٤٦ .

محتويات البحث

التعايش مع الآخر..
حقيقة تاريخية وضرورة واقعية

أ.د/ عبد الرحمن عطية محمود

أستاذ جامعي

مقدمة:

من سنن الله في الكون خلقه ثنائيات متكاملة يستقيم بها بناؤها، هذه الثنائيات تتمثل بـ (الشيء)، إذا صح التعبير، يقابله (آخر) متفاعل معه بإيجابية تجعل تقابلهما فيما خلقه الله منهما في أحسن تقويم.

ففي بناء المادة تتكون الذرَّة من نواة تحمل شحنة موجبة (بروتون) هو (الشيء)، يقابلها في إطارها (إلكترون) يحمل شحنة سالبة هو (الآخر)، ومن هذه الثنائية المتفاعلة في الذرة تتكوّن صور المادة بكل ما تتضمنه من أنواع وتفرعات وطاقات.

وفي بناء الكائن الحي (الإنسان والحيوان) يتم التكوين عبر التلاقح بين البويضة (الشيء) والحيوان المنوي (الآخر)؛ ليتم خلق هذا الكائن بكل مواصفاته وحواسه وانفعالاته.

ومن خلال هذا الكائن الحي (الإنسان والحيوان) يتم بناء المجتمعات الإنسانية والحيوانية ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم**﴾(١).

هذه المجتمعات من الكائنات الحية تتكون أيضا من ثنائيات؛ من الذكور والإناث (الشيء والآخر) لحكمة يريدها الله سبحانه: ﴿**وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى**﴾(٢). ومن لقاء الزوجين تتنامى هذه المجتمعات بتدبير من الله، في تناسق دقيق وثابت ومعجز، فلا تطغى فيه أعدادُ أيٍّ من الطرفين على أعداد الآخر عبر جميع مراحل الحياة.

والذكر والأنثى في النوع البشري هما نواة المجتمعات الإنسانية التي توزعت إلى شعوب وقبائل متماثلة في الخلق والطِّباع دون تفضيل أو تفاضل، اللهم إلا

---

(١) الأنعام: ٣٨ .

(٢) النجم: ٤٥ .

في التقوى وعمل الخير ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(١).

والمجتمعات الإنسانية بشعوبها وقبائلها، وبتماثلها في الخَلْق والطِّباع، تعتري بعضها اختلافات في بعض الملامح الظاهرية بتأثير ظروف خارجة عن طبيعتها الإنسانية؛ كاختلاف ألوانها ولغاتها بتأثير من عوامل البيئة والمناخ أو العزلة والتباعد، ومن دون أن يمس ذلك تلك الخصائص التي فطرها الله عليها ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾(٢). الاختلاف في اللون (اللون والألوان الأخرى)، والاختلاف في الألسنة (اللغة واللغات الأخرى)، هذا الاختلاف يمثل (الشيء والآخر)، وهو لا يعني -وتحت أي فهم- تفاضلا أو استعلاءً لدى أصحاب أيٍّ منهما على الآخرين؛ فالناس سواسية، والمجتمعات سواسية، والتفاضل لا يكون إلا بعمل الخير.

نخلص من هذا كله إلى أن وجود الآخر في خلق الله يعني دائمًا، وفي الأصل، تكاملا وانسجامًا لا اختلافًا واختصامًا. فالتعايش بين البشر، من خلال هذه المفاهيم الإنسانية والنابعة من حقيقة الأديان، هو الأصل، وهو يمثل في أحد جوانبه حقيقة مسلمًا بها في الواقع، كما يمثل في الجانب الآخر ضرورة ماسة تتيح للمجتمعات الحياة المطمئنة الآمنة.

ولكننا، وعلى صعيد الواقع، ومن خلال رصد التعامل الإنساني، نجد لدى الكثيرين، سواء على مستوى الأفراد أو على مستوى الأقوام، إقصاءَ هذا الآخر أو إلغاءه.

والغرب، وعبر تفوقه العلمي والتكنولوجي والمعلوماتي مَلَكَ من أسباب القوة ما جعل كثيرًا من دول العالم قاصرة بل عاجزة عن مجاراته. ومن الشعور بالتفوق. وبسبب فقدان الضوابط الروحية والإنسانية والأخلاقية لدى بعض قادة هذا الغرب، تملكت هؤلاء عقدة الإحساس بالغطرسة، ومن ثَمَّ تولدت عندهم عقدة

(١) الحجرات: ١٤ .
(٢) الروم: ٢٢ .

النظر إلى (الآخرين) بفوقية، يتعاملون معهم من خلالها باعتبارهم أشياء قابلة للاستغلال وللتسخير في تحقيق ما يودون من مصالح.

و(الآخر) عندهم هو غير الغربي؛ الأمر الذي رسخ في أعماقهم مفهوم (الصراع) القائم على (إلغاء الآخر)، ومن ثم تعميق ما يعاني منه عالم اليوم من ويلات وكوارث..

"إن معاملة الآخر باعتباره (هو) أو (نكرة) هو ما أوجد فكرة الصراع أو الإقصاء أو الإلغاء. ومن علاقة الإنسان بالإنسان أوجد التعامل مع الإنسان باعتباره غريبًا أو رَقْمًا أو شيئًا، بل إن هذه الغربة والرقمية والتشيؤ أصبحت وكأنها سمة العصر الذي يكاد، أو هكذا يراد له، أن كل ما فيه ومن فيه مجرد رقم أو شيء"(١).

الغرب يصطنع دائمًا (آخر) يضعه في مواجهته ويحمِّله وزر أخطائه من جهة، ويجعله من جهة أخرى ستارًا يخوف به شعوبه ويحذرهم من خطره ويستغل مخاوفهم منه ليعزز قدراته العلمية والعسكرية، وليضمن سكوتهم عن ممارساته العدوانية على الآخرين بحجة الدفاع عن أمنهم وعن مصالحهم.

هذا (الآخر) العدو -كان سحابة معظم القرن الماضي-هو المنظومة السوفيتية، فلما انهارت كان لا بد للغرب من إيجاد خصم بديل (عدو آخر) يُعزّز من خلاله حججه السابقة، فكان هذا الخصم البديل الذي اصطنعه زورًا وجعله (الآخر) النقيض، هو الإسلام، واتهمه من خلال العرب المسلمين بأنه في تكوينه وتكوين معتنقيه (عدو الآخر)، وبالتالي فإنه (الآخر) الخَطِر الذي يمثل الإرهاب ويجب محاربته بكل الوسائل.

هذا الاتهام ضخَّمته وسائل الإعلام الغربية ذات السلطان والتأثير الواسع،

---

(١) المهدي أمبيريش: "الهوية الذاتية.. الشمولية" بحث في ندوة المائدة المستديرة في جامعة ناصر بليبيا، سنة ٢٠٠٣م.

وكانت نتيجته إثارة موجة من الكراهية لدى الكثيرين من أبناء الغرب لمسنا بعض آثارها في الرسوم المسيئة لرسولنا ﷺ، والتي بدأت بصحيفة دنماركية ثم كررتها صحف كثيرة في دول كثيرة من بلاد الغرب، بل إن وزيرًا في الحكومة الإيطالية هو (روبرتو كالديرولي) بلغ من حقده وتحديه أن يلبس قميصًا رسمت عليه تلك الرسوم المسيئة، وأن يبالغ في تحديه فيكشفه للصحفيين.

إن المشاعر العدوانية ضد المسلمين لها جذور قديمة لدى شرائح في الغرب نتيجة الجهل بالإسلام حينًا، والتعصب أحيانًا، ولكنها كانت تصطدم في كثير من الأحيان بمواجهات مضادة من قِبَل منصفين من مفكري الغرب نفسه، ومن قادته، ممن كان لهم اطلاع واسع على الإسلام ومعرفة بحقيقة تعاليمه وتوجهاته.

وموجة الكراهية الجديدة التي عزّزتها بعض التوجّهات الرسمية ازدادت ضراوة بعد زوال خطر المنظومة السوفيتية، ووجود حاجة إلى اصطناع (عدو) آخر بديل جعلوه (الإسلام)، ثم خدمهم في تأريث هذه الكراهية تزامن هذا الطرح مع وقوع حوادث عنف عدوانية تجلّت في أحداث أيلول (سبتمبر) وما بعدها، وتناولت بمعظمها فئات مدنية لا علاقة لها بالنهج السياسي لدولها. وقد قارف هذه الحوادث أفراد وفئات من المتشددين الإسلاميين، وبدوافع -كما تكشف الوقائع- من ردود الأفعال على احتلال دول غربية لأفغانستان، ثم زاد الطين بلّة احتلال العراق، ثم التهديدات لدول إسلامية أخرى، ومحاولة التدخل في شؤونها الداخلية؛ الأمر الذي أخذ يزيد من حدة المواجهات ويرفع من وتيرة التهديدات، والذي بدأ ينعكس في تعبئة مشاعر عدائية لدى الجماهير الإسلامية، ولدى الجماهير الغربية في الوقت نفسه.

والعدوان على المدنيين الآمنين ليس مبرّرًا تحت وطأة أي ظرف من الظروف، وهو مرفوض على مستوى أي دين، وبخاصة الدين الإسلامي الذي يحرم الظلم. وإشارتنا إلى تعليل وقوع حوادث العنف ثم نسبتها إلى ردود الفعل محكومة بالمنهج التحليلي الذي يتحرى الأسباب بلوغًا لمعرفة الحقائق.

هذا الاحتقان العدائي يتوجب على العقلاء من جميع الأطراف وقفه، ومن ثَمَّ

تبديده؛ حماية للسلام العالمي من التدهور، والأسلوب الأمثل لتحقيق ذلك هو أن تتم لدى كل طرف معرفة حقيقية بالآخر، معرفة ما له وما عليه، حيث ينبني على ذلك أسلوب التعامل الصحيح بالأساليب العلمية، بعيدًا عن الانفعال.

هذا (الآخر) هو اليوم لبّ المشكلة التي انطلقت من محافل غربية سياسية وفكرية، هذا (الآخر) اتهم بالعنف وبالإرهاب، وتم تحديده في هذه المحافل بأنه الإسلام، وكثر ترديد مصطلح (الإسلام عدو الآخر) لدى ساسة ومنظّرين غربيين، وضخّمته وسائل إعلامهم وخلصوا منه إلى نتائج مفادها أن الإسلام بطبيعته العدوانية إرهابي، وأن المسلمين بالتالي إرهابيون، ووظفوا أقلامهم وكتاباتهم لترسيخ هذه المفاهيم في نفوس شعوبهم.

هذه كلها طروح متجدّدة، أحيطت بلمسات زخرفية إعلامية جعلتها مقبولة لدى كثير من الناس، وكان من نتائجها الخطيرة بروز مصطلح (صدَام الحضارات) الذي ابتدعه صامويل هنتنغتون، الباحث والمنظّر في «معهد أُولم الأمريكي الإستراتيجي». ولم يكن لهذا المصطلح وجود قبل تسعينيات القرن الماضي، وهدفه -مُستَنتَجًا من أن الإسلام عدو الآخر- هو أن الحضارة الإسلامية هي العدو الأشد خطرًا على الغرب..

والكتاب يعج بتفصيلات مصنوعة لخدمة وترسيخ هذا المفهوم، نكتفي من ذلك بشاهدَيْن موجزَيْن أحدهما قوله: "إن أشد خطوط التقسيم الحضاري عنفًا هي تلك الموجودة بين الإسلام وجيرانه الأرثوذوكس والهندوس والأفارقة والمسيحيين الغربيين "[١]. أي هو خطر على كل الأديان وعلى كل الأجناس. أما ثانيها فهو قوله: "المشكلة المهمة بالنسبة للغرب ليست الأصولية الإسلامية، بل الإسلام نفسه؛ فهو حضارة مختلفة، شعبها مقتنع بتفوق ثقافته، وهاجسه ضآلة قوته".[٢]

(١) صامويل هنتنغتون: صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي، ص٢٩٣، ترجمة طلعت الشايب وصلاح قنصوه، مؤسسة سطور -بيروت، ١٩٩٩م.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣٥٢ .

وفي هذا الشاهد تصريح واضح لا لبس فيه؛ وهو أن الغرب يعتبر أن الإسلام يمثل أكبر مشكلة أمامه، وأنه العدو الأخطر. وللإنصاف، فإن مصطلح (الغرب) الذي نستخدمه في هذا البحث ينسحب على (الغرب السياسي) لا على جماهير الغرب.

(الإسلام عدو الآخر).. مقولة تتكرر كل يوم بوسائل الإعلام الغربية المفرطة بالتطور، وهي تعني بشكل جازم أننا، نحن المسلمين، نمثل هذا العدو؛ الأمر الذي اقتضى، في تصوري، عقد مؤتمرنا هذا تحت عنوان " نحن والآخر"؛ لتفنيد هذه المقولة وردّها، وإثبات أن الأصل في التعامل الإسلامي هو (التعايش مع الآخر)، وقد أشرنا في مطلع البحث إلى هذه المسلّمة، وبالتالي فإن التعايش مع الآخر يمثل حقيقة تاريخية، ويمثل في الوقت ذاته ضرورة واقعية.

إننا في هذا المؤتمر لا نريد أن نساجل الآخرين بطرح مقولة مضادة مفادها (أن الغرب هو الآخر)، وفي تصوري أن سجلات التاريخ الحديث على الأقل حافلة بوقائع تؤكد أن الغرب السياسي هو (العدو الأكبر للآخر). وربما كانت هناك ضرورة لعقد مؤتمر مماثل مستقبلا بعنوان: "من هو العدو الحقيقي للآخر؟".

مؤتمرنا اليوم هو محاولة غير مباشرة للرد على جميع المقولات الظالمة التي تتهم الإسلام بأنه عدو الآخر، وهدفه تفنيد تلك المزاعم.

المقولات التي عرضناها في مطلع البحث تعتبر -في تصوري- جزءًا من لحمته؛ لأنها تحدد الأسباب الحقيقية لولادة هذه المقولة بشكلها المهاجم، ثم لتكريسها ورواجها لدى جماهير الغرب، وهي مقولات تقتضي من الباحثين المسلمين تفنيد جميع الطروح الناجمة عنها، ومن ثمّ إبراز الحقائق الإسلامية حولها، وهي حقائق تنبع من المرجعية الأصيلة الملزمة لكل مسلم، وهي القرآن والسنة.

لا يكفي أن نعتقد نحن، وأن نعلن أننا لسنا كما يظن الآخرون، بل علينا إثبات هذا الأمر، وأن نكون قادرين على إيصاله إليهم؛ ذلك أننا مكلفون بالتبليغ، وهدف التبليغ تعريف الناس بحقيقة الإسلام، وبحقيقتنا نحن المسلمين من خلاله.

إن المجال لا يسمح الآن بالحديث عن عجز خطابينا الإسلامي والإعلامي، وعن قصورهما عن متابعة مجريات الأحداث والمتغيرات؛ الأمر الذي يجعل هذا المؤتمر وأمثاله من ضرورات التعويض المرحلية؛ بل تجعله في طليعة واجبات التبليغ.

من هذه المقدمات نخلص إلى أن الإسلام الذي هو مرجعية المسلمين على امتداد ديارهم، وعلى تناوب عصورهم، لا يمكن أن تكون نظرته إلى (الآخر) إلا محكومة بالمعايير التي سنها الله للبشر، وبالتالي لا يمكن لهذا الآخر، أن يكون، وفي جميع الظروف والأحوال، حتى المدلهِمَّة منها، إلا محل تقدير، وإذا وقع من بعض المسلمين، أفرادًا أو جماعات، ما يغاير ذلك فإنه يعتبر من باب الشذوذ، والشاذ لا يقاس عليه، ولا يجوز أن ينسحب على الإسلام.

الحديث عن نظرة الإسلام إلى الآخر بشيء من الاستيعاب تقتضي تحديد نماذج أساسية محدودة مما يمكن أن يسمى (الآخر)، ومن ثم دراسة أساليب التعامل معه من منطق النصوص الإسلامية الأصيلة الملزمة..

ولعل أوضح هذه النماذج في التعامل الإنساني والإسلامي تتوضح في القضايا التالية:

- المرأة والرجل في المجتمع الإسلامي.
- الأقوام المختلفون انتماءً ولونًا ولغةً.
- المسلم وغير المسلم.
- المختلفون في الرأي.
- المختلفون في حالات التصادم.

الحديث في هذه القضايا عن العلاقة مع الآخر في النظر الإسلامي سهل وميسور، والأدلة لمن يريدها متوفرة وبمتناول اليد. وبسط القول في هذه القضايا قد يستغرق مجلدات لا تسمح بها طبيعة البحث؛ الأمر الذي يقتضي الاكتفاء بمقاربات تكشف وجه الحقيقة أمام من يرغب، صادقًا في معرفة الحقيقة.

المرأة والرجل في المجتمع الإسلامي:

كثيرة هي الاتهامات التي توجه للإسلام حول ظلم المرأة فيه، والمطالبات بإزالة هذه الظلم وبتصحيح العلاقة مع الرجل كثيرة؛ منها ما يصدر عن الخارج دولا ومؤسسات ومفكرين، وبعضها يصدر على مستوى الداخل لدى من يرتهنون أنفسهم لقيم الغرب ولثقافته؛ والأمر في الحالين لا يعدو أن يكون صدوره عن جهل أو عن عصبية.

والبيت الإسلامي المكون أساسًا من الرجل والمرأة، ثم الأولاد، يمثل نظامًا متكاملا لا يجوز في أي بحث ذي طابع علمي اقتطاع جزء منه، والحكم عليه منقطعًا عن علاقته بمجمل النظام؛ لأن ما قد يُظَنّ وجوده من ظلم في جانب عَبْرَ هذا الاقتطاع قد يكون له ما ينفيه ويؤكد خطأ الحكم فيه جانب آخر.

وتحكم هذا النظام مبادئ تراعي العدل من جهة، كما تراعي التكوين الطبيعي الذي فطر الله سبحانه كلا من الرجل والمرأة عليه.

أما المبدأ الذي يراعي العدل فإنه يتمثل بقاعدة فقهية عامة تقول: "الغُنْم بالغُرم"، فغُرم المرأة مثلا في تحديد حقها الشرعي بالإرث هو نصف حق الذكر، يقابله غُنمها في إعفائها من كل التكاليف المالية في الحياة الزوجية، حيث تقع كلها (المهر والنفقات المستمرة) على عاتق الرجل.

أما المبدأ الذي يراعي العدل في هذه العلاقات فَمَثَّلُه: تكليف الرجل بحكم تكوينه البدني والنفسي بالعمل والكد والقيام بجميع أعمال الخارج، وبأعمال الدفاع، يقابله تكليف المرأة -بحكم تكوينها البدني والنفسي- بالحمل والإرضاع وتربية الأولاد ورعاية البيت، دون أن تكلف بالعمل الخارجي، اللهم إذا رغبت هي، وطوعًا بذلك.

وعبر هذين المبدأين تكون المساواة كاملة بين الرجل والمرأة في جميع شؤون الحياة؛ في الفضائل التي يتصف بها المؤمنون، وحيث تذكر فضيلة للرجل تنسحب مثلها على المرأة، تُؤكد هذا الأمر النصوص القرآنية، يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾(١).

هذه المشاركة بالفضائل بين الرجل والمرأة لها مثلها بالمشاركة بالتكاليف والواجبات، لضمان سلامة المجتمع، وذلك مؤكد أيضًا بالنصوص القرآنية: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٢). ويتجلى الأمر نفسه في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٣).

حقوق المرأة كاملة كحقوق الرجل، ولها ذمة مالية مستقلة لم تكن لامرأة في العالم، وما نقمه الغربيون على معاملة المرأة في الإسلام قارفوه هم في ديارهم وعلى نسائهم بأقبح صوره، وهذا بعضه:

أ- نقموا على الإسلام إباحة الطلاق، والطلاق بشروطه الإسلامية يضمن الحماية للمرأة وللأسرة، ولكنّ الغربيين الذين طالما هاجموا الإسلام من خلاله قنَّنوه وأصبح لديهم أكثر شيوعًا، ودون ضوابط؛ الأمر الذي جعل الأُسَر الغربية بمعظمها مفككة، وعرّض كثيرًا من أبنائها لمشاكل تعاني منها المجتمعات الغربية أشد المعاناة.

ب- كما نقموا على الإسلام السماح بتعدد الزوجات، وهو نظام يخفف كثيرًا من حدة المشاكل الحادثة بسبب الخلافات التي تقع بين الزوجين، وإذا كان

---

(١) الأحزاب: ٣٥ .
(٢) التوبة: ٧١ .
(٣) النحل: ٩٧ .

الغربيون لم يقننوا حتى الآن نظامًا للتعدد كما قننوا للطلاق، فإن مجتمعاتهم وتقاليدهم سمحت بوجود العشيقات، وبإباحة الزنا برضى الطرفين، وباللواط وبزواج المثل؛ الأمر الذي يهدد بشكل دائم سلامة العلاقات الأسرية، وكثيرًا ما ينتهي بالطلاق الذي أشرنا إلى مغباته في الفقرة السابقة.

ج- كما نقموا على الإسلام أيضًا صَوْنَه للمرأة عن العمل؛ تلبية لطبيعتها مع إقرار حريتها في ممارسته، في الوقت الذي أرهقوا فيه المرأة الغربية بالأعمال الشاقة، فكانت منهن الكنَّاسة وسائقة الشاحنة والعاملة في المنجم.

إن بعض الباحثين الغربيين ممن عايشوا الحياة الإسلامية مباشرة أدركوا هذه الحقائق وسجلوها، ونَعَوًا على مجتمعاتهم إهانة المرأة، وقدسوا إجلال الإسلام لها؛ نسمع ذلك من سيدة إنجليزية منصفة عاشت في الهند، حيث اطلعت على حقيقة معاملة المرأة في الإسلام، وسجلت ذلك في كتاب جاء في ثناياه: "إن القانون الإسلامي، فيما يتعلق بالمرأة، من أرقى القوانين التي ظهرت في الدنيا، وأكثرها عدلا، إنه يسبق التشريعات الغربية فيما يتعلق بالعقار وحقوق الوراثة، وقانون الطلاق بشوط بعيد، إنه حارس لحقوق المرأة!! إن كلمات الاكتفاء بزوجة واحدة سحرت الناس، وصرفت أنظارهم عن التفكير فيما تعيشه النساء الغربيات من هوان وبؤس، وقد تركها الأزواج الأولون المسئولون عن عصمتهن على الشوارع، وقد قضوا منهن لُبانَتَهم وزهدهم فيهن سآمة ومللا، فلا يلقين بعد ذلك عونًا ولا رحمة".(١)

هذه لمحات موجزة توضح العلاقة بين الرجل والمرأة من خلال نماذج محددة وتثبت أن الإسلام لم يجعل أحدهما عدوًا للآخر كما يزعم الغربيون، بل تثبت أنهما يمثلان الثنائية المتكاملة التي تعايش بعضها وتعيش في أمن وطمأنينة تفتقدهما معظم المجتمعات الغربية.

---

(١) السيدة آني بيزيت في كتابها: - LIFE AND TEACHING OF MOHAMMED.P.3 طبعة مدراس في الهند سنة ١٩٣٢م –نقلا عن كتاب أبي الحسن الندوي المرأة في الإسلام ص٢١، طبعة دار ابن كثير ، دمشق – ٢٠٠٢م

الأقوام المختلفون انتماءً ولونًا ولغة:

المجتمع الإسلامي يضم أشتاتًا من البشر متفاوتين في انتماءاتهم وألوانهم وألسنتهم وعقائدهم، ولكنهم متساوون في أقدارهم وحقوقهم وواجباتهم؛ لأن الإنسان -أيّ إنسان- مكرم لذاته في النظر الإسلامي: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾(١)، وهو لا يحمل أي تميّز عن غيره في التعامل اللهم إلا بالتحلّي بسجايا الخير: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ**﴾(٢).

والمجتمع الإسلامي بأطيافه المتعددة يشكل لوحة إنسانية متناغمة تحكمها ضوابط المعايير العامة في التعامل، وهي: حق الكرامة الإنسانية، وحق التميز بالتقوى والخير. والمسلم مكلّف بالخضوع لهذه المعايير، والصَّدْع بها تحت وطأة جميع الظروف والأحوال والمناسبات، وأي اجتراء على خدش أية قيمة منها يعد خروجًا على القيم الإسلامية، ويكون حجم هذا الخروج بحجم ذلك الخدش.

إن التعايش بين الفئات المتعددة في هذا المجتمع حدث موجود من عشرات القرون، بداية من عهد الرسول ﷺ؛ حيث كان من صفوة أصحابه المكرّمين لدى المسلمين جميعًا، وحتى اليوم، سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي. كما عرف المجتمع الإسلامي عبْرَ هذه التشكيلة الإنسانية صفوةً من القادة الذين يحظون دائمًا وعبر تاريخنا الطويل بالتجلّة والتقدير، منهم، وعلى سبيل المثال: عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود من الأتراك، وأسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين من الأكراد، وقطز وبيبرس وقلاوون من المماليك، ناهيك عن سلاطين بني عثمان الذين توسّدوا سدة قيادة العالم الإسلامي لعدة قرون.

والمجتمع الإسلامي يعيش في داخله في وئام لا تعكره إلا صرخات من الخارج تحاول أن تدخل الخلل في بنيته الداخلية بأساليب ومداخلات تهدف إلى

---

(١) الإسراء: ٧٠ .

(٢) الحجرات: ١٤ .

إضعاف عوامل المناعة الذاتية في كيانه، ولكنها صرخات تذهب في مهب الريح تجاه تماسك اللحمة التي تشدّ أبناء المجتمع الإسلامي بعضهم إلى بعض.

المسلم وغير المسلم:

الإنسان -مسلمًا كان أو غير مسلم- مكرّم بذاته ولإنسانيته ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾(١)، وهذا التكريم جزء من العقيدة الإسلامية، تؤكده أحكامها وتشريعاتها، وهي تشمل غير المسلم حيث كان، ولكن غير المسلم من أبناء الديار الإسلامية يتمتع، بالإضافة إلى ذلك، بخصوصية المواطنة التي يحميها التشريع الإسلامي، وبكل ما يترتب عليها من حقوق وواجبات.

وفي المجتمع الإسلامي شرائح من المسيحيين واليهود وغيرهم، كانوا من أهل البلاد قبل أن يدخلها الإسلام، واستمروا فيها بعده، وكانوا دائمًا جزءًا من لحُمة الوطن ينظمهم في حياتهم كل ما ينظم إخوانهم المسلمين، إلا ما كان من شؤون الدين والعقيدة، فإن كلا من هذه الأطراف يمارسها بكل حرية وبحسب معتقدات دينه. الشريحة اليهودية، وبدوافع سياسية، وبتحريض عدواني من الخارج، تخلّتْ عن هذه المواطنة، وغادر معظمها الديار العربية والإسلامية؛ الأمر الذي جعل اليهود في هذه الأيام خارج حدود المواطنة، ومن كان خارج حدود الوطن فإن التعامل معه يخضع للمعايير التي يتم التعامل بها مع غير المسلمين خارج حدود الوطن سِلْمًا أو حربًا.

والإسلام هو الدين الوحيد الذي يدعو إلى الإيمان بجميع الرسالات السماوية وبتكريم جميع الأنبياء والرسل الذين اضطلعوا بحمل هذه الرسالات، دون تفريق أو تفضيل: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ**

---

(١) الإسراء: ٧٠ .

وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾(١). وقد أكد الرسول ﷺ تواصل هذه الرسالات و تكاملها حين قال: "مَثَلي ومَثَل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين"(٢).

والإسلام يدعو إلى برّ غير المسلم وإلى حسن التعامل مع معه اللهم إلا من باشر المسلمين بالحرب والعدوان بكل أشكاله: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(٣).

ولا يغيبنّ عن البال أن الإسلام، إمعانًا منه في برّ اليهود والنصارى نعتهم بـ "أهل الكتاب"؛ تمييزًا لهم عن المشركين الذين يعبدون آلهة غير الله. وجميع النداءات القرآنية التي تتجه إلى اليهود والنصارى تعتمد هذه التسمية.

إن التاريخ يشهد-عبر فتراته كلها- أن المسلمين وغير المسلمين الذين يعيشون في الديار الإسلامية يتعايشون في وئ ام، ويشكلون جميعًا لحمة المجتمع الذين يعيشون فيه، وعلاقتهم ببعض تقوم دائمًا على المودة والتقدير. وإذا صادف في بعض الفترات ما يخالف هذا التوجه من بعض المسلمين، أو من بعض المسيحيين، فإنها مخالفات تغاير تعاليم الدينَيّن..

ثم لا بد في آخر المطاف، من التنويه بمحاولات الدس الغربية التي تدأب على استخدام سلاح التفرقة وادعاء اضطهاد غير المسلمين في المجتمعات الإسلامية؛ يؤكد ذلك ما يصدر عن معظم النخب السياسية الغربية عند زيارتهم للبلاد الإسلامية من أسئلة تطرح على المسيحيين مفادها: هل أنتم مضطهدون ؟ هل

---

(١) البقرة: ٢٨٥ .

(٢) صحيح البخاري، ١٢١٢/٤، الحديث رقم ٣٣٤٢، تحقيق د. مصطفى ديب بغا، دار العلوم الإنسانية، دمشق،١٩٩٣م.

(٣) الممتحنة: ٨ .

تملكون كامل حرياتكم في ممارسة عقائدكم وحقوقكم؟ ويكون الجواب دائمًا مخيبًا لتصوراتهم وتطلعاتهم.

غير المسلم (الآخر) بالنسبة للمسلم، والمسلم (الآخر) بالنسبة لغير المسلم، يمثلان الثنائية المتكاملة التي ترفض إقصاء الآخر أو إلغاءه، والتي تعرّي كل دعاوى الزيف التي يوجّهها ساسة الغرب إلى الإسلام.

غير المسلم والمسلم أخوان في الكرامة الإنسانية، والمواطنة، والإيمان بالله، والتعايش بينهما في ندّية قائم حتى تقوم الساعة.

المختلفون في الرأي:

البشر بطبيعة تكويناتهم التي فطرهم الله عليها متفاوتون في الطباع والأمزجة وأنماط التفكير؛ الأمر الذي يثير دائمًا خلافات في وجهات النظر، يتم الاحتكام فيها في كثير من الأحيان إلى القوة لحسم الخلاف.

وبالنسبة لنا نحن المسلمين، وبحكم التزامنا بمرجعيتنا وهي الإسلام، فإن الموقف من الآخر حين الاختلاف في الرأي يقوم على احترام شخصه واحترام آرائه ومعتقداته، والتسليم له بحق الاعتقاد بما يشاء ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ❖ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ❖ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ❖ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ❖ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ❖ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾[١].

وضرب لنا علماؤنا الأجلاء أمثلة في التواضع، وفي احترام الرأي المخالف، نسمع ذلك في قول الإمام أبي حنيفة: علِمُنا هذا رأي، وهو أحسن ما قدرنا عليه، فمن جاءنا بأحسن منه، كان أحق". ومثله قول الإمام الشافعي: "رأيي هذا صواب يقبل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب". بل إن الإمام الوليد بن رشد يبلغ من احترامه للآخر أن يسجل تقديره بل شكره للآخر حتى ولو كان ما

---

(١) سورة الكافرون.

يطرحه فيه ما يصطدم مع العقيدة: " نحن نطلع على إنتاج الآخرين، فما اتفق معنا أخذناه وشكرناهم، وما كان منه مصطدمًا مع عقيدتنا تركناه وشكرناهم"(١).

حسم الخلاف في الرأي سبيله الوحيد هو الحوار. والحوار وسيلة من وسائل التعاون بين الأفراد بعضهم مع بعض، ومع الجماعات بعضها مع بعض أيضًا، وإذا اقترن الحوار بالإنصاف كان من أنجع الوسائل في تصحيح الأفكار الخاطئة، وفي التقريب بين المتباعدين، وبالتالي فإنه يصبح ضرورة من ضرورات الوصول إلى الحق.

ويقع الحوار عادة بين ذوي قناعات مختلفة في قضايا محدودة، وهدفه دائمًا الوصول إلى الحق، ولا يتم ذلك إلا عبر الوقوف على أرضية مشتركة من تبادل الثقة، والرغبة في إزالة سوء التفاهم، وفي التخلص من الأحكام المسبقة.

وللنجاح في أي حوار لا بد له من وجود مقومات تمثل ضوابط تحكم مساره، وتستند في الوقت نفسه إلى مرجعية تصحح أيّ خلل في مساره. وحضارتنا التي ينعتها العالم بالإسلامية، وفي أي حوار لها مع الآخرين، مرجعيتها الإسلام الذي يضبط سلوك الأفراد والجماعات.

وكل حوار له ضوابط ملزمة للمسلم، سواء أكان فردًا أم جماعة، وأولها أن يتحلّى بالإنصاف، وأن يُشْعِر مُحَاوِره أنهما متساويان، وأن أيا منهما قد يكون قبل الحوار على صواب أو على خطأ، وأكد تقرير هذه المساواة النص القرآني الآتي: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(٢)، بل إن الإسلام يجعل المسؤولية في عمل أي إنسان -من خلال منطق الحوار- مسؤولية ذاتية لا علاقة للطرف الآخر المحاور بها: ﴿قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٣).

---

(١) من كتاب الأثينية، ص٤٣٦، الذي يضم مجموعة مقالات، منها مقالة للدكتور مصطفى الشكعة يستشهد فيها بهذا النص.

(٢) سبأ: ٢٤ .

(٣) سبأ: ٢٥ .

ويلاحظ في هذا النص أنه حمّل المحاور المسلم تبعة عمله في كثير من التشديد، على افتراض خطئه، حين نسبه إلى الإجرام **﴿قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا﴾**، في الوقت الذي جعل تبعة غير المسلم خفيفة بعيدة عن التشدد: **﴿وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾**.

وحض الإسلام المسلم في حواره مع غير المسلم على لطف المخاطبة، والبعد عن التشدد: **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ❁ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ❁ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ❁ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ❁ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ❁ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾**(١) بل يطلب من المسلم إذا أحسّ من محاوره بُعْدًا عن الجدية أن يحسن التصرف، وأن يوقف الحوار دون جرح لمشاعر من يخاطبه **﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾**(٢).

المنهج الذي يرتضيه الإسلام للحوار، ومن استقراء هذه الضوابط، يتمثل في: احترام الآخر المحاور ولو كان خصمًا، والتسليم له بحق الاعتقاد بما يشاء، ومنحه حق المساواة مع محاوره المسلم، مع التحلي بالإنصاف في الحقوق وباللطف في التعامل. وعبر هذا المنهج يثبت أن الإسلام يرفض إلغاء (الآخر) أو نفيه، بل يحض على إحاطته بكل ضروب الاحترام.

وفي عصرنا الحاضر الذي نعيش أحداثه، وتعاني فيه مجتمعاتنا من الضعف والجهل والقعود عن مسايرة التقدم العلمي، بدأت بالظهور نذر خطيرة لدى فئات محدودة من المجتمع الإسلامي، تتجلي في الرغبة في (نفي الآخر)؛ يحدث هذا داخل جماعات إسلامية مع بعضها، ولدى جماعات إسلامية مع غيرها؛ الأمر الذي يغاير مغايرة تامة التوجهات الإسلامية العامة التي لا يجوز الخروج عليها من خلال أي منطق منغلق أو متحجر. نلمس ذلك لدى جماعات سنية وأخرى

---

(١) سورة الكافرون.

(٢) القصص: ٥٥ .

شيعية تجاه بعضها، كما نلمسه لدى فئة من السلفية تكفر فئات من المتصوفة، ولدى فئة من المتصوفة تكفر فئات من السلفية، ونلمسه أيضا لدى جماعات من المسلمين يرفضون أي تفاهم أو لقاء مع غير المسلمين. وكل ذلك محكوم بدوافع من التعصب المقرون في كثير من الأحيان بالتغافل عن عمومية المقاصد.

المختلفون في حالة التصادم:

المجتمع الإسلامي يضم أصنافًا من الأفراد والجماعات مختلفين في منازع التفكير والعقائد والاجتهادات والمشارب والأهواء، شأن التكوين الإنساني عامة؛ الأمر الذي يقتضي بالنسبة لكل ذي منحى وجود (آخر) مخالف له في منحاه، وقد يشتد الأمر بالمتخالفين حتى يبلغ حالة من الصدام القتالي المحدود أو الموسّع.

التصادم القتالي قد يقع بين فئات إسلامية مع بعضها، وقد يقع بين المسلمين وغير المسلمين، فما الضوابط الإسلامية التي تحكم هذه الحالات التصادمية، والتي تحدد العلاقة مع (الآخر) الذي يتم التصادم معه ؟

في حالة التصادم بين فئات إسلامية مع بعضها تكون الجماعة الإسلامية كلها مكلفة - وبالأمر - بالتدخل لفض النزاع صلحًا، وإذا كابر أحد الطرفين واستمسك - بغيًا - بموقفه العدواني من (الآخر) وجب على الجماعة الإسلامية قتاله حتى يتم ردعه عن بغيه، وإنصاف (الآخر) منه، لا قيد على ذلك إلا الالتزام بمبادئ الحق والعدل: **﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾**[1]. وهذه المداخلة هي أعلى صور حماية (الآخر)، وأعلى صور احترامه.

---

(١) الحجرات: ٩ .

أما حالات تصادم المسلمين مع غيرهم خارج الديار الإسلامية، فإنها محكومة بمبدأ عام في التعامل الإسلامي، ينطبق على علاقة المسلمين ببعضهم وبغيرهم، هو مبدأ (المعاملة بالمثل)، وهو مبدأ ملتزم في جميع الظروف والأحوال، ويستند إلى المساواة المطلقة بين البشر، وإلى رفع الظلم عبر هذه المساواة، وهو محكوم بالتقوى لئلا يجنح به أهل الهوى عن مقاصده، ويتجلى هذا المبدأ في قوله تعالى: **﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾**[1].

والملاحظ في هذا الحكم أنه يراعي الطبيعة البشرية التي تأنف أن تُظلم دون أن يتاح لها الذود عن حقها، مع وضع قيد ملزم هو التقوى؛ دفعًا للمغالاة في الرد. وتعزز هذا المبدأ بضابط آخر ملزم هو العدل في كل شؤون الإنسان حتى في حالات العداوة: **﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾**[2].

إن مبدأ المعاملة بالمثل، على مثاليته ومراعاته لطبيعة النفس البشرية، لم يكتفِ الإسلام به، بل أرفقه بمبادئ أخرى دعا إلها وحبّب فيها؛ لتستقيم الحياة البشرية دائمًا سوية دون تعقيد؛ من ذلك دعوته إلى التسامح والصفح والأخذ بالعفو في بعض حالات العدوان، دون أن يتخلى عن مبدأ المعاملة بالمثل.. إنه يدعو إلى الصفح والعفو لا عن ضعف، بل عن كرم طويّة وتقربًا إلى الله؛ لأن جزاء ذلك الحسنى **﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾**[3]، كما نسمعه في قوله تعالى: **﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾**[4].

---

(١) البقرة: ١٩٤ .
(٢) المائدة: ٨ .
(٣) الشورى: ٤٠ .
(٤) النور: ٢٢ .

وهذه النصوص والكثير من أمثالها تؤكد حماية (الآخر) ولو كان معتديًا؛ وذلك بالإنصاف في حماية الحقوق، دون غلّو في المعاقبة، مع الحضّ على التسامح والأخذ بالعفو؛ إمعانًا في التسامي الإنساني.

الإسلام -وكما بَيَّنا في هذه الدراسة، وبالنصوص الموثقة وبالأمثلة الواقعية- لم يكن في يوم من الأيام عدوًا للآخر، بل هو يَعْتَبِر الآخر جزءًا؛ (ثنائية متكاملة بعيدة عن التضاد). والمجتمعات الإسلامية عبر التاريخ تضم أطيافًا من بيئات واتجاهات مختلفة في انسجام وتفاعل، وفي تعايش يمثل حقيقة من حقائق التاريخ.

محتويات البحث

إشكالية
التعايش السلمي
بين الثوابت والخصوصيات

أ.د/ سعيد إسماعيل الصيني

أستاذ جامعي متقاعد

المقدمة:

لقد عرف الإسلام التعايش السلمي مع الآخر منذ انطلاقته الأولى في مكة المكرمة عندما كان المسلمون أقلية، وعرفه في المدينة المنورة عندما أصبحوا أكثرية ولهم كيان مستقل. وبعبارة أخرى: فإن تجربة الإسلام في التعايش السلمي تمتد منذ أن جاء الإسلام إلى يومنا هذا، ولهذا فهي طويلة ومتنوعة، وهذه التجربة تتعدد وتتنوع بحسب طبيعة البيئة التي ترعرعت فيها، مثل أن تكون بيئة أقلية إسلامية أو أغلبية إسلامية، أو بيئة من أهل الكتاب أو من غيرهم، أو بيئة دينية أو غير دينية (secular) علمانية.

فالقضية المطروحة بين أيدينا معقدة إذا أردنا تناولها في مستوى التفاصيل، وذلك لأن القضايا والإشكاليات في هذا المستوى كثيرة، ومتجددة بتجدد العوامل الذاتية، مثل مستوى معرفة المسلمين بدينهم، ودرجة فهمهم له، وطريقة تطبيقهم له وطريقة تفاعلهم مع هذه الإشكاليات، سواء في مستوى قادة الفكر منهم والساسة أو عامة المسلمين، وهي متجددة بتجدد العوامل الخارجية، ومنها طبيعة الآخر والظروف التي توجدها أو توجد فيها، وربما يصعب التنبؤ بكثير منها.

ولهذا فإن الباحث في هذه الدراسة السريعة سيركز مناقشته على القواعد العامة، إلا أن يضرب بعض الأمثلة، ويأمل أن يقدم بعض الأفكار التي تميز بين الثوابت والخصوصيات، وتحدد معالم القاعدة العامة في التعايش السلمي بين المسلمين والآخرين من المنظور الإسلامي، وتلقي ضوءًا على ما يجري على أرضية الواقع عندما تتفاعل التعاليم الإسلامية مع عملية التعايش السلمي.

وعمومًا فإن دراسة هذه القضية من هذا المنظور ستحتاج إلى تناول الموضوعات التالية:

- نحن والآخر.
- الثوابت والخصوصيات.
- القاعدة العامة في العلاقة مع الآخر.

- الثوابت وطبيعة الآخر.
- الإشكاليات.. طبيعتها وعواملها.

وسيتم استنباط هذه القواعد مما ورد في الكتاب والسنة وفي السيرة النبوية بصفة خاصة، وقد يتم استقراء بعضها مما يثبت من تطبيقات للخلفاء الراشدين أو من آرائهم وآراء بعض فقهاء الأمة الإسلامية أو من أحداث التاريخ الإسلامي.

"نحن" و"الآخر":

كلمة "نحن" وكلمة "الآخر" كلمتان نسبيتان، فأنا بالنسبة لك "الآخر"، والنساء بالنسبة للرجال "الآخر" وغير المسلمين بالنسبة للمسلمين "الآخر"... فهي إشارة إلى نوع من الانتماء، الداخلون فيه "نحن" والخارجون منه "الآخر"، ويشبه هذا استخدام كلمة "كافر". فالمسيحي مثلا بالنسبة للمسلم كافر (بالإسلام)، والمسلم بالنسبة للمسيحي كافر (بمسيحية اليوم)، فالكفر عكس الإيمان بشيء محدد. يقول تعالى: ﴿**فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ**﴾[1]. فهنا الكافرون يكفرون بما كانوا به يؤمنون. ويقول تعالى عن إبراهيم عليه السلام وقومه: ﴿**إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ**﴾[2]، وهنا المؤمنون يكفرون بدين الكافرين وطريقتهم.

ويعيش الإنسان شبكة معقدة من الانتماءات يقصر عنها الحصر وبعض هذه الانتماءات جبري أو وراثي (صلة الرحم، القرابة، فئات الأعمار، درجات الذكاء الفطري...)، وبعضها الآخر اختياري أو مكتسب (الانتماءات المهنية، وكثير من الروابط الاجتماعية مثل النوادي والجمعيات، والمؤسسات...)، ويتأرجح بين هذا وذاك (الثروة والجاه) القابلتان للاكتساب والوراثة.

---

(١) غافر: ٨٤ .

(٢) الممتحنة: ٤ .

ولعل المقصود في إطار هذا المؤتمر بـ "نحن "المسلمون، و"الآخر" غير المسلمين، وعليه سيكون هذا المفهوم هو محور هذه الدراسة، وهذا يقتضي مزيداً من التقسيم للآخر، مثل: أهل الكتاب، وأصحاب الاتجاه العلماني، والأقلية والأغلبية.

الثوابت والخصوصيات:

الثوابت والخصوصيات أو المتغيرات كلمات ذات دلالات نسبية، والثوابت مشتقة من كلمة "ثبت " أي استقر في مكان واحد أو على حالة واحدة، أي صح وتحقق [1].

والمتغيرات تقابل الثوابت بالمدلولين؛ أي عدم القابلية للتحريك أو للتغيير، وإذا كان الشيء مستقرًا فهو في الغالب يتصف بالشمولية، لا سيما إذا كان الحديث عن القوانين؛ أي يكون قاعدة عامة مشتركة بين كل الحالات أو معظمها، وبهذا تقابل الخصوصية التي تخضع للفروق الفردية وتسمح بالتعددية المقبولة.

ومن زاوية أخرى، ينطبق على "الثوابت" و"الخصوصيات" ما ينطبق على كلمتي "نحن" و"الآخر" كونها نسبية، ولكن النسبية هنا ذات بعدين، فهي ثوابت عند من؟ وبالنسبة لماذا؟ وخصوصية عند من؟ وبالنسبة لماذا؟.

وما دمنا نتحدث عن التعايش السلمي ونقصد بـ "نحن" المسلمين و"الآخر" غير المسلمين فالمقصود هو الثوابت عند المسلمين والخصوصيات عند المسلمين. والثوابت الإسلامية هي قمة الثوابت عند المسلمين؛ وذلك لأن مصيرهم في الحياة الأبدية يعتمد عليها، أما بالنسبة لـ "لماذا"؟، فالثوابت الإسلامية هي ثوابت بالنسبة للخصوصيات الإسلامية، والعكس صحيح، فهما متقابلتان، وكلتاهما ليست صنفًا مستقلا تمام الاستقلال إما هذا وإما هذا، بل هما يمثلان قطبين متقابلين وبينهما درجات متفاوتة.

---

(١) ابن منظور: لسان العرب.

وإذا استعنا بالتقسيم الخماسي لدرجات الأحكام الشرعية [1]، فإنه يمكن القول بأن الثوابت تقع في دائرة الفرض والحرام؛ أي أداء الفروض واجتناب المحرمات، وأما الخصوصيات فتقع في دائرة المستحب الذي لا عقوبة منصوصة على تركه، والمباح، والمكروه الذي لا عقوبة منصوصة في فعله.

ولكي نحدد الثوابت والخصوصيات في الإسلام فلا بد أولا من التعرف على مكونات الدين الإسلامي أو تعاليمه؛ بصفتها منهجًا للحياة في الدنيا ووسيلة لتحقيق الفلاح في الحياة الآخرة الأبدية. وباستقراء التعاليم الإسلامية سنجد أنها تتكون من معتقدات يؤمن بها المسلم، وعبادات يؤديها وتشريعات يطبقها، ومبادئ أخلاقية عامة يحث الإسلام على التمثل بها، بيد أن هذه التعاليم ليست درجة واحدة حتى في داخل الأصناف المذكورة.

الثوابت في الإسلام:

تتمثل الثوابت بالنسبة للمعتقدات في الإيمان بالله وحده وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره [2]، ويقتضي الإيمان بالله الإيمان بأنه خالق الكون وأن العبادة لا تكون إلا له وحده، وأن طاعته فوق طاعة كل شيء سواه، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾[3]. وهذا يؤكد أن قمة الثوابت في المعتقدات تتمثل في توحيد الربوبية والألوهية، وهذا بدوره يقتضي ما يلي:

١ - التسليم التام لتشريع الله كمبدأ عام؛ أي يشتمل التسليم لكل ما يثبت نسبته إلى الله، سواء أكان صراحة أم عن طريق الاستنباط أو القياس.

---

(١) انظر مثلا: أصول الفقه لـ أبو زهرة، علم أصول الفقه لخلاف، علم أصول الفقه للربيعة، أصول الفقه الإسلامي للزحيلي.

(٢) البقرة : ٢٨٥، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان .

(٣) النساء: ٤٨، ١١٦ .

٢ - التسليم التام للنصوص قطعية الثبوت وقطعية الدلالة.

وأما الالتزام بمذهب محدد فإنه ليس من الثوابت، وإن كان جمهور علماء المسلمين يقرونه في البلد الواحد لتحقيق الوحدة والمساواة بين المواطنين [١]، وهي من الخصوصيات التي تأخذ بها بعض الدول الإسلامية ولا تأخذ بها أخرى.

أما في مجال العبادات الأساسية فتتمثل الثوابت في الإقرار بأن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا [٢]، وذلك في حدود الفروض والواجبات أو كل ما يترتب عليه عقوبة للمقصر فيه.

ويلاحظ أن العبادات الأساسية ومكوناتها الأساسية - كما هو الحال بالنسبة للمعتقدات - لا تتأثر بتغير وسائل العيش وظروف الحياة المتجددة إلا في الحدود الضيقة، مثل: قصر الصلاة في السفر، وتأجيل الصيام إلى أيام أخر... فهي ثابتة منذ أن جاء بها الإسلام ولا تتغير بتغير المكان أو الزمان، فأركان الإيمان ينبغي أن تكون هي هي، وكذلك الأمر بالنسبة لأركان الإسلام.

وتتمثل الثوابت بالنسبة للتشريعات في اجتناب كل ما هو حرام، والثوابت في إطار هذا الصنف تتميز عن المعتقدات والعبادات باتصافها بالمرونة التي تجعلها قادرة على التفاعل بكفاءة مع الواقع المتجدد المتغير، فأساليب المعيشة ووسائلها مستمرة في التغير والتجدد، وبما أن الإسلام خاتم الرسالات السماوية وللعالمين جميعًا فقد كفل لها خالق الكون صفات تجعلها قابلة للتطبيق في كل زمان ومكان.

ويمكن تلخيص الثوابت -التي لا خلاف عليها في الإسلام ولا تندرج في الخصوصيات-بأنها الاعتقاد في أركان الإيمان والعمل بموجبه، وتطبيق أركان

---

(١) القاسم: الإسلام وتقنين الأحكام، ص ٢٣٣-٢٧٣ .

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام.

الإسلام في حدود الفروض والواجبات، أو ما يترتب على التقصير من عقوبة، واجتناب المحرمات. وتندرج المكروهات وبعض السنن في منطقة تقع بين الثوابت والخصوصيات. وأما ما سوى ذلك فيندرج في الخصوصيات التي يمكن للمسلم الأخذ بها أو تركها بدرجات متفاوتة حسب رغباته وظروفه.

القاعدة العامة في العلاقة مع الآخر:

ولعل من الثوابت التشريعية قاعدة أن أصل العلاقة مع الآخر هو السلم ودعوة الند للند إلى الإسلام(١)؛ أي تقتصر الدعوة على أسلوب الإقناع دون إكراه؛ حيث يقول تعالى: ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾(٢) فالإسلام يدعو إلى الخير الشامل في الدنيا والآخرة لجميع المخلوقات المكلفة (الإنس والجن)، وحتى من يرفض الإسلام طريقا للنجاة في الآخرة، دون أن يعادي الإسلام أو يظلم المسلمين ولا يساند من يظلمهم، فإن الإسلام يجعل حسن المعاملة هي القاعدة في التعامل معه(٣).. يقول تعالى: ﴿**لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾(٤).

ويحث الإسلام على التعاون مع غير المسلمين لتحقيق المصالح المشتركة، في الحياة المؤقتة ما لم يكن لهذا التعاون أثر سلبي على سعادة المسلم في الحياة الأبدية؛ فالله سبحانه وتعالى جعل التعاون بين الناس ميلا فطريًا؛ حيث يقول:

---

(١) الصيني: حقيقة العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، ص ٦-٥٤ .
(٢) البقرة: ٢٥٦ .
(٣) الصيني: حقيقة العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، ص ٥٥-٨٨ .
(٤) الممتحنة: ٨، ٩ .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾(١).

وبعبارة أخرى، فإن الإسلام يحث جميع المخلوقات المكلفة (الإنس والجن) على التعاون لتحقيق السلام في الدنيا والآخرة. والسلام ـ كما هو معلوم ـ معناه إتاحة الفرصة لكل فرد راشد لأن يعمل على إسعاد نفسه دون تدخل من الآخرين؛ إلا أن يحاولوا مساعدته بدون إكراه لتحقيق السعادة التي ينشدها أو التي هي أفضل منها.

وهذا يؤكد حقيقتين مهمتين:

١ - أن جزءًا من الاختلاف بين الناس أمر فطري، ليتعارفوا ويتنافسوا.

٢ - أن وجود بعض الاختلافات بين الناس لا يمنع من التعاون في أمور مشتركة كثيرة؛ بل ينبغي أن يتعاونوا فيها ليكمل بعضهم جهد البعض الآخر لتحقيق السعادة للجميع في الحياة المؤقتة والأبدية أو -على الأقل- في الحياة المؤقتة.

ومن باب الإنصاف يفرق الإسلام بين المحايدين أو المساندين للمسلمين من الرافضين للإسلام دينًا لأنفسهم، وبين الرافضين المعادين للإسلام ولأهله. فالفئة الأولى ديارهم ديار سلم، والآخرون تسمى ديارهم ديار حرب، بيد أنه مع وجود هيئة الأمم المتحدة فإن المرجح أن جميع الدول الأعضاء في الأمم المتحدة الأصل فيها أن تكون ديار سلم، مع عدم استبعاد الاستثناءات التي يفرضها الواقع أحيانا ولو بصورة جزئية ومؤقتة..

فالإسلام يحث على الدفاع عن الإسلام والمسلمين إذا وقع عليهم اعتداء، ولكن يضع قواعد منصفة حتى في حالة الحرب وما بعده؛ فهو يحرم قتل النساء

(١) الحجرات: ١٣.

والأطفال ومن لا يحاربون، مثل الشيوخ والفلاحون والمرضى.. وبعد الحرب يحسن معاملة الأسرى ويمنحهم حقوقا تفوق التي تمنحها الأنظمة الدولية الأخرى في حينها(١).

وعموما مسألة تحديد دار السلم ودار الكفر مقيدة اليوم بالأعراف والظروف الدولية. ومن جهة أخرى، فإن الذي يملك صلاحية هذا التصنيف ـ في الإسلام ـ ليس الأفراد أو الجماعات المنشقة عن الجماعة ولكن ولي الأمر؛ أي الجهة المسؤولة كلها؛ فنظرة الأفراد والجماعات مهما كانت مخلصة أكثر احتمالا لأن تعتمد على الحماس وعلى النظرة الجزئية للقضية، ولهذا فإن احتمال انحرافها عن الرأي الصائب أكبر فتكون سببا في جر الأمة أو جزء كبير منها إلى عواقب تضر ضررًا بالغًا بمصلحة الإسلام والمسلمين، وكثيرا ما يندم عليها حتى بعض المتحمسين لتلك القرارات أنفسهم.

وتعد غزوة أحد خير مثال لتوضيح هذه المسألة؛ لقد رأي الشباب -بدافع الحماس وبدافع الغيرة على الإسلام-أن الخروج على العدو هو الأليق بالمسلمين. أما نظرة الرسول ﷺ التي ترى أن الدفاع من داخل المدينة أفضل فقد كانت أكثر بعدًا، وتضع في حساباتها للواقع: قوة العدو وقوة المسلمين ومصير الإسلام والمسلمين جميعا..

والملاحظ أن رأي الشباب كان نابعًا من استعدادهم للتضحية بأرواحهم من أجل دينهم فقط، أما رأي الرسول ﷺ فكان نابعًا من شعوره بالمسؤولية تجاه الإسلام ومستقبله والمسلمين جميعا وسلامتهم، وشتان بين هذا وذاك.

العلاقة والروابط الاجتماعية:

لقد جاء الإسلام عمومًا ليس لقطع الروابط الوراثية والمكتسبة أو أن يفت في عضدها؛ بل جاء ليعزز حقوق الروابط البشرية الوراثية منها والمكتسبة، مثل

(١) الصيني: حقيقة العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، ص ١٩-٢٢ .

رابطة الإنسانية، ورابطة الرحم، ورابطة الأبوة والبنوة، ورابطة الوطن الواحد، ورابطة الجوار، وحقوق الضيف، وإن كانوا من فئة الآخر.

الروابط الموروثة:

يعترف الإسلام بالأخوة في الإنسانية.. يقول الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾**(١). فالناس جميعا لهم أب واحد وأم واحدة، ويتكاثرون بالطريقة نفسها، ويتشابهون في التكوين الأساسي العضوي والروحي والعقلي والنفسي والسلوكي، ويتشابهون كذلك في الدوافع والاحتياجات الأساسية للإنسان، ويتعداها إلى التشابه في التشريعات الأساسية، وفي المبادئ الأخلاقية الأساسية، مثل: حب الخير وكراهية الشر، وحب العدل وكراهية الظلم.

كما أن الله كرم الإنسان على كثير من مخلوقاته. ويعبر نبي الإنسان عن هذا التكريم العام حتى بالنسبة للأموات وإن كانوا قد ماتوا على غير الإسلام؛ فقد قام النبي ﷺ لجنازة فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال: أليست نفساً؟(٢). وماتت أم الحارث بن أبي ربيعة وهي نصرانية، فشيعها أصحابه ﷺ (٣).

ويرى أبو زهرة أن من أبرز هذه الأشياء التي يوصى بها الإسلام بين بني آدم: التسامح، والحرية، والفضيلة، والعدل، والوفاء بالعهد، والتعاون على نشر الخير ومحاربة الفاسد، ومن الخير الذي أجمع العلماء عليه: حفظ النفس، والدين والنسل، والعقل، والمال(٤).

---

(١) الحجرات: ١٣ .

(٢) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب: من قام لجنازة يهودي.

(٣) القرضاوي: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص ٤٣-٥٤ .

(٤) أبو زهرة: أصول الفقه، ص ١٩-٤٦ .

ومن حقوق الأخوة الإنسانية الموروثة، وجوب دعوة الآخرين إلى ما فيه سعادتهم في الدارين، ولا سيما في الحياة الأبدية؛ فقد أوجب الإسلام على المسلمين دعوة الآخرين للمشاركة في خير الإسلام،وحث الله تعالى المسلمين على الحرص على اتباع سنة رسله، وذلك بالدعوة بالحسنى وبالحكمة وبالموعظة الحسنة وبالرفق الذي قد يكون ممزوجًا بحسن المناداة وبالاستعطاف أحيانا. ومع أن الله تعالى يعلم سلفًا أن فرعون لن يهتدي فإنه يأمر موسى وهارون بقوله: **﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ❁ فقولاً لَهُ قَوْلا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾**(١).

وأقر الرسول ﷺ تعاطف ابنته مع زوجها المشرك؛ حيث أرادت فك أسره فساعدها في ذلك؛ على أن يرسلها زوجها إلى أبيها؛ لأنها تحرم على زوجها الكافر(٢)، فوفى زوج ابنته بوعده فاستحق ثناء الرسول ﷺ(٣).

وأجاز النبي ﷺ الأمان الذي أعطته أم هانئ لمشركين من ذوي رحمها عند فتح مكة (٤).

وانطلاقًا من المبدأ نفسه أهدى عمر بن الخطاب أخاه المشرك ثوبًا(٥)، وذلك بالرغم من الحزم المعروف عن الخليفة الراشد، حتى إن الشيطان كان يفر من طريقه(٦).

ويرى بعض كبار علماء المسلمين أن غير المسلم يرث من الوقف العام لقريبه المسلم(٧)، وتتحرر الجارية التي تلد ولدًا من سيدها بوفاة سيدها وإن كانت غير مسلمة(٨). ويجوز للمسلم أن يتزوج الكتابية، مع أن الله تعالى جعل المودة والرحمة

---

(١) طه: ٤٤ .

(٢) ابن القيم: زاد المعاد، ٣/٢٨٢ .

(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر أصهار النبي .

(٤) رواه البخاري، كتاب الجزية، باب أمان النساء.

(٥) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب صلة الأخ المشرك.

(٦) رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر.

(٧) ابن القيم: أحكام أهل الذمة، ص ٣٠٢-٣٠٥ .

(٨) السابق: ص ٣١٧ .

فطرة بين الزوجين: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾(١).

ولم يمنعه من التصريح بحق الرحم؛ إذ يروي لنا عمرو بن العاص ط قول النبي ﷺ: " إن آل أبي -قال عمرو: في كتاب محمد بن جعفر بياض -ليسوا بأوليائي، إنما وليي الله وصالح المؤمنين، ولكن لهم رحم أَبُلُّهَا بِبَلاهَا"(٢)؛ يعني أصلها بصلتها..

بل وصل النبي ﷺ الرحم حتى في حالة العدو المحارب؛ حيث أذن لثمامة أن يبيع قريشًا ما تحتاجه من الحنطة، عندما سألته قريش بحق الرحم أن يأذن له بذلك. وكان ثمامة سيد بني حنيفة قد حلف ألا يفعل إلا أن يأذن النبي ﷺ له بذلك(٣)..

بل بلغت أهمية الرحم أكثر من ذلك؛ فقد أوصى الرسول ﷺ خيرا بأهل مصر وكانوا نصارى بقوله: " إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها؛ فإن لهم ذمة ورحما"(٤)؛ وذلك لأن هاجر أم إسماعيل عليهما السلام، الجد الأعلى للنبي ﷺ، كانت من مصر. وكذلك كانت مارية، إحدى أمهات المؤمنين.

بل إن القرآن الكريم يصرح بحسن معاملة الوالدين المشركين في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(٥)، وكذلك قال عز من قائل:

---

(١) الروم: ٢١ .

(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب تبل الرحم ببلالها.

(٣) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة.

(٤) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر.

(٥) العنكبوت: ٨ .

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ۞ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١]. ولهذا أذن الرسول ﷺ لأسماء -رضي الله عنها- بإكرام أمها عندما قدمت عليها المدينة مع أنها كانت مشركة.

الروابط المكتسبة:

وعرف الإسلام التعددية في أول وحدة سياسية إسلامية نشأت في المدينة قبل أربعة عشر قرنًا؛ فقد كانت وحدة متعددة الأعراق (قبائل الأنصار وقبائل المهاجرين واليهود)، ومتعددة الدين (المسلمون واليهود والوثنيون)، فالإسلام يحث على التعاون في سبل الخير بين الناس عامة.. يقول تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[٢]. وهذا التعاون يندرج تحته كل مساهمة تؤدي إلى توفير الخير العام في البلد الذي ينتمي إليه المسلم ويعيش فيه كمواطن، وإن كانت أغلبية السكان من غير المسلمين.

ويراعى الإسلام حقوق الأفراد وحقوق الجماعة، سواء أكانت أغلبية أم أقلية، ويوازن بينها، ولكن بنسب متفاوتة مناسبة؛ فيخص الفرد بحقوق لا يمنحها للجماعة، ويمنح الجماعة حقوقًا لا يمنحها للفرد، ويمنح الأغلبية حقوقًا في الشؤون الجماعية التي لا تقبل التعدد ما لا يمنحه للأقلية.

وأوصى الإسلام برابطة الجوار خيرًا؛ حيث يقول الرسول ﷺ: "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه"[٣]. دون تقييد أن يكون الجار مسلما أو غير مسلم. ويعلق العسقلاني على الحديث مستدلا بالآيات التي توصي بالجار ذي القربى والجار الجنب فيقول: "الجار القريب المسلم، والجار الجنب غيره".

---

(١) لقمان: ١٤-١٥ .

(٢) المائدة: ٢ .

(٣) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الوصاية بالجار.

وفسر أحد الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- هذا الحديث على وجه العموم، "فأمر لما ذُبحت له شاة أن يهدي منها لجاره اليهودي".

ومع أن الجار قد يكون غير مسلم إلا أن له حقًا على المسلم.. عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: الجيران ثلاثة: جار له حق واحد وهو أدنى الجيران حقًا، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق وهو أفضل الجيران حقًا؛ فأما الجار الذي له حق واحد فالجار المشرك لا رحم له، وله حق الجوار، وأما الذي له حقان فالجار المسلم لا رحم له، له حق الإسلام وحق الجوار، وأما الذي له ثلاثة حقوق فجار مسلم ذو رحم له حق الإسلام، وحق الجوار، وحق الرحم، وأدنى حق الجوار أن لا تؤذي جارك بقتار قدرك إلا أن تقدح له منها[1].

ولهذا جوز بعض العلماء حضور جنازة جاره وتعزيته بالصيغة المناسبة، والتهنئة في المناسبات المباحة[2].

وكان الرسول ﷺ يكرم ضيوفه وإن كانوا غير مسلمين؛ فقد سمح مثلا لوفد نصارى نجران أن يؤدوا صلاتهم في مسجده.

وبهذا يتضح أن الإسلام لا يُكْرِه أحدًا على الدخول فيه، ويراعي حقوق الروابط المختلفة وإن كان الآخر غير مسلم، ويحث على التعاون في تحقيق المصالح المشتركة.

الثوابت وطبيعة الآخر:

وقد تعرفنا فيما سبق على الثوابت العامة التي ينبغي للمسلم ألا يتنازل عنها أو يتهاون بها، والقواعد التي وضعها الإسلام في التعامل مع الآخر، بيد أن هناك حاجة إلى التعرف على الطريقة التي تتفاعل بها هذه الثوابت مع طبيعة الآخر؛ الذي قد يكون من أهل الكتاب وقد يكون أغلبية أو أقلية أو كيانًا مستقلا.

---

(١) حلية الأولياء: ٢٠١/٥ .

(٢) ابن القيم: أحكام أهل الذمة، ص ٢٠٤-٢٠٥ .

الآخر من أهل الكتاب:

إن من يعيش في بعض البلاد الإسلامية التي يشاركهم فيها مسيحيون يرى مثالا رائعًا للتعاون التلقائي غير المتكلف بين أتباع الديانتين، سواء أكانوا يسكنون عمارة واحدة أم يعملون في مؤسسة واحدة، أم يتعاملون كبائع ومشتري... وليس غريبا أن نرى ذلك؛ فإن هذه العلاقة الودية التعاونية بين المسيحيين والمسلمين تمتد قرونًا عديدة وتستند إلى أسس مشتركة كثيرة، غير الروابط الوراثية والمكتسبة التي أشرنا إليها سابقا. ومن هذه الأمور المشتركة ما يلي:

١- الاتفاق على المكانة السامية لعيسى عليه الصلاة والسلام؛ فالإسلام يعتبره نبيًا ورسولا ذا مكانة عالية.. ﴿**إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ**﴾(١).

٢ - تخصيص الإسلام أهلَ الكتاب بمميزات خاصة، منها: إباحة أكل المسلمين طعامهم إلا ما ورد في تحريمه نص، وإباحة زواج المسلم من نسائهم... إلخ.

الآخر أغلبية:

إن كلمة "الأقلية" لا تعني دائما الأقلية النسبية، ولكن كما هو مشاهد في تاريخ الأمم جميعها، فهي تعني أيضا من ليست إليه غلبة السلطة في الدولة المحددة. وكذلك كلمة "الأغلبية" فإنها لا تعني الأكثرية العددية، ولكن قد تعني من في يدهم السلطة في الدولة المحددة؛ فقد تغتصب مجموعةٌ السلطةَ في البلد المحدد، وربما لجهودها الإصلاحية البارزة تكتسب شعبية كبيرة تجعلها مؤهلة لتمثيل الأغلبية، وقد لا تصبح ذات شعبية فتبقى غير ممثلة للأغلبية، ومع هذا

---

(١) آل عمران: ٤٥ .

فإنها تحتفظ بالسلطة في يدها. ولهذا سيتم استخدام الفئة ذات السلطة - أحيانا- باعتباره مرادفًا للأغلبية، وكذلك استخدام الفئة المحكومة باعتباره مرادفًا للأقلية.

وعندما نتأمل تاريخ الأقليات المسلمة عبر التاريخ نجد أن الأقليات المسلمة - وعلى رأسها الأقلية المسلمة التي كانت في مكة فجر ظهور الإسلام بقيادة سيد ولد آدم محمد ﷺ -ظلت جهودها ومساهماتها في تحقيق التعايش السلمي ثابتة على مبدأ واحد، وهذا المبدأ هو أن الأصل في العلاقة بين المسلم والآخر هو السلم والتعاون في الخير(١). أما الحالات الاستثنائية فهي التعامل مع الآخر بحسب الظروف التي يفرضها الآخر على المسلم في ضوء قدرة المسلم في التعامل بالمِثْل.

ولو استعرضنا سلوك الأقلية المسلمة وتعاملها لوجدنا أمثلة كثيرة تؤكد أنه رغم الظروف الصعبة -وأحيانا رغم الاضطهاد- فإنهم كانوا مواطنين صالحين يسهمون بفعالية في خير المجتمعات التي يعيشون فيها حتى بمعيار الأغلبية أو الفئة ذات السلطة.

وانطلاقا من هذا المبدأ أثنى الرسول ﷺ على حلف الفضول الذي تعاهدت فيه عدد من القبائل في الجاهلية على نصرة المظلوم والأخذ بحقه، وقال: «لو دعيت به في الإسلام لأجبت»(٢)، وقال ﷺ: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما». فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلومًا، أفرأيت إن كان ظالما كيف أنصره؟ قال: «تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره» (٣)..

فالإسلام يحث على التعاون لرفع الظلم وإن كان على الآخر، ولكن الأمر محكوم بالظروف، مثل: المعاهدات، والموازنة بين المصالح والمخاطر(٤).

---

(١) حقيقة العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين: ص ٦-٥٤ .

(٢) رواه الحميدي بسند صحيح.

(٣) رواه البخاري، كتاب المظالم، باب: أعن أخاك ظالما أو مظلومًا.

(٤) الاستعانة بغير المسلمين في الفقه الإسلامي: عبد الله الطريقي، ص ٢٤٣-٢٥٤ .

لهذا ليس من المستغرب أن يعترف الكثير من المنصفين بفضل المسلمين؛ فقد كان الرسول ﷺ موضع ثقة من الآخر، حتى إنهم كانوا يودعونه أموالهم ثقة في أمانته ونزاهته وورعه ﷺ(١).

وعندما أراد أبو بكر الصديق الهجرة أجاره ابن الدغنة الذي كان مشركا ومنعه من الخروج قائلا له: «يا أبا بكر، إن مثلك لا يخرج ولا يُخْرج، إنك تصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، ارجع فأنا جار لك»(٢).

وفي الصين أثبت عددٌ من أفراد الأقلية الإسلامية أنهم جديرون بتولي أعلى المناصب الرسمية وعملوا بإخلاص لخدمة وطنهم. وأثبت المسلمون تعاونهم مع بعض أفراد الأغلبية غير المسلمة، ووثقوا فيهم في أصعب المواقف. ومثاله استئجار رسول رب العالمين عبد الله بن أريقط دليلا في هجرته إلى المدينة متخفيًا(٣).

فالإسلام لا يرى مانعًا من التعاقد مع الآخر للعمل في مؤسسته بأجر محدد بالساعات أو بالإنجاز، ولكن ليس في عمل فيه مهانة كخادم في منزل، أو في عمل طبيعته محرمة مثل بيع الخمر وغيره. وإذا عمل المسلم عند غير المسلم فعليه أن ينصح في عمله ويؤديه بأمانة.

يروي ابن القيم أن عليًا ط قد آجر "عن نفسه من يهودي يستقي له وكل دلو بتمرة، وأكل النبي ﷺ من ذلك التمر". بل ذهب العلماء إلى جواز الوقف على ذوي قرابة منهم الكافرون، دون أن يخصهم بذلك. وأوصت صفية أم المؤمنين لأخ لها كان يهوديًا بسهم(٤).

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٩٣ .

(٢) رواه البخاري، كتاب الكفالة، باب: جوار أبي بكر في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعقده.

(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل الأنصار، باب هجرة النبي.

(٤) أحكام أهل الذمة: ص ٢٧٠-٢٧٤ .

وقد أباح الإسلام شراكة الزوجية بين المسلم والكابية، وأباح الشراكة التجارية مع الآخر بشروطها. وكذلك من المباحات: مؤاكلتهم والشرب معهم في حدود المباح للمسلمين، والاستفادة من علوم الكافرين وحتى المنافقين في أمور الدنيا، والسكنى في ديارهم، ولبس ثيابهم، وشراء أسلحتهم، والانتفاع بخبراتهم ومهاراتهم في الطب وغيره[1]. ومن الأمور المعلومة أنه يجوز شراء منتجاتهم الصناعية والزراعية...

ولا يرى الإسلام مانعًا من أن يجعل المسلم للآخر نوعًا من الولاية (الوصاية)، مثل: الثقة في معلوماته وخبراته في الأمور الدنيوية. فالمسلم قد يتلقى المعرفة الدنيوية عن غير المسلم، أو يعمل لديه أو يتخذه طبيبًا أو مستشارًا... ما دام ذلك يحقق مصلحة يحتاج إليها المسلم، ولكن لا يجوز الولاء العام للآخر؛ لأن الولاء العام تدخل فيه شؤون الآخرة، وهذا الولاء محصور في الله -سبحانه وتعالى- وفي رسوله والمؤمنين..﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾[2].

بل، ومن الأحكام المعلومة أن الإسلام يعفي الأقلية المسلمة من تطبيق بعض التشريعات الأساسية في دينها، مثل: عقوبة القصاص على القاتل المتعمد، وعقوبة جلد الزاني والزانية... إذا كانت مخالفة للتشريعات التي ارتضتها الأغلبية في تلك البلاد، ويحثهم على أن يكونوا قدوة طيبة بالمعايير الإسلامية في أوطانهم[3].

وليست هناك نصوص تمنع عمل المسلم في حكومة الآخر الأكثرية ما دامت الوظيفة لا تقتضي بالضرورة ارتكاب محرم. وقد يتوهم بعض المسلمين من الأقليات أنه لا يجوز مثلا ترشيح نفسه عضوًا في المجالس التشريعية التي تأخذ

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٤/١١٤-١١٦، و(أحكام أهل الذمة): ص ٢٧٧-٤٠٠ .

(٢) المائدة: ٥٥ .

(٣) المجمع الفقهي، بيان مكة المكرمة، رابطة العالم الإسلامي ١٤٢٢هـ = ٢٠٠٢م.

برأي الأغلبية التي قد تخالف التشريعات الإسلامية. والأصل أن يبرهن المسلم على أنه عضو نافع في مجتمعه بصرف النظر عن ديانة الأغلبية، ويثبت أن دينه (الإسلام) يحث على التعاون في تحقيق العدل والخير العام بتأييد ما هو خير وفي مقاومة الشر بمعارضته. والواقع يفرض على المسلمين الاشتراك في مثل هذه المجالس حتى يتمكنوا من إسماع الجهات ذات النفوذ أصواتهم وتعريفهم بمصالحهم. فالفرصة في رعاية مصالحهم من داخل هذه المجالس أفضل بكثير من محاولة رعايتها من خارجها؛ فقد تكون الأغلبية محايدة بالنسبة لبعض القضايا التي تهم المسلمين، فيمكن للأقلية المسلمة في المجالس التشريعية من إقناع أغلبيتها والانتصار بذلك على الأقلية المتحيزة.

وقد يسهم المسلم الواحد في إقناع الأغلبية ببعض التشريعات التي تطابق التعاليم الإسلامية أو لا تخالفها، ليس بصفتها إسلامية ولكن بصفتها أكثر فعالية وأكثر صلاحًا. ولو قمنا بدراسة واقعية لوجدنا أن نسبة الأنظمة واللوائح التي تصدرها المجالس التشريعية العلمانية - التي تخالف التعاليم الإسلامية -لا تمثل إلا نسبة محدودة في الغالب، وكثير منها يندرج تحت الأمور الشخصية التي ليس من الضروري أن يلتزم بها المسلم.

ونتيجة لجهود المسلمين الذين يعلمون في المؤسسات الحكومية والخاصة أمكن الحصول على كثير من الامتيازات، مثل: السماح للمرأة المسلمة بالظهور بالحد الأدنى من الحجاب في بطاقاتها الشخصية كرخصة القيادة، وبعض المؤسسات تسمح بأداء الصلاة أو توفر مكانًا بالمجان أو بمقابل، وقد تعطي إجازة لأداء صلاة الجمعة والاحتفال بالعيدين بدون أجر أو يعوضها المسلم بالعمل في وقت آخر.

الآخر أقلية:

لقد خلق الله الناس وميز بعضهم على بعض في المِنَح الفطرية (مثل الذكاء)، ومنحهم الفرص المتميزة للحصول على المنح المكتسبة (مثل الثروة القابلة للوراثة)

ليكمل بعضهم بعضًا، ولهذا كانت طاعة البعض للبعض الآخر ضرورية حتى تستقيم أمور المجتمعات والدول والكون، لا فرق بين المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية.

وقد عرف الإسلام التعددية في أول وحدة سياسية نشأت في المدينة كما سبقت الإشارة. وكان المسلمون يتعاملون مع هذه الأقليات باحترام، حتى إن الرسول ﷺ يقوم لجنازة يهودي، وتموت نصرانية فيشيع جنازتها أصحاب رسول الله ﷺ ، ويثق الرسول ﷺ في مشرك ويستعين به ليتجسس على جيش المشركين(١).

وفي الحقيقة، فإن مصطلح "الذمي" في العهود الأولي للإسلام لم يكن إلا جزءًا من مصطلح "الأقلية " الذي شاع استخدامه في العصور الحديثة؛ للتمييز بين بعض فئات المواطنين. والاختلاف الوحيد بينهما هو أن مصطلح الذمي يقتصر في التمييز على الدين، بينما مصطلح "الأقلية " اليوم أكثر شمولية؛ فقد يكون مبنيًا على صفات وراثية مثل اللون والعرق، أو مكتسبة مثل اللغة والدين.

ويمنح الإسلام الأقلية في الشؤون الدينية (مثل العبادات)، والحقوق المدنية (مثل عقود النكاح والإرث) حقوقها المناسبة في ظل المبادئ العامة للدستور الذي تقره الأغلبية.

وجدير بالذكر أن ما كان يسمى بالجزية التي كان يدفعها المواطن غير المسلم، والزكاة التي يدفعها المسلم يمكن إدراجها كلها تحت ما يسمى بالضرائب اليوم؛ فهي لا تعادل سوى جزء ضئيل جدًا من الضرائب المفروضة اليوم في النظم الديمقراطية.. وبالنسبة لقوله تعالى: ﴿**حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾(٢) ، فإنها جاءت في سياق الحديث عن بعض أهل الكتاب الذين كانوا يحاربون الله ورسوله فخذلهم الله، ومع هذا يحملون الكبر في قلوبهم على

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ٦٢ .

(٢) التوبة: ٢٩ .

الإسلام ونبيه وأتباعه.. فعبارة ﴿عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ خاصة بهؤلاء. فكثير من أهل الكتاب دخلوا طواعية تحت حكم المسلمين مع بقائهم على دينهم(١)، وكثيرًا ما كان المسلمون بجزيتهم مقابل الحماية - بالنسبة للآخر - أرحم لهم من المكوس(٢) والاستغلال من قبل بني دينهم في مصر وفي بلاد الشام(٣).

ومن نافلة القول: إن الإسلام حرص أشد الحرص على حقوق الأقلية، إذ يقول نبي الإسلام ﷺ: «أَلا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوِ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوقَ طَاقَتِه أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». والمقصود بالمعاهد معناه الشامل فيدخل فيه من له ذمة الله ورسوله، سواء أكان مواطنًا أم مقيمًا(٤).

ويقول القرضاوي: إن النبي عليه الصلاة والسلام تصدق بصدقة على أهل بيت من اليهود، فهي تُجرى عليهم. كما أشار إلى أن عمر بن الخطاب رأى نصارى مجذومين فأمر لهم بمساعدة، وحاول ذميون اغتياله - وهم اليهود-فلم يمنعه ذلك من أن يوصي بالذميين خيرًا. ويري بعض العلماء مثل عكرمة وابن سيرين جواز إعطاء فقراء أهل الذمة من الزكاة (٥).

وانطلاقًا من مبدأ التفريق بين المعادين والمسالمين فإن الإسلام ضمن للمسالمين من غير المسلمين عددًا من الحقوق في الإطار العام لقوانين الدولة الإسلامية التي ينتمون إليها. ومن هذه الحقوق الاعتراف بحقوقهم في ممارسة عباداتهم، وتطبيق تشريعاتهم فيما يتصل بالشؤون المدنية، مثل شؤون الزواج والطلاق والإرث وغيرها فيما بينهم. ومن هذه الحقوق الاعتراف لهم بما هو مباح من المأكل والمشرب في صميم عقيدتهم بشرط عدم ترويجها بين غيرهم(٦).

---

(١) أهل نجران، وبعض الأقباط في سورية .
(٢) الضرائب أو العشور التي تُؤخذ بغير وجه حق.
(٣) الخراج لأبي يوسف: ص٣٠،٨١ .
(٤) سنن أبي داود، كتاب الخراج، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات.
(٥) غير المسلمين في المجتمع الإسلامي: ص ٤٣-٥٤ .
(٦) انظر مثلا: ابن القيم: أحكام أهل الذمة للحقوق المختلفة والالتزامات.

وهذه الحقوق مضمونة ما دام غير المسلم يحترم القوانين العامة للبلاد الإسلامية ومعتقداتها، وما دامت ممارسته لحقوقه لا تشكل خطرًا على سلامة الدولة التي يعيش فيها أو ليس فيها ازدراء صريح لدين الأغلبية أو لا تعتبر خرقًا لقوانينها الأساسية المشتركة. وهذا الشرط الأخير طبيعي؛ لأن المسلم في البلاد غير الإسلامية أيضًا لا يستطيع تطبيق بعض تعاليمه الدينية الأساسية، مثل: تنفيذ حكم الإعدام في القاتل المتعمد، وقطع يد السارق، وجلد الزاني والزانية على المستحقين من بني دينه.

كما أن حرية التعبير عن الرأي والنصح والإرشاد في الأمور الدنيوية مفتوح للآخرين ولو كانوا أقلية، ويمكنهم المشاركة من خلال قنوات عديدة، مثل: المؤسسات التعليمية، والوظائف الحكومية، ووسائل الإعلام. ولا يشترط في هذه المشاركة إلا أن تكون غير متعارضة مع التشريعات التي ارتضتها الأغلبية.

ونتيجة لهذه المبادئ التي طبقها حكام المسلمين بصفة عامة استمرت المسيحية واليهودية في بلاد الشرق الأوسط التي حكمها المسلمون قرونًا طويلة، بل وانتعشت فيها. والهند مثال آخر؛ حيث حكمها المسلمون حوالي سبعة قرون، ولم يجبروا أحدًا من سكانها على الإسلام، لهذا فإنه لا غرابة إن بقيت الأغلبية الهندية محافظة على ديانتها الهندوسية.

ومن زاوية أخرى، فإن الجيوش الإسلامية لم تصل إلى الشرق الأقصى مثل إندونيسيا وماليزيا، ومع هذا فإن الأغلبية فيها اعتنقت الإسلام[1]، بل وكانت الدول الإسلامية في شمال إفريقيا خير ملجأ لليهود الذين فروا من أسبانيا بسبب الاضطهاد المسيحي لهم.

---

(1) naik zakir abdul karim: answer to Non-Muslims common Questions about islam, p 14.

الآخر كيان مستقل:

وانطلاقًا من القاعدة الأساسية في التعامل بين المسلمين والآخر يحث الإسلام على التعاون بين المخلوقات المكلفة لتحقيق المصالح المشتركة في الحياة المؤقتة ما لم يكن لهذا التعاون أثر سلبي على سعادة المسلم في الحياة الأبدية، كما سبقت الإشارة. فالإسلام يؤكد أنه لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى.. **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**(١).

ولو أخذنا بعض النماذج من السيرة النبوية لوجدنا أن الاختلاف في العقيدة لم يمنع من البر، ومما يروى في ذلك أن الرسول ﷺ وسلم بعث مالا إلى أهل مكة عندما أصابهم القحط ليوزع على فقرائهم(٢). ولم يمنع الاختلاف في العقيدة من ثقة النبي ﷺ في دولة الحبشة المسيحية فينصح أصحابه المضطهدين باللجوء إليها(٣).

ومن مبادئ الإسلام احترام العهود الصريحة والضمنية **﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾**(٤)، والعدل رغم وجود العداوة.. يقول تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾**(٥).

ومن مبادئها أيضا أن يرجو المسلمون للأحياء من المخلوقات المكلفة (الإنس والجن) ما يرجونه لأنفسهم من الخير فيدعونهم إلى الإسلام ويدعون لهم بالهداية والرشاد، وهو مبدأ أنبياء الله جميعًا، بل وأن يبذلوا الوقت والمال والجهد لإقناعهم بالحق..

---

(١) الحجرات: ١٣ .

(٢) غير المسلمين في المجتمع الإسلامي: ص ٤٣-٥٤ .

(٣) سيرة ابن هشام: ١/ ٢٨٠ .

(٤) الإسراء: ٣٤ .

(٥) المائدة: ٨ .

ولعل مما يتصل بهذا الموضوع: حكم الحوار مع الآخر، ورأي الإسلام في المنظمات الدولية، ودعوة الآخر إلى دينه وفلسفته في البلاد الإسلامية، والتعبد العلني بغير الإسلام في جزيرة العرب ودخول الآخر مكة المكرمة.

الحوار مع الآخر:

قد يتخوف بعض المسلمين من الحوار مع أصحاب الديانات الأخرى، معتقدين أن ما يسمى "الحوار بين الأديان" هو نوع من التنازل، وهذا غير صحيح . وعموما يمكن تصنيف الحوار "بين الأديان " أو على الأصح بين أصحاب الأديان في خمسة أصناف[١]:

الأول: حوار من أجل الاعتراف المتبادل بصحة جميع الديانات المشتركين في الحوار، وهذا النوع من الحوار يرفضه الإسلام تماما.

الثاني: حوار يعترف بوجود ديانات متعددة في الواقع وبضرورة التعامل مع الاختلافات الناتجة عن هذا التعدد، ويسعى هذا التحاور للوصول إلى طريقة للتعامل معها بما يحقق السلام لجميع الأطراف، ويحقق التعاون المثمر في الأمور المشتركة. والإسلام يشجع هذا انطلاقًا من القاعدة العامة في العلاقة مع الآخر. ولعل من ثمار هذا الحوار وقوف الفاتيكان وبعض الكنائس مع المسلمين في استنكارهم الرسوم التشويهية التي تبنتها مؤسسة صحفية دانماركية[٢].

الثالث: حوار بين أصحاب الأديان للتعارف، والتعرف على نظرة الأديان إلى القضايا الأخروية والدنيوية المختلفة[٣].

---

(١) انظر: تأصيل الحوار من المنظور الإسلامي، سعيد الصيني.

(٢) جريدة الوطن الكويتية، عدد الثلاثاء ٨ محرم ١٤٢٧هـ، ص ٢٠ .

(٣) ومثاله حوار شهري يعقده بعض المسلمين واليهود والمسيحيين في مدينة كاربون ديل، بولاية إلينوي في الولايات المتحدة الأمريكية.

الرابع: حوار يحاول فيه كل صاحب دين إقناع الآخر بما يعتقد أنه الدين الذي يحقق السعادة في الدنيا والآخرة. ولو تأملنا في جميع الجهود الدعوية للرسل عليهم الصلاة والسلام لوجدنا أن المبادرة بالدعوة ليست إلا الخطوة الأولى في مثل هذا الحوار. وهو واجب الرسل جميعهم والدعاة إلى الحق. ويحث الإسلام المسلمين المؤهلين على الاستفادة منه.

الخامس: حوار تلقائي مدمج في المعاملات التي تجري في الحياة اليومية بين أصحاب الديانات المختلفة، ويستخدم فيه الطرفان وسائل التعبير اللفظية وغير اللفظية، عن قصد أو بطريقة عفوية. وهذا مما لا يمكن تجنبه، ويجيزه الإسلام ما دام يحقق المصالح المشتركة. وهذا النوع من الحوار أبلغ وأكثر فعالية في إيجاد الألفة بين الناس من كثير من المحاورات اللفظية المرتب لها.

منظمات حقوق الإنسان:

كثيرا ما تقوم منظمة حقوق الإنسان وبعض المؤتمرات التي تقيمها الهيئات والمنظمات المنبثقة عن هيئة الأمم المتحدة بجهود جيدة ومشكورة في الذود عن حقوق بعض الفئات المهضومة حقوقها، وتصدر توصيات تتسق مع التعاليم الإسلامية. بيد أنها أحيانا تثير قضايا قانونية وسياسية تتعارض مع أهداف هيئة الأمم المتحدة. فمثلا تحشر هذه الهيئات نفسها في التشريعات المحلية التي لا تطبق إلا على المواطنين داخل دولهم، ويحدث ذلك بسبب الحماس لقضايا صغيرة جانبية على حساب القضايا المهمة الكلية. كما يحدث هذا بسبب تسلل بعض الجماعات المغرضة إلى صفوفها.

منع أنشطة الأديان الأخرى:

تمنع بعض الدول -التي يمثل المسلمون فيها أغلبية-الأنشطة التي تدعو إلى الأديان أو المذاهب الفكرية الأخرى لسببين رئيسين:

أولا: جميع السكان أو غالبيتهم اختاروا الإسلام دينًا: أي منهجًا لعبادة الله، وشريعة تضبط علاقتهم فيما بينهم وفيما بينهم وبين غريهم. والأديان الحالية والمذاهب الفكرية تتعارض مع الإسلام في واحدة أو أكثر من هذه الثوابت، ولهذا فإن نشر الأفكار المعارضة يهدد أمن أغلبية المواطنين، ليس في الحياة المؤقتة فحسب ولكن في الحياة الأبدية أيضًا.

ثانيا: هناك نسبة كبيرة من السكان في أي بلد غير راشدين، وهم في حاجة إلى الحماية من الأفكار والمعتقدات التي تهدم معتقدات الأغلبية من المواطنين أو جميعهم. وهذه الحماية تقرها المواثيق الدولية للحقوق الثقافية ممثلة في حق الأب والوصي الشرعي في اختيار نوع التربية لأولاده[١].. ومن زاوية أخرى، فإن جميع الدول تمنع بعض الأنشطة داخل حدودها السياسية باعتبارها أنشطة خطيرة، وتؤثر على أمنها الداخلي أو سلامة مواطنيها، وإن كانت أعمالا لا تؤثر إلا في حدود الحياة الدنيوية المؤقتة.

وهذا ينطبق أيضًا على عدم جواز التعبد في المملكة العربية السعودية بدين غير الإسلام بصورة علنية[٢] أو دخول مكة لغير المسلمين.. ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا**﴾[٣]، فهو يندرج تحت حق أعضاء الأمم المتحدة في تقرير مصيرها، وليس للأمم المتحدة حق التدخل في الشئون الداخلية لها[٤].

---

(١) الميثاق الدولي لحقوق الإنسان: المادة ٢٦: ٣ . والاتفاقيات الدولية الخاصة بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ١٣: ٣ .

(٢) انظر: موطأ مالك، كتاب الجامع.

(٣) التوبة: ٢٨ .

(٤) ميثاق الأمم المتحدة، المادة الثانية، الفقرة ٧ .

الإشكاليات وطبيعتها:

لقد تبين فيما سبق أن الحدود التي ينبغي للمسلم ألا يتجاوزها أو يتجاهلها واضحة على وجه العموم، وكذلك القاعدة في التعامل مع الآخر. وتتمثل هذه الثوابت في أركان الإيمان وأركان الإسلام والواجبات وما يترتب عليه عقوبة عند التقصير فيه، واجتناب الحرام فيما يتعلق بحقوق الله وحقوق العباد. أما بقية التعاليم الإسلامية فيمكن إدراجها في الخصوصيات، وإن كان بعضها يدخل في المكروهات، ولكن لا تترتب عليها عقوبات منصوصة.. فهل الثوابت الإسلامية عقبة في سبيل التعايش السلمي؟

يتضح من الاستعراض السابق أن الثوابت الإسلامية بصفتها مبادئ في المعتقدات والعبادات ومعاملات حسب الفهم الصحيح للإسلام، وفي ظل التجارب الطويلة لا تشكل عقبة في سبيل التعايش السلمي ما دام الآخر منصفًا ومتعاونًا، ويساعد على ذلك ما تتمتع به التعاليم الإسلامية من مرونة بسبب بعض الاختلافات المشروعة في مصداقية بعض النصوص أو في فهمها، أو في تشخيص واقع القضية الفقهية، أو في تفاصيل طريقة التطبيق. ومثال ذلك توقف عمر بن الخطاب ط عن تطبيق حد القصاص في عام المجاعة، وعلى العبيد الذي سرقوا ناقة سيدهم لأنه كان يجوعهم[١]، وكذلك إسقاط "الجزية" عن نصارى بني تغلب وأخذه ضِعْف الزكاة منهم[٢]، واعتراضه على منح أحد الكافرين من نصيب المؤلفة قلوبهم؛ وذلك حماية للمسلمين من استغلال الآخر لسماحة الإسلام.. بيد أنه لا بد من التفريق بين التوقف عن تنفيذ الحكم لغياب شرط من شروط تطبيقه أو التعديل الخفيف لتحقيق مصلحة عامة متيقنة وبين إلغاء الحكم الشرعي.

---

(١) مسند الإمام الشافعي: ١/٢٢٤ .

(٢) الخراج: ص ١٢٩-١٣٠ .

أمـا في مسـتوى التـفـاصـيل وعند تطبـيق هـذه الثـوابت فـقـد تنتج بعض الإشكاليات، ويحدث ذلك ليس بسبب الثوابت ولكن بسبب عوامل متعددة بعضها يعود إلى المسلمين، وبعضها يتسبب فيها الآخر، وبعضها يتسبب فيها أفراد أو جماعات باعت نفسها للشيطان من أجل السلطة أو المال أو الجاه؛ فهناك قوى خفية خبيثة تتمثل في الصهيونية العالمية، وهناك أصحاب سلطة سياسية، ونفوذ ديني ومـال لا يهـمـهم إلا الحصول على المزيد منها، ومسـتـعـدون لإثارة الفتن والقلاقل، وأن يضحوا بالإنسانية كلها من أجل تلك المصالح الشخصية.

وسيتم استعراض هذه العوامل في التقسيم التالي: الحكومة الإسلامية، وحكومة الآخر.

الحكومة الإسلامية:

قد يخطر في الذهن أنه ما دامت السلطة في يد الأغلبية المسلمة فليست هناك إشكاليات في التعايش السلمي على الأقل في المستوى المحلي. بيد أن هذا المخاطر سرعان ما تتبدد عندما يدرك المسلم أن العزلة -حتى بالنسبة للدولة- مستحيلة، وأن الاستقلال أمر نسبي حتى بالنسبة للدولة العظمى.

وهذه العوامل وغيرها تتسبب في إشكاليات كثيرة في التعايش السلمي حتى عندما تكون السلطة في يد المسلمين ويصعب حصرها لأنهما متجددة. ولهذا ربما كان من الأفضل محاولة وضع أيدينا على بعض العوامل الرئيسة التي تسهم في صناعة هذه الإشكاليات، بدلا من محاولة حصرها. فلعل ذلك يسهم بطريقة أفضل في تشخيص الداء على الأقل؛ فهي الخطوة الأولى تجاه التعرف على طبيعة هذه الإشكاليات وعلاجها. وقد أسهم في إيجاد هذه الإشكاليات الجديدة والمستمرة عوامل عديدة، منها:

١- تهاون كثير من المسلمين في تطبيق التعاليم الإسلامية في الحياة الخاصة والعامة، لا فرق بين مستوى أصحاب السلطة وعامة الشعب؛ وهو ما أدى إلى إباحة الحرام، ومثاله: إصدار قانون بنزع الحجاب في أثناء العمل الحكومي، وفي

المدارس الحكومية في تركيا. وهذا الواقع جعل مهمة التمسك بالتعاليم الإسلامية صعبًا على مستوى الأفراد وأكثر صعوبة على مستوى الجماعة.

٢- انتشار الجهل النسبي بالتعاليم الإسلامية بسبب الانكباب على حفظ بعض الفتاوى الجزئية التي تولدت عن واقع يختلف عن واقعنا المعاصر، والقصور عن استقراء القواعد العامة الثابتة، وبسبب إهمال كثير من الدول الإسلامية في توفير المعلومات الدينية اللازمة بصورة كافية أو مناسبة في مرحلة التعليم العام.. ولعل أبرز مثال لهذا النوع من الفتاوى: منع بعض علماء السلف الشراكة بين المسلم والآخر إلا أن تكون الإدارة في يد المسلم. فلو عاش العلماء الذين أفتوا بهذا إلى يومنا هذا فربما وجدوا مسوغًا قويًا لتغيير فتاواهم هذه. فالعالم اليوم يعيش شبكة من الأنشطة التجارية والصناعية بالغة التعقيد، يصعب فيها تحقيق هذا الشرط، إلا أن يقول المسلم: سأطبق التعاليم الإسلامية على ما في يدي من جزء أو مرحلة. (المصنوعات التي يتعاقد عليها المسلم بالشراكة ليتم إنتاجها في الخارج أو يتم استكمال صناعتها في البلد المسلم، مثل عقود الاستثمار التجاري أو الصناعي وربما الزراعي أيضا مع الشركات التابعة للآخر).

٣ - ردود الفعل الهوجاء على الجهود العدائية للقليل من الآخر، إما بسبب غلبة الحماس العاطفي، وغياب الحكمة، أو بسبب الجهل بحقيقة تعاليم الإسلام. وهذه تقدم وقودًا جيدًا للفتن التي يحاول الأعداء إثارتها لهدم جهود التعايش السلمي والإيقاع بالمسلمين كما حصل بالنسبة للرواية التافهة لسلمان رشدي، ولأحداث ١١ سبتمبر، وللرسوم التي تسخر من شخصية الرسول ﷺ؛ فكثير من المسلمين الذين يشاركون في الاحتجاج على مثل هذه الأعمال العدوانية -بطريقة لا يقرها الإسلام- قد لا يعرفون عن الإسلام إلا القليل، وقد لا يؤدون حتى الفروض، ولا يتجنبون الكثير من الحرام.

٤ - افتقاد القوة اللازمة لتنفيذ الشرع؛ إما بسبب الفرق المتناحرة أو لقوة شوكتها. ومثال ذلك: توقف علي بن أبي طالب أو تأجيله تنفيذ حد القصاص على قتلة عثمان بن عفان ظلمًا وجورًا أو من ساهم فيه؛ بسبب انعدام القوة اللازمة لمواجهة القتلة.

٥- القوة الطاغية لوسائل الإعلام اللادينية التي قد تسهم في إفساد الشعوب بقصد أو بغير قصد، ولا سيما أن لديها قدرة عظيمة على تصغير شأن الأحداث التي تتجاهلها وتعظيم شأن الأحداث التي تهتم بها.

٦- انعدام التوازن بين دول العالم في القوة العسكرية والاقتصادية، حيث أصبحت دول قليلة -بل دولة واحدة -تتحكم في العالم حقيقة أو وهمًا، فتتدخل بطرق سافرة في التعليم الديني للبلاد الإسلامية. وقد تتدخل بالقوة العسكرية وتحتل بلدًا إسلاميًا كما حدث في أفغانستان. وتؤثر الدول العظمى في الأوضاع الداخلية للدول الإسلامية بطرق شتى، مثل التهديد الاقتصادي والتهديد العسكري الذي يستند إلى التقدم الصناعي لديها (ومثال ذلك: المعاملات المالية التي تشبه الربا، وإعانة المنشقين المنحرفين محليا ضد النظم)، والتدخل في المناهج الدراسية الخاصة بالإسلام؛ لإرغامها على التخلي عن بعض تشريعاتها الإسلامية.

الحكومة غير الإسلامية:

لقد اكتسحت العلمانية المعتدلة دول العالم فخففت من ظاهرة الاضطهاد الديني المكشوف أو المبطن لفترة زمنية طويلة؛ فالنظام العلماني المعتدل لا يعبأ بالمعتقدات والعبادات ما لم تؤثر بطريقة سلبية على إدارتها لشؤون الحياة العامة. وبهذا اختفت بعض إشكاليات التعايش السلمي في النظم العلمانية أو خفّت حدّتها حتى أحدثت انتكاسة كبيرة للتعايش السلمي في كافة أنحاء العالم، وهدمت جهود عشرات العقود التي بذلها الآلاف من المسلمين والآخر المحايد. وقد استغل الإعلام المعادي هذه الأحداث بصورة بشعة، وتناقلتها وسائل الإعلام الأخرى بصورة غبية.

بيد أن انتشار الفكر العلماني أدى إلى إشكاليات مبطنة تحت ثوب "الحرية الفردية" التي أخذت تحطم حواجز القيم الأخلاقية والدينية، فأدى إلى المروق من الأديان -ومنها الدين الإسلامي- باعتبار هذا المروق تطورًا فكريًا وسلوكًا

طبيعيًا، وليس باعتباره تمردًا على الله سبحانه وتعالى وعلى أوامره! فظهرت إشكاليات جديدة لا تقتصر آثارها السلبية على التعايش السلمي مع الآخر فحسب، بل وبين المسلمين أنفسهم.

ومن إشكاليات التعايش السلمي في البلاد التي تسيطر فيها الأغلبية العلمانية ما يلي:

١ - ما تفرضه حكومة الآخر (الأغلبية) على الأقلية من نظم تتدخل حتى في الشؤون الشخصية، ومثاله منع الحكومة الفرنسية استعمال حتى الحد الأدنى من الحجاب الإسلامي في أثناء العمل في المؤسسات الحكومية وفي المدارس العامة، وحرمان المواطن المسلم والمواطنة المسلمة من الاستفادة بالمدارس الحكومية لتنمية المعلومات اللازمة عن دينهم، مع أنهم يسهمون في إنشاء هذه المدارس وفي تشغيلها بدفع الضرائب المقررة.

٢ - عدم وجود ضابط خارجي تحتكم إليه الأقلية أمام طغيان الأغلبية في النظام العلماني، وهذا قد يتسبب في فرض ظروف قاهرة على الأقلية المسلمة تمنعها حتى من ممارسة عباداتها بصورة كاملة، أو تطبيق تعاليم الإسلام في حياتها الشخصية، مثل الحالة التي عاشتها الأقلية الإسلامية في الدول الشيوعية عندما كانت في عنفوانها.

٣ - الآخر ليس دائما متحيزًا، وليس دائما معاديًا للإسلام وللمسلمين، بل الحقيقة تقول: إن الغالبية محايدون، ولكن لهم مصالح ومواطنون يَغِيرون على مصالح أوطانهم، وينتسبون إلى أديان وفلسفات يغارون عليها إذا تعرضت للهجوم. ولهذا فإنه من السهل وقوعهم ضحايا للخبثاء منهم، ولا سيما إذا كان المسلمون يوفرون للخبثاء كثيرًا من المبررات لمعاداة الإسلام والمسلمين.

٤ - وعلى مستوى المجتمع والمؤسسات الخاصة، فإن التعامل بالربا بأشكاله المختلفة متغلغل في الأنشطة الاقتصادية بحيث يصعب التخلص منه، ولا سيما مع الحضارة التي تسيطر فيها المادية والجشع المادي. ومثال ذلك: أن كثيرًا من صغار المزارعين مثلا لا يجدون سبيلا إلى تسويق منتجاتهم ما لم يقترضوا بالربا

من الشركات الكبيرة التي تقوم بتوزيع المنتجات، حتى وإن كانوا قادرين ماديًا ولا يحتاجونه. وضرورة التعامل مع البنوك الربوية هي إشكالية متأصلة على مستوى التجارة العالمي؛ وهي تظهر بصورة مختلفة، وأقلها الضمانات البنكية.

أبرز أسباب الإشكاليات:

ولعل أبرز أسباب إشكاليات التعايش السلمي في العصر الحاضر تتمثل في:

أولا: قصور فهم بعض المسلمين للتعاليم الإسلامية الخاصة بالعلاقة بين المسلمين والآخر، ومثاله قول بعض المسلمين من الباحثين: إن البراءة من الكافرين أصل من أصول الدين، وأن البراءة تعني البغض والعداوة بالقلب، ولكن الإسلام يحث على حسن التعامل مع الكافرين غير المعادين وبرِّهم[1].

وهذا القول يثير عددًا من التساؤلات، منها:

١- ما الفرق بين النفاق وبين إخفاء البغض في القلب وإظهار حسن المعاملة، إذا لم يكن المسلم مضطرًا إليه؟

٢- هل يعقل أن يأمر الله -سبحانه وتعالى- المسلم بأن يتعبده بالنفاق؟

٣- إذا كان الجمع بين البغض في القلب وحسن المعاملة في الظاهر ممكنًا على وجه الافتراض، فهل من الممكن الجمع بين سلوكين (حسن المعاملة والتجاوز والظلم) متضادين في آن واحد؟

ولعل ظاهرة التعبير بالعنف التي وجدت طريقها إلى المملكة العربية السعودية كانت سبب التوسع في هذا الفهم بين بعض المحتجِّين بشدة على تسلط بعض

(١) انظر: (الولاء والبراء للقحطاني) صفحات ٤٠، ١٣٢، ١٣٦، ٣٥٢، ٣٧٢ . (الولاء والعداء للطريقي) ص ٢٤، ٣٢ . التساهل مع غير المسلمين للطريقي: ص ٤ . الإسلام وتقنين الأحكام للقاسم: ص ٦٧-٧٣ .

الدول "الديمقراطية" العظمى على بقية أعضاء هيئة الأمم المتحدة، ولا سيما البلاد الإسلامية ولصالح "إسرائيل"، الدولة الوحيدة في العالم التي بنت أسسها على التعصب الديني الأعمى.

ثانيًا: ضعف معرفة الآخر بالإسلام بسبب تقصير كثير من المسلمين في نشره وفي تطبيقه، وتتمثل أبرز الأمثلة على هذا التقصير فيما يلي:

١- قلة الكتب الشاملة المناسبة التي تعرف بالإسلام؛ فكمية كبيرة منها تتناسب مع البيئات الإسلامية، ولكنها غير مناسبة لبيئة الأقليات الإسلامية من حيث محتوياتها وصياغتها بسبب أسلوبها الدعائي (في نظرهم)، أو بسبب موضوعاتها التي لا تهم الغالبية من أصحاب الديانات والفلسفات الأخرى.

٢- قلة الترجمات المتوافرة بلغات العالم للكتب المناسبة التي تخاطب الأقلية المسلمة أو غير المسلم.

٣- ضعف الاستعداد لاستغلال الفرص الدعوية سواء المتوافرة يوميًّا أو الفجائية، مثل زوبعة الرواية التافهة من حيث المحتوى والأسلوب لسلمان رشدي، وزوبعة ١١ سبتمبر، وزوبعة الرسوم الكاريكاتيرية الدانماركية... فهذه الزوابع عادة تثير موجة عظيمة من الاهتمام أو الفضول للتعرف على الإسلام، ولكن القراء لا يجدون إلا كتبًا غير مناسبة لهم وإن كانت تمثل وجهة النظر الإسلامية، وكتبًا جيدة الصياغة والإخراج تشوه بعض التعاليم الإسلامية.

ثالثًا: مكايد بعض الفئات والأفراد الذين لا يكفون عن نشر الفتن بين الناس من أجل المزيد من المال والسلطة والجاه، ومثال ذلك أحداث ١١ سبتمبر التي تكوَّن حول مدبريها ومنفذيها روايتان رئيستان:

١- الرواية الأولى التي نشرتها الحكومة الأمريكية وحاولت جاهدة إثبات صحتها، وخصصت موقعًا على شابكة الإنترنت للدفاع عنها. وتقول هذه الرواية: إن بعض المسلمين هم الذين خططوا لأحداث ١١ سبتمبر وقاموا بتنفيذها. وهذه الرواية هي التي تناقلتها معظم وسائل الإعلام المحلية والدولية، ولا سيما القوية،

باعتبارها حقائق مؤكدة، وهي الرواية الأكثر شعبية حتى بين المسلمين المتهمين بالحادثة.

٢- الرواية الثانية التي تقول: إن ما حدث مؤامرة سياسية نفذتها عصابة تتكون من الاستخبارات الإسرائيلية، وعناصر ذات نفوذ في الجيش الأمريكي، وفي الاستخبارات الأمريكية، وربما استفادت من خدمات بعض المسلمين الغاضبين على أمريكا بدون أن يعلموا أنهم جزء من خطة لا يتحكمون فيها.

وكان لكل رواية المصدقون والمؤيدون لها، ولكل فريق أدلته القوية أو الضعيفة، فقامت وسائل الإعلام بتغطية أخبار الرواية الأولى مما توافر لديها من قصص واقعية أو وهمية أفسدت جهوداً كثيرة متفرقة ومتنوعة ولسنين طويلة لإيجاد بيئة مناسبة للتعايش السلمي بين "نحن" و"الآخر". ومع أن أدلة الرواية الثانية كانت أقوى إلا أن صوتها كان ضعيفاً، فلم يكن لها أثر يذكر.

ومما يثير العجب أن الذين تقبلوا الرواية الأولى من المسلمين انقسموا إلى قسمين: مفاخر بها ويؤلف قصصاً ليسندها، ومتخاذل ينادي بكتابة خطابات اعتذار للحكومة الأمريكية. والأكثر إيلاماً للمسلم أن يرى كثيراً من المسلمين يصدقون الأخبار المدسوسة أحياناً تصديقهم للقرآن الكريم والسنة النبوية الموثّقة، وإن كانت ضد إخوانهم من المسلمين، وتحتمل أن تكون أخباراً كاذبة غير مقصودة أو افتراءات مدبرة.

قائمة المصادر

١- ابن هشام: سيرة ابن هشام، تحقيق سعد طه عبدالرؤوف، السيرة (بيروت: دار الجبل -١٩٧٥م).

٢- إسماعيل، سعيد: تساؤلات جدلية حول الإسلام وتعليقات (المدينة المنورة، مكتبة دار الفجر الإسلامية، ١٤٢٦هـ).

٣- الأمم المتحدة: ميثاق الأمم المتحدة والنظام السياسي لمحكمة العدل الدولية (نيويورك: مكتب الإعلام العام).

٤- ابن القيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، تحقيق وتعليق صبحي الصالح، ط ٣، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٣م).

٥- ابن القيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٣٩٩هـ).

٦- ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، (بيروت: دار صادر، ١٤١٢هـ).

٧- أبو زهرة، محمد: أصول الفقه (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٥٨م).

٨- أنيس إبراهيم وعبد الحليم منتصر وعطية الصوالحي ومحمد خلف الله: المعجم الوسيط، ط ٢ (القاهرة: دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٢ هـ).

٩- أحمد بن على بن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ترقيم وتصحيح ومراجعة محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب، وقصي محب الدين الخطيب (القاهرة: دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ).

١٠- تشينغ شي، تشونغ، كل شيء عن الصين (بكين: دار النشر باللغات الأجنبية، ١٩٨٨م).

١١- خلاَّف، عبد الوهاب: علم أصول الفقه (الكويت: دار القلم - ١٩٤٢م).

١٢- الربيعة، عبد العزيز عبد الرحمن: علم أصول الفقه (الرياض: المؤلف - ١٩٩٦م).

١٣- الزحيلي، وهبة: أصول الفقه الإسلامي (دمشق: دار الفكر - ١٩٨٦م).

١٤- سعد، طه عبد الرؤوف: السيرة (بيروت: دار الجبل - ١٩٧٥م).

١٥- الحلبي، علي بن برهان الدين: السيرة الحلبية في سيرة الأمين والمأمون (دار المعرفة).

١٦- الصالح، صبحي: أحكام أهل الذمة (تحقيق وتعليق) لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ط ٣ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٣م).

١٧- صيني، سعيد إسماعيل: حقيقة العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠ هـ).

١٨- صيني، سعيد إسماعيل: تأصيل الحوار من المنظور الإسلامي (مسودة بحث لتقديمه في مؤتمر "ملتقى خادم الحرمين الشريفين في أمريكا" الذي كان مقرراً أن ينعقد في واشنطن العاصمة بين ٧-٨ مارس ٢٠٠٣ ولم ينعقد).

١٩- صيني، سعيد إسماعيل: كيف نشرك غير المسلمين في الإسلام؟ (الهفوف: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ١٤٢٣هـ).

٢٠- الطريقي، عبد الله إبراهيم علي: الاستعانة بغير المسلمين في الفقه الإسلامي، (الرياض: المؤلف، ١٤٠٩هـ).

٢١- القاسم عبد الرحمن عبد العزيز: الإسلام وتقنين الأحكام (المؤلف - ١٣٩٧هـ).

٢٢- القرضاوي، يوسف: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي (بيروت: مؤسسة الرسالة-١٤٠٥هـ).

٢٣- المجمع الفقهي: بيان مكة المكرمة (مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).

٢٤- الميثاق الدولي لحقوق الإنسان: المادة ٢٦ : ٣، الاتفاقيات الدولية الخاصة بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ١٣، ٣ .

٢٥- مالك، الإمام مالك بن أنس: الموطأ، تصحيح وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية).

٢٦- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري: صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (دار إحياء الكتب العربية - ١٣٧٤هـ).

٢٧- محيسن، محمد محمد محمد سالم: حقوق الإنسان في الإسلام ووثيقة إعلان حقوق الإنسان في الأمم المتحدة (المدينة المنورة: المؤلف، ١٤١٢هـ).

٢٨- الندوي، أبو الحسن على الحسيني، السيرة النبوية، ط ٨، (جدة: دار الشروق- ١٤٠٩هـ).

٢٩- الوطن، صحيفة: عدد الثلاثاء -٨ محرم ١٤٢٧هـ.

محتويات البحث

إشكالية
التعايش السلمي
بين الثوابت والخصوصيات

أ/ نوال السباعي

مفكرة وكاتبة مقيمة بإسبانيا

(١)
تحديد المصطلحات

تحديد المصطلح هو الخطوة الأولى للانطلاق نحو فهم العلاقة بينه وبين المصطلحات الأخرى، ومن ثم فهم طبيعة الموضوع الذي نحن بصدده.

إننا أمام ثلاث كلمات مختلفة -على الرغم من تعلقها ببعضها في موضوع بحثنا- تستعمل اليوم كاصطلاحات ثقافية وفكرية وسياسية، وهي على غاية من الأهمية والخطورة، يستعملها جميع المشتغلين -ادعاءً أو خبرة-بالفكر والثقافة والسياسة باعتبارنا نعيش في عصر العولمة في مطلع القرن الواحد والعشرين الذي برزت فيه قضايا "إعلامية " في غاية من الأهمية والخطورة لتكون مادة حوار إعلامي عالمي، من ذلك حوار وصدام الحضارات، الحرب والسلم، الثوابت والخصوصيات، وبالطبع الاندماج والتعايش.

وحتى لا يختلط الحابل بالنابل، كما هو الحال في معظم ما كُتب حول هذه الموضوعات، فإن مهمتي في هذا البحث ستتحدد في ثلاثة محاور لنسج خطته:

أولاها: إعادة إنتاج المادة ذاتها -التي قيل فيها الكثير جدًا- وصياغتها بحيث تخدم توجها فكريًا واضحًا وصريحًا.

وثانيتها: محاولة تحديد المصطلحات بشكل لا يقبل اللبس.

وثالثتها: طرح الأسئلة واستثارة الفكر للبحث عن الأجوبة الضائعة في مئات من البحوث والمقالات والكتب التي تزخر بها المكتبات والشبكة العنكبوتية والتي تشكل باللغة العربية متاهة لا تزيد طالب العلم إلا ضياعًا وتخبطًا في هذا المجال.

لكي نستطيع بناء جدل بنّاء في بحثنا هذا لا بد من البحث عن تعريف علمي دقيق واضح يقبله المختصون لكل من الكلمات الثلاث التي يدور عليها بحثنا، وخاصة أن «المصطلح الإسلامي شكل دائمًا أحد الرموز الثقافية المهمة الدالة

على خصوصية هذه الأمة، وكان دائمًا أحد الدلالات الأساسية لهويتها الحضارية»[١].

يعرَّف المصطلح بأنه «الكلمة أو الكلمات التي يتفق أهل الاختصاص على ضرورتها لأداء مدلول معين في بنية النسق المعرفي المميز لعلم من العلوم أو ثقافة من الثقافات، ويعتبر المصطلح الخطوة المهمة الأولى لوضع منهج جديد في الفكر الاجتماعي، وهو النواة والبذرة للمنهج» [٢].

أ - التعايش:

جاء في القاموس الموسوعي الإسباني أوثيانو طبعة ١٩٩٦: التعايش من العيش، والتعايش هو العيش برفقة آخر أو آخرين، العيش مع بعض، صناعة الحياة الزوجية بين رجل وامرأة.

أما المعجم الوسيط فجاء فيه: تعايشوا: عاشوا على الأُلفة والمودة، وعايشه: عاش معه، والعيش معناه الحياة وما تكون به من المطعم والمشرب والدخل.

يقول د. عبد الرحمن التويجري في كتابه (السلام والتعايش مع الأديان): «إذا دققنا في مدلولات مصطلح التعايش CIEXISTENCE الشائع هذا العصر، والذي ابتدأ رواجه مع ظهور الصراع بين الكتلتين الشرقية والغربية اللتين كانتا تقسمان العالم إلى معسكرين متناحرين قبل انهيار الاتحاد السوفييتي وسقوط جدار برلين، فإن البحث في مدلول هذا المصطلح يقودنا إلى جملة من المعاني المتضاربة التي يمكن تصنيفها في ثلاثة مستويات:

❖ **سياسي فكري:** يحمل معنى الحد من الصراع،أو ترويض الخلاف، أو العمل على احتوائه، أو التحكم في إدارة الصراع بما يفتح قنوات للاتصال والتعامل

---

(١) حسين محمد تقي الدين، فقه المصطلحات في الإسلام -بتصرف.

(٢) المصدر السابق.

الذي تقتضيه ضرورات الحياة المدنية والعسكرية. وهذا أول معنى عُرّف به التعايش كمصطلح، وربما يكون أكثر التعريفات دقة وموضوعية وواقعية.

❖ **اقتصادي:** تعايش يتعلق بعلاقات التعاون بين الحكومات والشعوب فيما يتصل بالمسائل القانونية والاقتصادية والتجارية.

❖ **ديني ثقافي حضاري:** وهو الأحدث، والمراد به أن تلتقي إرادة أهل الرسالات السماوية، والحضارات المختلفة في العالم من أجل السلام والأمن (١).

ب - الثوابت:

الثابت "في القاموس المحيط" هو المشدود الذي لا حراك به، و"ليثبتوك": أي ليجرحوك جراحة لا تقوم معها، ثم جاء في الحاشية ما هو أهم مما جاء في المتن في هذا الباب: ثبت -من الإثبات- هو الحجة الثقة في روايته، وفي المصباح: رجل ثَبْت: متثبت في أموره، وفي حديث قتادة بن النعمان "بغير بينة ولا ثبت". وفي حديث صوم يوم الشك "ثم جاء الثبت أنه من رمضان" والثبت بالتحريك "الحجة والبينة" (٢).

ويعد تعريف هذا المصطلح بالذات -بل تحديد تعريفه- أمرًا على غاية من الأهمية، لأنه من بين المصطلحات كلها أمر يتوقف عليه فهمنا لمصطلح الحضارة والثقافة والخصوصية، كما يتوقف عليه سير بحثنا هذا وفهمنا لطبيعة التعايش والمفاهيم المتعلقة به، ونجد كذلك -عند تعرضنا لهذا المصطلح-أننا أمام معضلات فكرية اصطلاحية فقهية حقيقية، ليست مهمتنا ولا اختصاصنا الخوض فيها، لكن واجبنا ومهمتنا أن نتوجه لطرح الأسئلة الضرورية في هذا الاتجاه:

---

(١) فقه المصطلحات في الإسلام -بتصرف.

(٢) القاموس المحيط، ص١٩١ .

❖ ما المراد بالضبط من هذا المصطلح في الإسلام؟

❖ من "هو" أو "هم" الذين يحق لهم، ويجب عليهم تحديد هذا المصطلح؟

❖ ما العلاقة "الثابتة" بين "ثوابت الأمة"، وأسس بنائها "الحضاري " من جهة، وبينها وبين الوضع "الثقافي " الراهن الذي تعيشه في هذا الزمان بالذات من جهة أخرى؟

أمرٌ آخر في غاية الأهمية يثيره الاجتهاد في تحديد مصطلح "الثوابت "، ونطرحه هنا على شكل سؤال أيضًا: هل يدخل القياس والإجماع في إطار الثوابت، كما هو الحال في القرآن الكريم والسنة المطهرة، وكيف يكون هذان المصدران من مصادر التشريع أو ما ينتج عنهما من فكر واجتهاد من الثوابت وهما خاضعان للطاقة الإنسانية المحصورة في مكان ما وزمان ما ؟

وقد سئل الشيخ الدكتور ناصر العمر: كثيرًا ما نسمع مصطلح "ثوابت " الأمة، فما ثوابتها وما متغيراتها؟ فقال: ثوابت الأمة هي النصوص القطعية الثابتة في الكتاب والسنة، وما أجمع عليه سلف الأمة، أما غيرها فينظر فيها. والثوابت إما أن تكون مطلقة وهي الثابتة في الكتاب والسنة أو الإجماع، أو أن تكون نسبية فقد يكون الأمر ثابتًا عند المجتهد ما لا يثبت عند غيره.

ج - المتغيرات:

أما المتغيرات فهي الوسائل، وهي ما تصح اليوم ولا تصح غدًا، هذه من الأمور التي يجوز أن تتغير نظرًا لتغير الزمان أو المكان أو الحال أو العوائد أو غيرها، هذه المتغيرات. أما الثوابت فلا تتغير منذ محمد ﷺ، وإلى أن يأتي عيسى عليه السلام قائمًا بشريعة محمد ﷺ، أما الثوابت النسبية فأمرها يسير، وتبقى الوسائل من المتغيرات. والمشكلة أننا نخلط بين الثوابت المطلقة والثوابت النسبية ونخلط بين الثوابت والمتغيرات، فحدث الانقسام الذي وقع [(١)].

---

(١) صحيفة الرأي العام الكويتية، الجمعة ١٣/١٠/ ١٤٢٥ هـ.

د - الخصوصية:

تتعلق كلمة "الخصوصية" دائمًا بكلمة "الثقافة " والتي يشيع فهمها العلمي على أنها "مجموع نظم التصرفات الاجتماعية والأخلاقية التي أوجدها شعب أثناء تاريخه [١]. وجعلها بعدًا من أبعاد الوجود "القومي " أو "الملي " - الديني- فتحولت -مع الثبات وعدم القدرة أو الرغبة على التطوير- إلى مكتسبات في اللاشعور أو الضمير الجماعي لهذا الشعب. ولكل مجتمع في "جغرافية اجتماعية " معينة "ثقافة سائدة " معينة. إن الخصوصية الثقافية عنصر مؤثر وقوي في النظم الفكرية، وكل فكر مرتبط بثقافة معينة عند فرد من الأفراد يُعتبر الشكل الواضح للتعبير عن ذاته في إطار المرجعية المعنية[٢].

وتعرف الثقافة -وبالتالي الخصوصية الثقافية- عند شعب من الشعوب بأنها جميع الأحوال أو معظم السلوكيات الفردية والجماعية التي يعبر بها هذا الشعب عن: قيمه الأخلاقية، ومنطلقاته العقائدية، وأفكاره عن الوجود والإنسان والمخلوقات. أو بمعنى آخر: إن الخصوصية الثقافية لشعب من الشعوب هي المجموع العام لنتاج الفكر والفن والعرف والعادة والتعامل المستحصل على مرّ التاريخ في إطار الالتزام بالحس القومي أو الملي (الديني)" [٣].

ويعتبر مصطلح "الخصوصية " من أكثر المصطلحات التي يساء استخدامها وفق الهوى في أيامنا، حيث تستخدمها السلطات السياسية وكذلك الدينية والجماعات الفكرية والثقافية بكل توجهاتها والأحزاب والقوى المدنية بكل أطيافها، يستخدمونها جميعًا بأشكال متعارضة متضاربة لتبرير سلوكياتها السياسية والاجتماعية التي تريد أن تفرضها في المجتمع، كما تستخدم لتبرير كل الآراء التي تتبناها في الحياة.

---

(١) فتح الله كولن، حضارتنا ونحن نبني، بتصرف.

(٢) المرجع السابق -بتصرف.

(٣) المرجع السابق، بتصرف.

من اللافت جداً للنظر أن هذا الاستخدام الأناني لهذا المصطلح كان حكراً على المتنفذين في المنطقة العربية، فإذا بنا اليوم نجده وقد أصبح متداولا كذلك في أروقة السياسة والإعلام الغربييّن في محاولة لصد ما يدعي القوم أنه غزو إنساني منظم لأوربا عن طريق الهجرة.

ويعتبر مصطلح الخصوصية -على الرغم من الملاحظات السابقة-أفضل كلمة معبرة عن "التنوع " الذي هو شرط التفاعل "التعايش" مع الذات ومع الآخر (١).

وعلى أساس هذا التنوع يصبح للحقوق معنى، وللواجبات مكان، وهما أصلان رئيسان من أصول قواعد التعامل في إطار التعايش. فإبراز الخصوصية والحرص عليها يعني الرغبة في الحوار والتعاون، أكثر مما يعني التقوقع والانعزال (٢).

---

(١) حسام الدين السيد، التراث الثقافي ومنظومة القيم والأعراف السائدة -بتصرف.
(٢) المصدر السابق - بتصرف.

(٢)

بين الثوابت والخصوصيات وفهمنا لهما "الجاليات المسلمة في أوربا.. نموذجا"

هذه الإشكالية تتضح بجلاء بشكلها الخطير في رقعتين جغرافيتين في عالم اليوم، الخليج العربي وأوربا، لدى رصد انفجار هذا الكم الهائل من الأمراض الاجتماعية التي استشرت في منطقة الخليج العربي في الأعوام الأخيرة، وهو أمر يحتاج إلى كثير دراسة وبحث من قبل المقيمين في المنطقة المعانيين هذه الظواهر عن كثب، ولدى رصد طبيعة العلاقة اليوم بين "الجاليات المسلمة المهاجرة " وبين "المجتمعات الأوربية التي تمت الهجرة إليها" ولم أسمها "المجتمعات المستقبِلة للهجرة " لأنها لا تتصف بهذه الصفة، بل هي على العكس من ذلك تكره هذه الهجرة وترفضها ولا تعترف بفضلها في بناء البلدان والعمران بل والحضارة الإنسانية في المناطق المعنية. وهذا ما سيركز عليه بحثنا كمثال للدراسة.

لقد عاشت هذه الجاليات حقبة من الزمان تمتد من منتصف القرن العشرين وحتى أحداث الحادي عشر من سبتمبر في شيء من "السلام الاجتماعي " و"التعايش " مع المجتمعات الغربية التي تواجدت فيها، تعايشًا ناقصًا، لأنه كان يراد له أن يكون اندماجًا تذوب فيه الشخصية والخصوصية والهوية، كان هذا التعايش قسريًا أسسه الرئيسة صبر الجاليات المسلمة على الأذى والإهانات الفردية اليومية، والإهمال على كل الأصعدة، وخاصة في مجال الإعلام الغربي الذي تناسى تقريبًا وجود هذه الجاليات على هامش وجوده وكأنها طفيليات تنمو على حدود مدنه، دون أن يعيرها أي اهتمام ولا أي عرفان بالجميل. موضوعات كالامتناع عن شرب الخمر، وصوم رمضان، وعدم أكل لحم الخنزير، والحجاب، لم تكن تشكل مادة خطيرة تشجع أحدًا على الحديث عن صدام الحضارات،

كانت هذه مسائل تستدعي التندر من قبل الأوربيين في محافلهم ونواديهم، والمرات النادرة التي كان يثار فيها موضوع الإسلام في وسائل إعلامهم.

هذه الثوابت الدينية لم تشكل قط معول هدم في جسر التعايش بين الحضارتين الإسلامية والغربية، بل أكثر من ذلك كان الأوربيون في عامتهم وكذلك معظم وسائل إعلامهم تُكنّ احتراماً كبيراً لنضال الشعب الفلسطيني من أجل التحرر من الاحتلال الإسرائيلي، وكان لأحداث البوسنة والهرسك أكبر الأثر في استيقاظ مشاعر التعاون والتضامن الإنساني من قبل الأوربيين نحو ذلك الشعب المسلم.

هجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، ثم ما تلاها من الاعتداءات على قطارات مدريد يوم الحادي عشر من مارس ٢٠٠٤، وبعدها تفجيرات لندن ٢٠٠٥، قلبت ظهر المجن بالنسبة للجاليات المسلمة المقيمة في الغرب، بدا العرب "أي المسلمون" معتدين على الآخر، وتحلت المجتمعات الأوربية بالصبر في التعامل الجماعي القانوني مع المسلمين، على الرغم من القهر النفسي الخطير الذي بدأ يعانيه المسلمون في أوربا، على المستوى الفردي والإعلامي، وبينما كان المسلمون يرتكزون إلى شعورهم بالصبر على الأذى في تعايشهم مع الأوربي، انقلب الأمر فأصبح الأوربي هو الذي يرتكز إلى شعوره بتفوقه في التزام الصبر وضبط النفس في التعامل مع المسلم، وهنا برز تيار مأجور وبالغ الخطورة في وسائل الإعلام الغربية سَبَر أعماق الجاليات المسلمة المقيمة في أوربا، وبدأ يخرج كل ما فيها من عادات وتقاليد وعجائب اجتماعية ومآس إنسانية مما تمّ استعماله معولا جباراً في هدم كل شيء بدءاً بالقضاء على رغبة أي أوربي في وجود أي عربي في أوربا، وانتهاءً بتأكيد مقولة صدام الحضارات التي اعتُبر فيها كل عربي "أي مسلم" -الكلمتان متطابقتان في الضمير الأوربي- مشروع إرهاب ينتمي إلى الطابور الخامس المقيم بين ظهراني القوم.

مسائل كختان الإناث، والبرقع الأفغاني، وطرق ووسائل تطبيق الحدود بصورة وحشية غير إنسانية، منع البنات من إكمال تعليمهن، إرغام الفتيات على الزواج،

منع الإناث من ممارسة الرياضة في المدارس، المبالغة في سوء معاملة الزوجات والأولاد إلى درجة تلغى فيها إنسانيتهم وحريتهم الشخصية، عرقلة زواج الشباب وجعل الزواج طقسًا اجتماعيًا عائليًا تعجيزيًا من جهة، واستخدام قضية الزواج بالأخرى لإذلال الزوجة الأولى من جهة ثانية، مسائل كثيرة وشائكة لا علاقة لها بثوابت الأمة، بل هي من موروثات عادات وتقاليد الشعوب الإسلامية، على اختلاف مشاربها قد حملتها الجاليات التي تنتمي إلى هذه الشعوب معها إلى أوربا، مسائل مثل هذه أصبحت مبررات أساسية لدى المنظرين لمقولة الصدام بين الثقافات السائدة في أوربا وبين الثقافات العربية والإسلامية المهاجرة مع من هاجر إلى أوربا، ناهيك عن موضوع "الإرهاب " وما فتحه من أبواب تشخيص كل من هب ودب للأمراض الاجتماعية التي تفتك بالمجتمعات العربية "الإسلامية " وعلى رأسها العنف السائد سياسيًا واجتماعيًا وأسريًا وفرديًا.

أمور تنبثق بمجملها عن ثقافة المجتمعات الإسلامية عربية كانت أو غير عربية، عادات وتقاليد ورثتها غابرًا عن غابر، وخلطت بها فهمها لثوابت الإسلام وجعلتها دينًا من دون الدين، والدين منها براء، لو أننا عرضنا مجمل تلك العادات والتقاليد التي تشكل لحُمة هذه الثقافات على ثوابتنا الإسلامية لأسقطنا الغالبية العظمى منها في هذا العصر الذي بدت فيه الأمة الإسلامية عاجزة عن تشذيب ميراثها الثقافي، ورده إلى أصوله الحضارية الإسلامية ومنابعه الصافية.

هذه السلوكيات الثقافية الشاذة في معظمها والعاجزة عن التطور في إطار الثوابت وضرورات الزمان والمكان وحاجة إنسانهما، شكلت وتشكل أخطر وأهم عائق من عوائق التعايش بين الأوربيين والجاليات الإسلامية المقيمة في أوربا – التي استخدمنا العلاقة بين الطرفين فيها مجالا ومثالا لبحث قضية التعايش بين الثوابت والخصوصيات–، وقد أدت الحوادث الإرهابية الضخمة التي ضربت كلا من واشنطن ونيويورك ومدريد ولندن إلى تعميق هذا العائق، فعلى الرغم من تضارب النظريات والنظرات السياسية حول حقيقة الجهات التي تقف وراء هذه الهجمات، فإن الجميع يعرفون أن الأيدي التي نفذتها يحمل أصحابها أسماء وسحنات إسلامية، وسواء كانوا قد قاموا بهذه الهجمات من عند أنفسهم أم

مدفوعين بطريق التغرير من قبل جهات عالمية ضاق صدرها بتنامي الوجود الإسلامي في كل من الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا، فأرادت أن تفجر هذا الوجود وتزلزل أية إمكانية مستقبلية للتعايش، مهما كانت الجهة التي تقف وراء هذه الهجمات والخطط الجهنمية التي أعدت بها، والنتائج الوخيمة التي ترتبت عنها فإنه مما لا يقبل الشك أن هذه الأعمال دلت على أن اللغة الوحيدة التي يتقنها كثير من الشباب المسلم اليوم هي لغة العنف، هذا العنف الذي توارثوه عن ثقافة تمتد كالأخطبوط في أحشاء المجتمعات الإسلامية أقبح ما فيها أنها تدعي أنما تستمد مفاهيمها من القرآن والسنة ثوابتنا الأصيلة والأصلية، بينما هما منها براء...

أخطر ما في الأمر على الإطلاق أن المهيمنين على الإعلام الأوربي - ولا يوجد من لا يعرف من هو المهيمن على هذا الإعلام! - استخدموا هذه الخصوصيات الثقافية التي يحملها المهاجرون المسلمون المتواجدون في أوربا لدك حصون هذا الدين، مدّعين أن هذه الخصوصيات الثقافية ليست إلا ثوابت حضارية في هذا الدين الذي ملؤوا الآفاق صراخًا وهم يرددون أنه يغزو اليوم حضارتهم وأرضهم وخصوصياتهم بهمجية سلوكية غير مسبوقة.

إننا -ولا شك-أمام إشكالية أقل ما يقال فيها إنها خطيرة، يزيد من خطورتها عجز الجاليات المسلمة المقيمة في أوربا عن رد هذه الادعاءات وهذا العدوان الإعلامي المزلزل عليها، ويعود هذا العجز إلى سببين رئيسين:

أولهما: قلة وندرة الكوادر الإنسانية الموجودة في هذه الجاليات القادرة على الرد بالطرق السليمة والقنوات المتعارف عليها ثقافيًا وفكريًا وإعلاميًا.

وثانيهما: عجز معظم المسلمين اليوم عن فهم هذه الإشكالية أصلا. فمعظم الناس يخلطون بين الثوابت والخصوصيات، ومعظمهم لا يتجرأ على مناقشة الخصوصيات باعتبارها دينًا من الدين أو باعتبارها ذات مرجع إسلامي ثابت يربأ بنفسه عن التشكيك فيه أو مناقشته.. وكأننا في زمن هيمنة الكنيسة التي كانت تمنع العلماء والمفكرين والمخترعين من الكشف عن تلك الحقائق الكونية

التي يتوصلون لكشفها، خوفًا من تعارضها مع ما يكتظ به كتابهم "المقدس" في طبعته الأخيرة من أمور لم يكونوا يريدون لها أن يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. شتان شتان بين هذا الوضع الذي أدى إلى انهيار سلطة الكنيسة في القرن التاسع عشر، وبين ثوابت الإسلام التي تدعم العلم وترفده بالبراهين بل وتقدم له الإرهاصات، إلا أن هذا الإنجازات الهائلة -في مجال تلاقح الدين الإسلامي والعلم- قابلتها في الآونة الأخيرة إخفاقات هائلة اجتماعيًا وإنسانيًا في مجال المواءمة بين ثوابت الإسلام وثقافات أهله السائدة اليوم.

إن الإسلام كدين وحضارة لا يشكل ولم يشكل أبدًا على مرّ التاريخ أي عائق في وجه التعايش الإنساني مع الآخرين، إلا أن الثقافات العربية والإسلامية المعاصرة والسائدة اليوم هي التي تشكل هذا العائق، ليس في وجه التعايش مع الآخر فحسب بل في صميم تعايشها مع بعضها البعض من جهة ومع قيم حضارتها نفسها من جهة أخرى، هذا العائق الذي تجلى في انهيار كل نظرياتنا التربوية. وقد تجلى ذلك في ردود أفعال صبيانية - سواء على مستوى الدول "العراق" مثلا، أو على مستوى الجماعات والأفراد "القاعدة " مثلا - بررت للآخر تهافته العسكري المعاصر علينا في زمن بين زمنين بدا فيه وكأننا نتخبط على مفترق طرق الاستيقاظ والنهوض، فقدمت تلك الهجمات المنعطف الممتاز لزلزلة الأمة ومعها العالم كله، وكان هذا السبب الرئيس في هذا الحجم الهائل من الضغوط الأجنبية على العرب خاصة لتغيير مناهجهم التعليمية وأساليبهم التربوية.

ثقافاتنا السائدة اليوم أصبحت أخيرًا -ولله الحمد-موضع شك واختبار ومساءلة، وهي مسألة ليس فيها كثير سوء إلا بقدر جعل هذه المساءلة مبررًا لمزيد من التدخل الأجنبي والضغط على أعناق دول المنطقة العربية، وليس فيها ما يدعو إلى الخجل، غير أنها أتت من جهات أجنبية خارجية ولم تنبت من داخل المجتمعات الناطقة بالعربية.

إذا نحينا جانبًا في هذا البحث قضية الأحقاد المتوارثة المتبادلة بين أوربا

والمسلمين بسبب الاستعمار والغزو الثقافي وقضية فلسطين - وهو أمر يصعب جدًا على الباحث أي باحث أن ينحيه جانبًا - فإننا يمكن أن نتحدث عن الثقافات السائدة في مجمل البلدان العربية ثم الإسلامية بأنها أصبحت اليوم تشكل عائقًا - من طرفنا على الأقل بمعنى نصيبنا من المسؤولية- في وجه نمو عملية التعايش مع الآخر، لأنها وبكل بساطة تصطدم ومباشرة بقناعات هذا الآخر "الأوربي" وتصوراته الأساسية عن الإنسان والحياة، دليل ذلك أن الناس في أوربا وفي غير أوربا يدخلون في دين الله أفواجًا، ولكن على الرغم من كونهم أفواجًا إلا أن تشكُّل كل فوج منهم تمّ بصورة فردية بحتة، عن طريق قناعات فردية، واجتهاد شخصي فردي، وعلاقات إنسانية فردية، مع جهات أو أفراد أو مصادر يمكنهم أن يقدموا للآخر صورة الإسلام الصحيحة دين الله الحنيف كما نزل، وهذا الدين بأصوله وثوابته العقائدية والحضارية والإنسانية هو دين الله الذي يقدم كل الأجوبة اللازمة لكل الأسئلة التي يمكن أن تطرأ على العقل الإنساني في أي زمان ومكان على وجه هذه الأرض وعلى مر العصور والتاريخ، وهو أمر لا يحتاج إلى برهان؛ حيث إن استمرار وجود الأمة الإسلامية بقيمها الحضارية حية فاعلة شابة حتى اليوم هو أكبر دليل على ذلك، ولكنه -قبل هذا وبعده- دليل لا يقبل الشك على القدرة الخارقة لهذا الدين على التعايش مع كل الشعوب والأقوام والحضارات والرسالات السماوية على هذه الأرض.

ثقافاتنا اليوم بمجملها ليست إلا النموذج الواضح على تقهقر التزام الأمة بدينها وثوابته، كما هو دليل على تنكبها عن النمو، وعجزها عن مواكبة دينها الذي نزل لكل إنسان وزمان ومكان، أي إغلاق باب الاجتهاد وتعطيل باب بذل الجهد .لقد تقهقرت القيم الأخلاقية الإسلامية الإنسانية في حياتنا لتحل مكانها أخلاقيات غير إنسانية وغير حضارية وغير إسلامية، وتشوه فهمُنا للإنسان والحياة، وفقدنا الشعور بقيم إنسانية أساسية كالحرية، ليس بسبب الاستبداد السياسي الذي يعم أطراف المنطقة العربية فحسب، بل بسبب استسلامنا لثقافة غير إسلامية تستمرئ استعباد الآباء للأبناء باسم البر، والكبار للصغار باسم الاحترام والتوقير، والقوي للضعيف باسم الولاء القبلي والطائفي.. وديننا هو

الذي قال قولته الإنسانية العظيمة تلك: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا»؟ ديننا هو الذي علم الإنسان أن يبر أباه، دون أن يلغي شخصيته، وأن يحترم معلمه دون أن يكون له عبدًا، وأن يوقر الولي دون أن ينبطح بين يديه ذلا. شتان شتان بين النور والظلمة، بين الثوابت الحضارية لديننا ومواريث الجاهليات المتراكب بعضها فوق بعض.

لقد حملت الجاليات المسلمة معها من بلادها كثيرًا من المفاهيم الثقافية البعيدة كل البعد عن الإسلام، ولم تطورها ولم تشذبها ولم تعرضها على الإسلام في كل مرة اصطدمت بها مع النظم الاجتماعية والإنسانية السائدة في أوربا، وقدمت للغرب هذا العجز والجهل وكأنه الإسلام (انظر إلى أحدهم في مخفر الشرطة الذي سيق إليه في مدريد لأنه ضرب زوجته حتى كادت تموت، انظر إليه وهو يقول للشرطية: ديننا أمرنا أن نضرب النساء! وأتيني بالقرآن لأريك الآية التي أمر الله فيها الرجال بضرب النساء! ثم انظر إلى آخر وهو يبرر هذا الموضوع وقد وصل إلى وسائل الإعلام ويكرر ما قاله ذلك المجرم بقوله إنه الأسلوب القرآني في تربية النساء!.

إن الأمر لا يتوقف على تمرير عاداتنا العنيفة من إطار الشرع، وطبع أخلاقنا الرذيلة بطابع الأوامر الإلهية ولكنه تجاوز ذلك إلى غباء ما بعده غباء في مخاطبة الآخر على قدر عقله وفهمه ونظرته إلى الأمور، وهذه مسألة أساسية كذلك في إطار التعايش. إن الآخر لا يحتاج إلى لغتك لكي يعيش معك ولكنه يحتاج إلى الشعور بأنك إنسان مثله، وهو أمر ثبت فيه عجزنا بامتياز، بسبب سقوطنا في هذه العثرة الحضارية التي طال أمدها مائة عام ظللنا في ظلامها نجتر أحزاننا، دون أن نبذل جهدًا لحفر الصخر بأظفارنا، في محاولة للصعود والقيام والبحث عن مخرج.

المشكلة لم تكن قط في ديننا وثوابته، المشكلة هي خصوصياتنا الثقافية الزاخرة بعادات وتقاليد كل الأقوام الذين دخلوا في الإسلام، والتي لم تُشذّب وتهذب لتصبح خاضعة للإسلام، بل إن الإسلام – في عصور انحطاط دولته –

هو الذي أصبح وللأسف رهينًا لهذه الثقافات، مرغمًا على المرور من ثقب إبرها التي لم تفلح -في أزمان الوهن- في غزل نسيج يسر الناظرين.

في ضوء هذا العرض عن العلاقة بين الثوابت والخصوصيات، وبين الجاليات المسلمة والدول الأوربية، يمكننا أن نتساءل: هل ما ندافع عنه مما ندعوه خصوصياتنا الثقافية هو العائق الرئيس في وجه تعايشنا مع أنفسنا ومع الآخرين، أم أن هذه الخصوصيات ليست إلا الاستجابة السلوكية الفردية والاجتماعية لفهمنا الشخصي المكاني والزماني لبعض أمور الدين التي لن نحسن تطوير نظرتنا الإنسانية لها بتطور الزمان والمكان؟! (مثال: مواقف العراق وسورية من الديمقراطية وأحاديثهما المكررة عن الخصوصية).

لقد اخترعنا -على مر عصور الانحطاط- قوانين اجتماعية لحماية المجتمع من انتشار الخطيئة أدت - مع مرور الزمان - إلى استفحال الخطيئة وبكل الاتجاهات والأشكال، بسبب عجزنا عن إخضاعها للمنظور الشرعي، الشيء الذي جعل من حياة الإنسان في المنطقة العربية - وما جاورها مثل أفغانستان وإيران وباكستان ومناطق الهند المسلمة - ضربًا من ضروب العذاب المستمر من المهد إلى اللحد: حرمان الإنسان رجلا كان أو امرأة من حريته الشخصية، سرقة قدرته على النمو وحقه في تقرير مصيره واختيار مستقبله، سلبه أبسط حقوقه الإنسانية، هذه الخصوصيات المحلية في أرض المسلمين جعلت أعداءهم "أو الآخرين" يأتونهم بخيلهم وركابهم مطبلين مزمرين بحقوق إنسان لا ينتمي إلى هذه المنطقة، إنسان منبت من الزمان والمكان والثوابت. (مثال: الحرمان من الزواج ممن تحب وتختار لا يرفض أن تقدم له حقوق الإنسان حقًا كلاميًا مجانيًا في ممارسة الرذيلة مع من شاء وكيفما يشاء).

ليس مجال بحثنا الحديث عن الثابت والمتحول في إطار الإسلام، ولكن.. استنهاض الهمم للعمل الحثيث لرد ثقافتنا إلى حضارتنا، عرض خصوصياتنا الثقافية على ثوابتنا الحضارية، رد الأمور إلى نصابها، خاصة فيما يتعلق بموضوع المرأة والتربية والحريات. إنني لا أتكلم عن فتح باب الاجتهاد على

مصراعيه للمختصين المجتهدين العلماء العارفين العاملين فحسب، ولكنني أعني بالكلام مجمل الإسلاميين في مختلف جماعاتهم ومشاربهم وتوجهاتهم؛ كي يقوموا بقراءة ناقدة للأوضاع الاجتماعية التي تحكمها العادات والتقاليد في بلادنا، نظرة نقدية من منظور إسلامي لا تدخل فيه الأهواء، ولا المصالح الشخصية أو السياسية، ولا العادات والتقاليد المحسوبة على الإسلام. وإنه لعمري لعمل ضخم هائل، فيه يكمن تجديد أمر هذا الدين في هذا العصر. ولا يخافن هؤلاء من الوقوع فيما يظنونه مصيدة التعارض مع النص، لأنهم عندما يتحلون بهذه الشجاعة سيكتشفون أن كل مشكلاتنا الداخلية والخارجية في مجال التعايش مع أنفسنا ومع الآخر إنما نشأت من سوء الفهم وليس من ثبات النصوص. إن نصوص ثوابتنا صُممت ليحيا الإنسان حرًا سعيدًا في ظل طاعة الله. أما ثقافاتنا اليوم فلقد صارت إلى قتل حرية الإنسان وسعادته ورغبته أصلا في الحياة. لا ينبغي لنا نحن الإسلاميين - كقيادات فكرية اجتماعية وربما سياسية في بعض بلدان المنطقة العربية على وجه الخصوص، وكطلائع فكرية اجتماعية للجاليات المسلمة الموجودة في أوربا (مدار المثل الذي نحن بصدده) - أن ننساق لمثل هذا الفهم الخاطئ والمغلوط لتعاليم ديننا السمح الحنيف.

وللأسف الشديد لقد أصبحت مقولة التمسك بالخصوصيات مرادفة للإفراط في الحديث عن الذات بطريقة مغايرة للواقع المعيش، كما صارت مرادفة لتعطيل النقد الذاتي، لكنها قبل ذلك وبعده استعملت هذه المقولة سوطًا بيد أصحاب السلطات جميعها، تستعمله كيفما شاءت ومتى شاءت لوأد أي فكر سليم يهدف إلى التغيير والإصلاح، وما ذلك إلا لحماية مصالح ذاتية ترسخت وتجذرت في النفوس(١).

(١) محمد علي النهاري، سياحة في المشروع الرابطي للإصلاحات الشاملة - بتصرف.

(٣)
نحن.. وضع المرأة المسلمة اليوم مثلا

لدى الحديث عن موضوع "التعايش" يتبادر إلى الذهن أنواع شتى من التعايش: هل هو التعايش مع الذات، أم التعايش بين فئات المجتمع المختلفة ؟ أم التعايش مع الآخرين الذين ينتمون إلى شعوب وقبائل أخرى؟

وعندما نقول "نحن" فما الذي نقصده بهذه "الكلمة" ؟ أم أنه "اصطلاح" ؟ هل المقصود بـ"نحن" مجموعة شعوب المنطقة العربية و الدول الإسلامية والتي بلغ تعدادها ربع سكان المعمورة؟ وإذا كان المقصود بكلمة "نحن " مجموع شعوب المنطقة العربية من المحيط إلى الخليج فينبغي أن نعرف ونعترف بأننا في هذه المنطقة بالذات نفتقد إلى أبسط عناصر السلام الداخلي، وإذا حصرنا حديثنا في المسالة الاجتماعية وجدنا أنه لا الإنسان متعايشا مع نفسه يشعر بالرضى والطمأنينة والحرية، ولا المجتمعات تتمتع بسلام اجتماعي يقوم على أساس استقرار السلوكيات الأخلاقية الاجتماعية الإسلامية.

كذلك فإن النخب العلمية والثقافية والفكرية والسياسية لا تخضع لشبكة علاقات متأصلة في ضمير المجتمع يلتزمها الجميع باحترام وحرية.

وإذا استثنينا من هذا البحث موضوع القضية الفلسطينية والصراع الإسرائيلي العربي الإسلامي خلال القرن المنصرم يبرز هذا الواقع جليًا في ظل صراع مرير وبالغ العنف عانت منه المنطقة العربية بين التيار الإسلامي والتيار القومي: الأول في مقام المعارضة الشعبية والفكرية والثقافية والمقاومة المسلحة في كثير من الأحيان، والآخر في موقع السلطة السياسية والعسكرية والإعلامية، وقد تمخض هذا الصراع -كما يعرف الجميع-عن خسائر، قليل في حقها أن نصفها بالفادحة ماديًا وإنسانيًا وثقافيًا وفكريًا.

لكن الانتفاضة الفلسطينية التي شهدها العالم بين قرنين، والأحداث الموازية

بالغة الأسف التي عانتها المنطقة بدءًا بغزو الكويت وانتهاءً بدخول الجيوش الغربية المنطقة العربية بعد أربعين عامًا من الاستقلال عن المستعمر، أدت إلى انعكاسات جذرية في صياغة الشخصية "العربية" الحديثة، أهم تجليات هذه التغييرات سقوط النظرية القومية العربية، على الأقل في ميزان النظريات السياسية الحية الفاعلة في تاريخ البشرية والشعوب، وتجلى ذلك في ظواهر وملامح مهمة لافتة:

● انبعاث النعرات القومية المتعددة على امتداد المنطقة العربية بدعم حثيث من الدول الغربية التي تبنت قضايا هذه الأقليات العرقية في إطار المطالبة بحقوق الإنسان في دول لا شيء فيها يعتبر للإنسانية أي ميزة، وحق تقرير المصير في منطقة تمور بالصراعات السياسية الاقتصادية المزلزِلة.

● وفقدان الدولة القطرية هيبتها على هامش التدخلات والضغوط الأجنبية الهائلة على حكومات المنطقة.

● تجاوز الشعوب في المنطقة العربية على وجه الخصوص للحركات الإسلامية (ما عدا الكويت، وفلسطين، والمغرب) بسبب عجزها عن تلبية حاجات الناس الاجتماعية على أقل تقدير، كما عجزها عن النمو والتطور في عالم يسير بسرعة خارقة نحو تغيير الأشياء والأفكار والخصوصيات (وليس الثوابت).

● بروز ما تواضع العالم على تسميته "الإرهاب الإسلامي" كمؤشر شديد الأهمية والخطورة على الساحة الدولية، مع التشديد على انبعاث نظرية المؤامرة من مرقدها لتكون أقوى منها الآن من أي وقت مضى، ناهيك عن الصمت العام فيما يتعلق بأسباب بروز هذه الظاهرة وتحليل أبعادها الاجتماعية والسياسية والفكرية، واعتبارها – من قبل الجميع – مجرد ظاهرة إجرامية يجب محاربتها والقضاء على أصحابها مهما كان الثمن.

● إلا أن أهم ملامح هذه الفترة كان –ودون أدنى شك– بروز تيارات فكر جديد في المنطقة العربية هو نتيجة تلاقح الفكر الإسلامي والفكر القومي اللذين كانا من ألد الأعداء بالأمس القريب جداً، لكن الصراع بين الطرفين ذاب في أتون

الانتفاضة الفلسطينية الشريفة وانمحى تحت تأثير أصوات الانفجارات والعويل ومناظر الحرائق والدماء في بغداد، وانقلب ذلك الصراع التاريخي بين عشية وضحاها -وبما تفرضه ضرورات المرحلة التاريخية الخطيرة التي تعيشها الأمة- إلى صراع ثقافي واضح المعالم بين تيارين جديدين قديمين هما تيار الأصالة والحداثة، مع معطى بارز وبامتياز يتجلى في نأي السلطة السياسية والعسكرية هذه المرة عن هذا الصراع، لسبب واحد هو أن السلطات السياسية في معظم البلدان العربية ما عادت تشغلها القضايا العقائدية لأنها منشغلة اليوم بهدف واحد فقط وهو الحفاظ على مقاعدها ومكاسبها الشخصية.

بدت الأمة العربية، كما لم تبدُ منذ زمن بعيد، وكأنها هيكل من ورق احترق وتلاشى، وسقطت كل الشعارات، فلا وحدة، ولا حرية ولا نصرة للقضية التي ظهر للجميع أن بعدها العربي لم يكن يعني أي شيء على الإطلاق إلا حصر الشعب الفلسطيني ووقف التمدد الإسرائيلي نحو العواصم العربية المجاورة، وقد أيقظت الانتفاضة الأخيرة المارد الإسلامي من هجعته، وساهمت في إعادة القضية إلى بعدها الإسلامي الذي كانت قد غيبت عنه خلال قرن كامل.

وعلى الرغم من سرعتها الفائقة تركت هذه التغييرات العميقة سلبًا وإيجابًا بصماتها على الضمير الجماعي للأمة، مما جعل الحاجة تبدو ماسة لفتح ملف "تحديد الهوية" من جديد، وتأكيد انتماء "المنطقة العربية" إلى هذه الأمة أصبح حيويًا، تلبيةً لمطالب الجماهير التي وجدت نفسها في مواجهة "آخر" يطالبها بالانفتاح والحوار والتعايش، في نفس الوقت الذي تقوم فيه جيوشه بغزو أرضها واغتصاب سجنائها وإهانة ثوابتها، كل هذا الزلزال جعل الشعوب تعود إلى هويتها الإسلامية، وتتمسك بثوابتها بشكل لم نشهد له مثيلا خلال الأعوام الخمسين الماضية على الأقل، إنه يستحيل على قوم أن يتعايشوا مع آخرين ما لم يكونوا يعرفون هم أنفسهم من هم، هذا البحر الهائج المائج من الأحداث التي كانت تفكك الواقع والأفكار والماضي والحاضر وتعيد تركيب عناصرها بسرعة البرق التاريخي، لم تترك واسع مجال للوعي الفردي للناس أن يدرك حقائقها المرعبة المفرحة في آن، لكنه استطاع أن يؤثر على صياغة الحس الجماعي الذي

يصنع ضمير الأمة ويمضي بها ويخطى متعثرة جدًا نحو مستقبل آخر كان إلى وقت قريب يبدو بعيدًا.

أول خطوة إذن للحديث عن التعايش مع الآخر هي تحديد الهوية في إطار الثوابت الحضارية للأمة، والاعتراف بها على هامش التاريخ الذي حاول أن يسلبها منا أو يسلبنا منها، أو يسلخها عنا أو يسلخنا عنها.

اعترافنا بهذه الهوية يحدد ثوابت الأمة، ويعيننا على تشذيب خصوصياتنا وتطهيرها من أدران التاريخ، ويوضح لنا سبل التعايش الحر المتوازن الكريم مع الآخر. هذا الآخر ذو الثوابت التي تنطلق من منطق الفكر الأوربي الحديث القائم على ميراث يوناني بحت يربط كل فلسفته (بالإنسان والأشياء والحوادث)، والذي يجد نفسه مهددًا من قبل أمة "نحن" تستند كل مقومات وجودها الحضاري و"الثقافي" -على الرغم من عصر الانحطاط الذي تعيشه-على موروث أسلامي ترتبط فلسفته (بالعلاقة بين الخالق والمخلوق).

ثوابت الآخر -على الرغم من خلوها من هذه الدعامة-بالغة الأهمية في وجودنا "نحن" لا تصطدم مع ثوابتنا، لسبب بسيط جدًا، وهو أن هذا الآخر بنسيجه الإنساني متعطش إلى هذا العالم الروحاني الثابت الواضح البسيط الذي يقدم عنه الإسلام صورة فريدة عالميًا لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، الآخر مقبل على ثوابتنا راضٍ بها خاصة وهو يختنق في عالمه المادي الذي يلهث فيه باحثًا عن مخرج.

لكن خصوصيات الآخر الثقافية تصطدم ومباشرة بخصوصياتنا الثقافية التي ندّعي أنها تستند إلى ثوابتنا الإسلامية، وأنها على علاقة بعالمنا الروحي، بينما هي بعيدة كل البعد عن الإسلام وعن العوالم الروحية، بل إن عرضها على الإسلام يعريها من كل نسب به وصِلَة، اللهم إلا المحاكاة والنحت من النصوص بأفهام عقيمة وأهواء شاذة.

(أمثلة من الفقه والحياة: المهر بدل استئجار رحم المرأة -حق الأخ والوالد في قتل المرأة الزانية في العائلة -حرمان الشباب والبنات في الزواج ممن يحبون

بسبب عدم التكافؤ في النسب أو المال-حرمان المرأة من قيادة السيارة - حرمان المرأة من أهليتها المالية في كل العالم العربي ما عدا دول الخليج - إرغام البنات الصغيرات جداً على التزام الحجاب- ختان الإناث في محفل عام - إثبات عذرية العروس في محفل عام- حق الزوج في ضرب الزوجة بشكل دوري دائم خلال كل سني عمرها وكأنها دابة -استعمال العنف في التعامل مع الآخرين - امتهان أهل الكتاب واعتبارهم كفاراً - الاعتقاد بأن العنف وسيلة إسلامية لحل المشكلات - التنطع في التحريم والتحليل استناداً إلى الآراء الفقهية الفردية الشاذة - جعل الموضوع الجنسي أساساً في التعامل مع شبكة العلاقات الاجتماعية - التربية بالإهانة والضرب - التسلط على الأبناء والنساء وحرمانهم من أي حق في تقرير مصائرهم أو ممارسة حرياتهم حتى في أطر الشريعة والثوابت...).

هذا الشقاق النَّكد بين ثوابتنا الحضارية وخصوصياتنا الثقافية هو الذي يشكل العائق الأكبر في هذا الشعور بالصدمة لدى "الآخر" بكل تعدداته الفكرية والثقافية ويجعله في موقع الصدام الاجتماعي معنا "نحن" لأن خصوصياتنا الثقافية الحالية المرحلية تبدو بالنسبة إليه وإلى كل عاقل مجموعة من السلوكيات المتخلفة غير الإنسانية وغير المنطقية وغير الأخلاقية وغير الدينية، إن بعض سلوكياتنا تبدو من وجهة نظر علم الاجتماع والتربية والأخلاق وكأنها سلوكيات جماعية مغرقة في التخلف الإنساني والحضاري المخزي.

يمكننا أن نعتبر في بحثنا هذا أن "الآخر " إنما هو "الغربي" بشقيه الأوربي والأمريكي، باعتباره الحضارة والقوة الغالبة في عالم اليوم مادياً وعسكرياً واقتصادياً، وأننا "نحن" هم مواطنو المنطقة العربية " و "الجاليات الإسلامية المهاجرة إلى الغرب" الذين يحملون حضارة هي الأعظم في تاريخ البشرية من حيث قدرتها على إنقاذ الإنسان من التخبط في عوالمه المادية وصراعاته النفسية ومع الآخرين، لكننا وعلى الرغم من كوننا حملة هذه الحضارة نبدو عاجزين حالياً على الأقل عن تمثلها بكل عظمتها وروعتها، ولكنها -وعلى الرغم من

عجزنا- قادرة وحدها على اختراق الحدود والحواجز والعوائق والوصول إلى الإنسان في كل زمان ومكان غير عابئة بأولئك الذين يحاربونها أو هؤلاء الذين شوهوها، إلى درجة أن النبي الذي جاء بها يقول (بالمعنى): "إنه يعرض عن أتباعه لشدة ما يجد أنهم غيروا وبدلوا من بعده حتى يكاد النبي نفسه لا يعرف هذه الشريعة التي نحتوها من الإسلام والإسلام منها براء".

وعندما يستعرض " الآخر " خصوصياتنا الثقافية يجد نفسه عاجزًا عن فهمها، كما يجد نفسه في موقف أخلاقي يمنعه من القبول بنا، (مثال: امتهان المرأة ووضع المرأة المسلمة اليوم الذي يتنافي تمامًا مع الإسلام)، (مثلا: هذا القتل العشوائي بهذه الدرجة من الإجرام وشهوة الانتقام وسفك الدماء كما حدث في قطارات مدريد)..

ذلك أن قبول "الآخر " بنا بثقافتنا وخصوصياتنا وسلوكياتنا الحالية السائدة اليوم يعني أنه تخلى عن "تحضره" وعن كل القيم الإنسانية التي وصل إليها بجهده ودمه وجهاده قرونًا طويلة: (عندما ينبري أحدهم ليشرح للغربي أن المرأة يجب أن تُضرب لتتحسن أخلاقها وتطيع زوجها فإنه يتكلم عن وجهة نظره الشخصية في تطبيق آية من القرآن الكريم لم يكن الهدف منها إذلال النساء ولا إخضاعهن ولا جعل هذه العقوبة التي شرعت قبل ألف وأربعمائة عام لحل الخلافات الزوجية - أي بمعنى قانون طوارئ- سلوكًا ثابتًا في معاملة كل النساء المسلمات؛ لأن نفس الرجل الذي يضرب امرأته لا يتجرأ على ضرب زوجة ثانية من جنسية أجنبية!!، كما لم يكن الهدف من الآية أن يصبح ضرب المرأة وامتهانها نظامًا ثابتًا في حياتنا الاجتماعية خاصة في عصور الانحطاط التي نعيشها هذه، عندما يفعل المسلم ذلك فإنه يشرح للأوربي مدى انحطاطه وتخلفه وارتكاسه؛ خاصة أن كل القوانين الأوربية كانت قد سُنت لحماية الإنسان من التعذيب الجسدي والإهانة النفسية وخاصة المرأة باعتبارها إنسانة وأمًّا).

وعلى الرغم من أن هذا الآخر يعاني في مجتمعه من مشكلات خطيرة ناتجة عن تعثر القوانين في ضبط العلاقات الإنسانية، (حيث نجد جرائم قتل النساء

يومية - الإجهاض بالملايين - المواليد الملقون في علب القمامة بالعشرات)، ولكن وعلى الرغم من ذلك فإن الجميع لدى هذا "الآخر" يُجَرِّمون هذه الأعمال ويدينونها ويسنون القوانين لنصرة الضعيف وحمايته من اعتداء القوي عليه، الإعلام والسياسة ومنظمات المجتمع المدني تعمل كلها في اتجاه تجريم المعتدي، أما "نحن" فإن الجميع يقف مع المعتدي ويبرر له جريمته، ويجد له ما يجعلها قضية دينية وأوامر إلهية تمنحه الحماية والعصمة. هذه النقطة بالذات هي من أهم معاول الهدم في وجه تعايُشنا مع الغرب في إطار الإنسان والمجتمع.

لا نريد هنا أن نغفل سوء نية "الآخر" في التعامل معنا "نحن"، ولا رغبته في السيطرة علينا، ولا استكباره واستعلاءه في سلوكه وفكره وثقافته وإعلامه وبالطبع سياساته العسكرية والاقتصادية، ولا إعلانه أن حضارته هي الأفضل والأعلى والأكمل والتي يجب أن تفرض نفسها على كل حضارات العالم، لا نغفل هذا ولم ننسه، كما لم ننس أن هذا "الآخر" موجود الآن بخيله ورجِله في عقر دارنا يعيث فيها فساداً، ولكننا وعلى الرغم من ذلك كله يجب أن نعرف وأن نعترف أن هذا "الآخر " ودائما احتكم إلى العقل والمنطق. في مواجهة أناس يحتكمون إلى العقل والمنطق، وأن جزءاً كبيراً جداً من المجتمعات الغربية، وعلى الرغم من خصوصياتنا الثقافية المعيبة كانت لديه الرغبة الكريمة الصادقة للتعامل معنا باعتبارنا أهل ثقافة بشرية يجب احترامنا وليس احترامها "بالشكل الذي نقدمه "، دائمًا وفي كل مرة استطاع المسلمون فيها تقديم دينهم بثوابته الحضارية وقيمه الإنسانية وعقيدته الإلهية الفريدة، دائمًا كان نصيبهم القبول والاحترام والتقدير.

تحديدنا لهويتنا كأبناء أمة مسلمة ينتمون إلى أعراق وأقوام مختلفة يحل نصف المشكلة، اعترافنا بقصور ثقافتنا اليوم عن بلوغ مرامي حضارتنا وثوابتنا وبعدها الشاسع عن روح الشريعة وأهداف الإسلام العظيم هو نصف الطريق الآخر، ويبقى أن نقوم بجهود جبارة في مجال الإعلام والتربية لإعادة ثقافتنا إلى حضن ثوابتنا :

❖ نحن لا نحارب "الحرية الجنسية"؛ لأن الإسلام قرر للإنسان حقه في إشباع غرائزه كلها بالطرق السليمة السهلة الطيبة . ولا يجب أن نحارب ممارسة الجنس ولكننا نحارب جعل الجنس عهرًا أخلاقيًا يدمر الإنسان والمجتمعات.

❖ نحن أن نحارب منح المرأة حريتها الكاملة، فهذا حق إسلامي منحها إياه الإسلام، ولكن يجب أن نحارب كل من يجعلها سلعة ممتهنة أو أمة مستعبدة في بيتها أو خارج بيتها.

❖ نحن نحارب حقوق الإنسان، فالإسلام أول من دعا إليها ولكن نحارب الدجل والكذب والكيل بمكيالين في هذا المجال، وإخراج الإنسان من إطار فطرته الإنسانية ليصبح حيوانًا.

❖ نحن لا ندعم ولا نرضى إرهاب وترويع الآمنين، لأن هذا أمر لا يرضاه ديننا، بل ويمنعه ويشدد على عقوبته، ولكننا ندعم ونشجع ونقف مع المجاهدين في سبيل تحرير أرضهم وصيانة عرضهم.

❖ نحن لا نعترف بمصطلح الجهاد المقدس، ولكن ثوابتنا تدعونا وتحملنا وتشجعنا على نشر الدعوة إلى الله والقيام بأعبائها حتى يصل هذا النور الإلهي إلى قلب كل إنسان متعطش إليه في أرجاء الأرض بالحكمة والمحبة والموعظة الحسنة.

❖ نحن ضد الصدام والحرب والغزو والاعتداء والاحتلال والإرهاب والعنف، ومع الحوار والتعايش والتفاهم بين الأفراد والمجتمعات والشعوب والقبائل.

وإذا كنا نحن أنفسنا -بمجموعنا "سكان المنطقة العربية" و"الجاليات المسلمة المهاجرة إلى الغرب"- عاجزين عن تحديد هويتنا بثوابتها الإسلامية وخصوصياتها القومية والجغرافية التي لا تتناقض مع تلك الثوابت، ولم نبد أي رغبة بعد في تشذيب خصوصياتنا مما علق بها من مواريث الجاهليات المتراكمة "العادات والتقاليد"، عاجزين عن تشذيب حضارتنا اليوم مما أثقل كاهلها من شوائب ثقافاتنا الراكدة المتحجرة الكسيحة التي ترفض التغيير والنمو، فكيف نريد للآخر أن يفهمنا وأن يتعايش معنا؟! حملنا معنا إلى أوربا كل أمراضنا

الاجتماعية والإنسانية والثقافية، أمراض عصر انحطاط عربي مريض بالقهر والاستبداد والتخلف والعجز عن الخلاص، ويممنا بها شطر أوربا وقلنا للقوم: هذا هو إسلامنا، فماذا ننتظر بعد هذا من هذا "الآخر" الذي بدأ يسن قوانين تسمح للمدرسين في مدارسه أن يضربوا أبناء المسلمين فقط؛ لأنهم معتادون على الضرب ولا يفهمون لغة الحوار! هذا "الآخر " ذاته هو الذي لم يأتِ بلادنا بمشروع "مارشال" يبني ويعمر ويربي ويحل الأمن والسلام، ولكنه أتانا بمشروع "أبو غريب " يعذب ويغتصب ويذل ويستعبد، هُنّا على أنفسنا فهُنّا على الآخرين.

الخطوة الأولى إذن من طرفنا نحو التعايش مع الآخر تكمن في تحديد هويتنا، من نحن وماذا نريد؟ وما الإصلاحات اللازمة والضرورية في حياتنا وثقافتنا ووسائل نهوضنا بهذه الثقافة لتصبح جديرة بالحضارة التي تنتمي إليها؟

(٤)

هل نحن المسؤولون عن انتكاس التعايش بيننا وبين الآخر؟!
"أحداث إسبانيا مثلا"

سؤال في غاية الأهمية يُطرح اليوم في المحافل الأكاديمية الغربية المعنية بدراسة الإسلام وأهله: هل ثوابت هذه الأمة وخصوصيات شعوبها تشكل "اليوم" عائقًا في وجه التعايش مع الأمم الأخرى؟.

كان هذا السؤال أحد أهم الاقتراحات لإعداد دراسة للدكتوراه في إحدى كليات الاستشراق في مدريد، الهدف من هذا الاقتراح كما نفهمه نحن كان استعراض الأسباب التي تقف وراء ما يبدو أنه رفض قطاع واسع جدًا من المجتمع الإسباني للعرب "المسلمين، وهذه الكراهية التي تتمدد شيئًا فشيئًا وبسرعة تنذر بأخطار حقيقية تهدد حياة الأفراد وسلامة الجاليات المسلمة في إسبانيا.

هذا الوضع كان قائمًا منذ بدء تدفق الجاليات العربية المسلمة على هذا البلد، لكنه ازداد سوءًا إلى درجة بالغة الخطورة منذ أتى حزب الشعب الحاكم إلى السلطة، أي قبيل تفجيرات قطارات مدريد بسبعة أعوام ونصف، حيث بدأت حملات إعلامية منظمة غير مسبوقة ضد العرب "المسلمين " - الكلمتان في أذهان القوم متساويتان- حملات من الهجوم والتشويه والكذب والإجحاف، لكن أهمها على الإطلاق كان ذلك المتعلق بالأوضاع الثقافية للمهاجرين التي أسهبنا في الحديث عنها في بداية هذا البحث.

أكثر من ذلك؛ لقد ذهب كثيرون (مستندين إلى دلائل تكاد تكون يقينية) إلى أن تفجيرات مدريد لم تكن لتقع لولا أن حكومة "أثنار " قد غضت الطرف عن عمد عن تلك المجموعات من الشباب المجنون المتهور الذي قام بتلك التفجيرات، بعد أن ملأ الدنيا بنيته بالقيام بها، حتى إن سجلات الشرطة والمخابرات العامة

كانت ملأى بالبلاغات شبه اليومية من مسلمين وإسبان عن تحركات تلك المجموعة تحت سمع وبصر المخابرات الإسبانية ووزارة الداخلية الإسبانية، حتى إن أئمة بعض مساجد مدريد كانوا قد قدموا تقارير مفصلة عن خطط زعيم تلك المجموعة القاضية بالقيام بتفجير قطارات مدريد!.

الأمر المثير للدهشة والاستغراب أن حكومة "أثنار " لجأت إلى الكذب في الأيام الثلاثة التي تلت هذه التفجيرات قبيل الانتخابات العامة، فسقطت شر سقطة في الانتخابات، لم تسقطها التفجيرات التي هدفت إلى إسقاطها، ولكن أسقطها كذبها على الجمهور الجريح، لكنها بعد سقوطها لجأت إلى اتهام الحكومة الاشتراكية بأنها كانت ضليعة في التفجيرات بشكل أو بآخر، في محاولة لإسقاط حكومة أثنار، وذهبت بعيدًا جدًا عندما راح أثنار يجوب أوربا والولايات المتحدة الأمريكية، ملقيًا محاضرات شارحًا فيها نظريته الخاصة عن صراع الحضارات، مدعيًا أن ما حدث في مدريد لم يكن له أي علاقة بحرب العراق، ولكنه "مخطط إسلامي " لضرب الحضارة الغربية بأسسها وقيمها وإحلال الحضارة العربية مكانها، وإعادة احتلال الأندلس. [1] هكذا بالحرف.

أوردت هذا التحليل دون تعليق في هذا البحث، ليستخلص المراقب بنفسه الدور الذي تقوم به بعض الشخصيات والأحزاب الغربية لهدم جسور التعايش منا "نحن" العرب " أي الآتين من المنطقة العربية والإسلامية.

❖❖❖❖

سؤال آخر يهمنا إيراده هنا لاستكمال بحثنا هذا، لأنه يلقي بظلال كثيفة على الموضوع الذي أشبعناه شرحًا فيما سبق من نقاط، هذا السؤال طرحه صحفي فرنسي إثر تفجيرات قطارات مدريد عام ٢٠٠٣ على أحد الباحثين من الشباب المغاربة من حملة أكثر من درجة من درجات الدكتوراه في كلية الدراسات

(١) راجع محاضرات خوسيه ماريا أثنار في جامعة جورج تاون الأمريكية، ٢٠٠٥م.

الاستشراقية في جامعة الأوتونوما في مدريد: هل تعتقد أن شباب الأمة الإسلامية يعانون من معضلة حقيقية ويعيشون ويتحركون في إطارها؟

هذان السؤالان من الأهمية والخطورة بمكان يجب فيه على كل واحد منا أن يفكر في الأجوبة اللازمة عليهما بكثير من الدقة والصدق والإخلاص، لأنه في الجواب عليهما تكمن الإجابة على موضوع هذا البحث.

إننا نعاني من مشكلات خطيرة تتعلق بجيل كامل من الشباب العربي "المسلم"، لقد رُبي هؤلاء الشباب في بلادنا في أجواء القهر السياسي والظلم الاجتماعي والحرمان من الحريات وانعدام الأمن والطمأنينة. وأخطر من ذلك كله انعدام الشعور لدى الشاب بالكرامة كإنسان وكمواطن بالنسبة للرجال، إضافة إلى انعدام الشعور بالفردية للمرأة كذلك.

وسائل التربية المتبعة في بلادنا من أقصاها إلى أقصاها تكرس هذه الجرائم الفردية والجماعية بحق الأجيال، ووسائل الإعلام عاجزة أو أنها لا تريد أو لا تتنبه إلى هذه المعضلات الخطيرة المدمرة في حياة الشبيبة، والإنسان الذي لم يُربّ على أن يحترم إنسانيته لا يمكنه أن يحترم إنسانية الآخرين، الفرد الذي لا يعرف لنفسه أي قيمة في أسرته لا يستطيع أن يربي أبناءه على أن يعرفوا قيمة أنفسهم وقيمة الآخرين كأعضاء يتمتعون ببالغ الأهمية في الأسرة والمجتمع، إن الإهانة والضرب لا يمكن أن ينتجا جيلا سويًا، الأبناء الذين اعتادوا الضرب يفتقدون - لدى الحوار مع الآخر - أي لغة إلا لغة العنف، يستوي في ذلك حوارهم مع الزوجة أو الأبناء أو الإخوة الأقرباء أو الجيران أو الآخرين كلما اتسعت دوائر الانتماء الاجتماعي.

التلاميذ الذين يعتادون سماع الشتيمة بالـ"كلب " لن ينتجوا إلا ثقافة شخصية تتلخص في الرغبة في النباح في وجه كل من يقترب منهم، وأولئك الذين اعتادوا أن يناديهم آباؤهم بال "حمير " سيكون "الرفس" وسيلتهم الوحيدة للتخاطب والتفاعل مع "الآخر".

ما السبب الرئيس -من طرفنا- للإشكاليات الناشئة بيننا وبين الآخر لدى

الحديث عن التعايش؟ إنها "من طرفنا" إشكالية تربية. لقد فشلت وسائل ومناهج التربية في المنطقة العربية في تخريج أناس يحترمون إنسانيتهم وكرامتهم وحرياتهم، لأن وسائل التربية والإعلام كانت خاضعة ومسيَّرة من قبل الأنظمة السياسية الحريصة على تخريج العبيد، بينما انشغلت الجماعات الإسلامية "في معظم دول المنطقة " -خلال نصف قرن كما أسلفنا-في صراعاتها السياسية والثورية مع تلك الأنظمة والوصول إلى السلطة بأي ثمن.. إلى درجة أنها نسيت تمامًا القضية الاجتماعية، بينما غيبت قضية البحث في تغيير أوضاع المرأة لأسباب تتعلق بارتباط الثقافة في أذهان الخاصة والعامة بالثوابت إلى درجة الخلط بين النصوص وما ورثناه من عادات وتقاليد، الدين منها براء.

أسئلة يجب إثارتها في نهاية البحث الذي يصعب أن ينتهي عند هذه النقاط، نتركها لتثير التفكير على هامش ما قدمناه من حقائق أو ومضات:

❖ ما الثابت والمتحول في حياة الأمم والأفراد؟

❖ لماذا ومتى وكيف تحولت كلمة "اندماج" إلى كلمة "تعايش " في وضع الجاليات المسلمة المقيمة في الغرب؟

❖ ما سبب الإشكاليات الناشئة بين الأقليات الدينية والعرقية في بلادنا وبين "السلطات السياسية في البلاد"، هل هذه الإشكاليات موجودة بين الأقليات وبين المواطنين؟

❖ هل قصد القرآن التفريق بين "الشعوب" و"القبائل" عندما تحدث عن "التعارف" بينها بمعنى "التعايش " في مفهومنا المعاصر ؟، "الشعوب " هي الأمم فيما بينها من علائق وصلات، والقبائل هي المجموعات البشرية التي تتحرك نحو غيرها في المكان والزمان عن طريق الهجرة؟

بمعنى أنه يوجد اتجاهان للتعايش: "التعايش بين الشعوب "، و"التعايش بين المجموعات البشرية التي تهاجر "، دقة قرآنية مذهلة في توصيف العلائق بين المجموعات البشرية.

❖ هل قدرتنا على التعايش منوطة بالضرورة الحيوية للتغيير؟ أي تغيير نقصد: المفروض علينا من قبل الآخر؟ أم الذي يجب أن ينبع من ذواتنا ومن قراءتنا النقدية الموضوعية الصادقة لأوضاعنا الإنسانية والاجتماعية ؟ ما هي الوسائل الكفيلة بإحداث هذا التغيير؟

❖ هل نعيش اليوم حالة "صدام حقيقي بين الحضارات " كما تدعي القوى المبالغة في التطرف بين الشرق والغرب، أي "بيننا " وبين "الآخر"، أم أنه "حوار " عنيف لن يخرج عن كونه حوارًا مادام هناك قوى اجتماعية وسياسية وثقافية وفكرية تدعمه وتدفع باتجاهه؟ أم أننا على مستوى العالم اليوم نشهد مجرد "مسرحية " إعلامية عالمية تساق فيها قطعان البشر بسطوة الإعلام في الغرب، كما يساقون في الشرق بسلطة الاستبداد السياسي والاجتماعي العاطفي نحو ما تريده مصانع إنتاج الأسلحة وشركات إنتاج البترول؟

(٥)
الخاتمـــة

لكي نركز بحثنا في عبارات قليلة قصيرة هادفة نقول:

❖ إننا في كل الأبحاث التي نقوم بها في هذا الموضوع لا نأتي بجديد. إننا نحاول إعادة إنتاج المادة التي تختنق بها صفحات المطابع والإنترنيت، نعيد إنتاجها مؤكدين على التخبط الهائل الذي يقع فيه الباحثون العرب في هذه الفوضى العارمة، من استعمال المصطلحات دون تحديد معانيها العلمية الدقيقة، لقد أصبح استعمال هذه

المصطلحات – مع الاعتذار للكلمة–مجرد اجترار كلمات لا نعرف لها مدلولا، نركبها ونفككها دون أية صلة منطقية تربط بينها.

❖ لا بد من إيضاح الفرق الهائل والشاسع والخطير بين موضوع "الثوابت "، و"الخصوصيات" بشكل لا يقبل اللبس ولا الخلط، وبشكل يضع كل منهما في مكانه الصحيح في حياتنا وفي علاقتنا بأنفسنا وبالآخرين.

❖ ولتوضيح المصطلحين السابقين ينبغي توضيح مصطلحيّ "الحضارة" و"الثقافة" بسبب علاقتهما الوثيقة بهذه البحوث التي لن تجدي أي نفع مادمنا لا نفهم ولا نحدد معاني المصطلحات الدقيقة التي نستخدمها لفهم بحوثنا فيها، وبالتالي فإن المشاكل لا يمكن أن تحل دون تحديدها وتحديد وسائل حلها.

❖ لا بد كذلك من الحديث بوضوح وبموضوعية وتجرد عن مشكلاتنا العالقة بين قضيتي الأصالة والحداثة.

❖ الإعلام والتربية هما الجناحان الأساسيان والرئيسان للنهوض من هذا المأزق الحضاري الذي نعيشه اليوم.

❖ ينبغي إعادة قراءة أوضاعنا الاجتماعية المأزومة قراءة نقدية واعية صادقة متجردة عن الأهواء، لأن الخروج من هذه البؤر التي سقطت فيها مجتمعاتنا هي الخطوة الأولى لنهوض الإنسان والمجتمعات.

❖ التعايش بحاجة إلى ثلاث دعائم أساسية أولها الاحترام المتبادل، وثانيها معرفة الآخر معرفة علمية حقيقية، لكن أهمها على الإطلاق هو معرفة أنفسنا "نحن"؛ لأن الذي يجهل نفسه ويعيش في غيبوبة اجتماعية إنسانية حضارية لا يستطيع أن يحترم نفسه وبالتالي يمد يده نحو الآخرين ليحترموه.

❖ يجب فهم ملابسات العلاقات الدولية اليوم حتى لا يكون الحديث عن التعايش حديثا عن الخضوع. وحتى نفهم طبيعة التعددية السائدة في المجتمعات الغربية لا بد من تربية جيل "من أبناء الجاليات الإسلامية " في الخارج قادر على القيام بهذه المهمة لأنه الأقدر والأفهم على مخاطبة الآخر والتعايش معه وفهم عقليته وملابسات خطابه لنا وعلى كل المستويات، جيل يستطيع أن يتعايش لا أن يذوب، ويتمكن من الحوار دون شعور بالدونية، ويرغب في التفاهم ويصبر على إيصال الفكرة بالوسائل التربوية التي يفهمها الآخر، خاصة في هذه المرحلة من التاريخ التي غلبنا فيها الآخر بقوته، لكن حضارتنا مازالت تشكل بالنسبة إليه تهديدًا حضاريًا ثقافيًا فكريًا دينيًا إنسانيًا مبررًا عبر كل أحقاب التاريخ بقوة هذه الحضارة وقدرتها على الوصول إلى كل إنسان في كل زمان ومكان، وذلك على الرغم من اعترافنا ومعرفة الآخر اليقينية أن العنصر الإنساني الذي يحمل هذه الحضارة يبدو اليوم -وأقول يبدو - غير قادر على حملها كما يجب بالصورة النقية الطاهرة البارزة التي أرادها الله لعباده.

محتويات البحث

ثقافــة الاختــلاف

سماحة الشيـخ / حسن الصفــار

عالم شيعي سعودي

مقدمة:

قد تعادي شخصًا لأنه أساء لك أو اعتدى على حق من حقوقك، وهذا موقف مفهوم مشروع، وقد تعادي شخصًا لأنه ينافسك أو يزاحمك على مصلحة من المصالح أو مكسب من المكاسب، وهو أمر وارد وقابل للنقاش، أما أن تعادي شخصًا لأن له رأيًا يخالف رأيك في قضية علمية أو دينية أو سياسية، فذلك موقف لا يسوّغه لك الشرع ولا العقل.

الرأي شأن خاص:

والرأي كما في اللغة: هو الاعتقاد، والجمع آراء. أي ما اعتقده الإنسان وارتآه. تقول: رأيي كذا، أي اعتقادي. والاعتقاد والعقيدة: ما عقد عليه القلب والضمير، وما تديّن به الإنسان واعتقده.

وبذلك فالرأي من شؤون قلب الإنسان، وهو من أخص خواصه الذاتية الشخصية، فلا يحق لأي أحد أن يتدخل في هذا الشأن بالقسر والقوة، كما أن التدخل في هذه المنطقة المحرّمة لا يجدي ولا يؤثر، فإذا ما حاولت أي قوة أن تفرض على إنسان رأيًا أو تمنعه من رأي، فإنها لن تستطيع إلا إخضاعه ظاهرًا، أما قراره الداخلي، وإيمانه القلبي، فيستعصي على الفرض والإكراه؛ لذلك فإن الله سبحانه وتعالى ينفي إمكانية الإكراه على الدين وينهى عنه، يقول تعالى: ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾(١).

ورائع جدًا ما قاله العلامة الطباطبائي حول هذه الآية الكريمة، قال: "وفي قوله تعالى ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ نفي الدين الإجباري، لما كان الدين -وهو سلسلة من المعارف العلمية التي تتبعها أخرى عملية يجمعها أنها اعتقادات، والاعتقاد والإيمان من الأمور القلبية التي لا يحكم فيها الإكراه والإجبار، فإن الإكراه إنما

---

(١) البقرة: ٢٥٦ .

يؤثر في الأعمال الظاهرية والأفعال والحركات البدنية المادية، وأما الاعتقاد القلبي فله علل وأسباب أخرى قلبية من سنخ الاعتقاد والإدراك، ومن المحال أن ينتج الجهل علمًا، أو تولد المقدمات غير العلمية تصديقًا علميًّا، فقوله: ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ إن كان قضية إخبارية حاكية عن حال التكوين أنتج حكمًا دينيًّا ينفي الإكراه على الدين والاعتقاد، وإن كان حكمًا إنشائيًّا تشريعيًّا كما يشهد به ما عقبه تعالى من قوله ﴿**قد تبين الرشد من الغي**﴾، كان نهيًا عن الحمل على الاعتقاد والإيمان كرها، وهو نهي متكئ على حقيقة تكوينية، وهي التي مر بيانها أن الإكراه إنما يعمل ويؤثر في مرحلة الأفعال البدنية دون الاعتقادات القلبية"(١).

من هذا المنطلق، فإن التظاهر بالكفر إذا كان ناتجًا عن ضغط وإكراه فهو مشروع ولا يناقض الإيمان المستقر في القلب، يقول تعالى: ﴿**مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ**﴾(٢)، ويعبّر عن ذلك في الاصطلاح الشرعي بالتقيّة، والتي هي: التحفظ عن ضرر الغير بموافقته في قول أو فعل مخالف للحق، اقتباسًا من قوله تعالى: ﴿**إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً**﴾(٣).

فالرأي والاعتقاد لا يغيّره الضغط والقهر، والتظاهر بالتخلي عن ذلك الرأي لا يزيله من قرارة نفس الإنسان، بل قد يزداد ثبوتًا ورسوخًا بدافع التحدي ورد الفعل، كما ينقل عن قصة العالم الإيطالي (غاليليو غاليلي ١٥٦٤-١٦٤٢م)، والذي اعترضت الكنيسة المسيحية وعلماء اللاهوت على آرائه العلمية حول حركة الأرض وأنها ليست مركز العالم، ولا هي ساكنة، بل تتحرك وتدور يوميًّا، وأن الشمس هي المركز، واتهم بالهرطقة والخروج عن الدين، وجلبوه إلى روما للمثول أمام محكمة التفتيش، فاعتقل في الحال، ثم استنطق وحقق معه بعد شهرين، وهدد بالتعذيب، ثم أصدرت المحكمة حكمها بأن يعلن (غاليليو) التوبة، ويتنكر لآرائه العلمية، فحضر أمام المحفل الكنسي، وركع على ركبتيه وراح يقرأ

---

(١) الطباطبائي: السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ٢ /٣٤٧ .
(٢) النحل : ١٠٦ .
(٣) آل عمران: ٢٨ .

ما أجبر على قوله، لكنه عند خروجه من المحكمة عقّب قائلا: "ومع ذلك فهي تدور"، يقصد الأرض [١].

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى المجال للإنسان في هذه الحياة ليمارس حرية الرأي والمعتقد، فلم يفرض عليه الإيمان به عنوة، بل أنار له طريق الهداية، وترك له حرية الاختيار **﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾**[٢]، **﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾**[٣].

ولم يسمح الله تعالى حتى لأنبيائه أن يصادروا من الإنسان حرية رأيه واختياره، فهم يعرضون رسالة الله على الناس دون فرض أو إكراه **﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾**[٤]، **﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾**[٥].

وإذا كان للرأي هذه الخصوصية في نفس الإنسان والموقعية في شخصيته، فكيف يحق لك أن تتدخل في هذه الخصوصية، وأن تعادي إنسانًا أو تسيء إليه لأنه يمارس شأنه الخاص به في أعماق نفسه؟

إننا نعترف للآخرين بخصوصيتهم في سائر المجالات، كالأكل والشرب مثلا، فلو رأيت إنسانًا يعادي شخصًا لأنه لا يرغب في نوع معين من الطعام، أو يعزف عن لون آخر لاستنكرت عليه ذلك؛ على اعتبار أن هذه الرغبات شأن خاص لا علاقة للآخرين بها، والحال أن الرأي آكد خصوصية، وأشد التصاقًا بنفس الإنسان.

---

(١) حوحو: المهندس أسامة، مآثر العلماء: ص٢٥٢، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م، مؤسسة بحسون – بيروت.
(٢) الإنسان: ٣ .
(٣) الكهف: ٢٩ .
(٤) الغاشية: ٢١-٢٢ .
(٥) يونس: ٩٩ .

اجعل نفسك ميزانًا:

وأنت حينما تعادي زيدًا أو عمرًا لأنه يخالفك في هذا الرأي أو ذاك، هل ترضى أن يعاديك الآخرون على هذا الأساس؟ إنك لا تقبل أن يسيء إليك أحد لأنك تحمل رأيًا معينًا، حيث تعتبر ذلك شأنًا خاصًا بك، وتعتقد بأحقية رأيك، وعليك أن تعرف أن الآخرين يرون لأنفسهم ما ترى لنفسك.

وفي وصيته الخالدة لابنه الحسن عليه السلام يقول الإمام علي عليه السلام: "يا بني، اجعل نفسك ميزانًا فيما بينك وبين غيرك، فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لها، ولا تَظلِم كما لا تحب أن تُظلَم، وأحسِنْ كما تحب أن يُحسن إليك، واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك، وارضَ من الناس ما ترضاه لهم من نفسك، ولا تقل ما لا تعلم وإن قلَّ ما تعلم، ولا تقل ما لا تحب أن يقال لك".

إنها قواعد أساسية مهمة في تعامل الإنسان مع الآخرين، ترجعه إلى ضميره ووجدانه قبل أي شيء آخر.

احتمال الخطأ والصواب:

يبالغ بعض الناس في التعصب لآرائهم، ويفرطون في الثقة بها، بحيث لا يفسحون أي مجال ولا يعطون أي فرصة للرأي الآخر، فهم على الحق المطلق دائمًا، وغيرهم على الباطل في كل شيء.

وينتج عن هذه الحالة -غالبًا- موقف التطرف والحديّة تجاه المخالفين، وحتى في الاختلاف عند بعض القضايا الجزئية، والأمور البسيطة الجانبية.

إنه خلق يخالف تعاليم الإسلام الذي يربي أبناءه على الاستماع لمختلف الآراء ومحاكمتها على أساس الدليل والمنطق لا التعصب والانفعال، يقول تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ* الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾(١).

---

(١) الزمر: ١٧-١٨ .

وأكثر من ذلك، فإن رسول الله ﷺ والذي لا يشك في أحقية دعوته بمقدار ذرة واحدة، يخاطب المشركين بمنتهى التواضع والموضوعية قائلا: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[1]. إنه منهج تربوي عظيم يصوغ شخصية الإنسان على أساس احترام الآخرين، ومركزية العقل والوجدان.

والتعصب المطلق للرأي، والحدية والتشنج تجاه آراء الآخرين يمنع الإنسان من الانفتاح على الرأي الآخر، واستماعه والاطلاع عليه، وربما كان هو الرأي الصحيح والصائب، ثم إن ذلك قد يجعل الإنسان في موقف حرج مستقبلا؛ إذ قد يتبين له خطأ رأيه، فكم من إنسان تراجع عن رأيه، وتغيرت قناعاته؟ وتلك حالة طبيعية قد تحصل للإنسان تجاه مختلف المسائل والقضايا.

يقول شاعر المهجر إيليا أبو ماضي:

رب فكر بان في لوحة نفسي وتجلى

خلته مني ولكن لم يقم حتى تولى

مثل طيف بانَ في بئر قليلا واضمحلا

كيف وافى ولماذا فرّ مني؟ لست أدري

وقد رأينا أناسًا كانوا يبالغون في التعصب لآرائهم حول بعض المسائل والأشخاص والجهات، ويعتبرون القول بهذا الرأي هو الحد الفاصل بين الإيمان والكفر، أو يعتقدون أن الولاء لهذا الشخص أو لهذه الجهة هو مقياس الحق والباطل، ويعادون الناس ويناوئونهم على هذا الأساس، لكنهم بعد فترة من الزمن تغيرت قناعاتهم وآراؤهم ١٨٠ درجة؛ وهو ما أوقعهم في حرج مع أنفسهم وتجاه الناس.

إن الاعتدال والوسطية هو المنهج السليم، فلا يكون الإنسان متطرفًا ولا متشنِّجًا حادًا في مواقفه مع الآخرين، وعلى هذا المعنى يحمل قول أمير المؤمنين

---

(١) سبأ: ٢٤ .

علي عليه السلام: "أحبب حبيبك هونًا ما، عسى أن يكون بغيضك يومًا ما، وأبغض بغيضك هونًا ما، عسى أن يكون حبيبك يومًا ما".

وجميل ما قاله الإمام الشافعي كما نقل عنه: إن رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب.

تفهّم مواقف الآخرين:

حينما تعتقد صواب رأي معين، وتجد آخرين يخالفون هذا الرأي الحق -في نظرك- فإن عليك قبل أن تتهمهم بالعناد والجحود والمروق، وأن تتخذ منهم موقفًا عدائيًا، عليك أن تتفهم ظروفهم وخلفية مواقفهم؛ فلعل لديهم أدلة مقنعة على ما يذهبون إليه، أو لعلهم يجهلون الرأي الحق لقصور في مداركهم ومعلوماتهم، أو لعلهم يعيشون ضمن بيئة وأجواء تحجب عنهم الحقائق، أو لعلّ هناك شبهات تشوّش على أذهانهم وأفكارهم.

وتجاه مثل هذه الاحتمالات، فإن المطلوب منك هو دراسة موقف الطرف الآخر، ومعرفة وجهة نظره، والدخول في حوار موضوعي معه، ومساعدته على الوصول إلى الحقيقة.

ونشير هنا إلى ملاحظة دقيقة هي: أن الإنسان قد يؤمن برأي من الآراء، ويعتبره حقيقة واضحة تصل إلى مستوى المسلّمات والبدهيات؛ لأنه قد أشبع الأمر بحثًا، وانشدَّ إليه نفسيًا، وعاش ضمن محيط قائم على أساس ذلك الرأي، فالمسألة أمامه واضحة جلية لا نقاش فيها، لكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للآخرين.

"إن وضوح الفكرة لدينا لا يعني أن الآخرين ينظرون إليها بنفس الوضوح، فربما كنا نتطلع إليها من خلال الجوانب المضيئة عندنا، بينما يكون عنصر الضوء غير متوافر في الجوانب الأخرى التي يعيش فيها الآخرون؛ لأنهم لا يملكون ما يهيئ لهم ذلك، تمامًا كما يكون الصحو في بعض الآفاق مجالا

للانطلاق مع إشعاع الشمس، بينما تجعل السحب الدكناء الآفاق الأخرى في ظلام دامس. وقد يبدو هذا طبيعيًا عندما نلاحظ اختلاف وجهات النظر في فهم بعض الأشياء العادية في الحياة، كنتيجة طبيعية لاختلاف العادات والظروف والأفكار. ولعل قيمة هذا الاتجاه، في ملاحظة موقعنا تجاه الآخرين، تبرز في إتاحة الفرصة لنا في الانطلاق نحو موضوعية أكثر وفهم أرحب، في سبيل تعرف وجهة النظر الأخرى، من حيث طبيعة الفكرة التي يؤمنون بها من جهة، ومن حيث طبيعة الموقف الذي يتخذونه منا، من جهة أخرى؛ الأمر الذي يجعلنا أكثر قدرة على الحركة بوعي، وعلى ضوء الأجوبة الصحيحة لما يرد من التساؤلات، ومعالجة القضايا المعروضة في مجالات البحث" [1].

ويرينا القرآن على هذا النهج الموضوعي حينما يتحدث عن فئات من الرافضين لرسالات الأنبياء، بأن سبب ذلك الرفض هو الجهل وعدم العلم، كقوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ**﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾[3]. ويقول تعالى: ﴿**ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ**﴾[4].

فنبي الله نوح عليه السلام في بدء رسالته يخاطب قومه مبديًا تفهمه لظروفهم التي تجعلهم يرفضون رسالته، بسبب التشويش على أذهانهم، ووجود الشبهات التي تعيق تفكيرهم، مع أنه يحمل إليهم الدعوة الصادقة والحجة الواضحة، مطالبًا لهم بتجاوز تلك الحواجز ليروا الحق، يقول تعالى: ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ**﴾[5].

---

(١) فضل الله: السيد محمد حسين، خطوات على طريق الإسلام، ص٣٥٧، ط ١ ١٩٧٧م، دار التعارف، بيروت.

(٢) التوبة: ٦ .

(٣) الأنعام: ٣٧ .

(٤) النجم: ٣٠ .

(٥) هود: ٢٨ .

وفي لفتة تربوية معبرة يتحدث القرآن الكريم عن بني إسرائيل بعد نجاتهم من الغرق مع نبي الله موسى عليه السلام، وطلبهم منه أن يجعل لهم أصنامًا كما للمشركين أصنام!! ومع سخافة الطلب ومخالفته الواضحة للدين، إلا أن نبي الله موسى عليه السلام أرجع ذلك إلى جهلهم، ثم صار يقرر عليهم حقيقة التوحيد من جديد، يقول تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(١).

وصلوات الله تعالى على نبينا نبي الرحمة محمد ﷺ الذي كان يدعو الله تعالى لهداية قومه قائلا: "اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون".

مسؤولية الرأي على صاحبه:

إذا ما أصر إنسان على رأي خاطئ، ورفض قبول الحق والصواب، فإنه هو الخاسر بالدرجة الأولى، وسيدفع ثمن خطئه، ويتحمل مسؤولية رأيه، وما على المهتدين للحق إلا إرشاده وتوضيح الحقائق له، ثم هو بعد ذلك له كامل الحرية والاختيار، فإن استجاب فقد نفع نفسه، وإن أبى فهو المتضرر.

فمن يريد الذهاب إلى السوق لكنه يسلك طريقًا معاكسًا، فإن مسؤوليتك تنتهي عند حدود تبيين الطريق له، فإذا ما أصر على سلوك الطريق المعاكس، فإنه لن يصل إلى السوق التي يريدها. والطبيب مهمته أن يقدم العلاج للمريض لكنه إذا لم يلتزم بالعلاج، فسيدفع الثمن من صحته.

ولا داعي لكي يزعج الإنسان نفسه ويدخل في معارك العداء مع الآخرين؛ لأنهم لم يقبلوا الرأي الذي يراه حقًا.

---

(١) الأعراف: ١٣٨-١٤٠ .

إن البعض يأخذهم الحماس لمبادئهم وآرائهم بحيث يضغطون على أعصابهم ويتأزّمون نفسيًا ويتجاوزون الحدود في التعامل مع الناس، وكأن لهم الوصاية والسيطرة على أفكار الآخرين وتوجهاتهم، وهذا خطأ فظيع.

لقد كان رسول الله ﷺ حريصًا على هداية قومه، إلى حد أنه كان يجهد نفسه أكثر من اللازم، فجاءه التوجيه من الله سبحانه: ﴿**لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾(١). أي مهلك نفسك.

ومرة أخرى يخاطبه الباري جلّ وعلا: ﴿**طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَّخْشَى**﴾(٢). أي ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم، وتحسّرك على أن يؤمنوا (٣).

وفي القرآن آيات كثيرة تؤكد على أن مهمة النبي والداعية تنتهي عند حدود التبليغ والإرشاد، ولا يصح تجاوز هذه المهمة إلى حد ممارسة الوصاية والضغط على الآخرين. يقول تعالى: ﴿**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا**﴾(٤)، ويقول تعالى: ﴿**وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾(٥).

وهناك روايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام تؤكد على تجنب العداء والخصومة مع الآخرين على أساس الاختلاف في الدين والرأي، منها ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام: "إياكم والخصومة في الدين".

---

(١) الشعراء: ٣ .
(٢) طه: ١-٣ .
(٣) الشوكاني: محمد بن علي بن محمد، تفسير فتح القدير، ج٣ ص٤٤٣، المكتبة العصرية – بيروت، ١٩٩٧م.
(٤) النساء: ٨٠ .
(٥) آل عمران: ٢٠ .

وورد عنه في رواية أخرى: "فلا تخاصموا الناس لدينكم، فإن المخاصمة ممرضة للقلب. إن الله قال لنبيه ﷺ: إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء. وقال: أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين. ذروا الناس، فإن الناس أخذوا عن الناس".

إن هذه التوجيهات الربانية والمفاهيم القرآنية، وسيرة الأنبياء والأئمة -عليهم السلام- تردع الإنسان عن أن يكون حادًّا متشنجًا مع من يخالفه في الدين والرأي، أو أن يجعل اختلاف الرأي سببًا ومبررًا للعداء والخصومة.

العداوة تمنع التأثير:

إذا كنت مخلصًا لأفكارك، ومتحمسًا لنشرها، واستقطاب الآخرين باتجاهها، فإن الطريق لذلك هو الانفتاح على الآخرين، وخلق جو من الاحترام والودّ معهم.

فوجود علاقة لك بهم، وتواصل بينك وبينهم، يتيح لك الفرصة لعرض أفكارك وآرائك عليهم، أما القطيعة والعداء فإنها تسلب منك هذه الإمكانية، وتفقدك الرغبة والاندفاع في تكرار محاولة التأثير عليهم.

من ناحية ثانية، فإن حالة العداء وما تفرزه من سلوكيات منفرة تحول بين الطرف الآخر وبين الإقبال والاستجابة.

فالعاقل الواعي الذي يريد خدمة أفكاره، وأن تشق طريقها إلى قلوب الناس، هو الذي يمتلك سعة الصدر ورحابة الأفق، ولا ينفعل تجاه الرأي المخالف، حتى ولو تعامل معه الآخرون بشكل سيئ، فإنه يمارس أعلى درجات ضبط النفس والتحكم في الأعصاب، بحيث يقابلهم باللطف والإحسان، فيمتص التشنجات، ويستوعب الاستفزازات.

وبهذه المنهجية الأخلاقية يدفعهم لإعادة النظر في موقفهم تجاهه، ويشجعهم على الانفتاح على أفكاره؛ وهو ما قد يغيّر قناعاتهم، ويستقطبهم إلى جانبه وإلى صفّ رأيه.

ويؤكد القرآن الكريم على تأثير أسلوب الرفق والإحسان، وأنه يساعد على تغيير المواقف والنفوس لصالح الدعوة والرسالة، في قوله تعالى: **﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾**(١).

فالمنهجية الحسنة القائمة على أساس اللطف والاحترام والود مع الآخرين، تختلف في نتائجها عن المنهجية السيئة المعتمدة على الشدة والقطيعة والعداء؛ فالأولى تفتح الطريق أمام التأثير والكسب، بينما الثانية تسبب النفور وتزيد هوّة التباعد.

لكن المنهجية الحسنة لا تتوفر إلاّ لمن يروّض نفسه على الصبر تجاه الإساءات والاستفزازات، ويمتلك نصيبًا عظيمًا من الأخلاق الفاضلة.

وينهى الله سبحانه عباده المؤمنين عن أن يتحدثوا مع المخالفين لهم في الدين إلا بأفضل أسلوب، وأحسن طريقة رعاية لمشاعرهم، يقول تعالى: **﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾**(٢).

لقد واجه رسول الله ﷺ في بداية الدعوة معارضة ومخالفة عنيفة من قِبَل المشركين، ولكنه تغلب على كل ذلك بأخلاقه العظيمة **﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾**، ولولا ذلك الخلق الرفيع لما تمكن الرسول ﷺ من هداية ذلك المجتمع الجاهلي الغارق في الفساد والتخلف، يقول تعالى: **﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾**(٣).

وهكذا، فإن على من يعتبرون أنفسهم حملة للحق، وذوي الفكر الصحيح والرأي الصائب، أن يتحلّوا بمصداقية أخلاقية في التعامل مع الناس، وخاصة

---

(١) فصلت: ٣٤-٣٥ .

(٢) العنكبوت: ٤٦ .

(٣) آل عمران: ١٥٩ .

المخالفين لهم في المذهب أو الرأي أو الموقف؛ فإن القطيعة والعداوة والإساءة، تخالف تعاليم الدين، وتصادم توجيهات العقل، وتشوّه دعوة وفكرة أصحابها، وتنفّر الناس منهم.

منهج الإسلام وسيرة السلف:

من الظواهر المؤسفة في بعض الأوساط الدينية، سوء التعامل مع المخالفين في الدين أو المذهب أو الاتجاه، حتى أصبحت الغلظة والفظاظة والتجهم والتشدد سمة من سمات التدين عند هؤلاء، وأصبح حتى الاختلاف على بعض المسائل الجزئية الاجتهادية سببًا للقطيعة والعداء.

وهذا مخالف لنهج الإسلام، ولسيرة السلف الصالح، من أئمة أطهار وصحابة أخيار. فالقرآن الكريم يشجع المسلمين على حسن التعامل والبر بالكافرين غير المحاربين والمعتدين، يقول تعالى: **﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾**[(١)].

"أي: لا ينهاكم الله عن البر والصلة، والمكافأة بالمعروف، والقسط للمشركين من أقاربكم وغيرهم؛ حيث كانوا بحال لم ينصبوا لقتالكم في الدين، والإخراج من دياركم. فليس عليكم جناح أن تصلوهم، فإن صلتهم في هذه الحالة لا محذور فيها ولا تبعة".[(٢)]

---

(١) الممتحنة: ٨-٩ .

(٢) السعدي: عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ١٤٥، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م مؤسسة الريان بيروت - لبنان.

وفي سيرة رسول الله ﷺ أروع الصور الإنسانية، وأسمى المواقف الأخلاقية في التعامل مع الكافرين من يهود ونصارى ومشركين، ليس في العهد المكي فقط، وإنما في العهد المدني وبعد أن جاء نصر الله والفتح.

كما أن تعامل رسول الله ﷺ مع تيار المنافقين في المجتمع الإسلامي، مع خطورة دورهم التآمري على الكيان الإسلامي الناشئ، كان تعاملا حضاريًا راقيًا، ينبغي أن يستلهم منه كل مسلم روح التسامح، وسعة الأفق، وقدرة الاستيعاب للآخر؛ حيث لم يلجأ النبي ﷺ إلى القوة والقمع ضدهم، رغم استفزازاتهم وجرائمهم، فلم يتعامل معهم كأعداء محاربين، ولم يقتل منهم أحدًا، ولم يسجن أحدًا، ولم يجلد أحدًا، ولم يطرد منهم أحدًا.

كما لم يصادر أي حق من حقوقهم المدنية، فكانوا يتمتعون بحقوق المواطنة كاملة كسائر المسلمين؛ يحضرون المسجد، ويدلون بآرائهم في قضايا المجتمع، ويأخذون نصيبهم من الغنائم وعطاء بيت المال.

وأكثر من ذلك كان رسول الله ﷺ يبذل لهم الإحسان، ويحوطهم بمداراته، ويشملهم بكريم أخلاقه، وشواهد ذلك جليّة واضحة لكل مطلع على السيرة النبوية العطرة.

وتجسيدًا لهذا النهج الإسلامي وتأسيًا برسول الله ﷺ كان تعامل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في أثناء خلافته الراشدة مع تيار الخوارج، الذين خالفوا جمهور الأمة في آرائهم العقدية، وتوجهاتهم السياسية؛ حيث اعتبروا مرتكبي كبائر الذنوب كفارًا مخلدين في النار، إن لم يتوبوا قبل الممات، وهو اعتقاد مخالف لنصوص الكتاب والسنة، كما ردوا الأحاديث الواردة عن طريق علي وعثمان ومن شايعهما، وكفروا الصحابة وخاصة أمير المؤمنين علي وهو الإمام الذي بايعه جمهور الأمة، واستحلوا دماء المسلمين وأموالهم إلا من خرج معهم، ورغم كل هذه الانحرافات الفكرية والسلوكية الخطيرة لم يكفرهم الخليفة الإمام علي، ولا جمهور الصحابة، ولم يتخذ الإمام تجاههم أي إجراءٍ عدائي، ولم يمنعهم حقًا من حقوق الإسلام والمواطنة، إلا حينما شهروا السلاح ومارسوا

العنف، فإنه اضطر لمواجهتهم حماية لأمن البلاد والعباد، وبعد هزيمتهم العسكرية وكسر شوكتهم لم يتعقبهم ولم يؤاخذهم على آرائهم.

جاء في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي: أنه بعد واقعة النهروان سمع بعض أصحاب الإمام شخصًا يقال له أبا العيزار الطائي وهو يجهر برأي الخوارج، فجاءوا به للإمام علي قائلين: هذا يرى رأي الخوارج، ونقلوا حديثه، فقال علي: ما أصنع به؟ قالوا: تقتله. قال الإمام: أقتل من لا يخرج عليَّ؟ قالوا: تحبسه. قال: وليست له جناية أحبسه عليها، خلّوا سبيل الرجل. (١)

وأخيراً:

فإن اختلاف الرأي ظاهرة طبيعية في حياة البشر، ولا يصح أن تكون سببًا للتعادي والتخاصم؛ بل ينبغي أن تستثمر لصالح تكامل المعرفة، واكتشاف الحقيقة، وإثراء الساحة الثقافية.

وأفضل خدمة تقدمها للرأي الذي تؤمن به حسن تعاملك مع الآخرين، لتقدم بسلوكك الطيب أنموذجًا مقبولا لأفكارك، ولتكونَ بسيرتك الصالحة داعية لآرائك، أما أسلوب العداوة والتشدد، فهو يسيء إلى التوجه الذي تنتمي إليه أولا، وإليك ثانيًا.

---

(١) تاريخ بغداد: ١٤/ ٣٦٦.

محتويات البحث

معالم العلاقة مع الآخر

ضوابطها.. ووسائلها

أ.د/ علي جمعة

مفتي الديار المصرية

مقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وآله وصحبه ومن والاه.. وبعد:

فالمسلمون اليوم وقد بلغ تعدادهم ١٣٠٠ مليون نسمة، أصبحوا يعيشون في عالم رفعت بين أقطاره السدود، وأصبح العالم قرية واحدة بموجب الاتصالات والمواصلات والتقنيات الحديثة، ولم يقتصر وجودهم في محور (طنجة -جاكرتا) (غانا-فرغانا)، بل أصبحوا في كل مكان، حتى إن الأقلية المسلمة في العديد من دول العالم نسبة كبيرة بالنسبة لإجمالي عدد المسلمين، وبالنسبة لعدد سكان العالم أيضًا؛ حيث يصل تعداد تلك الأقلية المسلمة -موزعة على قارات العالم ودوله- إلى ٤٠٠ مليون نسمة، بما يمثل أكثر من ٣١٪ من عدد المسلمين في العالم، وحوالي ٧٪ من إجمالي سكان العالم.

وتعني هذه الأرقام والنسب الكبيرة أن يهتم العالم بمطالب المسلمين، التي إذا ما تحققت نتج عن ذلك استقرار نفسي وفكري واجتماعي لدى المسلمين؛ وهو ما يحقق الاندماج والتضامن بين الأقليات المسلمة وشعوب العالم التي تعيش بينهم، والسلام بين المسلمين وبين العالم كله، حتى يشاركوا في الحضارة الإنسانية وبنائها. فما معالم علاقتنا مع الآخر ؟ ومع ضوابط ذلك ؟ وما الوسائل المتاحة التي يمكن بها أن نصل إلى المقصود الأهم ؟

معالم علاقتنا مع الآخر

تنقسم المعالم إلى قسمين: الطلبات التي نطلبها منهم، والمجهود الذي يجب علينا أن نبذله.

أولا: المطالب التي نطلبها منهم، ونذكر منها أربعة، هي:

١ - تنقية مناهج التعليم:

تنقية مناهج التعليم التي تشوه صورة الإسلام والمسلمين، وتولد الكراهية لدى أطفالهم ضدنا، ولقد بذل في هذا المجال مجهود ضخم قامت به مجموعة علمية بجامعة كولن بألمانيا، وكان منهم البروفسور عبد الجواد فلاتوري، وهانس زركر، وهانس فوكنج، وزملائهم، وتتبعوا فيه -بنوع من التحليل- المناهج الألمانية، وما ذكر فيها من أمثال هذه الصور المشوهة، وبدأت طباعة هذه المجموعة ابتداء من سنة ١٩٨٦م، وحتى سنة ١٩٩٦م بمعهد جورج إيكرت، وترجم المرحوم فلاتوري ملخصًا لهذه الدراسة المطولة في كتيب باللغة العربية، وهي دراسة يمكن الاستفادة منها.

وإن كانت الدراسة قد اختصت بمناهج ألمانيا، إلا أنه يمكن تطبيقها على باقي دول الغرب؛ وذلك لتشابه المناهج التعليمية في الغرب مع بعضها، خاصة في النظر إلى المسلمين.

وفي أوائل التسعينيات قام المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن بتتبع المناهج الدراسية في أمريكا، وحصر هذه المعلومات المغلوطة، وعمل دورة للمدرسين الذين يقومون بتدريس تلك المناهج، وعرض المعلومات الصحيحة عليهم وإرشادهم إلى مصادر المعلومات الصحيحة، والخروج من هذه الدورات بتوصية من أولئك المدرسين موجَّهة إلى دُور النشر التي تقوم بنشر الكتب المقررة، بحذف هذه المعلومات المغلوطة، أو أن تستبدل بها الصحيح.

ولقد تم فعلا في بعض الولايات هذا الأمر، إلا أنه لم يستمر حتى نهايته، ولم تتم المتابعة عليه، ولكن هذه التجربة تبين إمكانية ذلك.

٢ - تعديل القوانين سيئة السمعة:

هي تلك القوانين التي تحاصر المسلمين، وتضيق عليهم أو تصطدم مع حريتهم في الحياة، أو في تطبيق أوامر دينهم على أنفسهم، وهذه القوانين، تخالف المفهوم العام للحرية ولحقوق الإنسان، وإن كانت لا تعدم عندهم من تبرير يمكن مناقشته والتغلب عليه، بل والطعن في دستوريته بالوسائل القانونية المختلفة، وبالقنوات السياسية المتعددة، وبالمفاوضات، وبتشكيل الرأي العام عن طريق المؤسسات الإعلامية التي يمكن للمسلمين أن يستعملوها، وأيضا عن طريق مراكز البحث والتأثير والتتبع، والتي تكون جماعة مساعدة في بلادهم.

وقد يكون قانون الرموز الدينية في فرنسا مثالاً صالحا لهذه القوانين، وكذلك قانون جيسو الفرنسي أيضًا، والذي يجرِّم كل من يشكك في واقعة الهولوكست ويفرض قدسية عليها، ويمنع أي بحث علمي بشأنها. وكذلك القانون الأمريكي الذي يجيز التجسس على المسلمين داخل أمريكا، الذي يتعارض مع ما قررته الأمم المتحدة في ميثاق حقوق الإنسان الصادر سنة ١٩٤٨م في مادته رقم ١٢؛ حيث نصت على: «حظر التدخل في حياة الفرد الخاصة وأسرته وبيته ومراسلاته، كما حظرت المادة أي اعتداء على شرف الإنسان وسمعته، وأن أي فرد له الحق في الحماية القانونية ضد هذا التدخل والاعتداء»، وهذا ما يسمى بحق الخصوصية للفرد، وقانون الحرية الدينية الصادر في ٢٧ يناير ١٩٩٨م، وغيرها من القوانين التي تحتاج إلى دراسة واسعة تشريعية وسياسية، وإعداد طلبات واضحة بشأنها.

والناحية الثانية في الجانب القانوني، فإنه يجب السعي في استصدار قوانين لحماية المسلمين، والاستفادة من المجهودات التي تقوم بها منظمة المؤتمر الإسلامي، وجامعة الدول العربية؛ فقد قررت الجامعة في المجلس الخاص بها على المستوى الوزاري بعد اطلاعه:

- على مذكرة الأمانة العامة..
- وعلى مذكرة وزارة خارجية جمهورية مصر العربية بشأن مؤتمر منظمة الأمن والتعاون في أوروبا (١٣-١٤-٢٠٠٤)، حول التسامح ومناهضة العنصرية وكراهية الأجانب والتمييز..
- وفي ضوء المحاولات الرامية لاستصدار قرار من الجمعية العامة للأمم المتحدة حول معاداة السامية دون النظر إلى باقي أشكال التمييز بما في ذلك العداء للعرب والمسلمين..
- وبالنظر إلى تزايد حملات التمييز والعداء للمسلمين والعرب في بعض الدول الغربية..

يقـــرر:

١- إدانة كافة أشكال التمييز العنصري وكراهية الأجانب، ورفض محاولات ربط معاداة السامية بالعرب والمسلمين، والتأكيد بأن معاداة الإسلام وكراهية العرب من أشد أنواع التمييز العنصري التي يتوجب على المجتمع الدولي مواجهتها.

٢- رفض السياسات والممارسات الإسرائيلية العنصرية في الأراضي العربية المحتلة، والتأكيد على عدم الخلط بينها وبين معاداة السامية.

٣- تكليف المجموعة العربية في نيويورك والعواصم الأخرى المعنية بمتابعة الموضوع في إطار الأمم المتحدة، وإجراء الاتصالات اللازمة مع المجموعات الجغرافية المختلفة لتنسيق المواقف في هذا الشأن.

٣-تعديل صورة المسلمين في الإعلام:

يتوجب علينا إيجاد مساحة في الإعلام تتاح لنا لشرح حقائق ديننا وهويتنا للآخر، وهذا المطلب يتم عن طريق وزارات الاندماج التي طالما يطالبون بها. وعلينا أن نفرق بين حرية الرأي والاعتقاد، وحرية التعبير؛ فحرية الرأي

والاعتقاد مكفولة لكل أحد منذ مذهب التجاريين، وكلام آدم سميث (دعه يعمل دعه يمر)، وأن هذا يقتضي تلك القضية، وهو ما لا نجد فيه بأسًا في الدين الإسلامي، الذي قرر حرية العقيدة في أجلى صورها، وأخَّر المحاسبة عليها إلى يوم القيامة، وليس في الحياة الدنيا، فقال تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(١)، وقال سبحانه: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(٢)، وقال: ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾(٣).

أما حرية التعبير فسوف تتقاطع مع عقائد الآخرين من جهة، ومع المساواة من جهة أخرى، وإذا كانت هذه مشكلة عند كهنة الديمقراطيين من أول القرن التاسع عشر، فالعجيب أنها ما زالت مشكلة ونحن في القرن الحادي والعشرين.

وبالرغم من أنهم قرروا بوضوح في كتبهم فقالوا: إن هناك رؤيتين للحرية الأولى مرفوضة: وهي ترى التحرر من القيود والضوابط جميعها، بحيث يستطيع الإنسان أن يفعل كل ما يريد؛ وهو الأمر الذي يحول المجتمع البشري إلى فوضى عارمة، لا يمكن تصورها فضلا عن قبولها. والثانية: ترى أن الحرية تعني استقلال الإرادة والحرية في التعبير بما يتلاءم مع الاجتماع البشري، والالتزام بالضوابط التي يتفق عليها جماعة البشر كالضوابط الدينية والأخلاقية، والعرفية التي يتصالح عليها المجتمع، والحرية بهذا المنظور توجه على أنها الوجه الآخر من المسئولية، فقبل أن يعلم الإنسان حدود التمتع بالحرية، يعلم أنه مسئول عن تلك الحرية وتلك الاختيارات والأقوال والأفعال أمام المجتمع الذي يعيش به.

وبذلك يتبين لنا أن تقييد حرية الفرد -بالضوابط التي يقرها العقل والمنطق- من مقتضيات قيام المجتمع الإنساني، خاصة مع تشابك المصالح واختلاف الأهواء، وتظل الحرية معنى نسبيا يتفاوت بتفاوت الزاوية التي ينظر منها إليها حتى لو تحدد نطاقها، وأعطيت وصفا معينا (سياسيا أو اقتصاديا أو دينيا...

---

(١) الكهف: ٢٩ .

(٢) البقرة: ٢٥٦ .

(٣) النساء: ٨٠ .

إلخ)، فقد يكون المقصود الحرية من قيد معين بالمعنى السياسي أو الحرية بقصد تحقيق غرض معين بالمعنى الاجتماعي.

٤ - عدم التهميش:

ونطالب بعدم التهميش، سواء للمسلمين وحضارتهم بصفة عامة، أو للجماعات والأقليات القائمة في بلاد غير المسلمين بصفة خاصة، وهذه الحالة من التهميش شائعة في الفكر، وفي الحياة عند الآخر؛ وذلك عن طريق تجاهل دور المسلمين ومكانتهم في بناء الحضارة الإنسانية، واعتبار العالم الإسلامي أرضًا لجلب الثروات والخامات، وسوقًا للاستهلاك، فلا يزال الفكر الاستعماري شائعًا عند الكثير من الناس، وكذلك تهميش الجماعات المسلمة، والتمييز ضدها، وعدم إتاحة فرصة العمل لهم، أو المساهمة الكاملة لبناء الوطن.

ثانيا: الجهود التي يجب علينا أن نبذلها:

وتتمثل في وحدة المسلمين الذين إذا نجحوا فيها رجعوا أمة وسطى، ليكونوا شهداء على الناس، وأنا أرى أن أحسن ما يقرب المسلمين على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم هو دعوتهم إلى العمل الجاد الذي نحتاجه، وحينئذ سيرون بأنفسهم تفاهة الاختلاف ووجوب الوفاق والاتحاد.

فأنا أدعوهم إلى العمل على:

١) **التقريب والتحالف بين دول المنطقة:** ولنبدأ باقتراح الطريق السريع الذي يربط بين طنجة وعمان، وشبكة الطرق السريعة هذه هي أول خطوة في ربط البلدان بعضها مع بعض، وفي إذابة الفوارق، بل والعوائق، وهي لا تتدخل في استقلال الدول، ولا في أنظمتها السياسية، ولا في شئونها الداخلية، وهي لا تحتاج إلا إلى قرار ومال وتنفيذ، بل جزء كبير من ذلك الطريق موجود بالفعل ويحتاج إلى تفعيل، وأن يقوم بدوره في ربط الدول بعضها مع بعض.

٢) **رفع تأشيرات الدخول والإقامة بين العالم العربي:** وهو أمر مأخوذ به في كثير من البلدان العربية، ولا يحتاج إلا إلى انتشار، ويمكن استثناء الأراضي المقدسة لتنظيم الحج والعمرة إليها بصورة تمنع من عدم الانضباط.

٣) **السعي إلى تفعيل السوق المشتركة والتجارة البينية والاكتفاء الذاتي:** عن طريق المشروعات العملاقة كالتي بين مصر والسودان خاصة لزراعة القمح، فإذا كان طعامك من فأسك كان رأيك من رأسك، وأيضا التخصص وتقسيم العمل بين الدول العربية للوصول إلى التكامل الاقتصادي.

٤) **توحيد العملة المتداولة:** هل نأمل في السعي الحثيث لتوحيد العملة بين الأقطار العربية، ثم الإسلامية ؟! ولتأخذ وقتها من التنفيذ، وهو مطلب قديم كنا نسمع عنه من التيار القومي حتى حققته أوربا في صورة اليورو.

٥) **أشكال سياسات الاتحاد بين الأنظمة:** هناك أساليب للوحدة مع الاحتفاظ بالهوية والخصوصية كالاتحاد الفيدرالي، وهو أمر يحتاج أيضا إلى رأي عام، وتوجه صادق، وخطوط كثيرة للوصول إلى التوائم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي بين الدول العربية، وهو أمر ليس بالمستحيل حتى لو اكتنفته بعض العقبات، أو احتاج إلى كثير من الجهد والترتيب والإجراءات.

٦) **إصلاح التعليم:** بالاهتمام بمراكز البحث العلمي، وتشجيع الابتكار وحمايته، والاهتمام بقضايا التدريب، وبالجانب التطبيقي.

إذا عرفوا أن وراءهم كل ذلك وما يحتاجه من عمل كل أفراد الأمة بالليل والنهار، هل سيعود لديهم وقت حتى يختلفوا ؟.

ضوابط علاقتنا مع الآخر

يجب أن يكون خطابنا مع الآخر متميزًا ومنضبطًا بالضوابط الآتية:

أولا: المعاصرة:

أحْدثَ اختراع الطباعة على يد «يوحنا جوتنبرج» في عام ١٤٥٥م تغيرًا جذريًا في أساليب التعبير والاتصال؛ فكانت الطباعة بداية للنشر الجماهيري للكتب وللجرائد والمجلات؛ وهو ما حقق شعبية الإعلام والثقافة ونقلها من احتكار العلماء والحكام إلى الجماهير العادية، بعد أن تعددت النسخ المتطابقة من المطبوع الواحد. كما ساعد انتشار المطبوع أيضا على نشر الفردية؛ لأنه شجع المبادرة الفردية والاعتماد على الذات كوسيلة اتصال وكأداة شخصية للتعلم، ولكنه ساهم في عزلة البشر وأخرجهم من الإطار الجمعي.

وفي القرن التاسع عشر بدأت ثورة اتصالية جديدة، واكتمل نموها في النصف الأول من القرن العشرين؛ حيث شهد القرن التاسع عشر ظهور عدد كبير من وسائل الاتصال استجابة لعلاج بعض المشكلات الناجمة عن الثورة الصناعية؛ فقد أدى التوسع في التصنيع إلى زيادة الطلب على المواد الخام، وكذلك التوسع في فتح أسواق جديدة خارج الحدود، كما برزت الحاجة إلى استكشاف أساليب سريعة لتبادل المعلومات التجارية، وبالتالي أصبحت الأساليب التقليدية للاتصال لا تلبي التطورات الضخمة التي يشهدها المجتمع الصناعي.

فقد ظهر التلغراف، والتليفون، والفونوغراف، ثم التصوير الفوتوغرافي، فالراديو، فالفيلم السينمائي، ثم الإذاعة المرئية (التليفزيون)، ويظهر التليكس بعد ذلك، وتبدأ أنظمة الاتصالات عبر القارات متمثلة في الكابل البحري، ثم الأقمار الصناعية، ويظهر التليفزيون السلكي، والإرسال التليفزيوني المستعين بالأقمار الصناعية بشكل غير مباشر ثم مباشر بعد ذلك، وتوظف أشعة الليزر والألياف البصرية، وخلال تلك الفترة لا يمكن إغفال الفيديو كاسيت، والفيديو ديسك، والفاكس ميل والأسطوانة المدمجة.

وخلال تلك المرحلة تظهر الحاسبات الإلكترونية وتتطور جيلا بعد جيل حتى تصل إلى الجيل الخامس وتدخل كل مجالات الحياة، ومن ذلك استعانة صناعة الصحافة بالأقمار الصناعية في عمل طبعات دولية وإقليمية بحيث يمكن للصحيفة أن تطبع في أكثر من مكان داخل البلد الواحد وخارجه في الوقت نفسه.

كذلك أدى امتزاج الحاسبات الإلكترونية بالاتصالات السلكية واللاسلكية إلى ظهور شابكات المعلومات المحلية والدولية التي تطورت بشكل كبير خلال المرحلة الراهنة؛ كاشبكة الإنترنت العالمية. ويمكن القول: إن هذه المرحلة أحدثت ثورة في نظم الاتصال وحولت العالم إلى قرية عالمية إلكترونية يعرف الفرد فيها بالصوت والصورة وبالكلمة المطبوعة كل ما يحدث فور وقوعه.

ذلك التطور الهائل جعلنا لا نستطيع الفصل بين تكنولوجيا الاتصال وتكنولوجيا المعلومات؛ فقد جمع بينهما النظام الرقمي الذي تطورت إليه نظم الاتصال، فترابطت شابكات الاتصال مع شابكات المعلومات، وهو ما نلمحه واضحا في حياتنا اليومية من التواصل بالفاكسيميل عبر خطوط التليفون، وفي بعض الأحيان مرورا بشابكات أقمار الاتصال وما نتابعه على شاشات التليفزيون من معلومات تأتي من الداخل وقد تأتي من أي مكان في العالم أيضا، وبذلك انتهى عهد استقلال نظم المعلومات عن نظم الاتصال، وتطور كل منهما في طريق كما كان الماضي ودخلنا في عهد جديد للمعلومات والاتصال يسمونه الآن (Com-Com) وهي اختصار (Computer-communication).

لقد أثر كل ذلك في ترتيب السوق وتكوينها؛ وهو ما جعل مثلاً سعر الفائدة هو المقياس الأكثر انضباطا والأكثر شيوعا لحركة التعاملات المالية في السوق، وجعل هناك مؤسسات تمويلية كالبنوك، وكسوق المال والبورصات، والشركات عابرة القارات، كل ذلك في ظل الاتفاقات التجارية العالمية، سواء منها الجائر أو الحائر أو النافع لمجموعة البشر، ولكنه على كل حال واقع معيش، فإذا ضمنا له اختلاف موازين القوة العسكرية والسياسية ووجوب التعامل مع هذه الحالة

لتحقيق مقاصد الشرع الشريف، وتحصيل مصلحة المسلمين تأكد ما ذكرناه من أنه يجب على الفقهاء أن يعيدوا النظر مرة أخرى في وصف العقود والتصرفات والأفعال البشرية بالحل والحرمة، طبقا للكتاب الكريم والسنة النبوية المشرفة على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم.

ويرمز لبداية هذه الثورة في التفوق الأوروبي على الحضارة العربية بعصر الخديوي إسماعيل الذي يعتبر الحد الفاصل في مسألة الآثار، وهو عصر يعد نقطة فارقة في تاريخ مصر، وفى تاريخ الشرق المسلم، تغير فيه كل شيء، وأراد الخديوي إسماعيل أن يخرج مصر من سياقها التاريخي لتصبح قطعة من أوربا، فجاءها خير كثير من هذا، وجاءها شر أيضا.

والحاصل هو: اختلاف صورة الواقع قبل ١٨٣٠م عن هذا الواقع الذي نعيشه؛ فلم تكن هناك وسائل اتصالات أو مواصلات كما هي لدينا الآن، ولم تكن هناك تكنولوجيا معلومات مثل تلك التي تتوافر حولنا، وهذه الأمور الثلاثة (الاتصالات والمواصلات وتكنولوجيا المعلومات) لا تمكِّننا اليوم من أن نحيا حياة الأمس؛ حيث اختلف البرنامج اليومي لحياة الإنسان. فسرعة الأحداث وكمّ العلاقات والاتصالات التي تجري الآن، كلها أصبحت كثيفة على نحو رهيب، أصبح العالم وكأنه قرية واحدة؛ المذاهب التي تنبت في إنجلترا نطلع عليها في القاهرة فورًا؛ الأمر الذي لم يكن يحدث إلا بعد أجيال وأجيال في الماضي.

وهكذا اختلف الواقع واختلفت الأفكار، وأصبح من الضروري وضع ضوابط لإدراك الواقع وإلحاق مسائله بالأصول.

وكانت نشأة العلوم الاجتماعية والإنسانية في صورة مقنَّنة، ولدت لنفسها مناهج لإدراك الواقع، ولكنها قامت على أسس متحيزة للعقيدة الغربية المسيحية. وتستهدف جهودنا الحالية في دراسة العلوم الاجتماعية من منظور إسلامي، تشكيل المناهج الاجتماعية والإنسانية من رؤية كلية للحياة، تلك الرؤية التي يحملها المسلم في عقيدته، فيدرك الواقع كما أراده الله ﷻ، وبالتالي عندما يتوصل إلى حكم على هذا الواقع، فإنه يتوصل أيضًا إلى الحكم كما أراده الله ﷻ؛

وهو ما يحرر المسلم من التبعية؛ تبعية مناهج العلوم التي إنما تعبر عن أنماط طرائق جديدة للاستغراب والتغريب.

هذه التبعية التي تترسّخ على نحو مشهود في الأصعدة الأكاديمية المختلفة وفي الممارسة الواقعية لهذه العلوم، على نحو يجعل المسلم حائرًا مترددًا بين واقع يراه يتطور، وعدسات (أو مناهج نظر وبحث) غربية تفرض نفسها على رؤيته لهذا الواقع، وبين إدراك للنص والوحي بمنظور شرعي؛ أي أن عليه أن يختار بين منظورين مختلفين؛ وذلك لأن مصدريهما أو مصادرهما مختلفة، ينحو كل منظور منهما إلى تشكيل رؤية خاصة للواقع تتناقض مع الرؤية الأخرى التي يشكلها المنظور الآخر.

وهكذا فإن المنظور الإسلامي يسعى إلى رؤية ربَّانية لإدراك الواقع؛ رؤية إسلامية ترى أن الإنسان مخلوق لخالق، وأنه ملتزم بشرعٍ، وأن سيصير في اليوم الآخِر إلى حساب وثواب أو عقاب، وأن للأشياء لديه حرمة وقداسة، وأن الأمور لا تحكمها نسبية مطلقة، كما يظن الغرب، بل تلعب القيم والمقاصد الشرعية أدوارًا حاسمة في تسيير هذه الأمور في إطار سُنن ربانية، بعضها تاريخي متعلق بالأحوال والأحداث، وبعضها نفسي متعلق بالمجتمع كنفس واحدة، أو متعلق بالنفس الإنسانية في ذاتها... إلى آخر هذه الرؤية الكلية، التي تنبثق عنها – بدورها– مناهج للعلوم الاجتماعية، تستبطن قيمها الأصلية ومقاصدها الشرعية الإسلامية.

ويمكن أن نجمل سمات ذلك العصر فيما يلي:

١ - الشعبية:

وهي نتاج الدعوة إلى المساواة، ثم إلى التساوي في كل شيء، والمساواة وإن كانت أصلاً معتبرًا، والتساوي وإن كان سنة في مجالات عديدة، إلا أن شيوع هذه الدعاوى وسم العصر **بصفة سلبية وهي إذابة النخبة**، التي كانت تمثل الرأس من الجسد، والتي ظلت تفكر وتنظر من أجل أن يأتي النشاط على وفق التفكر، والعمل على قدر العلم، فهذه الصفة تشتمل على محاسن تذويب الطبقات، وهو

ما يتوافق مع النص النبوي (كلكم لآدم وآدم من تراب)؛ حيث يعبر عن المساواة مع الدعوة إلى التواضع، غير أن هذه الصفة تشتمل على مساوئ أيضا وهي ذهاب النخبة؛ ولذا أمرنا ربنا بعدم تنحيتهم في كل فن، فقال تعالى: **﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾**(١).

٢ - سبق النشاط على الفكر:

وقد قرر ذلك الفيلسوف المسلم عبد الواحد يحيى؛ أن هذا عصر سبق النشاط على الفكر، وكان في المنهج الإسلامي القلب يعلو العقل والعقل يعلو الجوارح، فأصبح الشائع الآن أن الجوارح تسبق العقل، وإذا كان هناك استعمال للعقل فالقلب يسبقه ويخرج عن مقتضاه.

٣ - النسبية:

تميز هذا العصر بشعور عام من النسبية، وأن الحق يمكن أن يتعدد، والمسلمون يرون أن الحق لا يمكن أن يتعدد، وأن الحق واحد، وهذه النسبية أثرت في الآداب والفنون والسياسة والاجتماع، وسائر أنشطة الحياة، والإيمان بالمطلق كان سمة العصور الماضية في كل الأرض حتى سمي بعصر الإيمان faith age.

٤ - الإنجاز:

فالإنجاز أصبح المعيار في حين أن الأخلاق والقيم والالتزام كان معيار التقويم، ونعى الله على أقوام جعلوا الإنجاز معيارًا لحسن حالهم وهم على الشرك والمعصية، قال تعالى: **﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾**(٢). وولّد ذلك المعيار الجديد المنافسة

---

(١) النحل: ٤٣ .

(٢) الشعراء: ١٢٨ - ١٣٠ .

غير الشريفة بين الأطفال في المراحل الأولى في المدارس، ونسيت المنافسة الشريفة التي قال الله فيها: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[1]، ويحث على أحد أفرادها رسول الله ﷺ حيث يقول: "لو يعلم الناس ما في الصف الأول، لكانت القرعة".[2]

٥ - مقياسية القانون:

وهي سمة أخرى من سمات العصر، وتجيب تلك السمة عن عدة أسئلة هي: من الذي يضع القانون ؟ والإجابة: هو مجلس النواب أو مجلس الشيوخ. ومن أعضاء هذا المجلس؟ والإجابة عند هذه السمة: هم من ينتخبهم الناس بكامل حريتهم على أساس النسبية المطلقة، والمصلحة أيضًا. وبهذا نكون قد وصلنا إلى «الديمقراطية»، وعلى هذا الأساس فإن ذلك المجلس يوافق على القرارات ويسن القوانين طبقًا للمصلحة، وهي تحقيق المنافع الخاصة به حتى وإن لم تكن من حقه، المهم أنه يقدر على تحقيقها لأنه قوي.

٦ - المصلحة:

والمصلحة إحدى السمات الأساسية لذلك العصر الذي نعيش فيه، حيث تعد ضابطًا يمكن فهمه وتوقعه في اتخاذ القرار بجوار النسبية المطلقة التي يصعب كثيرًا فهمها وتوقعها، غير أن كثيرا من المحللين اعتبرها المرجعية الأساسية لأغلب المواقف والقرارات التي تتخذ في المجالات السياسية وغيرها على المستوى المحلي والدولي، والحقيقة أن إغفال النسبية، واختلاف الرؤى والمنطلقات يؤثر

---

(١) المطففين: ٢٦ .

(٢) رواه ابن ماجه، وابن أبي شيبة في مصنفه، والبيهقي في الكبرى.

في فهم كثير من الظواهر بآثار سلبية، فالمصلحة مرجعية في اتخاذ القرارات عند كثير من أبناء الحضارة الحديثة، ولكنها ليست المرجعية الوحيدة.

٧ - التجاوز:

تعتبر حركة بعد الحداثة نفسها مرحلة لا نهائية، وترى أنها نهضة أحدث من نهضة الحداثة نفسها، واعتبروا أن النهضة الأولى تمكنت من تنحية الدين، وهم يهدفون لتنحية الأصول والمبادئ والقيم الباقية في حياة البشر بدعوى أنها تقيد الإبداع وتقيد الحرية وتقيد الفكر، فسعت تلك المرحلة لإلغاء الأدب القديم والفن القديم وأيضا مفهوم الأسرة القديم.

فتم تجاوز مرحلة الأسرة family إلى مرحلة couple وهي تعني الثنائية، أما الأسرة family فتعني زوجا ذكرا، وامرأة أنثى، وهي الأسرة أحد أنواع الـ couple؛ لأن الـ couple تعني الثنائية، إما: رجل وامرأة، أو رجل ورجل، أو امرأة وامرأة، فأصبح المصطلح الجديد أعم وله ثلاثة أشكال من الثنائية، وهم يسعون إلى أن تكون الأشكال الثلاثة مقبولة في المجتمع دون نكير، وإذا تكلمنا لماذا لا تكون الأسرة، رجلا وامرأة فقط، يردون علينا ويقولون نحن تجاوزنا هذه المرحلة.

وبالفعل أنشئت كنائس لتزويج المثليين، وأصبح هناك مفهوم جديد للأسرة، فلا مانع أن يكون الأب أنثى، وتكون الأم ذكرًا، وأصبح لا يوجد ما يلزمنا بشكل الأسرة القديم.

وبهذا الأسلوب الجديد يغيب القدر المشترك بين جماعة البشر بالكلية، ويكثر الهرج والقتل واستخدام القوة لعدم وجود قاعدة للنقاش والتفاهم، خاصة وقد أرادوا أيضا أن يغيروا اللغة وقالوا: اللغة التي اعتبرت الزوجة إنسانا أنثى، نغيرها وتصبح الزوجة إنسانا ذكرا، وتصبح الأنوثة هي الذكورة، والذكورة هي الأنوثة وبتغير مفاهيم كل من (الدين - الثقافة - الأسرة - اللغة -الدولة) تنقلب كل الموازين، وبهذا نخرج عن كل المبادئ والمقاييس التي كان من الممكن الرجوع إليها.

٨ - هاجس التطور:

ومن سمات العصر هاجس التطور، وأنه لا ثابت حولنا، وأن الإنسان نفسه محل لهذا التطور، وأنه إذا كان قد أتى من حالة الفرد فإنه قد يصل في المستقبل إلى شيء آخر، رأسه كبير، وجسمه صغير، أو يتكون من خلقة الإنسان والربوت معًا، وأنه يمكن القضاء على الموت ويمكن تكوين حكومة عالمية تهيمن على العالم الذي يجب أن يجزء إلى ٤٠٠ دولة بدلا من ١٩٦ دولة الآن.

وشعروا أنه يمكن -كذلك عن طريق الهندسة الوراثية- السيطرة على الكون الخارجي، ومع هذا التصور الذي في ظاهره القوة، نرى خوفا مريعا في النفس، يتمثل في الأدبيات التي ظهرت من خلال الروايات والسينما من الوحش الذي لا يمكن قهره أو الميكروب غير القابل للعلاج أو غزو من الفضاء للأرض أو تحول البشر إلى سادة وعبيد، أو غير ذلك كثير، ولكن أتعس فكرة في ذلك كله هي فكرة إلغاء الموت، ثم يليها في التعاسة إلغاء الثوابت الخمس.

كانت هذه أهم سمات العصر الذي نعيش فيه، والتي ينبغي أن يعيها المسلم، ويحدد برنامجًا للتعامل معها، مع احتفاظه بهوية مجتمعه المسلم وخصوصيته.

ثانيا: الحفاظ على الهوية:

إن من مقتضيات مفهوم الأمة في الإسلام ترتيب الأولويات، ومنهج التعامل مع الحياة الدنيا، وتحديد العلاقة مع الآخرين، ووضع برنامج عملي لعمارة الأرض، وعلى ذلك فإن إدراك مفهوم الأمة أمر أساسي إذا كان يمثل المنطلق لهذه القضايا وغيرها، وتفعيل ذلك الإدراك أمر أكثر أهمية من الإدراك المشار إليه.

فلا بد أن نتكلم بتوسع -وتحديد أيضا- عن مفهوم الأمة. وفي نظر المسلمين الأمة فإن ممتدة عبر الزمان فيما يمكن أن نسميه بالدين الإلهي، فالأمة تبدأ من آدم، وتشمل كل الرسل والأنبياء في موكبهم المقدس عبر التاريخ، والأمة بعد النبي ﷺ ممتدة عبر الزمان والمكان، وفي جميع الأحوال، ولدى جميع

الأشخاص، وهذا أمر غاية في الأهمية إذا اعتبرناه تأسيسًا لما ندعو إليه من معاصرة وإصلاح وتجديد، فالمسلمون لا يعرفون الرابطة القومية أساسا للاجتماع البشري، وإن كانوا لا ينكرونها في سياقها، ولا يعترفون بالرابطة الوطنية إذا أدت إلى الشوفونية المتعصبة، وإن كانوا يعتبرون حب الوطن من الإيمان.

وبدء الأمة من آدم يجعل لقصة الخلق الواردة في القرآن الكريم معنى جليلا، فلا تكون إقرارا لحقيقة أو لواقع فحسب، بقدر ما تكون تأسيسا لمفهوم يبنى عليه الاجتماع البشري، فماذا قالت القصة ؟ قالت الحقائق الآتية:

إن آدم من الأرض، فالأرض إذن أمه وأبوه. هذا ليس شعارا لدعاة الحفاظ على البيئة، بل جزء من تصديق كلمة الله سبحانه وتعالى، وكون آدم من الأرض معناه أنه لا بد عليه وعلى أبنائه أن يعاملوها معاملة الابن للوالدين، وأن العلاقة بينهما هي علاقة البر، وكون آدم من الأرض معناه المساواة التي ستكون بين بنيه فهم كلهم لآدم وآدم من تراب كما ورد في الحديث النبوي، فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : "إنَّ الله -عزَّ وجلَّ- قد أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية وفخرها بالآباء: مؤمنٌ تقيٌّ، وفاجرٌ شقيٌّ. أنتم بنو آدم، وآدم من تراب. ليدعنَّ رجالٌ فخرهم بأقوامٍ، إنّما هم فحمٌ من فحم جهنم، أو ليكوننَّ أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن".[١] (والجعلان هي الخنافس).

وكون آدم من الأرض معناه أنه سيعود إليها، وأن حياته هنا محدودة بالموت، ولذلك فهي دار ابتلاء واختبار وتكليف، وليست دار خلود وتشريف.. قال سبحانه: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾[٢]، وكون آدم من الأرض يقتضي أنه محتاج إلى غيره وليس قائما بنفسه، وهو معنى قولهم (لا حول ولا قوة إلا بالله)، الذي ورد في الحديث أنه كنز من كنوز الجنة، فعن أبى

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

(٢) طه: ٥٥ .

موسى –رضي الله عنه – قال: قال لي رسول الله ﷺ: "يا عبد الله بن قيس، قل: لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة". أو قال: "ألا أدلك على كلمة هي كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله" (١)؛ حيث تدل هذه الكلمة على حقيقة وجود الإنسان في الأرض، وحقيقة سعيه فيها.

إن آدم قد نُفخ فيه من روح الله سبحانه وتعالى، وروح الله مخلوق راق من مخلوقاته، فروح الله، مضاف ومضاف إليه، والإضافة فيها للقداسة مثل قولنا: (بيت الله) و(رسل الله)، قال تعالى: **﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾**(٢) إن آدم قد سجدت له ملائكة الرحمن؛ وهو ما يدل على تكريمه، قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾**(٣).

إن آدم يمثل الخير في أصله، في مقابلة الشر الذي عند إبليس، ولذلك من تشبه بآدم فهو خير، ومن انحرف وخالفه وتشبه بإبليس فهو شر.. قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾**(٤)، وقال سبحانه: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّبًا وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾**(٥)، فآدم إذن هُدي النجدين.. قال الله تعالى: **﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾**(٦)؛ أي طريق الخير وطريق الشر. وآدم إذن شُرّف وكلِّف.. قال الله سبحانه: **﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾**(٧).

---

(١) متفق عليه .
(٢) الحجر: ٢٩ .
(٣) الإسراء: ٧٠ .
(٤) النور: ٣١ .
(٥) البقرة: ١٦٨ .
(٦) البلد: ١٠ .
(٧) الأحزاب: ٧٢ .

هذه الرؤية للإنسانية ستحدد مفهوم الأمة التي بدأت مع آدم هذا البدء.. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾(٢).

ويمكن أن نقرر صفات لتلك الأمة الواحدة؛ أن هناك مساواة بين البشر، فأصلهم واحد، ومصيرهم واحد، وهو الموت، والخطاب الإلهي إليهم واحد.. قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(٣).

فإذا تحدد مفهوم الأمة بهذا المعنى فإن لدينا أمة الدعوة وهي الإنسانية كلها وأمة الإجابة، وهم من صدقوا بالنبي ﷺ ودينه ومنهجه في الحياة، وهو مفهوم للأمة يشمل البشرية كلها، ويرى المسلمين مع غير المسلمين أمة دعوة يتوجه لهم جميعا الخطاب بـ (يا أيها الناس) ,وإن اختص المسلمون بخطاب (يا أيها الذين آمنوا)، حتى إنه في العقائد الإسلامية نرى شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة لجميع الخلائق حتى يصدق عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(٤)؛ أي السابقين واللاحقين.

ثالثا: الاندماج والمشاركة في الحضارة:

إن العالم يحتاج إلى مشاركة المسلمين في صناعة مستقبل مستقر؛ حيث إن لديهم المنهج الشامل العادل لصياغة المعادلة بين الإنسان والكون والخالق سبحانه

---

(١) المؤمنون: ٥٢ .

(٢) الأنبياء: ٩٢ .

(٣) الأعراف: ١٥٨ .

(٤) الأنبياء: ٧٠ .

وتعالى، وتحتاج الدول التي بها أقلية مسلمة إلى مشاركة المسلمين بها في صناعة المستقبل الذي يحقق الرخاء والأمن والازدهار لكل أبناء البلاد.

وعلى ذلك، فينبغي أن يشترك المسلمون ويندمجوا باعتبارهم كيانًا له خصوصيته مع المجتمع العالمي، وباعتبارهم جماعات بشرية مع دولهم التي ينتسبون إليها، وعلى هذا المستوى الضيق، يعمل المسلم في الوظائف المختلفة، ويشارك في العمل في الأجهزة الأمنية والدفاع عن أرضه التي يعيش عليها ضد أي عدوان ظالم، كما له أن يعتذر عن المشاركة في أي عدوان تشنه بلاده يتعارض مع ثوابته العقائدية وآرائه الشخصية، وبهذا المعنى يحقق المسلم التجانس مع أبناء شعبه، وفي الوقت نفسه يقاوم الذوبان وضياع هويته وشخصيته.

وكما أن الاندماج والمشاركة يحتاجان إلى ما قدمناه من مطالب على المستوى التشريعي والأخلاقي والاجتماعي، فإنهما يحتاجان كذلك إلى اتساع أفق من المسلمين، وإدراك للواقع، وفهم للأمور على حقائقها، وليس على الانطباعات القديمة والصور الذهنية المشوهة.

بهذه الأدوات وبغيرها يمتلك المسلم النفسية المؤهلة للاندماج والمشاركة في صنع خير بلده والعالم، والتي نسأل الله أن تتحقق عند المسلمين، وخاصة هؤلاء الذين يمثلون أقلية في بلدان غير المسلمين.

وسائل توثيق العلاقة مع الآخر

١ - تفعيل دور الخريجين من الكليات الشرعية:

للعمل بالمراكز الإسلامية بالخارج، مع إتاحة الفرصة لهم للمعيشة في هذه البلاد بصورة مستمرة؛ لأن اللغة لا تكتسب، وهي كالكائن الحي لا ينمو إلا بطول المراس والمعاشرة، والاطلاع على دقائق العقلية وكيفية الخطاب، ولا بد من أوضاع مستقرة لهؤلاء الأئمة يمثلون فيها بحالهم قبل أقوالهم الإسلام، وكثيرا ما يتم إرسال هؤلاء الأئمة، ثم نسحبهم بعد أربع سنوات أو خمس، وهي أزمان لا تكفي للتفاعل والأداء الحسن الذي نرجوه.

٢ - إنشاء مرصد لتصحيح صورة الإسلام:

لا بد من إنشاء مرصد تكون مهمته الرصد والتحليل لكل ما يكتب وينشر ويذاع عن الإسلام في الخارج باللغات المختلفة، ومناقشته وتجهيز البيان الواضح بإزاء تلك القضايا وعدم ترك الأمور تتراكم حتى تصل إلى حد الانفجار، فقد يكون إنشاء قناة فضائية ناطقة بالإنجليزية خاصة أمرًا في غاية الأهمية، وهو ما لم يتم حتى الآن بصورة تتناسب مع العصر الذي نعيش فيه.

٣ - عقد مؤتمرات الحوار:

نريد بصورة مستمرة عمل مؤتمرات الحوار التي يدعى فيها رجال الصحافة والإعلام في كل مكان، وتتم المناقشات حول المصطلحات والصور الذهنية التي تتعسف مع الإسلام والمسلمين فيما يسمى بـ(الإسلام فوبيا) الذي يعني الخوف من الإسلام.

٤ - الدراسة العلمية للخلاف الحضاري:

فلا بد من عمل مناهج متخصصة ودراسات عليا لتحليل الخلاف الحضاري بين الشرق والغرب، وطرحها للحوار مع كافة المؤسسات الفكرية والإعلامية والجامعية والثقافية، وعدم حصر ذلك في النطاق الأكاديمي.

٥- تفعيل الاتفاقات القائمة بين المؤسسات العالمية والمؤسسة الإسلامية:

لما في هذه الاتفاقات من مصالح كثيرة، غير أنها غير مفعلة، مثل تلك الاتفاقات التي بين جامعة الأزهر وسائر المؤسسات العالمية، وتفعيل هذه الاتفاقات يحتاج إلى كثير من العمل على كافة المحاور، وكثير من الإتقان والنشاط، ويترتب على ذلك خير للمسلمين في كل بلاد العالم، ومن ثم خير للعالم واستقرار له.

٦ - إنشاء مراكز للترجمة والنشر:

وذلك من خلال الاهتمام بعملية الترجمة من العربية وإليها، في مراكز علمية قوية تضم أحدث الأجهزة العلمية والكوادر البشرية، حيث يمكن ذلك من الاطلاع على خلاصات التراث الإسلامي ومكونات العقل المسلم، وعلى كيفية الاستفادة من التراث الإنساني والتواصل بيننا وبين العصر، خاصة في مجال البحث العلمي، وبيان أخلاقيات هذا البحث ونظر الإسلام إليه، وكيفية نقل التكنولوجيا اختراعا وإبداعا، وليس استهلاكا وتقليدا، مع الحفاظ في الوقت نفسه على الهوية.

ولعلي في تلك الورقات القليلة قد أجبت عن الأسئلة التي تطرح في الرأي العام العالمي والإسلامي حول حقيقة معالم العلاقة بين المسلمين وغيرهم، وضوابطها ووسائلها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

محتويات البحث

الموضـــــوع	رقم الصفحة

في التواصل مع الآخر
معالم وضوابط ووسائل

أ.د / قطب مصطفى سانو
عضو مجمع الفقه الإسلامي الدولي بجدّة
أستاذ أصول الفقه
والماليّة الإسلاميّة بماليزيا

تقديم:

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإنّه لمن نافلة القول أنّ الإنسان مدنيٌّ بطبعه، ومجبول بفطرته على التواصل مع محيطه الإنسانيّ والماديّ، ولا يمكن له أن يعيش عيشة هانئة مستقرة بمفرده، كما لا يمكن له أن يجد للحياة طعمًا أو ذوقًا إذا عاش بمعزل عن الناس، واستغنى بفكره وذاته عن العالم الذي حوله؛ ذلك لأنّ الاستقرار والسعادة والأمن يتطلب كل أولئك قدرًا عاليًا من التفاعل الإيجابيّ الراقي مع الآخر والتكامل الحضاريّ مع الكون والوجود، والتفاعل البنّاء مع الحياة وما يغشاها من تطورات حثيثة وتغيرات متلاحقة وأوضاع متقلبة لا قِبَل للفرد بها؛ وهو ما يستلزم ضرورةً التواصل الإيجابي والتعاون الفعّال بين البشر، وتبني الإيجابيّة والموضوعيَّة والعلميَّة منهج حياة في التعامل والتفاعل مع الآخر.

إنّ الإسلام بحسبانه رسالة عالميّة شاملة، وبوصف رسوله الكريم ﷺ الرحمة المهداة للعالمين، فإنه يسع الكون ومن فيه وما فيه من إنسٍ وجنٍ وحيوانٍ ونباتٍ، وجبالٍ وبحارٍ وأنهارٍ بتعاليمه المرنة السمحة العادلة، كما أنه ارتقى بتشريعاته بالإنسان من الفرديّة إلى الجماعيّة، ومن الانغلاق إلى الانفتاح، ومن التعصب إلى التسامح، ومن التعسير إلى التيسير، ومن التشديد إلى التسهيل، وتجاوز بفكر الإنسان ورسالته في الحياة من القوموية إلى الأمميّة، ومن الإقليميّة إلى العالميّة، ومن الانسحابيّة إلى الإقداميّة، ومن الانكفاء حول الذات إلى الانفتاح على الآخر. بل إنّ الإسلام بتعاليمه السمحة الخالدة تجاوز بفكرة التواصل بين المسلم وغيره فردًا أو جماعةً من التواصل الشكليّ المحدود إلى التواصل الفكري الموضوعيّ الواسع الشامل، ومن التكامل النظري مع الآخر إلى التكامل الحقيقيِّ، ومن التفاعل السلبيِّ إلى التفاعل الإيجابيِّ الرشيد.

ولئن تناول -قديمًا وحديثًا- عددٌ لا يستهان به من الكتّاب والباحثين والمفكِّرين مسألة تواصل المسلم -فردًا ومجتمعًا- مع الآخر فردًا ومجتمعًا، فإنّ الناظر

المتفحص فيما تزخر به الساحة الفكريّة المعاصرة من مؤلفات وأبحاث ودراسات وكتب، يجد أنّه لا تزال ثمة حاجة قصوى إلى مزيد من الدراسات العلميّة الجادَّة التي تنطلق من رؤيةٍ منهجيّة موضوعيّة واقعيَّة رشيدة رشيقة تستند في منطلقاتها إلى أصول الشرع العامّة، وتعتصم في مضامينها بالمقاصد السنيّة، وتلتفت في تطبيقاتها التفاتًا مباركًا إلى مآلات الوقوع الفعليّ لما تتبناه من آراء واجتهادات سديدة إزاء مسألة التواصل مع الآخر، تمكينًا للمسلم فردًا ومجتمعًا من القيام بمهمة الخلافة لله جلّ جلاله، وعمارة الكون، وإسعاد البشريّة جمعاء.

ومن ثمَّ، فإنَّ هذه الوريقة المتواضعة ترنو -منهجيًا- إلى تسليط الضوء على **معالم التواصل المنشود مع الآخر**، كما تسعى إلى إلقاء الضوء على جملة **الضوابط التي ينبغي مراعاتها عند التواصل مع الآخر**، وستحاول الورقة تحقيق القول في جملةٍ حسنة من الوسائل والآليات المعاصرة التي ينبغي توظيفها عند الهمِّ بالتواصل مع الآخر.

وتأسيسًا على هذا، فإنَّ الورقة ستنتظم ثلاثة مباحث رئيسة وخاتمة، يُعنى أولها بتحقيق القول في مصطلح التواصل المنشود ومعالمه، وأما المبحث الثاني، فسيتناول بالتحرير والتحليل ضوابط التواصل المنشود ووسائله، وسيتصدى المبحث الثالث لتقديم اقتراح متواضع يقوم على الدعوة إلى الشروع في تأسيس علم الغرب «غَرْبُولوجيا westology» في الجامعات والمعاهد والكليات في العالم الإسلاميّ؛ وأما الخاتمة، فستحتضن تلخيصًا أمينًا لأهم نتائج الدراسة ومقترحاتها.

وعلى العموم، فإنني أغتنم هذه السانحة الطيّبة لأهنئ وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة المعروفة بوعيها وعمقها ووسطيتها، واللجنة التحضيرية والعلميّة والتنظيميّة لهذا المؤتمر المهمّ على حسن اختيارهما عنوانه ومحاوره وزمانه ومكانه، فقد سرّني جدًّا عنوانه الذي يعدّ تجاوزًا حكيمًا رشيدًا عن العناوين التقليديّة المتمركزة حول «الحوار مع الآخر»؛ ذلك أنّ الحوار غَدَا اليوم في خلد كثيرٍ من الناس الوسيلة المثلى الوحيدة والناجعة للتواصل مع الآخر، والحال أنّ

للتواصل مع الآخر وسائل جمّة لا يمكن حصرها أو محاصرتها في وسيلة بعينها، ولا يعدو الحوار -على الرغم من أهميّته ومكانته- أن يكون إحدى وسائل التواصل. ولهذا، فليس من المقبول في منطق العلم والحكمة العكوف عند دراسة وسيلة من وسائل التواصل -كما أنّه ليس من الأجدى- تجاوز إيلاء بقية الوسائل جانب التأصيل والتنظير والتحقيق؛ إمعانًا في دراسة مختلف السبل والطرائق التي تفضي إلى تحقيق تفاعل وتعاون إيجابيّ مع الآخر، فما دام للتواصل -باتفاق عامة المحققين من المفكرين- وسائل، وما دام للتواصل صور وأشكال متعددة، فإنّه من الحريّ بالالتفات والتنبه أن يتم النفاذ إلى طبيعة التواصل المنشود بغية تحديد الوسيلة المثلى التي تناسبها وتلائمها، والصدور عن هذه المنهجيّة في النظرة إلى وسائل التواصل من شأنه تجاوز الوقوف عند وسيلة بعينها؛ وهو ما يفضي في نهاية المطاف إلى ضرورة استيعاب سائر الوسائل المتاحة، والبحث عن سبل توظيفها وتفعيلها لتحقيق التواصل المنشود مع الآخر. ومن ثم، فإنّ الحاجة تمس -كما أثبتنا- إلى الاستفادة القصوى من سائر وسائل التواصل، كما أنّ الرشد الفكريّ والنضج المنهجيّ يقتضيان ضرورة تجديد النظر الحصيف في مختلف وسائل التواصل والتفاعل التي تجود بها الأيام، وتظهر في دنيا الناس.

وفي إطار تحقيق هذا الهمّ المقصديّ المنفتح والمستوعب لتغيرات الزمان والمكان والحال، اختلفنا (ذهبنا) في هذه الدراسة إلى الدعوة إلى تأسيس علم جديد اصطلحنا عليه علم الغرب؛ ليغدو مدخلا مهمًّا يتم من خلال تحقيق القول العلمي المنهجيّ الموضوعيّ في أشكال التواصل المنشود مع الآخر، ووسائله، وضوابطه، وآفاقه.

وفي الختام، لا يسعني في هذا المقام إلا أن أعبر عن عميق شكري وعظيم تقديري للجنة على دعوتهم إيايّ للمشاركة في هذا الملتقى العلميٍّ الرائع بجانب عدد من كبار المفكرين والعلماء في العالم الإسلامي، فعسى الله أن يوفقكم، ويسدّد خطاكم، كما لا يفوتني أن أعرب عن جليل عرفاني، وعميق امتناني لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة بدولة الكويت على تمسكها الشديد وسعيها الدؤوب

لتمكين الوسطية الإسلامية الخالدة وبسطها في جميع أرجاء المعمورة، تمكينًا للإسلام من أداء رسالته الناصعة، فعسى الله أن يوفق القائمين على هذه الوزارة إلى ما فيه خير الإسلام والمسلمين، وعساه -جل جلاله-أن يحفظ الكويت وأهله من كل مكروه، إنّه ولي ذلك وعليه قدير.

والله نسأل أن يجعل التوفيق حليفنا فيما سنطرحه في هذا الملتقى العلمي الرشيد الآني الموفق، وأن يجنبنا الخطأ والخطل والزلل، ويرينا الحق حقا ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه.

أعدّها الراجي غفران ربّه:

أ. د/ قطب مصطفى سانو

كوالالمبور -ماليزيا

المبحث الأول
في مصطلح التواصل المنشود مع الآخر ومعالمه

المطلب الأول: في مصطلح التواصل مع الآخر

انطلاقا من المقولة الأصوليَّة الشهيرة التي تقرر بأنَّ الحكم على شيء فرع عن تصوره، بل اعتدادًا بأهميَّة ضبط المفاهيم، وتحرير المعاني المرادة من المصطلحات، لذلك، أراني مستهلا هذا المبحث بوقفة هادئة عند مصطلح التواصل مع الآخر تمهيدًا لبيان مفصَّل لمعالم التواصل المنشود وضوابطه ووسائله.

وبالنظر فيما جادت به الساحة الفكريّة المعاصرة من مؤلفات ودراسات وأبحاث ومؤتمرات وندوات علمية متنوعة، فإنَّ المرء ليجد ثمة حضورًا غير منكور لمصطلح الحوار مع الآخر، وحوار الحضارات، وحوار الأديان، وحوار الثقافات، وحوار الإسلام والغرب، وحوار الشمال والجنوب [1]، كما أنّ المرء يجد تساؤلا ثقيلا ومكرورًا عن مدى الحاجة إلى الحوار مع الآخر، وضوابط ذلك الحوار ووسائله... إلخ.

وأما مصطلح التواصل مع الآخر، فإنّ المرء لا يكاد يجد له ذِكْرًا أو حضورًا في أروقة أولئك الباحثين والمفكّرين الذين أوسعوا -ولا يزالون يوسعون- مصطلح الحوار جانب التأصيل والتحقيق والتحرير والضبط؛ وليس من الهيِّن -بل من المتعذر في الغالب الأعمِّ- أن يجد المرء تعريفا علميًّا واضحًا، أو تصورًا منهجيًّا

---

(١) انظر: نحن والآخر: صراع وحوار، ناصر الدين الأسد (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، طبعة أولى ١٩٩٧م) ص٦٩، وانظر: حوار عن بُعد حول حقوق الإنسان في الإسلام، الشيخ عبد الله بن الشيخ المحفوظ بن بيه (دار الأندلس الخضراء، طبعة ٢٠٠٣م) ، وكتاب: الحوار مع أهل الكتاب.. أسسه ومناهجه، خالد عبد الله القاسم (دار المسلم، طبعة ١٤١٤هـ).

دقيقًا عن مصطلح التواصل مع الآخر، وقد بذلت ما وسعني من جهدٍ في تفحص معالجات تلك المؤلفات والأبحاث بغية الوقوف على تحديد علميٍّ واضح لهذا المصطلح، غير أنَّني لم أفلح في مسعاي؛ وهو ما دفعني إلى أن أفزع إلى عددٍ من المعاجم والقواميس اللغويّة، مستلهمًا منها مادة علميَّة رصينة يمكن الاستناد إليها في صياغة تصور مكين عن مصطلح التواصل مع الآخر وصولاً إلى صياغة موضوعيَّة منهجيّة لأهمّ المعالم التي يقوم عليها التواصل المنشود، فضوابطه، ثم وسائله.

وبالرجوع إلى المعاجم اللغويّة، نجدها تحدِّد المراد بكلمة « تواصل» بأنّها تعني عدم التصارم، وفي هذا يقول ابن منظور في لسانه: «... والوصل: ضد الهجران، والتواصل: ضدّ التصارم. وفي الحديث: من أراد أن يطول عمره، فليصل رحمه..» (١). ويقرّر الفارابي هذا المعنى، فيقول: «... والوصل: ضدّ الهجران.. وتوصّل إليه: أي تلطف في الوصول إليه. والتواصل: ضدّ التصارم...» (٢). وذهب الزبيدي إلى هذا المعنى في تاجه، فقال: «.. وصل فلان رحمه يصلها صلة.. وتوصل أي توسل وتقرّب، والتواصل ضدّ التصارم... » (٣).

وإذا كان التواصل ضدّ التصارم لدى عامة علماء اللغة، فإنّ جميعهم يقرّرون أنّ التصارم يعني التقاطع، وفي هذا يقول ابن منظور في لسانه: «... والصرم اسم للقطيعة، وفعله الصرم، والمصارمة بين الاثنين.. والانصرام الانقطاع، والتصارم التقاطع، والتصرم التقطع...» (٤). وفي المعجم الوسيط: «... انصرم: انقطع، ويقال: انصرم الليل: ذهب، وانصرم الشتاء: انقضى.. تصارمًا: تقاطعا...» (٥).

---

(١) انظر: ابن منظور: ص ٧٢٨ .

(٢) انظر: الصحاح، الفارابي: ص ١٤٩٨ .

(٣) انظر: تاج العروس: الزبيدي، ص ١٥٧ .

(٤) انظر: لسان العرب: ص٣٣٢ .

(٥) انظر: المعجم الوسيط: ص٥١٣ .

وثمّة معاجمُ وقواميسُ أخَرُ لا يتسع المقام لسردها تقرِّر ذات المعنى لكلمة « تَوَاصُل»، وكلمة « تصارم»، وبناءً عليه، فإنّه يمكن تقرير القول بأنّ التواصل ضدّ التقاطع وضدّ التدابر وضدّ التخاصم وضدّ التهاجر. وبتعبير آخر: فإنّ التواصل يعني لغة جميع أشكال التفاعل والتكامل المنبثق عن الإحسان والرفق، والرعاية، والعناية استنادًا إلى المعنى الثاوي لكلمة «صلة الرحم» التي تعني عند عامّة أهل العلم باللغة والتفسير والفقه والأصول الإحسان إلى الأقربين من ذوي النسب والأصهار، والعطف عليهم، والرفق بهم، والرعاية لأحوالهم وإن بعدوا وأساؤوا.

وتأسيسًا على هذا، فإنّه يمكننا النفاذ من خلال هذه المعاني اللغويّة للتواصل إلى القول بأنّ التواصل مع الآخر يراد به -من منظور هذه الدراسة- جميع أشكال التفاعل والتعاون والتكامل الإيجابيّ البنَّاء المنبثق عن الإحسان والرفق والرعاية والعناية بين المسلم -فردًا ومجتمعًا- والآخر -فردًا ومجتمعًا- وذلك بغية الوصول إلى ما فيه مصلحة كلا الطرفين دينًا ودنيًا، وحالا ومآلا، وينتظم هذا التفاعل والتعاون الإيجابيّ جانب الفكر، والاجتماع، والسياسة، والاقتصاد، والثقافة، والتربية، كما تحكم هذا التفاعل جملة من الضوابط الفكرية والموضوعيّة والمنهجيَّة الراسخة والمستخلصة من ثنايا نصوص الكتاب الكريم والسنّة النبويّة الشريفة، وأما وسائل تحقيق هذا التفاعل والتعاون الإيجابيِّ الشامل، فإنَّها متعددة بتعدد مجالات التفاعل والتعاون، ومتجددة بتجدد الزمان والمكان والأوضاع.

إنَّ هذا التصور لمصطلح التواصل يقودنا إلى القول بأنّ التواصل المنشود اليوم مع الآخر يشمل التفاعل والتعاون الفكريّ، والاجتماعيّ، والاقتصاديّ، والسياسيّ، والثقافيّ، والتربويّ والتعليميّ، كما أنّ هذا التصور يلتفت التفاتًا أمينًا إلى أنّ التواصل المنشود لا يتوقف عند التواصل على مستوى المجتمعات والدول، ولكنه يشمل التواصل على مستوى الأفراد؛ فالتواصل كما يكون بين فرد وآخر، فإنّه يكون أيضا بين مجتمع وآخر، ويعني هذا أنّ التواصل المنشود مع الآخر ليس تواصلا على مستوى الحكومات والدول فحسب، ولكنه ينبغي ويجب أن يكون تواصلا على مستوى الأفراد، كل حسب قدرته وطاقته واستطاعته، وفضلا عن

هذا، فإنّ هذا التصور عن التواصل المنشود يقوم على الإيمان بأنّ للتواصل وسائل متعددة بتعدد صوره ومجالاته، وتتجدد تلك الوسائل بتجدد الزمان والمكان، ويعني هذا أنّ الجمود على وسيلة من وسائل التواصل والوقوف عند تلك الوسيلة دون سواها يمثل خروجًا على الجادة، وتضييقًا لواسعٍ.

وبناء على هذا، فإنّ ما نراه ونسمعه اليوم من دعوات مكرورة ونداءات متكاثرة إلى الحوار مع الآخر بحاجة إلى إعادة النظر؛ ذلك لأنّ الحوار -على الرغم من أهميته وجدواه وضرورته- لا يعدو أن يكون وسيلة من الوسائل المثلى التي يتحقق من خلالها صورة مهمّة من صور التواصل المنشود مع الآخر، وهو التواصل الفكريّ والتواصل السياسي، وأما بقية صور التواصل، فإنّ لها وسائل أخرى سوى الحوار، وينبغي إيلاؤها العناية اللازمة.

وبطبيعة الحال، فإننا نبادر فنقرّر بأنّنا لا ننكر بأي حالٍ من الأحوال ما للحوار من أهمية قصوى، وضرورة عظمى، وذلك بحسبانه الأساس الذي يمكن الارتكاز عليه لتحقيق مختلف صور التواصل، بيّد أنّنا نرى أنّ ثمة حاجة ماسّة إلى التوظيف المنهجيّ الموضوعيّ للعديد من الوسائل التي يمكن أن تفضي إلى تحقيق بقية صور التواصل المنشود، فعلى سبيل المثال: يعدّ الزاوج، والمجاورة، والتعاملات الماليّة، والتبادلات الثقافية والتربويّة وسائل ناجعة ينبغي توظيفها توظيفا موضوعيًا ومقصديًا من أجل تحقيق صور التواصل المنشود في العصر الراهن.

المطلب الثاني: في معالم التواصل المنشود

لئن تبدى لنا مرادنا بالتواصل مع الآخر من منظور هذه الدراسة، فإنّه حريّ بنا أن نشفع ذلك البيان بتحقيق القول في أهمّ معالم ذلك التواصل مقرّرين -منذ البداية- أنّنا نعني بالمعالم جملة المبادئ والأسس التي يقوم عليها التواصل في النظرة الإسلاميّة الناصعة، ويمكننا إجمال تلك المبادئ والأسس في النقاط التالية:

أولا: الشمول والعموم في النظرة إلى صور التواصل المنشود

لقد أوضحنا سابقا أنّ التواصل المنشود مع الآخر تفاعل إيجابيّ يشمل الجانب الفكريّ والاجتماعيّ والسياسيّ والاقتصاديّ والتربويّ، ويعني هذا أنّ الشموليّة والإحاطة تعدّ أهمّ معلم ومرتكز تقوم عليه النظرة الإسلاميّة الناصعة إلى التواصل مع الآخر.

وقد وردت نصوص متعددة من الكتاب العظيم والسنة النبويّة الكريمة تؤصِّل لكل صورة من صور التواصل المنشود:

فبالنسبة للتواصل الفكريّ مع الآخر، نجد آيات كثيرة من الذكر الحكيم تدعو أهل الكتاب إلى كلمة سواء، ومن تلكم الآيات: قوله تعالى: **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾**(١)، وقوله تعالى محذرا من المجادلة العنيفة مع الآخر: **﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾**(٢).

وأما التواصل الاجتماعي، فقد أقرّه الشرع من خلال إباحته الزواج بالمحصنات من أهل الكتاب في قوله تعالى: **﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ**

---

(١) آل عمران: ٦٤ .

(٢) العنكبوت: ٤٦ .

الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[١].

وأما التواصل الاقتصادي، فثمة آيات عديدة تقرّر ذلك وتدعو إليه، منها قوله تعالى واصفًا أهل الذمة والأمان من أهل الكتاب، وحاثًا على التعامل مع المؤتمنين من أهل الكتاب، ومحذرًا ممن لا أمانة لهم منهم: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٢].

وبالنسبة للتواصل السياسيّ، فإنَّ ثمة آيات تضمنت الدعوة إلى الانفتاح الرشيد والتعاون الإيجابيّ مع أولئكم الذين لا يقاتلون المسلمين، ولا يعتدون عليهم، وفي هذا يقول جل جلاله: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[٣]، وقوله تبارك اسمه لافتًا النظر إلى أهمية العلاقات السياسية وأثرها في الأحكام الشرعيّة: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[٤]، وقوله أيضا مقرّرا أهمية الحفاظ على حرمة المواثيق والمعاهدات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا

---

(١) المائدة: ٥ .

(٢) آل عمران: ٧٥ .

(٣) الممتحنة: ٨ .

(٤) النساء: ٩٢ .

بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(١)، وكذلك قوله -علا شأنه- داعيا الأمة إلى قبول السلم والعمل بمقتضاه: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٢).

وأما التواصل الثقافيّ والتربويّ، فإنّ القرآن الكريم، قد أرسى قواعده وأسسه من خلال جملة حسنة من الآيات الكريمات، منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٣).

هذه الآيات ومثيلاتها في الذكر الحكيم تقرّر بجلاء ووضوح جميع صور التواصل الإيجابي مع الآخر سواء أكان ذلك الآخر فردًا أم مجتمعًا، وذلك في إطار من الموضوعيّة والمنهجيّة والانضباط والاحترام للمعتقدات والأديان.

وتأسيسًا على هذا، فإنّه لا مجال في شرعنا الحنيف للنظرات التعسفيّة الاعتسافيّة التي تدعو إلى تجاوز سنة التكامل والتفاعل والتواصل بين البشر، تلك السنة التي أودعها الله في خلقه، وحثّ على المحافظة عليها من خلال العديد من النصوص الآنف ذكرها، كما لا مجال في شرعنا لمحاصرة التواصل المنشود في جانب على حساب جانب آخر؛ ذلك لأنّ جميع صور التواصل تتكافأ وتتكامل، وما دام التواصل المنشود ينتظم الجانب الفكريّ والاجتماعيّ والسياسيّ والثقافيّ والتربويّ والاقتصادي، فإنّ التركيز على جانب دون سواه يعدّ تضييقًا لما وسّعه الله تعالى، كما يعدّ قضاءً تدريجيًا مبرمًا على بقية صور التواصل؛ وهو ما يفضي في نهاية المطاف إلى تعذر تحقق جميع صور التواصل بما فيه التواصل الذي يركّز عليه.

---

(١) الأنفال: ٧٢ .

(٢) الأنفال: ٦١ .

(٣) الحجرات: ١٣ .

وبناءً على هذا، فإنّ ما نلحظه اليوم من تركيز باهرٍ واعتدادٍ مبالغٍ فيه بالتواصل الفكريّ والتواصل السياسيّ من خلال العناية بشأن وسيلتهما المتمثلة في الحوار، قد أفضى ذلك إلى ضعف الاهتمام، وقلّة العناية ببقية صور التواصل المنشود، وخاصّة منها التواصل الاجتماعيّ والتواصل الثقافيّ؛ إذ ثمة ضعف جليّ في الاهتمام بهما، والتوعية بأهميّتهما وعلاقتهما المتينة والوثيقة بالتواصل السياسي والفكريّ معًا. ولهذا، فإنه قد حان الأوان إلى الاستفادة من جملة الوسائل المعينة على تحقيق التواصل الاجتماعيّ والثقافيّ، وخاصة تلك الوسائل المتمثلة في الزواج والمجاورة، ودراسة الآخر دراسة منهجيّة موضوعية رشيدة، بعيدًا عن جميع أشكال وصور العاطفية والانفعاليّة عند التعامل مع الآخر، فهذه الوسائل ومثيلاتها نخالها لا تقل كفاءة وقدرة ونجاعة من الحوار والجدال بالتي هي أحسن.

ومهما يكن من شيء، فإنّنا نخلص إلى تقرير القول بأنَّ التواصل المنشود اليوم لا يقف عند جانب دون آخر، ولكنه يسع كل الجوانب، ويغشى سائر المجالات المتصلة بالاجتماع البشريّ، تحقيقًا لمصلحة مختلف الأطراف والجهات المشاركة في التواصل.

ثانيًا: الاعتراف بالآخر أساسًا للتواصل[1]:

من المعلوم لدى القاصي والداني أنّ الإسلام دين يقوم على الاعتراف الإيجابي بالآخر، وإقراره على معتقده ودينه، وقد تضافرت نصوص كثيرة في الكتاب والسنّة النبويّة الشريفة مقرّرة ومؤكّدة هذا المبدأ الحضاري الناصع، وقد تكرر في القرآن الكريم لفظ «الدين» في أكثر من ستين موضعا تقريرًا وتأكيدًا على اعتراف الإسلام بالآخر، ولعلّه من أوضح النصوص القرآنية التي تؤصّل لهذا

---

(١) انظر: مقدمة إلى الحوار الإسلامي -المسيحي، محمد السماك (بيروت، دار النفائس، طبعة ١٩٩٨م)، ص ٨٨ وما بعدها.

المبدأ قوله تبارك وتعالى في سورة الكافرون: ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾[(١)]، وقوله جلّ شأنه داعيًا أهل الكتاب إلى عدم الغلو في دينهم: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ**﴾[(٢)]. وثمة آيات عديدة لا يتسع المقام لسردها.

وأما السنن النبويّة القولية والفعلية والتقريرية التي وردت مؤكّدة هذا المبدأ الإلهيّ الخالد، فإنّها أكثر من أن تحصى وتعدّ لوفرتها ووضوحها وجلائها، ويكفي المرء أن يجيل نظرًا ثاقبًا وعقلاً متدبرًا في سيرته الغرّاء ﷺ ليجد نماذج حيّة واضحة لجميع أشكال التواصل مع الآخر..

فبالنسبة للتواصل الفكريّ، فإنّه ﷺ أرسى قواعده ومبادئه على أساس من النظرة الإيجابيّة والانفتاح الواعي على ما عند الآخر من قيم ومعانٍ وخصال، فحثّ على الاستفادة من الحكمة بغض النظر عن مصدرها، وقال ﷺ كلمته الجامعة المانعة في الحديث الذي أخرجه الترمذي في سننه: «**الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها، فهو أحقّ بها**».

وأما **التواصل الاجتماعيّ**، فلقد طبّقه ﷺ من خلال زواجه بأم المؤمنين صفيّة بنت حيّي بن أخطب، وهي بنت أعلى سلطة لبني قريظة في المدينة آنذاك، وكذلك زواجه ﷺ بأم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنهما، وذلك قبل إسلام أبي سفيان؛ استمالة لسيد مكّة، وحثًّا له على قبول الدين الذي جاء رحمة للبشرية.

وبالنسبة **للتواصل الاقتصاديّ**، فإنّ المرء يجد له حضورًا واضحًا من خلال ما عرف عنه ﷺ من المعاملات الماليّة -بيعا وشراء ودَيْنًا ورَهْنًا- مع أهل الكتاب في المدينة المنوّرة.

وأما **التواصل السياسيّ**، فقد اعتمده المصطفى ﷺ من خلال جملة المراسلات والمخاطبات التي كانت تتمّ بينه وبين سادة القبائل والأمم والشعوب،

---

(١) الكافرون: ٦ .

(٢) النساء: ١٧١ .

ورسائله ﷺ إلى الملوك والسادة آكد تعبير عن الرغبة الصادقة في التواصل مع الآخر، كما أنّ حثه ﷺ صحبه الكرام ش على الهجرة إلى بلاد الحبشة قائلا: «..إن بأرض الحبشة ملكًا لا يُظلم أحدٌ عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجا مما أنتم فيه..» (1)، يعدّ من أنصع صور الانفتاح والتواصل السياسيّ الذي تميّز به في حياته ﷺ.

وبالنسبة **للتواصل الثقافي والتربوي**، فإنّ المرء يجده حاضرًا في حثه ﷺ بعض أصحابه، كالصحابي الجليل حذيفة بن اليمان على تعلم العبرانية وسواها، كما يجد المرء حضورًا لهذا التواصل من خلال إقراره الحبشة على التعبير عن ثقافتهم في رحاب مسجده.

ولئن تضافرت النصوص والممارسات النبويّة المؤصِّلة لمبدأ الاعتراف بالآخر دينًا وثقافة ومنهج حياة، فإنّ ثمة منهجيّة موازية سلكها الإسلام في تثبيت هذا المبدأ وإقراره، وتتمثل تلك المنهجيّة في النهي الصريح في الشرع الحكيم عن جميع الممارسات والتصرفات التي تؤدّي إلى نفي الآخر أو إقصائه أو إكراهه؛ ذلك لأنّ الاعتراف اللفظي بالآخر لا ثبات له إذا لم يقترن بالاعتراف الفعلي والعمليّ به، وإمعانًا في هذا، فقد وردت نصوص صريحة تنهى عن نفي الآخر، وتحرّم إكراهه على تغيير دينه وعقيدته، ومن تلك النصوص، قوله تعالى: **﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾**(2)، وقوله جلّ شأنه: **﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾**(3).

وصفوة القول: إنّ التواصل مع الآخر لا تحقيق له ما لم يكن ثمة اعترافٌ به وبدينه وثقافته وأسلوبه ومنهجه في الحياة، فالاعتراف المتبادل هو أسّ التواصل بجميع صوره وأشكاله.

---

(1) انظر: البعد الحضاري لهجرة الكفاءات، مجموعة من المؤلفين، كتاب الأمة، العدد ٨٩، السنة الثانية والعشرون، طبعة عام ٢٠٠٢م، مقدمة الكتاب.

(2) البقرة: ٢٥٦ .

(3) يونس: ٩٩ .

ثالثا: الاعتراف بالاختلاف والتعدد والتنوع منطلقًا للتواصل(١):

اعتبارًا بأنّ التواصل المنشود يروم تحقيق تكامل وتفاعل إيجابيّ بين البشر لما فيه مصلحتهم، لذلك، فإنّ مشروعية التواصل في الإسلام ترتد إلى ضرورة الاعتراف بالتنوع والتعدد والاختلاف بين الأفكار والمعتقدات والأديان، فقد اقتضت سنة الله -جلّ جلاله- في الكون أن خلقَ الناس مختلفين في ألوانهم وألسنتهم ومعتقداتهم وأديانهم مصداقًا لقوله تبارك وتعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ**﴾(٢)، وقوله: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**﴾(٣)، كما اقتضت قدرته الإلهية تعذر إمكانية رفع الاختلاف وإزالته بين البشر مصداقًا لقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾(٤)، وإذا كان الآخر غير الذات، فإنّ ذلك يعني أنّ الآخر -فردًا ومجتمعًا- يختلف عن الذات -فردًا ومجتمعًا- وبالتالي فإنّ التواصل مع الآخر يتوقف منطقيًا على ضرورة قبول الاختلاف، وقبول التنوع والتعدد، والإيمان بتعذر إمكانية رفع الخلاف والاختلاف معًا نزولاً عند الإرادة الإلهيّة التي اقتضت أن يكون الناس مختلفين.

إنّ سيرة المصطفى ﷺ والتاريخ الإسلامي سجلان وافران وحافلان بإقرار هذا المبدأ، والصدور عنه بوعي واقتدار؛ اعتبارًا بأنّ قيام الحضارات ودوامها وثباتها يتوقف توقف وجود على قبول الاختلاف وضرورة الانفتاح على الآخر

---

(١) انظر: الكتاب الأبيض حول الحوار بين الحضارات، الإيسيسكو، الطبعة الثانية لعام ٢٠٠٢م.

(٢) الروم: ٢٢ .

(٣) فاطر: ٢٧-٢٨ .

(٤) هود: ١١٨-١١٩ .

والتواصل معه تواصلا إيجابيًا رصينًا. وفي هذا يقول أحد الباحثين المعاصرين: «... إنّ من مقومات الحضارة العربية -الإسلاميّة احترام الآخر والانفتاح عليه والتكامل معه، وليس تجاهله، أو إلغاؤه أو تذويبه، ويشهد تعدد الأقليات الدينيّة والإثنية في العالم الإسلاميّ ومحافظتها على خصائصها العنصرية وعلى تراثها العقدي والديني على هذه الحقيقة وأصالتها. إنّ اعتراف الإسلام بالآخر ومحاورته بالتي هي أحسن وقبوله كما هو لا يعود بالضرورة إلى سماحة المسلمين، إنما يعود في الأساس إلى جوهر الشريعة الإسلاميّة عقيدة وقيمًا»[1].

رابعًا: وسائل التواصل مرنة وواسعة ومتجددة

لئن كان التواصل المنشود مع الآخر يغشى جانب الفكر والسياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة، فإنّه ليس من الوارد أن تكون ثمة وسيلة واحدة قادرة على تحقيق هذا التواصل بصوره المتعددة، ولذلك، فإنّ الشرع الحكيم تجاوز عن حصر وسائل التواصل المنشود في وسيلة بعينها دون سواها استصحابًا لمبدأ المرونة والسعة الذي يعدّ أحد أهمّ مبادئ التشريع الإسلاميّ، كما أنّ الشرع الحنيف اكتفى بالإشارة بصورة عامّة إلى بعض الوسائل التي ينبغي توظيفها لتحقيق مختلف صور التواصل المنشود مع الآخر، وترك المجال فسيحًا لاجتهادات المجتهدين في ضوء ما يستجد في واقعهم من تطورات وتغيرات.

وبناءً على هذا، فإنّ مقتضى المرونة المعهودة عن الشرع في مجال التواصل المنشود أن تكون وسائله مرنة وواسعة وسمحة تنفتح على سائر وسائل التواصل والاتصال التي تجود بها الأيام، وتظهر في دنيا الناس ما دامت تلك الوسائل قادرة على تحقيق مقصد التواصل الرشيد الرصين؛ وهو ما يعني أنّ أيّة وسيلة قديمة أو جديدة تفضي إلى تحقيق مقصد التواصل الإيجابيّ تعدّ وسيلة مشروعة ومطلوبة ما لم يرد في شأنها نص حاظر من استخدامها وتوظيفها في

---

(١) انظر: مقدمة إلى الحوار الإسلامي المسيحي: محمد السماك، ص٩١، ٩٢ باختصار.

الكتاب أو السنّة النبويّة الطاهرة، كما أنّ تجديد النظر في وسائل التواصل المنشود بصوره المتعددة في ضوء مستجدات الحياة، أمر لا مناص منه تمكينًا لتلك الوسائل من تحقيق المقصد الأجلّ المتمثل في التفاعل الإيجابي بين المسلم فردًا ومجتمعًا مع الآخر فردًا ومجتمعًا.

ومن ثم، فإنّه من الحريّ بالتقرير ضرورة تعهّد سائر وسائل التواصل بالمراجعة والتطوير والتحسين والتجويد، وضرورة الابتعاد عن الاكتفاء بوسيلة بعينها والجمود عندها، بل لا بد من توظيف مختلف الوسائل المتاحة وصولا إلى تواصل شامل متماسك وقويٍّ..

وتحقيقا لهذا البعد في النظر إلى وسائل التواصل، أومَأْنَا قبلُ إلى ضرورة التخفيف من غلواء وسيلة الحوار على غيرها من وسائل التواصل المشروعة، فمن الملاحظ اليوم -سلبًا-الاهتمام الزائد والمبالغ فيه بمسألة الحوار مع الآخر على حساب بقية وسائل التواصل مع الآخر!. وما كثرة المصنفات والأبحاث والمؤلفات والمؤتمرات والندوات حول الحوار سوى دليل واضح على ما تحظى به هذه الوسيلة من اهتمام واسع! فهلا أوسع أولئك الباحثون والمفكرون وسائل التواصل الأخرى كالتعاملات الماليّة، والزواج، والمجاورة، والتبادلات الثقافية والتربوية جانب التأصيل والتحقيق والتنظيم والضبط؛ تبيينًا لكيفيات توظيفها لتحقيق التواصل المنشود مع الآخر في العصر الراهن؟.

إننا لنعتقد جازمين أنّه قد آنَ الأوان لإعادة النظر الحصيف الناقد في تلك الجهود والاجتهادات والرؤى الفكريَّة الجادّة التي نسجت ولا تزال تنسج حول مسألة الحوار تأصيلا وتنظيمًا وتحقيقًا؛ وذلك ليُصرّف شطرٌ من تلك الجهود والأفكار والاجتهادات في التأصيل والتحقيق والتنظيم لبقية وسائل التواصل المتوافرة؛ ذلك لأنّ شرعنا وسطٌ في كل شيء إنّ في التفكير أو السلوك أو التنظيم أو التحقيق أو التأصيل، كما أنّ وسطيّة هذا الشرع ليست بين متناقضين أو ضدّين فحسب، ولكنها بين المتناقضات والأضداد.

المبحث الثاني
في ضوابط التواصل المنشود مع الآخر ووسائله

لئن ألقينا الضوء على أهمِّ المعالم والمبادئ التي يقوم عليها التواصل المنشود مع الآخر، فإنّه حريٌّ بنا أن نشفع ذلك بتحقيق قول منيع رصين رشيق في الضوابط التي ينبغي أن تحكم ذلك التواصل المنشود مع الآخر تمكينا للمسلم -فردًا ومجتمعًا- من القيام بمهمة الخلافة لله في الأرض، وعمارة الكون، وإسعاد البشرية، كما أنّه حقيق علينا أن نبسط القول في أهم الوسائل التي ينبغي اللياذ بها لتحقيق التواصل المنشود مع الآخر.

المطلب الأول: في منهجية صياغة الضوابط والوسائل

وقبل الخوض في تفاصيل تلك الضوابط والوسائل، فإنّنا نُهْرع إلى تقرير القول بأنّ ثمة حاجة موضوعيّة إلى تحقيق قولٍ منيعٍ رصينٍ رشيقٍ في منهجيّة صياغة الضوابط والوسائل متمثلٍ في جملةٍ من المبادئ العامّة التي ينبغي الانطلاق منها عند صياغة الضوابط والوسائل، وتتمثل تلك المبادئ في الآتي:

أولاً: ضرورة الاعتداد باجتهاديّة ضوابط التواصل ووسائله وخضوعها للنظر المتجدد

انطلاقًا من عدم ورود نصوصٍ صريحةٍ من الكتاب الكريم والسنّة النبويّة الطاهرة تنصّ صراحةً على الضوابط التي يجب مراعاتها عند التواصل مع الآخر، فإنّه ليس من سديد الرأي ولا من حصيف القول تقديس تلك الضوابط والوسائل التي تزخر بها اليوم العديد من المؤلفات والأبحاث والدراسات المنسوجة حول التواصل مع الآخر، بل لا بدّ من ضرورة الوعي أن تلك الضوابط والوسائل من جنس المجتهدات والمظنونات التي لم ولن تسمو بأي حالٍ من الأحوال على المراجعة الهادفة، والنقد العلميّ البنّاء.

إنَّ مراعاة هذا المبدأ والصدور عنه عند صياغة الضوابط والوسائل من شأنه أن يجعل المرء يتعهد الضوابط والوسائل بالمراجعة الدائبة، والتطوير المستمر في ضوء ما يستجد في حياة البشر، وما يطرأ على الواقع من تغيرات وتحولات ينبغي الالتفات إليها.

وبطبيعة الحال، إنّ هذا المبدأ يدفع المرء إلى مواصلة البحث والتحقيق والابتكار والإبداع في البحث عن مختلف الضوابط والوسائل الناجعة التي يمكن اللياذ بها عند التواصل مع الآخر، كما يحول هذا المبدأ دون الجمود والعكوف على ضوابط ووسائل يجري عليها ما يجري على غيرها من تطور وتغير وتبدل وتحول.

إنّه من الملاحظ أنّ عددًا غير يسير من الباحثين المعاصرين لا يستفرغون طاقة في البحث عن وسائل جديدة للتواصل مع الآخر، والحال أنّه لا بدّ من تجديد النظر في مختلف الوسائل في ضوء مستجدات العصر وتقلبات الزمان، وتغيرات الأوضاع الفكريّة والاجتماعيّة والسياسية والاقتصاديّة والثقافية والتربويّة لعموم البشر في جميع أنحاء المعمورة.

ثانيًا: ضرورة مراعاة المرونة والسعة عند صياغة الضوابط والوسائل(١):

لئن كان من المعلوم للعالمين اشتمال الأحكام الشرعيّة على أحكام قطعيّة لا مجال لتجديد النظر فيها لوضوحها وجلائها، وأحكام ظنيّة (اجتهاديّة) فيها مجالٌ فسيحٌ ووسيعٌ للنظر الاجتهاديِّ المتجدد بتجدّد الزمان والمكان، ولئن كان معلومًا لأهل الرسوخ في العلم كون الأحكام القطعيّة أحكامًا ثابتة لا تتغير بتغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والأوضاع، وكون الأحكام الظنيّة أحكامًا مرنةً ومتغيرةً

---

(١) انظر: سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين، عبد الله بن إبراهيم اللحيدان (الرياض، دار الحضارة للنشر والتوزيع، طبعة ٢٠٠٤م)، ص ٢٠ وما بعدها، حيث أورد الباحث نماذج حيّة تدل على سماحة الإسلام في معاملة الآخر.

بتغيّر الأزمنة والأمكنة والأحوال والأوضاع، لذلك، لا بدَّ من الالتفات إلى هذا البعد عند صياغة ضوابط التواصل ووسائله، بحيث تكون الضوابط والوسائل المصوغة مرنة وواسعة تراعي ظروف الزمان والمكان والأحوال والأوضاع، وتتجاوز العكوف والجمود والانكفاء -كما أسلفنا- عند الضوابط والوسائل المنبثقة عن اجتهادات ظرفيّة لم تخلُ بأي حالٍ من الأحوال؛ من التأثر السلبيّ والإيجابيٍّ بالأوضاع الفكريّة والاجتماعيّة والسياسية التي كانت سائدة غداة ظهور تلك الاجتهادات في الضوابط والوسائل.

إنّ الانطلاق من هذين المبدأين من شأنه صيرورة ضوابط التواصل ووسائله ضوابط ووسائل واقعيّة عمليّة قابلة للتطبيق والتنفيذ والتمثل في واقع الناس.

ثالثًا: ضرورة الابتعاد عن صياغة ضوابط يتعذر معها تحقيق التواصل المنشود

ما دام المقصد الأجلّ والهدف الأسمى من صياغة ضوابط للتواصل تمكينَ كلا الطرفين من تحقيق الأهداف العليا والمقاصد السَنيَّة المرجوة من التواصل المنشود والمتمثلة في تقريب الشُّقة، ورأب الصدع، ولمّ الشمل، وردم الفجوة، وإزالة الجفوة، والتعاون على المشتركات، لذلك، فإنّه لا تحقيق لهذا المقصد وذلك الهدف من الصياغة إذا لم يتم الابتعاد عن صياغة ضوابط مثاليّة منبثقة عن قناعات قبليّة سلبيّة، أو قائمة على اجتهادات ظرفيّة زمنيّة.

فعلى سبيل المثال، لا بدّ من التبرؤ من تلك الضوابط الاجتهاديّة التي تضيق من فرص التفاعل الإيجابيٍّ والتعاون المثمر والتكامل الحضاريٍّ المكين بين المسلم والآخر؛ وذلك إما لإغراق تلك الضوابط في المثالية والنظرة الدونية والإكراه المستبطن للآخر على تغيير عقيدته ومنهج حياته، أو لعدم مراعاتها لكليات الشرع وأصوله العامّة ومقاصده في سائر الأحكام والمسائل المتعلقة بالآخر. ولهذا، فلا بدّ من الاستغناء عن تلك الضوابط الجافّة، واستبدال ضوابط واقعيّة قابلة للتطبيق والتنفيذ بها.

وينطبق هذا الأمر على وسائل التواصل، فلا بدّ من تجاوز الوسائل التقليدية

التي تعمّق الجفوة، وترسّخ الفجوة بين المسلم فردًا ومجتمعا مع الآخر فردًا ومجتمعًا؛ وذلك لعدم مراعاة الواقع الذي يعيش فيه الآخر، والثقافة التي تحرّك مشاعره، وتؤثر في سلوكه وتوجهاته، ونظرته إلى الحياة والوجود.

وصفوة القول: هذه بعض المبادئ العامّة التي نخال الصدور عنها، عند صياغة الضوابط والوسائل، عاصمة المرء من صياغة ضوابط ووسائل يتعذر معها تحقيق أدنى مستوى للتواصل المنشود مع الآخر.

إنّنا نعتقد أنّ مراعاة هذه الأسس واستحضارها عند صياغة الضوابط والوسائل يجعل التواصل شأنًا ممكنًا، وواقعًا ملموسًا، كما أنّ من شأن ذلك تجاوز جملة حسنةٍ من الضوابط والوسائل التي كانت ولا تزال تحول -بطريقة مباشرة وغير مباشرة- دون تحقيق أي تفاعل فكريٍّ أو تعاون اقتصاديّ، أو اندماج اجتماعيّ أو تكامل ثقافي حضاريّ مع الآخر.

المطلب الثاني: أهم ضوابط التواصل المنشود مع الآخر

وإذ الأمر كذلك، فهلمّ بنا لنستعرض أهمّ ضوابط التواصل ووسائله في ضوء هذه الموجِّهات المنهجيَّة، وهي كالتالي:

الضابط الأول: التزام الوسطية في التواصل مع الآخر

لئن أصّلنا القول في كون التواصل المنشود مع الآخر يغشى الجانب الفكريّ والاجتماعيّ والسياسيّ والاقتصاديّ والثقافيّ والتربويّ، فإنّ تحقق المقصد الأجلّ من هذا التواصل يتوقف توقفًا أساسيًا على الالتزام بوسطية الإسلام فكرًا وسلوكًا وممارسة وتطبيقًا. ومقتضى هذا الالتزام بهذه الخاصيّة الأزليّة للإسلام أن يتجنب المسلم فردًا ومجتمعا في تواصله مع الآخر الغلوَّ بجميع أشكاله وصوره، فالغلو إما في التقديس أو في التجريح يعمي البصر، ويقضي على البصيرة، ويحول دون أي تفاعل إيجابيّ مع الآخر، كما أنّه يجب على المسلم -فردًا ومجتمعًا- أن يتجنب الجفاء والجور عند تواصله مع الآخر، فالإسلام يحرّم الظلم والجور وغبن الناس حقّهم.

وبناءً على هذا، فإنّ ما نراه اليوم من غلبة الغلو والجفاء على الخطابات الداعية إلى التواصل مع الآخر يعود إلى غياب لغة الوسطيّة، ومنهج الوسطيّة، وسلوك الوسطية عن تلك الدعوات والنداءات؛ ذلك لأنّ الوسطيّة تعصم الذات -فردًا ومجتمعًا- من الانهيار والانحلال معًا، كما تعصمه من الذوبان والاندثار.

وأما الغلو -بحسبانه اعتداءً صارخًا على الفطرة التي فطر الله الناس عليها- فإنه يفضي بصاحبه والمجتمع الذي حوله إلى الانهيار الماديِّ السريع والزوال المعنويِّ الأكيد، وكذلك الحال في الجفاء والجور والظلم، فإنّه هو الآخر يدمّر الذات فردًا ومجتمعًا، ويقضي على جميع سبل التعاون والتكامل والتفاعل.

وبطبيعة الحال، لا يخفى على أحد من السادة المؤتمرين تضافر تلك النصوص القرآنيّة والأحاديث النبويّة التي تدعو المسلم -فردًا ومجتمعا- إلى تمثل الوسطيّة والاعتدال في جميع أفكاره وتصرفاته وعلاقاته ومعاملاته ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ

أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[١]. والجدير ذكره أنّ مصطلح «العدل» في القرآن الكريم مرادف لمصطلح الوسطيّة، وذلك لما بينهما من تلازم ذاتي؛ إذ لا عدل ولا عدالة إذا لم تكن ثمة وسطيّة. ولهذا، فالآيات القرآنية الواردة في الأمر والحث على العدل، تعد في حقيقتها آيات واردةً في الأمر بالوسطية.

على أنّ الإسلام لم يكتفِ بالأمر بالوسطية والاعتدال، وإنما أردف ذلك بالنهي الصريح الواضح الجلي عن الغلو والجفاء والتنطع والتفيهق وجميع أشكال الظلم والاستعلاء والاعتداء، فالغلاة والمتنطعون ظلمة وعصاة مغضوب عليهم عند الله وعند الملائكة والناس أجمعين، مصداقًا لجملة الأحاديث الواردة في النهي عن الغلو والجفاء والتنطع.

إنّ الوسطية التي نرومها في هذا المقام تعدّ موقفًا عقديًا ناضجًا متوازنًا يقوم على الإيجابيّة والتبصر الحصيف بالسنن التي أودعها الله في هذا الكون، كما تعدّ انطلاقًا واثقًا من إستراتيجية عمل متكامل، ورؤية منهجيّة موضوعيّة نافذة لموقع الإنسان المؤمن في الكون والعالم، ونظرة موضوعيّة رشيدة إلى الوجود والحياة. وهذه الوسطيّة تعد في محصلتها قدرة فذّة على التزام التوازن والانضباط وعدم الجنوح صوب اليمين أو الشمال أو الشرق أو الغرب عند التعامل مع الآخر. والوسطيّة بهذا المعنى الحضاريّ الشموليّ هي التي جعلت الأمة الإسلاميّة ذات يوم خير أمة أخرجت للناس، كما أنّها هي التي تستطيع أن تجعل من الأمة الإسلامية اليوم أمّة شاهدة على غيرها من أمم الأرض؛ ذلك لأنّها تمكنّها من الإشراف المتوازن على غيرها، فلا تميل ولا تجور [٢].

وزبدة القول: لا بدّ للمسلم فردًا ومجتمعًا من التزام الوسطيّة عند تفاعله الإيجابي الفكريّ والاجتماعيّ والسياسيّ والاقتصاديّ والثقافيّ والتربويّ مع الآخر.

---

(١) البقرة: ١٤٣ .

(٢) انظر: مجلة إسلاميّة المعرفة، السنة التاسعة، العدد ٣٣-٣٤، عام ٢٠٠٣م، مقال بعنوان: المسلم والآخر: رؤية تاريخيّة، عماد الدين خليل، ص١٣٠ وما بعدها.

الضابط الثاني: ضرورة التمييز بين الثوابت والمتغيرات من الأحكام عند التواصل

إنّ أحكام الإسلام العقدية والعمليّة والتهذيبية تنتظم أحكامًا ثابتة غير قابلة للتغير والتطور والتبدل والتحول بتغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والأوضاع، وتستمد هذه الأحكام ثباتها من كونها صيغت في نصوص قطعيّة في ثبوتها ودلالتها، تسمو على المراجعة والتعددية، وتعد هذه الأحكام محل إجماع واتفاق بين عامَّة المسلمين من لدن المصطفى ﷺ إلى يوم القيامة، وبمقابل هذه الأحكام الثابتة القاطعة دابر كل خلاف معتبر، أحكام متغيرة بتغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والأوضاع؛ وذلك لكونها أحكامًا مصوغة من نصوص ظنيّة في الدلالة والثبوت معًا أو في الدلالة دون الثبوت أو في الثبوت دون الدلالة، ولأنّ الظن يخالط هذه الأحكام إنْ في ثبوتها أو في دلالتها، لذلك، فإنّها كانت وستظل ميدانًا فسيحًا للتعددية والاختلاف؛ إذ كلما تغير الزمان والمكان والوضع، كان نصيب هذه الأحكام التغير والتبدل والتحول.

إنّ إدراك الفروق الثاوية بين هذين النوعين من الأحكام الشرعيّة عند التواصل مع الآخر يقتضي ألا يخلط المرء بين هذين النوعين، وألا يساوي بينهما، فالثوابت ينبغي أن تبقى ثوابت لا تخضع للمساومة أو التنازل أو التحول. وأما المتغيرات، فإنّ للمرء أن يعيد النظر فيها في ضوء ما يستجد في واقعه وزمانه ومكانه من أوضاع فكريّة أو اجتماعيّة أو سياسيّة أو ثقافيّة، وذلك بغية ترجيح ما يتناسب مع زمانه ومكانه وواقعه.

إنّ حسن الصدور عن هذا الضابط عند التواصل مع الآخر يفتح أمام المسلم مجالا رحبًا للاختيار والترجيح بين مختلف الاجتهادات العقدية والفقهيّة والتهذيبيّة؛ حيث يتبرأ من كل اجتهاد عقديّ أو فقهيّ يعمّق الفجوة والجفوة بينه وبين الآخر، ويأخذ بالاجتهادات التي تمكّن من التفاعل الإيجابي والتعاون البنّاء مع الآخر. ومن ثمّ، لا بدّ من مراجعة حصيفة راشدة لشطر غير يسير من الاجتهادات العقديّة والفقهيّة التي نُسِجت إزاء العديد من المسائل المتصلة بالآخر، وخاصّة منها تلك الاجتهادات التي تتخذ من الصراع أساسًا، وترى أنّ الحرب هي الأساس في العلاقة بين المسلم والآخر، والحال أنّ السلم كل السلم هو الأساس المتين الذي تقوم عليه علاقة المسلم بالآخر.

الضابط الثالث: ضرورة التكامل بين صور التواصل ووسائله

لقد سبق أن أوضحنا أنّ للتواصل المنشود مع الآخر صورًا متعددة؛ فثمّة تواصل فكريّ، وتواصل اجتماعيّ، وتواصل سياسيّ، وتواصل اقتصاديّ، وتواصل ثقافيّ وتربويّ، ولكلّ واحدة من هذه الصور وسائل يتوقف على حسن توظيفها تحقيق المقصد الأسمى من التواصل.

واعتبارًا بتلك الصلة العميقة والعلاقة القويمة بين صور التواصل، بل انطلاقًا من التداخل الجليّ والترابط القويّ بين تلك الصور، فإنّه من المتعذر أن يتحقّق المقصد الأجلّ من التواصل ما لم يكن ثمّ تطبيق لجميع صوره، وما لم تكن هنالك استفادة قصوى من مختلف الوسائل التي تفضي إلى تحقيق التواصل المنشود في العصر الراهن.

ومن هنا، فإنّ الحاجة اليوم ماسة إلى ضرورة توظيف كافة الوسائل الممكنة التي تؤدي إلى تحقيق تواصل رشيد رصين مع الآخر، وليس من المقبول الانكفاء عند وسيلة بعينها، بل لا بدّ من تكثيف الاستفادة والتوظيف للوسائل المختلفة. فالحوار، والزواج، والتبادلات الماليّة، والعلاقات السياسيّة، والتبادلات الثقافيّة والتربويّة، والبرامج العلميّة، كل أولئك تعد وسائل لا بدَّ من توظيفها مجتمعة من أجل تحقيق مختلف صور التواصل المنشود مع الآخر.

الضابط الرابع: استحضار المقاصد والمآلات عند التواصل

ليس من ريب في أنّ للشرع في جميع تشريعاته وأحكامه المتعلقة بالآخر مقاصدَ عامّة وخاصّة، كما أنّ لتلك المقاصد وسائلَ وطرائق موصلة إليها، وتمثّل المقاصد العامّة من تلك الأحكام مجموع المعاني الجليلة العامّة الملحوظة للشرع الكريم في سائر أحكامه وتشريعاته المتصلة بالآخر. فمن المعاني العامّة: الاعتراف بالآخر، والإحسان إليه، ومعاملته ومجادلته بالحسنى، وإكرام إنسانيته، والابتعاد عن إيذائه والاعتداء على نفسه وعرضه وماله، وسوى ذلك، فهذه المعاني ملحوظة في الأحكام الشرعيّة المختصة بالآخر، وقد سبق أن أوردنا بعضًا

من الآيات الكريمات التي تؤصّل لهذه المعاني، وذلك عند حديثنا عن صور التواصل المنشود.

وبناء على هذا، فإنّ تحقيق التواصل المنشود مع الآخر يتوقف على ضرورة الانطلاق من هذه المعاني المعبِّرة عن مقاصد الشرع من أحكامه، فعلى المسلم - فردًا ومجتمعًا-استحضار هذه المعاني وتمثلها عند التواصل مع الآخر، كما أنّ عليه اتخاذ هذه المعاني السنيّة معايير وأسسًا للاختيار، والترجيح بين مختلف الاجتهادات العقديّة والفقهيّة المتعلقة بالآخر.

إنّ استحضار المقاصد وتفعيلها عند التواصل مع الآخر لا تمام له ما لم يتم ربط ذلك بالاعتداد الرشيد بالمآلات المعتبرة عند التعامل مع مختلف المسائل المتعلقة بالآخر؛ فالمآلات تمثّل الضمانات التي يتم من خلالها التأكد من تحقيق مقاصد الشرع، وبالتالي، فإنّ استحضارها جنبًا إلى جنبٍ مع المقاصد أمر لا مناص منه تحقيقًا لتواصل منشود أمين.

هذه أهم الضوابط التي ينبغي لها أن تحكم التواصل مع الآخر، وثمة ضوابط أخر، ولكن المقام لا يتسع لذكرها، وعسى الله أن يمدّ في الأجل، فنعود إلى هذه المسألة كرّة أخرى في العاجل القريب بإذنه جلّ جلاله.

المطلب الثالث: في أهم وسائل التواصل المنشود مع الآخر وآلياته

لئن كان التواصل المنشود عبارة عن تفاعل وتعاون إيجابي بين المسلم فرداً ومجتمعًا مع الآخر فردًا ومجتمعًا، من أجل تحقيق ما فيه مصلحة كلا الطرفين، ولئن كان التواصل -كما أوضحنا- غاية ونتيجة، فإنّ تحقيق هذه الغاية يتوقف توقفًا أساسيًا على ضرورة توظيف مختلف الوسائل الموصلة إلى صور التواصل المنشود في العصر الراهن.

وبإمعان النظر في صور التواصل المنشود، فإنّ للمرء أن يفزع إلى القول بأنّ ثمة وسائل متعددة للتواصل بصوره، بل يمكن للمرء أن يزعم بأنّ له وسائل فكريّة ووسائل اجتماعيّة ووسائل سياسيّة ووسائل اقتصاديّة ووسائل ثقافيّة ووسائل تربويّة، وهذه الوسائل برمتها تعدّ بطبائعها مرنة في مضامينها ومكوناتها؛ حيث إنّ محتوياتها تتجدّد بتجدّد الزمان والمكان، كما أنّها تتغيّر بتغيّر الأزمنة والأمكنة والأحوال؛ الأمر الذي ينبغي استحضاره عند الحديث عن وسائل التواصل.

وبطبيعة الحال، لقد أشار القرآن الكريم والسنة النبويّة الطاهرة إلى عدد من هذه الوسائل التي يمكن توظيفها لتحقيق التواصل المنشود مع الآخر، ومن أهمّ تلك الوسائل التي تحدّث عنها القرآن الكريم والسنة النبويّة الشريفة:

❖ **الحوار والمجادلة بالتي هي أحسن:** وثمة وفرة وكثرة في الآيات والأحاديث الداعية إلى الحوار والمجادلة بالتي هي أحسن.

❖ **الزواج:** وقد دلّ القرآن الكريم على هذه الوسيلة من خلال إذنه بالزواج بالمحصنات من الذين أوتوا الكتاب.

❖ **التبادلات الماليّة والتجاريّة:** لقد اقتضت حكمة الله -جلّ جلاله- أن يكون الأصل في المعاملات الإباحة، كما اقتضت إرادته الأزلية أن تكون هذه الإباحة شاملة للأطراف التي يتم بينها التعاقد في التبادلات الماليّة؛ وهو ما يعني أنّ للمسلم أن يتعامل في بيوعه ومعاملاته مع من يشاء من أهل الكتاب، وخاصّة منهم أولئك الذين إذا ائتمنتهم بقنطار أدوه إليك.

❖ **عقد المواثيق والمعاهدات:** وقد سبق أن أشرنا إلى الآيات الكريمات التي تدل على هذه الوسيلة، ولا بدّ لنا من توظيفها.

وأيًا ما كان الأمر، فإنّ هذه الوسائل تمثّل آليات دلّت عليها نصوص الكتاب والسنّة النبويّة، ولا تعدو أن تكون نماذج يمكن النفاذ منها لتحقيق تواصل مكين شامل مع الآخر. وكل واحدة منها بحاجة ماسة إلى تأصيل وتحقيق وتنظيم وتبيان لكيفية توظيفها لتحقيق التواصل المنشود. وبطبيعة الحال، ليس بخافٍ على أحد أنّ الحوار نال -كما أسلفنا- نصيبًا وافرًا من كتابات المعاصرين وتحليلات المفكّرين، كما حظي بتأصيل وتنظيم وتحقيق أكثر من غيره، ولا تزال بقية الوسائل تشكو ضعفًا في التنظير والتأصيل والتحقيق، بل إنّ عامّة الباحثين لا يلقون بالا يذكر بكيفية توظيف تلك الوسائل من أجل تحقيق التواصل المنشود.

ولهذا، فإنّنا ندعو الغيارى والجادين من الباحثين والمفكرين والعلماء إلى أن يوسعوا بقية الوسائل المشار إليها جانب التأصيل والتنظيم والتحقيق والضبط، كما أنّنا ندعوهم إلى التخفيف من غلواء الحوار وغلبته على غيره من الوسائل المتاحة للتواصل.

فعلى سبيل المثال، لا يجد الناظر في الدراسات والأبحاث العلميّة الجادّة المعاصرة تنظيرًا وتأصيلا وتوظيفًا للزواج بحسبانه وسيلة من وسائل التواصل الاجتماعيٍّ والثقافيّ مع الآخر، فعلى الرغم من مضي قرون مديدة على الوجود الإسلاميّ في كثير من الأقطار الغربيّة، غير أنّه لا يزال الاندماج والتواصل الاجتماعيّ من خلال علاقات الزواج والمصاهرة يعاني ضعفًا شديدًا، وتأرجحًا مستمرًا؛ نتيجة إعراض الجاليّات الإسلاميّة في كثيرة من الأحيان عن توظيف الزواج وسيلةً مثلى لتحقيق الاندماج الاجتماعيٍّ الإيجابي مع الآخر، ونتيجة عدم الاعتداد بتلك الآثار الاجتماعية الكبيرة التي يمكن أن تترتب على الزواج من إنتاج أجيالٍ جامعة للثقافتين الإسلاميّة والغربيّة، وقادرة على إيجاد حلقات وصل وتواصل بين المسلمين والآخر، ومن الملاحظ في كثير من الأحيان التغييب المتعمد لهذه الوسيلة في واقع الجاليات التي تعيش خارج الأقطار الإسلاميّة.

إنّنا نعتقد أنّ ثمة حاجة إلى إعادة النظر الحصيف الناقد في النظرة السلبيّة السائدة عن الزواج بين المسلمين والآخر، ولا بدّ من الاعتداد بالآثار الإيجابية التي يمكن أن تنتج عن الزواج، وخاصّة فيما يتعلق بالآثار الاجتماعيّة والفكريّة والثقافيّة والسياسية على المدى البعيد. وإنّه من المعلوم للداني والقاصي أنّ ثمة جهات عديدة في العالم يتخذ من الزواج وسيلة للترويج لأفكارها، والتأثير على الآراء والرؤى، فضلا عن التجسس على الخصوم والأغيار، فهلا أولى الباحثون والمفكرون والمنظرون الغيارى هذه الوسيلة جانب التأصيل والتحقيق أسوة بالحوار والمجادلة؟.

هذه -اختصارا- أهم الوسائل التي يمكن توظيفها من أجل تحقيق التواصل المنشود مع الآخر بجميع صوره وأشكاله.

المبحث الثالث
نحو تأسيس لعلم الغرب «غَرْبُولُوجيا» مدخلا لتحقيق تواصل مستديم مع الآخر

تظلّ المعالجات الجزئيّة والنظرات الانفعاليّة محدودة الأجل، وقليلة المردود الحضاريّ المتماسك؛ ذلك لأنّ التصورات الجزئيّة لا تحيط بالموضوع إحاطة شموليّة تعين المرء على بلورة إستراتيجيّة عمل متكاملة مترابطة متماسكة.

ومن ثمّ، فإنّ النظر المتفحِّص فيما جادت به الساحة الفكريّة الإسلاميّة المعاصرة من دراسات وأبحاث وأطروحات ومؤلفات وكتب حول المسألة الغربيّة، يهدي المرء إلى أنّ المعالجات الجزئية كانت حاضرة بالقوة وبالفعل، كما كانت النظرات العاطفيّة والتحليلات الانفعاليّة والتعليقات الانبهارية في تلك الأعمال والاجتهادات الفكريَّة هي الأخرى ذات حظوظ وبروز باهرين في معظم تلك الدراسات والأبحاث والأطروحات.

وأما القرارات (المؤتمراتيّة) والتوصيات (الندواتيّة) التي أصدرها السادة المؤتمرون في أصقاع العالم حول المسألة الغربيّة، فإنّها هي الأخرى لم تخلُ من أن تكون من بنات ردود الفعل لما يقوم به الغرب بين الفينة والأخرى من استفزازات فكريّة لمشاعر الأمة، ونظرات استعلائيّة إلى ثقافة الأمة وحضارتها، وممارسات استخفافيّة تجاه قضايا الأمة، واعتداءات ثقافيّة على ثوابت الأمة، وشماتات حضاريّة لتخلف الأمة في مختلف ميادين العلم والمعرفة؛ وهو ما جعل معظم تلك القرارات والتوصيات -إن لم يكن كلها-يذهب أدراج الأرياح، ويغدو - بفعل من البشر-شأنًا على ذمة التاريخ؛ إذ إنّ الغرب بقي غربًا فكرًا وسلوكًا ومنهج حياة وثقافة، كما أنّ الشرق بقي شرقًا فكرًا وسلوكا ومنهج حياة.

واعتبارًا بوجود تناقض في الرؤى وتضارب في الأفكار إزاء المسألة الغربيّة في الذهنية الإسلاميّة منذ أمدٍ غير قصير، بل اعتدادًا بوجود ذات التناقض

والتضارب لدى السواد الأعظم في الديار الغربيّة عن المسألة الإسلاميّة، فلا غرو أن يظهر مفكّر متشائم كـ «هنتنجتون» ومَنْ على شاكلته ليعلن على الملأ أنّ حرب الحضارات وشيكة وقادمة لا محالة، ليقنع نفسه وغيره -مما لا معرفة لهم بالقواسم المشتركة بين الغرب والشرق عقيدة ومنهج حياة- بأنّه لا تلاقي بين الغرب والإسلام، فكلاهما عدوّ يتربص لبعضهم البعض. ولا عجب في أن ينهض جمعٌ غفير من الباحثين والمفكّرين للردّ على النظرة الهنتجتونية التشاؤميّة الصداميّة، مقرّرين ومؤصّلين أنّ القادم المنتظر هو حوار الحضارات لا صراعها، وأنّ الجو الذي يسود هو جوّ حوار الأديان، لا تصادم الأديان، وأنّ الثقافة التي ستخيّم على الساحة هي ثقافة التعايش لا ثقافة التنافي والتناحر.

وفي خضم تلاحم الرؤى وتناقض الاستنتاجات، تظل النظرات والأطروحات حول المسألة الغربيّة متجاذبة بين مختلف الأطراف والأطياف، ولا نخال الزمان سيجود في العاجل القريب برؤية واضحة يتقبلها السواد الأعظم من الناس في العالم(١).

وانطلاقًا مما للنظرات المنهجيّة الموضوعيّة من أهميّة بالغة في رسم الخطى وصياغة الإستراتيجيات المتكاملة والشاملة، بل اعتبارًا بما تقوم به المؤسسات التربوية والتعليميّة من أدوار ناجعة في إعداد الأجيال، وتسليحهم بمختلف أسلحة المعرفة، مما يجعل نظراتهم إلى الحياة والوجود والإنسان متسمة بالموضوعيّة والواقعيّة والمنهجيّة، كما يجعل سلوكياتهم إزاء الأحداث وردودهم للأفعال منبثقة عن رؤية واضحة ونظرة فاحصة لا مكان فيها للانفعالات العابرة والعواطف الغامرة، لهذا كله ولغيره، فإنّنا نرى أنّه قد آن الأوان للانتقال بالأبحاث والدراسات والمؤلفات التي نسجت ولا تزال تنسج حول المسألة الغربيّة إلى رحاب المؤسسات التعليميّة الأكاديميّة المنظّمة، بحيث يغدو ثمة برنامج دراسيّ أكاديميّ يعرف بـ «غربولوجيا» (علم الغرب) يتم من خلاله دراسة الغرب

---

(١) انظر: العلاقة مع الغرب: الموضوع.. الإشكالية.. المنهج، عبد الله إبراهيم (المركز الثقافي العربي، طبعة ٢٠٠٠م)، ص ٢٣ وما بعدها.

دراسة أكاديميّة متخصصة، كما يتمّ من خلاله تمكين الأجيال الصاعدة من أبناء الأمة من معرفة الغرب معرفة علميّة موضوعيّة لديانته وثقافته، ومنهج حياته ونظامه، ومبادئه وقوانينه ومصالحه، وتاريخه وواقعه.

وبطبيعة الحال، فإننا نُهرع إلى القول بأنّ ما عرفته الساحة الفكرية الإسلاميّة في الآونة الأخيرة من دعوات ونداءات إلى الاعتناء بدراسة الغرب - من خلال ما يعرف بدراسات الاستغراب-لا تعدو -على الرغم من أهميتها ومكانتها-أن تكون ردّة فعل للدراسات الاستشراقيّة التي عرفتها الساحة الفكريّة الإسلاميّة منذ أمدٍ غير قصير؛ ولهذا، فإنّنا نخال أن الدعوة إلى الدراسات الاستغرابية واقعة في ذات الدائرة التي تقع فيها سائر الدعوات المنبثقة عن ردود فعل لما تعاني منه الأمة من ابتلاءات حضاريّة في المرحلة الراهنة.

وفضلا عن هذا، فإنّه من المعلوم أنّ المقصد الأجلّ الذي هدفت إليه الدراسات الاستشراقيّة هو التعرف على الشرق بغية توظيفه من أجل تحقيق مطامع الغرب وتطلعاته لا من أجل التواصل مع الشرق، ولهذا، فإنّنا نخشى أن يكون ذات المقصد ملحوظًا في الدراسات الموسومة بالدراسات الاستغرابيّة؛ وهو ما دفعنا إلى تجاوز هذه الدعوة، والتوجه نحو تأسيس علم متكامل شامل يروم معرفة الغرب معرفة موضوعيّة منهجيّة متوازنة تحقيقًا لتواصل إيجابيّ شامل معه لما فيه مصلحة البشريّة برمتها.

ومن هنا، فإنّنا نعود فنكرّر أنّ المشروع الذي ندعو إليه في هذا المقام يتجاوز ردود الفعل، وينطلق من قناعة راسخة بضرورة معرفة الآخر (الغرب) معرفة موضوعيّة أصيلة بعيدًا عن الانفعالات والانبهارات والتهجمات، كما ينطلق المشروع من الإيمان العميق بضرورة البحث عن سبل التفاعل الإيجابي والتعاون المثمر بين المسلم فردًا ومجتمعا والآخر فردًا ومجتمعا؛ ذلك لأنّ معرفة الآخر معرفة دقيقة تمثل مقدِّمة ضروريّة للتفاعل الإيجابي المنشود، كما أنّ الجهل بالآخر من شأنه تعذر التفاعل والتعاون.

وفضلا عن هذا، فإنّه من الحريّ بالتقرير أنّ جملة حسنة من العلوم التي نشأت في تاريخها كانت تلبية للحاجة الماسة إلى معرفة الموضوع الذي تدور حوله تلك العلوم، فعلم القراءات، والحديث، والفقه، والخلاف، والعقيدة، والنحو، وسوى ذلك، كلها علوم نشأت تلبية لحاجة المجتمع إلى معرفة الموضوعات التي تعالج هذه العلوم معرفة عميقة رشيدة رصينة رشيقة.. بل إنّ مجموع العلوم المسماة بالعلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة من علم نفس، وعلم إنسان، وعلم اجتماع، وعلم اقتصاد، وعلم سياسة وسواها، نشأت هي الأخرى تلبية لحاجة الناس إلى تعميق الفهم بالموضوعات التي تعالجها تلك العلوم...

وقد غدا ثمة توجه رشيد في أروقة المفكّرين الجادّين إلى تحويل الموضوعات المتعددة الجوانب إلى علوم وفنون مستقلّة، بل إنّ عددًا من مفكّري الغرب – وخاصّة الفرنسيّين منهم–أسّسوا في جامعاتهم ومعاهدهم وكلياتهم قسمًا يعرف بإسلامولوجيا (علم الإسلام)، وتستقبل تلك الأقسام العلميّة أولئك المهتمين بدراسة الإسلام دراسةً موضوعيّة شاملة لمختلف الأغراض والغايات. والجدير ذكره أنّ هذه الأقسام في تلك الجامعات والمعاهد والكليات تغلب على توجهها الموضوعيّة والعلميّة في دراسة الإسلام؛ خلافًا للأقسام الموسومة بأقسام الدراسات الاستشراقيّة التي تمثّل مراكز بحث ودراسة تعنى بتقديم المشورة الفكريّة والاستشارة السياسيّة للجهات الراغبة في إخضاع العالم الإسلاميّ لمزيد من الابتلاءات الحضاريّة، وتعميق الهيمنة الغربيّة على توجهات الشعوب الإسلاميّة وسياساتها وثقافاتها.

ولهذا، فلقد فضلنا أن نصطلح –غير مسبوقين–على هذا العلم الجديد علم غربولوجيا (علم الغرب لا علم الاستغراب) انطلاقًا من إيماننا بأنّ الغرب غدا اليوم موضوعًا واسعًا لا يمكن الإحاطة بجوانبه المتشعبة المتداخلة المعقّدة إلا من خلال دراسة موضوعيّة منهجيّة متسلسلة مترابطة تتخذ من الأصالة الأكاديميّة والرصانة المنهجيّة أساسًا لتقديم الرؤى والآراء والأفكار. فالغرب اليوم لم يعد مدلولا مختزلا في موقع جغرافي ضيّق أو واسع، بل غدا الغرب مدلولا علميًا ومنظومة فكريّة واجتماعيّة وسياسية واقتصاديّة وثقافية وتربوية، وتاريخيّة،

وأمست معرفة هذه المنظومة المتكاملة متوقفة على صيرورتها مادة علميّة وبرنامجًا أكاديميًا، يتطلب فهمه الدراسة العلميّة الموضوعيّة الشاملة.

إنّنا نزعم اليوم أنّ ثمة حاجة موضوعية ومنهجية إلى تأسيس هذا العلم الجديد في أروقة الجامعات والمعاهدات والكليات في أنحاء المعمورة؛ ذلك لأنّ فهم السواد الأعظم من أبناء الأمة للمسألة الغربيّة تعوزه الموضوعية والمنهجيّة والواقعيّة، كما تفتقر في كثير من الأحيان إلى الموضوعيّة في الطرح والتحليل، والمنهجيّة في الفهم، والواقعيّة في التعامل، والاستشرافيّة في التخطيط؛ وهو ما أدّى إلى وجود تصورات متعددة متناقضة للغرب في الذهنية الإسلاميّة المعاصرة. فالغرب عند كثير من المسلمين صورة لعالم مغمور بنزعة السيطرة والتفوق والمركزية الذاتية، والغرب عند مسلمين هو ذلك العالم الأكثر إنسانيّة وتحضرًا، وهو معقل الحرية والعقلانية والإبداع.. والغرب عند طائفة ثالثة من أبناء الأمة عالم كله مصالح، فحيثما المصلحة فثمة الغرب، ولا وجود في ذلك العالم لشيء اسمه القيم والمبادئ والقوانين، بل المصالح ثم المصالح، فهي التي تحكم كل شيء. وقد حاول بعض المعاصرين الجادين استقراء أهمّ صور الغرب القارَّة للغرب في الذهنية الإسلاميّة المعاصرة، فقال -موفقا في تحليله- ما نصّه:

«.. أما الغرب، فقد تغير مفهومه بشكل لا يمكن اختراله في مدلول جغرافي وحيد أي أوروبا الغربية دون أمريكا، ولا حتى أوربا وأمريكا الشماليّة، فلا هو غرب إيديولوجيا التنوير والعولمة والحداثة وما بعد الحداثة، وسيادة القانون، والمساواة، والحريات المطلقة النابضة بشتى حقوق الإنسان، ولا هو غرب الجنس الآري المتفوق، أو الدم الأزرق، أو النازية، أو الفاشية، أو الوجودية، أو حتى النزعة الإنسانية الطاوية في جوفها لمقاصد عامرة بالتفوق والاستعلاء.

إن الجذر الأساسي للغرب هو مزيج من الجغرافيا والديانات اليهودية والمسيحية وكذا الأيديولوجيات، وحركات النهضة والتجديد والتنوير.. هو الغرب الموغل في الثقافة الهيلينية؛ أي مزيج الحضارات والفلسفات الإغريقية

والرومانية والمذاهب المسيحية الكاثوليكية والبروتستانية والقبطية إضافة إلى اليهوديّة التي جاءت وفي جوفها الأطروحة الصهيونية بأساطيرها وإستراتيجيتها العنصرية الدموية وعقدها وبرامجها الدينية والدنيوية.. فالغرب الحالي هو مزيج من أهمّ وأحدث الاكتشافات التقنية لتنمية وتطوير ملكات ومجتمع ودولة الإنسان الفرد.. وهو المزيج المركّب من الشركات الكبرى القابضة والعابرة للقارات، وكذا المؤسسات المالية والإعلامية والاقتصادية العملاقة ذات الشبكات المتطورة والمتعددة.. وهو أيضا (الغرب) ذلك المزيج المركب من أحدث صيحات وفنون الآداب والإبداع المحمولة عبر الوسائط الإعلامية والاكتشافات التكنولوجية القادرة على توصيل المعلومات وتشكيل الصور والرؤى والأفكار ما دامت تتمتع بجملة مسميات وتمظهرات.. وهو أيضا غرب الجمعيات الخيرية الإنسانية (المسيحية) والتطوعية والمواقف النضالية المتعاطفة مع الفقراء ضد نزعات الاستنساخ وتحديد النسل والإجهاض.. وهو غرب التفوق الرياضي والفني الذي أصبح صنعة كما تقول الأعراب، وفي جوفه الهواية والاحتراف ونزوع التفوق والإبداع وتكسير الحواجز والأرقام الدالة على قوة عزيمة ذلك الإنسان... »[1].

إنّ هذا التحليل الوافي والضبط الدقيق لعدد من صور الغرب عند المسلمين يعدّ في مغزاه ومعناه تقريرًا وتأكيدًا على ضرورة صيرورة المسألة الغربية (الغرب) موضوعًا دراسيًا جدير التخصص فيه تخصصًا أكاديميًا رصينًا؛ وذلك بغية إعداد جيلٍ كفءٍ قديرٍ منهجيّ موضوعيّ متمكنٍ من فهم الغرب فهمًا موضوعيًا رصينًا رزينًا.

وصفوة القول: يحدونا أمل فسيح في أن يجد هذا المقترح دعمًا فكريًا وتشجيعًا معنويًا وماديًا من السادة المؤتمرين، ومن أولئك الغيارى المهتمين بمسألة

---

(١) انظر: حوار الحضارات: تحليل نقدي لظاهرة الإسلاموفوبيا، عبد الله صالح أبو بكر، طبعة هيئة الأعمال الفكريّة، طبعة عام ٢٠٠٢م، ص٩١-٩٢ بتصرف واختصار.

التواصل الإيجابيّ مع الآخر على كافة الأصعدة؛ حتى تخفف على الذهنية الإسلاميّة تبعات التناقضات المفاهيمية والتضاربات التصوريّة عن الغرب ديانة وثقافة وأنظمة ومصالح وتاريخًا وواقعًا.

إنّنا لعلى ثقة أنّه يوم أن يغدو هذا المشروع واقعًا ملموسًا، فإنّ على العالم الإسلاميّ أن يسعد -يومئذٍ-بجيل متكامل واعٍ رشيدٍ رزين يفرض على الآخر احترامه وتقديره والتعامل معه بنديّة واحترام. على أنّه من الجدير ذكره أنّه من الممكن البدء في تنفيذ هذا المقترح على مستوى الدبلومات، فالدراسات العليا، ثم الدراسات الجامعيّة.

الخاتمة: أهم نتائج الدراسة

لقد خلصنا في هذه الوريقة المتواضعة إلى جملة من النتائج، يجمل بنا تلخيصها في النقاط التالية:

أولاً: إن التواصل المنشود مع الآخر ينتظم جميع أشكال وصور التفاعل الإيجابيّ الرشيد والتعاون الحضاريّ المكين، والتكامل الإنسانيّ الواعي المنفتح مع الآخر بغية تمكين المسلم -أفرادًا ومجتمعات-من القيام بمهمة الخلافة لله، وعمارة الكون، وإسعاد البشريّة وفق المنهج المراد لله جلّ جلاله.

ثانيًا: إنّ التواصل المنشود مع الآخر لا يتوقف عند التواصل الفكريّ أو السياسيّ فحسب، ولكنه ينتظم التواصل الاجتماعيّ والتواصل الثقافيّ والتواصل التربويّ؛ وذلك اعتبارًا بأنّ صور التواصل تتكامل وتتداخل وتترابط؛ وهو ما يجعل الاكتفاء بصورة دون أخرى متعذرًا في نهاية المطاف. ولهذا، فإنّ الحاجة اليوم ماسة إلى البحث العميق والدراسة الواعية لكل صورة من صور التواصل بغية التعرف على الوسائل المناسبة لكل واحدة من تلك الصور.

ثالثًا: إنّ للتواصل وسائل متعددة بتعدد صوره وأشكاله ومجالاته، ومن أهمّ تلك الوسائل التي تناولها الذكر الحكيم بالإشارة والإشادة والتمثيل: الحوار، والزواج، والتبادلات الماليّة، والمعاهدات، والتبادلات الثقافيّة. وبناءً على هذا، فإنّ كل واحدة من هذه الوسائل وغيرها بحاجة ماسة إلى دراسات علميّة موضوعيّة واعية عميقة تبيّن أوجه وسبل الاستفادة منها بصورة علميّة متكاملة.

رابعًا: ما دام للتواصل وسائل متعددة، فإنّه ليس من سديد الرأي ولا من حصيف النظر العكوف عند وسيلة من تلك الوسائل، والاهتمام العظيم بتلك الوسيلة دون سواها. ولهذا، فما تنعم به ساحتنا الفكريّة المعاصرة وندواتنا الموسميّة ومؤتمراتنا السنويّة من رواج غير منكور لمسألة الحوار بحسبانه إحدى أهمّ وسائل التواصل، لا بدّ من إعادة النظر في ذلك الاهتمام الكبير والعناية

الفائقة بهذه الوسيلة بعينها، بحيث يغدو ثمة اهتمام موازٍ وعناية متكافئة بغيره من وسائل التواصل تأصيلاً وتنظيرًا وتحقيقًا؛ وانطلاقًا من إيماننا الجازم بأنّ وسائل التواصل المنشود مع الآخر لا يمكن تحقيقها من خلال وسيلة واحدة، بل لا بدّ من الاستفادة القصوى من كافة الوسائل التي أشاد بها الذكر الحكيم وطبّقها المصطفى ﷺ في حياته، بل لا بدّ من البحث الجاد في مستجدات وسائل الاتصال والتواصل مع الآخر قصد توظيفها في تحقيق هذا التواصل المنشود في كل زمان ومكان.

خامسًا: ينبغي الالتزام بجملة من المبادئ الإسلاميّة الناصعة والمتمثلة في الانفتاح والمرونة والسعة عند صياغة ضوابط التواصل مع الآخر، فالأولويّة والاعتبار ينبغي أن يكونا للضوابط التي تقوم على مراعاة تلك المبادئ تمكينا للتواصل من أن يغدو واقعًا ملموسًا، وممارسة واضحةً.

سادسًا: ما دامت ثمة ثوابت ومتغيرات في ملتنا الحنيفيّة، ينبغي التفريق الدقيق بين الثوابت والمتغيرات عند التواصل مع الآخر، فالثوابت من الأحكام لا يصح التهاون فيها، ولا التنازل عنها، وذلك بحسبانها الأسس التي يقوم عليها الوجود الإسلاميّ، وأما المتغيرات، وهي المجتهدات العقدية والفقهيّة، فلا بد من المرونة فيها عند التواصل مع الآخر. ومن ثمّ، فإنّ الحاجة اليوم تمسّ إلى مراجعة الأحكام المنسوجة حول علاقة المسلم بالآخر وطرق تعامله معه؛ إذ إنّ بعضًا من تلك الأحكام يندرج ضمن المتغيرات المظنونات التي لا محظور في إعادة النظر فيها في ضوء الواقع المعيش؛ ذلك لأنّها نسجت متأثرة بالأوضاع الفكريّة والاجتماعيّة والسياسيّة والثقافيّة التي كانت سائدة آنذاك.

سابعًا: ينبغي تحكيم مقاصد الشرع في التواصل مع الآخر في جملة الاجتهادات الفكريّة والفقهيّة، بحيث يتم الاعتداد الصارم بتلك الاجتهادات الفكريّة والفقهيّة التي تقوم على مراعاة جملة المقاصد الشرعيّة في التواصل، والمتمثلة في مقصد الوسطية في التعامل مع الآخر، ومقصد الاعتراف بالآخر، ومقصد احترام الكرامة الإنسانيّة، ومقصد الانفتاح الإيجابيّ المتوازن على الآخر.

كما ينبغي تجاوز الاجتهادات الفكريّة والفقهيّة التي تعمّق الجفوة والفجوة مع الآخر، وترى الحرب والصراع الأصل في العلاقة مع الآخر، والحال أن الحرب كل الحرب لم تكن ذات يوم أصلا للعلاقة بين المسلم والآخر وذلك بشهادة محكمات النصوص والتاريخ. ولهذا، فلا بدّ من تجاوز تلك الاجتهادات الزمانيّة العاطفيّة تحقيقًا للتواصل المنشود مع الآخر.

ثامنًا: اعتبارًا بتعدد وتناقض تصورات الذهنية الإسلاميّة عن المسألة الغربيّة، واعتدادًا بأهميّة العلميّة والمنهجيّة والموضوعيّة عند الحكم على الأشياء والتعامل معها، بل انطلاقًا من تعذر الإحاطة العلميّة الرشيدة الدقيقة الواعية بالموضوعات الشائكة المتشعبة إذا لم يتم تناولها بصورة علميّة متوازنة شاملة، لذلك، فإنّ الدراسة اقترحت على السادة المؤتمرين وصناع القرارات التربوية والتعليميّة في عالمنا الإسلاميّ، تأسيس علم جديد اصطلحنا عليه علم الغرب « غَربُولوجيّا westology»، وسيعنى هذا العلم المقترح تأسيسه بدراسة الغرب ديانة، وثقافة، وأنظمة، ومصالح، ومنهج حياة، وتاريخًا، وواقعًا بصورة علميّة موضوعيّة شاملة، بعيدًا عن كل التحليلات والاستنتاجات العاطفية الظرفيّة المتقلبة والمتجددة. فالغرب اليوم لا يمكن اختزاله في مدلول جغرافيّ ضيّق، بل إنّه أمسى يعبّر عن منظومة متكاملة ومتنوعة ومتداخلة، إذ ثمة غرب مصالح، وغرب أديان، وغرب ثقافات، وغرب أنظمة وقوانين، وغرب مبادئ وقيم، وغرب منهج حياة، وغرب تاريخ، وغرب واقع.. وكل واحد من هذه الجوانب في الغرب يستحق دراسة وتحقيقًا وتنظيرًا وتأصيلا؛ تمكينًا من حسن فهم هذه الجوانب المتعددة والمتداخلة والمتناقضة في بعض الأحيان. ولهذا، فإنّنا نرى أنّ الأمل في تحقيق تواصل مستديم مع الآخر يتوقف توقفًا أساسيًا على معرفة هذا الآخر معرفة موضوعيّة متكاملة وواضحة. وإننا نعدّ العلم المقترح من أنجع الوسائل والسبل الكفيلة لمعرفة الآخر معرفة رصينة عميقة.

تاسعًا: إنّنا نقترح أن يتمّ البدء في تنفيذ هذا المشروع على مستوى دبلومات دراسيّة، فالدراسات العليا، ثم الدراسات الجامعيّة، وبطبيعة الحال، ثمة حاجة

إلى لجنة علميّة يعهد إليها القيام بمهمة صياغة المقررات الدراسيّة التي يتم من خلال الوصول إلى تمكين الأجيال القادمة من معرفة الغرب معرفة واعية واضحة تؤهّلهم لتواصل إيجابيّ متكامل ومستديم معه. ويوم أن يخرج هذا المشروع إلى النور، فليسعد العالم الإسلامي يومئذٍ بزوالٍ -بلا رجعة- لتلك التحليلات الانفعاليّة والنظرات العاطفيّة وردود الأفعال المستعجلة غير المدروسة لمختلف إملاءات الآخر، واستفزازاته المتواصلة للمشاعر. فالجيل المؤهّل والمتمكن من فهم الغرب، سيضع حدًّا مبرمًا بما يمتلكه من دراية ومعرفة لكل تلك التصرفات الحائفة والممارسات غير العادلة تجاه الأمّة الإسلاميّة، وما ذلك على الله بعزيز.

وأخيراً: إنّنا نؤكد في نهاية هذه الدراسة إلى أنّ مصطلح «الآخر» الوارد في هذه الدراسة كما ينطبق على الغرب، فإنّه ينطبق أيضا على الشرق (غير المسلم)، وما أوردناه من تصور عن مصطلح التواصل، ومعالمه، وضوابطه، ووسائله، ينطبق انطباقًا موضوعيًا على ذلك الجزء من الشرق.

وبهذا نصل إلى نهاية هذه الدراسة المتواضعة، وأملنا أن نكون قد وفّقنا فيه إلى تقديم وجهة نظر يجري عليها ما يجري على غيرها من اجتهادات البشر من نقص وقصورٍ وزلل وخطأ. والله المسؤول أن يجعل ما توصلنا إليه مما يمكث في الأرض وينفع الناس، وأن يوفقنا جميعًا ودوما وأبدًا إلى ما فيه خير الإسلام والمسلمين، إن نريد إلا الإصلاح ما استطعنا، وما توفيقنا إلا بالله العليّ العظيم، عليه توكلنا، وإليه ننيب.

المراجع والمصادر

١ - البعد الحضاري لهجرة الكفاءات، مجموعة من المؤلفين، كتاب الأمة، العدد ٨٩، السنة الثانية والعشرون، طبعة عام ٢٠٠٢م.

٢ - حوار الحضارات: تحليل نقدي لظاهرة الإسلاموفوبيا، عبد الله صالح أبو بكر، طبعة هيئة الأعمال الفكريّة، طبعة عام ٢٠٠٢م.

٣ - حوار عن بعد حول حقوق الإنسان في الإسلام، الشيخ عبد الله بن الشيخ المحفوظ بن بيه، (دار الأندلس الخضراء، طبعة ٢٠٠٣م).

٤ - الحوار مع أهل الكتاب: أسسه ومناهجه، خالد عبد الله القاسم (دار المسلم، طبعة ١٤١٤هـ).

٥ - سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين، عبد الله بن إبراهيم اللحيدان، (الرياض-دار الحضارة للنشر والتوزيع، طبعة ٢٠٠٤م).

٦ - العلاقة مع الغرب: الموضوع.. الإشكالية.. المنهج، عبد الله إبراهيم (المركز الثقافي العربي، طبعة ٢٠٠٠م).

٧ - الكتاب الأبيض حول الحوار بين الحضارات، إيسيسكو، طبعة ثانية لعام ٢٠٠٢م.

٨ - مجلة إسلاميّة المعرفة، السنة التاسعة، العدد ٣٣-٣٤، عام ٢٠٠٣م، مقال بعنوان: المسلم والآخر: رؤية تاريخيّة، عماد الدين خليل.

٩ - مقدمة إلى الحوار الإسلامي -المسيحي، محمد السماك، (بيروت، دار النفائس، طبعة ١٩٩٨م).

١٠ - نحن والآخر.. صراع وحوار، ناصر الدين الأسد، (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، طبعة أولى، ١٩٩٧م).

محتويات البحث

نحـــن والآخـــر
معالــم التكامــل
وآفــاق المستقبـل

أ.د/ الصــادق بــن عبدالرحمــن الغريــاني

أستاذ بقسم اللغة العربية والدراسات
الإسلامية

كلية الآداب – طرابلس

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله ومن والاه، وبعد:

فيسعدني أن أقدم عظيم شكري وامتناني للقائمين على هذا المؤتمر العلمي حول موضوع أدب الحوار بعنوان (نحن والآخر)، عسى الله تعالى أن ينفع به، ويشكر جهود القائمين عليه.

الذي أتمناه وأرجوه وألح عليه؛ أن لا يكون حظُّنا من إقامة هذا المؤتمر العلمي، حول الحوار مع الآخر -كغيره من كثير من المؤتمرات المشابهة، التي تعقد في أماكن كثيرة هنا وهناك- هو مجرد الإسهام ببحوث علمية ودراسات نظرية، نثري بها جانبًا من جوانب تراثنا الإسلامي، وتجعلنا نحسّ بمزيد من النشوة والفخر والاعتزاز بانتمائنا إلى هذا التراث، ونوصي -كما جرت العادة -بطباعة البحوث المقدمة في كتاب يصدر باسم هذا المؤتمر أو ذاك، ثم ينتهي كل شيء، فلا نرى استفادة في الواقع العملي مستخلصة من نتائج دراسات الباحثين ومشاركاتهم؛ وذلك بتحويلها إلى مشاريع عمل تُستثمر في بناء دراسات فقهية معاصرة تُوَظَّف للخير ونفع المسلمين وتُصَحِّح الأخطاء وتصل الحاضر بالماضي، تتبناها وتتابع تنفيذها الجهة المشرفة على المؤتمر.

هذا هو السبيل إلى الانتفاع باللقاءات والبحوث العلمية الذي جرى عليه العالم المتحضر في الشرق والغرب، وبدون ذلك نكون قد بددنا أوقاتنا وجهودنا فيما ثمنه باهظ، ونفعه قليل.

أهمية الموضوع:

موضوع الاعتناء بالخطاب مع الآخرين في القضايا الدينية من الأهمية بمكان؛ لدخوله ضمن الخطاب الديني الذي لا تخفى أهميته هذه الأيام، وقد تكالب على الإسلام أعداؤه، فبإحسانه ومراعاة متطلباته تجتمع الكلمة، وتَقْوَى الأُمَّة، ويقل الخلاف، وينسدّ باب يتذرع منه أعداء الإسلام لرمي أهله بما صار معروفًا لدى كل منصف بأنه أكذوبة العصر؛ ما يسمى بالإرهاب، للتنكيل بالمسلمين والتسلط عليهم وسلب خيراتهم.

وبالإعراض عن إحسان هذا الخطاب مع الآخر وعدم مراعاة متطلباته الشرعية بما يحقق مصلحة المسلمين ويواكب العصر والتغيرات، ويحافظ على الثوابت، يعطي المسلمون أعداءَ الإسلام العذر الكاذب لتأليب الأمم عليهم، واجتياح ديارهم وبلادهم الواحدةِ بعد الأخرى.

كذلك فإن ما نشاهده اليوم من تزايد تفرق المسلمين وتَشَتُّت شباب الأمة المتدين، إلى مُفْرِط في التشدد ومُفَرِّط في التساهل، وإلى جماعات وانتماءات يعادي بعضها بعضًا، ما هو إلا ثمرة مُرّة من ثمرات الخلل في الخطاب مع الآخر، الذي ابتعد عن الوسطية، وجنح إما إلى إفراط أو تفريط.

والخطاب مع الآخر الذي نحتاج إلى وضع ضوابط له لتحسين صور التواصل وتعزيز الوسطية يتنوع إلى نوعين: خطاب المجتمعات غير الإسلامية، وخطاب المجتمعات الإسلامية.

والله ولي التوفيق

المبحث الأول: خطاب غير المسلمين

التجديد والمرونة مع التقيد بالثوابت:

المراد بالتقيد بالثوابت في خطاب غير المسلمين: التقيد في الخطاب بما جاء النص عليه في الكتاب والسنة، مع الرجوع في فهمهما إلى الاستعانة بكلام الأئمة المتقدمين من سلف الأمة، لا أن يضرب به عَرض الحائط، ويعول على الرأي المجرد الذي لا يتقيد بقواعد العلم.. يقول الشاطبي رحمه الله تعالى: «يجب على كل ناظر في الدليل الشرعي مراعاةُ ما فهم منه الأولون، وما كانوا عليه في العمل به، فهو أحرى بالصواب، وأقومُ في العلم والعمل»(١).

والناس -على مر العصور -لهم في التقيد بالثوابت في الخطاب الديني، أو التجديد وعدم التقيد، ثلاثة اتجاهات:

الاتجاه الأول:

اتجاه التزم بالنصوص في الخطاب الديني التزامًا حرفيًا، ولم يُعط لتغير أحوال الناس والأزمان والأعراف حَظًا، وأغرق في التشبث بحرفية الدليل، وبالمُدَوَّن في الكتب، مهما كان بعيدًا عن الواقع، وسَلَف هذا الفريق فيما ذهب إليه، مدرسة أهل الظاهر التي ترفض الرأي والقياس(٢).

الاتجاه الثاني:

اتجاه أعرض عن النصوص، وترك الثوابت، ووَلّى وجهه في الخطاب شطر

---

(١) الموافقات: ٣/٧٧ .

(٢) الإحكام في أصول الأحكام: ٥/٧، ٨ و٨/١٨ .

المعاصرة والحداثة والليونة والمساهلة، فليس في الشريعة عنده حكم ثابت -في غير التعبدات المحضة من أركان الدين التي لا يعيرها هذا الفريق كبير اهتمام- بل كل الأحكام عنده تقبل التغيير، والخطاب مع غير المسلمين تبعًا لذلك عنده يقبل التلوين والمصانعة والمجاملة في كل أمر، ولو كان الصادر من غير المسلمين في الخطاب عدوانًا على أصول الدين، والأمر المتنازع فيه طعنًا في نصوص الوحي صريحًا قاطعًا..

ويبررون هذه الدعوى العريضة الخطيرة في مطاوعة المشركين ومصانعتهم بعمومات لا تنهض دليلاً على المراد، ولا تَشْفِي غليلاً، كقول النبي ﷺ: «يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا»[1]، وقوله في مسألة تأبير النخل: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ»[2] وإلى عمومات أخرى؛ كمراعاة المصالح والمفاسد، وصلاحية الشريعة لكل زمان ومكان، وأن الشريعة تقوم على رفع الحرج واليسر. ويصادمون بتلك العموميات الأدلة الخاصة من الوحي في الثوابت التي حرم الله تعالى فيها المداهنة في الخطاب، ومعلوم أن العمل بالعموميات فيما فيه دليل خاص قاطع خطأٌ بَيِّن؛ إذ قد اتفق أهل الشرع والملة، وكذلك أهل القانون والوضع، أنه لا اجتهاد مع النص.

الاتجاه الثالث:

اتجاه الجمهور من العلماء المحققين، وهو الاتجاه الأصوب والأرجح، وعليه المعول.. ويرى هذا الفريق وجوب التمسك -في خطاب الآخرين- بالنصوص في الثوابت من الأحكام الشرعية التي جاء فيها من الوحي نص صريح قاطع، فهذه لا يتغير الخطاب فيها بتغير العصور والدهور، ولا باختلاف الزمان والمكان

---

(١) مسلم، حديث رقم ٢٣٦٣ .

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، حديث رقم: ١٧٣٤ .

والأشخاص والعقول والثقافات، مثل الاعتداء على التوحيد والدين والأنبياء والرسل، أو التدخل بالتغيير فيما هو من دين المسلمين؛ كإيجاب الواجبات، وتحريم المحرمات القطعية، مثل تحريم الربا والزنا، وكشف العورات، وانتهاك الحرمات، والاعتداء على الدماء والأعراض، فهذا لا يتغير حكمه ولا يتبدل، وليس لخطاب من اعتدى فيه على المسلمين وتعدى إلا وجه واحد، ولا يتغير الخطاب فيه بتغير أحوال الناس، أو كونِ الدار دار إسلام أو كفر البتة؛ لأن مراضاة غير المسلمين في هذا الباب غايةٌ لا تدرك إلا بترك ما عليه دين المسلمين من الحق، واتباعِ ما هم عليه من الباطل، كما قال تعالى: ﴿**وَلَنْ تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**﴾[1]، وعندنا في القرآن في سورة القلم مثال واضح لهذا الأمر، تكلم الله تعالى فيه عن حكم مداهنة المشركين في الخطاب، عندما يتعلق الأمر بثوابت الدين.

والمداهنة: الملاينة والمصانعة في الكلام، من الدهان، وهو الذي يَظهر على الشيء ويَستر باطنه. وكان المشركون قد أحبوا ورغبوا وعرضوا أن يكون من الرسول ملاينة ومسايرة لهم على باطلهم ومعتقداتهم فيجاملونه هم أيضًا بمداهنة مثلها، ويظهرون له التسامح والرفق والملاطفة في معتقده، فنهاه الله سبحانه أن يوافقهم ويقبل من

ذلك، وقال له في خطاب صارم قاطع: ﴿**فَلاَ تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ۞ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۞ وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ × هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۞ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۞ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ۞ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۞ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ**﴾[2]، وهذه الآيات وإن نزلت في الوليد بن المغيرة، فإن في كل عصر وليدًا، فيه من الصفات التي ذكر الله تعالى في الآية..

وفي القرآن سورة كاملة ليس أوضح منها في مصارحة الكافرين، وتبرئ

---

(١) البقرة: ١٢٠ .

(٢) القلم: ٨-١٥ .

المسلمين منهم دون مداراة فيما يتعارض مع ثوابت الدين، قال الله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ❁ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ❁ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ❁ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ❁ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ❁ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾[1].

ويجوز عند هذا الفريق -الذي يمثل جمهور أهل العلم وهو الحق والصواب إن شاء الله- تغير الخطاب والملاينة فيه ومد جسور التواصل مع غير المسلمين لتحقيق مصالح الدنيا وسياسة الخلق، والتعايش معهم ومنح شعوبهم وأممهم فرصة الاطلاع على ما عند المسلمين، من أعراف وتقاليد وثقافات وتعاليم وثوابت ومتغيرات،وتبيين ما يعد من هذه التعاليم مقدسًا لا يقبلون من أحد المساس به بحال، ولا التنازل عن شيء منه وما لا يعد كذلك، ويوصّل إليهم أن التعاون بالحسنى معهم مرغب فيه ومطلوب في دين المسلمين، حيث لم تكن مقدسات في دينهم يُستهزأ بها، ولا نصوص صريحة قاطعة يُعتدى عليها، وذلك التعاون يكون في كل ما يَجِدُّ من شؤون الحياة وسياسة الدنيا التي لا يعرض غير المسلمين فيها إلى معتقدات المسلمين وثوابتهم بالانتهاك، فيعامَلون في ذلك كله بالبر والعدل والرفق في الخطاب، وإظهار التسامح بما يُرَغِّبهم فيما عند المسلمين، ليكون المسلمون في ذلك رسل هداية للأمم قاطبة.

وفي التواصل والتلاقي معهم على هذا الوجه للمسلمين نفعان:

١- إتاحة الفرصة بتبليغ دعوة الإسلام لأهل الأرض قاطبة تنفيذًا لأمر الله تعالى: ﴿**لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ**﴾[2]، وقوله ﷺ: «بلغوا عني ولو آية»[3].

٢- تمكينهم من التواصل مع المسلمين على النحو السابق يدفع عن المسلمين أذاهم، ولا أقول يجنب (صدام الحضارات) كما هو مستعمل الآن، فعلى هذا

(١) سورة الكافرون.

(٢) الأنعام: ١٩ .

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، حديث رقم: ٣٢٧٤ .

التعبير -الذي تسرب من الإعلام وعُمم حتى شاع استخدامه من العلماء والدعاة- تَحفُّظ؛ حيث يجعل ما عند المسلمين من الحق والوحي والقرآن وهداية البشر مساويًا لما عليه باقي أمم الأرض من الباطل، وأن ما عند الأمم كلها مسلمين وغير مسلمين لا يعدو أن يكون حضارات لا تَميُّز بينها، بل من الأمم ما لها من الحضارات بمفهومها الدنيوي اليوم ما يعلو حضارات المسلمين، وقد ذكر الله تعالى الأديان التي حرفت وأهلها وبيّن باطلها ثم قال: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ**﴾(١)، فهذا هو استعمال القرآن.

فالتعايش مع غير المسلمين والتواصل معهم مشروط بكف أذاهم عن المسلمين، وقد بيّن الله تعالى لنا هذا الأصل في سورة الممتحنة أتم بيان، قال تعالى: ﴿**لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾(٢).. والبر المأذون فيه حسن المعاملة وحسن الكلام والتواصل في المعروف، والقسط إليهم - العدل في المعاملة بمثل ما يعاملون به من التقرب والتعاون والتوافق- فالمبدأ الذي أسسته هذه الآية في خطاب ومعاملة غير المسلمين جمع، مع التقيد بالثوابت، حظًا وافرًا من التعايش والمرونة في القول باستعمال لغة العصر ووسائل الإقناع التي تراعي حال المخاطب وثقافتَه وعلمَه وأسلوبَ تفكيره، ونمطَ حياته، وعاداته ومحيطَه الاجتماعي... وما إلى ذلك من المتغيرات التي تختلف من مجتمع لآخر، فمراعاة ما ذكر متعين لمن يريد توصيل الخطاب إلى عقل الآخرين فيما يُعرض من قضايا، قال الله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**﴾(٣)، فإن المعنى القريب المتبادر من الآية هو كلام الرسول بلغة المرسل إليهم لا بلغة غيرهم، لكنه يشمل أيضًا الطريقة والمنهج الذي يكون به الخطاب وتصل به

---

(١) آل عمران: ١٩ .

(٢) الممتحنة: ٨ .

(٣) إبراهيم: ٤ .

الرسالة إلى عقل المرسَل إليهم، بحيث تراعى أحوالهم ومناهجهم في الإقناع وطريقة تفكيرهم، والتدرج بهم بالمسلمات التي لا يحتاج المُعرض في قبولها إلى كبير عناء؛ إذ القبول والإقناع هو الغاية من الخطاب في الآية، ولذلك جاء قوله تعالى فيها ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ :أي يجدوا الكلام بينًا في الحجة لا يقدر السامع المنصف على صده والانفكاك عنه، وفي صحيح البخاري عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ»؟![1]

وكراهية غير المسلم لكفره لا تمنع مجاملته في الخطاب الذي لا ينقص من قدر الدين؛ دفعًا لأذاه أو وصولاً إلى نفع للمسلمين منه، ففي الصحيح من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: استأذن على النبي ﷺ رجلٌ فقال: ائذنوا له فبئس ابن العشيرة أو بئس أخو العشيرة، فلما دخل ألان له الكلام، فقلت له: يا رسول الله، قلت ما قلت ثم ألنت له في القول! فقال: «أي عائشة، إن شر الناس منزلة عند الله من تركه أو ودعه الناس اتقاء فحشه»[2]، وذكر البخاري عن أبي الدرداء قوله: «إِنَّا لَنَكْشِرُ فِي وُجُوهِ أَقْوَامٍ وَإِنَّ قُلُوبَنَا لَتَلْعَنُهُمْ»[3]، (الكشر: ظهور الأسنان، وأكثر ما يطلق عند الضحك) [4].

فمداراة الكافر جائزة، ومداهنته لا تجوز لأن مداهنته لا تكون إلا مع بذل الدين، قال القاضي عياض: «المداراة بذل الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين أو هما معًا، وهي مباحة، وربما استُحبت، والمداهنة ترك الدين لصلاح الدنيا»[5].

قال ابن بطال في شرح الحديث السابق: «المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس ولين الكلمة وترك الإغلاظ لهم في القول، وذلك من أقوى أسباب الألفة، وظن بعضهم أن المداراة هي المداهنة فغلط؛ لأن المداراة مندوب

---

(١) البخاري، كتاب العلم، باب: من خصَّ بالعلم قوماً دون قوم كراهية ألا يفهموا .

(٢) البخاري، كتاب الأدب، باب: ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب .

(٣) البخاري، كتاب الأدب، باب: المداراة مع الناس.

(٤) فتح الباري: ٥٢٨/١٠ .

(٥) فتح الباري: ٤٥٤/١٠ .

إليها، والمداهنة محرمة، والفرق أن المداهنة من الدهان وهو الذي يَظهر على الشيء ويستر باطنه. وفسرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه، والمداراة هي الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه، حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه» (١).

هذا هو الحكم مع غير المسلمين في التعايش معهم إذا أحسنوا وسالموا، أو الإغلاظ عليهم وتحريم مداهنتهم إذا أضرّت بالدين أو انتُهكت حرمات المسلمين، فما هو واقع المسلمين اليوم معهم يا ترى؟ وأي الأمرين إذا تواصلوا معهم يقعون فيه؟ البر والمعايشة المأذون فيها، أم المداهنة المحرمة؟.

إذا نظرنا إلى حكومات غير المسلمين نجد من بينها ما عداؤه للمسلمين سافر لا يحتاج إلى برهان أو إقامة دليل، تحالف وتكتُّل عدائي عسكري واقتصادي وسياسي في المحافل الدولية، وانحياز كامل إلى حلفائهم من غير المسلمين يجاهرون به ولا يخفونه، بل تكتّل إعلامي أيضًا، فقد شاهدنا عندما استخفت صحيفة واحدة بنبي المسلمين ﷺ كيف تحالف الإعلام الغربي معها ونشر تلك الصور، حتى لا يتركوا تلك الصحيفة وحدها في الميدان تواجه احتجاج المسلمين ومقاطعاتهم! ناهيك عما تقوم به هذه الحكومات غير المسلمة في تحالف دولي متحزب لم يسبق له نظير من تدمير وتقتيل وتعذيب مشين في أكثر من بلد من بلاد المسلمين تحت أسماء مزيفة هم أنفسهم لا يلبثون أن يكذبوها، ناهيك عما تقوم به هذه الحكومات من مساندة ظالمة لليهود فيما نراه كل يوم من سفك دماء المسلمين وتخريب ديارهم وانتهاك أموالهم وأعراضهم، وتجويعهم وتمزيقهم شر ممزق، فهل أبقى هذا النمط من الحكومات غير المسلمة حجة لمسلم يتذرع بها في التعايش معهم والتواصل؟..

لقد وصلت بهم الجرأة والاستهانة وهوان المسلمين عليهم أن طلبوا من بعض

---

(١) فتح الباري: ١٠/٥٢٨ .

بلدان المسلمين أن تسلم لهم بعض الدعاة من علمائها لتتولى هذه الحكومة غير المسلمة التنكيل به! في الوقت الذي يدافعون فيه عن حرية الرأي ضد من احتج عليهم: لا تستهزئوا بالأديان والمقدسات، فأين حرمة الأشخاص وسيادة الدول وحرياتها؟! وهل التدخل في خصوصيات المسلمين -ومن بينها مقرراتهم الدراسية وما يقرؤون من القرآن وما لا يقرؤون -لا يتعارض مع حرية الفكر والرأي عندهم!، والاعتراض على الاستهزاء بالأنبياء يتعارض معها. وما أمر الصور المشينة من التعذيب وانتهاك أعراض المسلمين والمسلمات في سجون غير المسلمين، مما يندى له جبين الإنسانية، بخافٍ عن أحد، فهل بعد هذا الانتهاك للحريات والحرمات انتهاك؟! لا شك أن الحكمَ الذي يحكم التعامل مع من صدر منه أقل من هذا هو قول الله تعالى: **﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾**(١)، فهل نحن أعلم أم الله ؟!.

تحددت إذن المعالم بكتاب الله في معاملة المسلمين للحكومات غير المسلمة التي تكتلت وتحالفت عليها، بقي القول: ما بال شعوبها؟ لم لا يكون التعايش مع الشعوب؟ الشعوب لا ناقة لها فيما يجري ولا جمل، الجواب: أن الشعوب في تلك البلاد تختار حكامها بالأغلبية، وقد قالت الأغلبية للحاكم: نعم، ولا تزال تقول له يومًا بعد يوم نعم، وهم يرون ما يفعلونه بالمسلمين، ولو تغاضينا وأعطيناهم فرصة للتواصل وأعذرناهم كما عذرنا الأقلية منهم التي عارضت حكامها، فالتواصل معهم لا يكون مفيدًا، يحرك الغافلين منهم إن زعمنا أنهم غافلون، إلا إذا استعمل المسلمون قبل التواصل وأثناءه ما يملكون من وسائل الضغط الاقتصادي والإعلامي والتكتل السياسي ضد مصالحهم، فحين تعاني مؤسساتهم وشركاتهم التجارية الإفلاس والكساد في السلع، وتقفل أسواقهم وتمنع بضائعهم ونمنع عنهم ما نملك منعه، ويجد الواحد منهم نفسه فقد النعيم؛ مسرّحًا من

---

(١) الممتحنة: ٩ .

العمل، متشردًا، يبحث عن اللقمة من شظف العيش، حينها فقط يشعر بقضيتنا ويفكر ويعيش مآسينا وجوع أطفالنا، ويغير حكامه وسياسات حكامه، ليجد لنفسه مخرجًا مما وقع هو فيه، إن لم يجد بعد في قلبه شفقة علينا، أما أن نمد له الورود، ونتملقه بالمصالحة، ويد حكامه ملطخة بدماء المسلمين وأعراضهم، وهو يواصل دعمهم في استطلاعات الرأي التي تكاد تكون يومية، ويقول نعم، فهي عِلاوة على أنها سياسة خاسرة، فإنها مخالفة لحكم الله لا يفعلها منصف.

فلنجعل أيدينا تمتد إلى غير المسلمين لتأليفهم والتعايش معهم لكن ليسوا أولئك الذين يتواصل علينا عداؤهم صباح مساء ويستخفُّون بمقدساتنا ولا يبالون، فلنولِّ وجهنا شطر المسالمين لنا من غير المسلمين، الذين لم ينهنا الله تعالى عن برهم والإقساط إليهم، ولتمتد إليهم أيدينا بالتواصل على نحو ما سبق، ونعرض عن المعاندين، فإن اتباع أمر الله أرشد..

لِمَ لا نبني تعاوننا الاقتصادي والسياسي والثقافي على مصالحنا الحقيقية ونجعله يدور معها أينما دارت؟ فإن لأمتنا ثقلاً إذا استعملناه كان لِمَدِّ أيدينا للتعايش مع المجتمعات غير المسلمة تقبُّل، ولمقالنا معهم أذنٌ صاغية، وبدون ذلك لا يزيد قربنا منهم إلا إذلالاً لنا وتضييعًا لحقوقنا واستخفافًا بمقدساتنا، فالذي يعرض التعايش وهو قوي يملك التأثير ويُحترم عَرضه ويُقدر قدره، والذي يعرضه متجردًا من كل تأثير يملكه هو مُستَجْدٍ، وما يغني استجداء المتكبرين ؟.

المبحث الثاني: خطاب المسلمين

الذي يُعلم من ظاهر حاله الحرص على الحق وسلامة الدين اعتنى أهل العلم به اعتناءً عظيمًا، وتكلم فيه وفي آدابه وسلوكه الأئمةُ الكبار؛ كمالك، والشافعي، وأبي حنيفة وسفيانَ، وابن المُبَارك، وعمرَ بن عبد العزيز وأضرابهم، وسيأتي ذكر بعض عباراتهم التي صارت قواعد لمن أتى بعدهم من الفقهاء، فتوسعوا فيها، وأفردوه بتآليف وبمباحث ضمن كتبهم، وممن أفرد هذه الآداب بمباحث موسعة ضمن كتبهم جماعة من الحفاظ وأعلام الفقه، منهم الحافظ الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) في (الفقيه والمتفقه)، والحافظ ابن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ) في (جامع بيان العلم وفضله)، والآجُرِّي (محمد بن الحسين البغدادي ت ٣٦٠ هـ) في (أخلاق العلماء)، والعلموي في (المعيد في أدب المفيد والمستفيد)، وغيرهم ممن كتبوا في آداب الفتوى؛ كالشيخ ابنِ الصلاح (ت ٦٤٣ هـ) في (أدب المفتي والمستفتي)، والشيخ أبي زكرياء النووي (ت ٦٧٦ هـ) في (المجموع)، والشيخ أحمد بن حمدان الحراني الحنبلي (ت ٦٩٥ هـ) في (صفة الفتوى والمفتي والمستفتي)، والحافظ السيوطي (ت ٩١١ هـ) في (أدب الفتيا)، والشيخ إبراهيم اللقاني المالكي (ت ١٠٤١هـ) في (منار أصول الفتوى).

وكان الخلفاء والحكام يتعاهدون من يتولى مخاطبة الناس باسم الدين، ويتصَفَّحون أحوالهم، بل كان الأمراء يلجؤون أحيانًا إلى توحيد الخطاب ولا يقبلون تعدده على خلاف الأصل في أوقات معينة عندما يرون أن كلمة المسلمين لا تجتمع إلا به، وذلك حين يخشى التفرق بتعدده ممن لا يحسنه عند وجود من يحسنه. يقول الحافظ البغدادي: كان يُنادَى في موسم الحج: لا يُفتِي الناس إلا عطاءُ بن أبي رباح، فإن لم يكن فعبد الله بن أبي نَجيح [١].

---

(١) الفقيه والمتفقه: ٢/١٥٤ .

وعطاء هذا تابعي من الطبقة الوسطى، مات في أول المائة الثانية، وأعلام الفتوى والاجتهاد يجتمع منهم في الموسم الجمع الغفير، ولكن خُصَّ عطاء دونهم لمزيد اعتنائه وشهرته بعلم المناسك، ولئلا يضطرب الخطاب الديني ويختلف الناس.

أما اليوم فإن بثَّ الخطاب عبر وسائل العصر المختلفة -من النشرات الصوتية والمقروءة، وعبر الشبكات الإلكترونية والقنوات الفضائية على مدار الساعة- واختصارَ المسافات، صيَّر العالم من أقصاه إلى أقصاه كالقرية الصغيرة، وهذا الخطاب الذي يُبثّ لا يخضع لضوابط أو رقابة علمية واحدة، وبذلك تعددت مشاربه، واختلفت مناهجه، ومنه المتشدد والمتساهل والمُفَرِّط والمُفْرِط والقوي والضعيف، فجمع الغث والسمين، والقول وخلافه، يأذن هذا، ويمنع الآخر، وأكثره اجتهادات فردية، والمرجعية مفقودة، فيضطرب القول على سامعه ويتناقض، ويحصل الاختلاف والتباين، وينمو الخلاف إلى نزاع وتعصّب، ثم تجريح وتبغيض وفرقة.

الإصلاح وتلافي الخلل:

إصلاح الخطاب مع المسلمين -متشددين أو متهاونين-وما نتج عن التشدد فيه من الآثار السلبية على ضعف الأمة وتفرقها، ووقوعها تحت الضربات الموجعة من أعدائها، ورمي الإسلام بالتعصب والإرهاب، يمكن الوصول إليه بمراعاة أمور متعددة، من أهمها في تقديري ما يلي:

١- سلامة الاجتهاد؛ عندما يكون الخطاب من القضايا المتوقف معرفة حكمها على اجتهاد.

٢- تحرير محل النزاع مع المخالف؛ حتى لا يتشعب الخلاف فيما لا خلاف فيه.

٣- سلامة المنهج في خطاب الآخرين.

٤- التقيد بالشروط والآداب الشرعية للخطاب الديني.

أما سلامة الاجتهاد فضمانها بالاعتناء بالاجتهاد الجماعي ودعم مؤسساته، واعتماد أقواله في العلم، وتوجيه الناس إليها.

وأما تحرير محل النزاع، فيكون بالاعتناء بالمضمون المتنازع فيه وتقريب شُقَّة الخلاف، بحيث يسقط منها الخلاف اللفظي الذي ضخَّمه التعصب للآراء بمبارزات كلامية، تختفي عند قياس الخلاف بالنتائج، فلا يبقى للخلاف أثر.

وأما سلامة المنهج في خطاب الآخرين، فباتباع مسلك أئمة السلف المتقدمين في التعامل مع المخالف.. وفيما يلي تفصيل ما أُجمِل:

أولا: الاجتهاد الجماعي

التضارب في الخطاب مع الآخرين في القضايا الدينية وما ترتب على ذلك من التشدد والتعصب، جوهر أسبابه فقد المرجعية، وأن الاجتهاد الجماعي لم يأخذ بعد مكانه من الأهمية والتطبيق في دوائر البحوث والفتوى في بلاد المسلمين، ووجوده لا يزال حبيس عدد من المجامع الفقهية، وهي أيضًا -على قلة إمكاناتها، وضعف دعمها المالي والمعنوي الذي لا يمكِّنها حتى من توسيع قاعدتها لِتضم كل من تحتاج إليه من المؤَهَّلين والباحثين-لا تتعامل إلا مع نوازل محدودة جدًا، لا تتصل بحل المشكلات اليومية لعامة الناس، وإنما تعالج قضايا خاصة، تُرَفع إليها بتوصيات من النخبة والخاصة، وبذلك بقيت النوازل اليومية التي لها التأثير المباشر في حياة المسلمين للاجتهادات الفردية، ونشأ عنها ما نراه من التضارب والتشدد في الخطاب؛ الأمر الذي كان منه أثر عظيم الضرر على حياتنا العلمية، وتفككنا الاجتماعي، فقد فرق تعدد مشارب الخطاب الديني مع الآخرين شباب الأمة، وأفسد ذات البَيْن، وأعطى أعداء الإسلام ذريعة تأليب الأمم عليه والكيدِ لأهله.

وتوسيع قاعدة الاجتهاد الجماعي -إذا أردنا أن نعطيه دوره المؤمل- يكون بوضع منهج شامل قابل للتطبيق، يوضح أسسه، ويضمن نجاحه، ومن أول أسسه وركائزه ما يلي:

١- صدق النية من الحكومات والمؤسسات في دعمه المادي والمعنوي، وإعطاء آرائه ومشوراته الصلاحيات الإدارية والمالية، التي تعطى في الوقت الحاضر للإدارات القانونية، ومستشاري القانون الوضعي، بحيث لا تخلو إدارة في الدولة، ولا مؤسسة من مستشار شرعي.

٢- يتكون في كل بلد عددٌ من المجالس العلمية تشرف على توجيه الخطاب الديني في القضايا المهمة، يقوم اختيار أعضائه على أساس متين من الأمانة والدين والكفاية العلمية، بحيث يسير أعضاؤه على منهج واحد في القضايا المطروحة، بما يوافق ويلائم أعراف ذلك البلد، ولا يتعارض مع الدليل والثوابت الشرعية، ويرأس هذه المجالس مجلس علمي أعلى، يُرفع إليه ما لم يمكن للمجالس الأولى ولا للمستشارين الشرعيين في الأقاليم البت فيه من قضايا.

٣- يتكون مجلس علمي أعلى على مستوى العالم الإسلامي بدعم قوي من جميع البلاد الإسلامية، أعضاؤه متفرغون للبحث والنظر في القضايا الكبرى المصيرية للأمة، والقضايا المرفوعة إليه من المجالس العلمية العليا في البلاد المختلفة، وبذلك يجد المهتمون بالخطاب المتعدد المشارب مرجعية يطمئنون إليها تختفي معها كثير من صور التشدد والخلاف.

ثانيًا: تحرير محل النزاع

كثير من النزاع بين الجماعات الإسلامية الذي نشاهده اليوم، نجده -عند التحقيق وقياس الخلاف بالنتائج والمضمون لا بالملاسنة والتطاول- لا يخرج عن أن يكون جدلاً لفظيًا يُضخم ويتولد، وينمو ويتشقق، ويتفرع ويترعرع، في خُطَب ومطبوعات وأشرطة تسجيلات، حيث في الواقع لا نزاع ولا اختلاف إذا ما نظرنا في الحقيقة والمضمون، وكل هذه المعارك الخطابية إنما هي اختلاف في مصطلحات، وقديمًا قال أسلافنا: «لا مشاحة في الاصطلاح»، ليجنبونا مثل هذه المساجلات العقيمة من كل خير، المتناسلة المتكاثرة بالفُرْقة والشر.

ولنضرب على ذلك مثالاً بمسألة تقسيم التوحيد إلى توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، التي تُصوَّر وكأنها أمر جديد في التوحيد لم يعرفه السابقون، ومن لا يقول به ولا يعنونه بهذا العنوان لم يعرف التوحيد [١].

فقد شاع استعمال هذا المصطلح في الآونة الأخيرة على قلة استعماله عند الأقدمين، وأثار استعماله جدلاً بين المعاصرين، وأضاف مادة لأسباب الخلاف القائم بينهم، شأنه شأن كثير من مسائل الخلاف في تراثنا الفكري التي غذاها التعصب والجدل الفكري، ولم يحرر فيها محل النزاع.

فالخلاف في هذه القضية خلاف ناتج عن عدم إنعام النظر في مدلول هذا اللفظ ومعناه، والوقوف عند التقسيم ومبناه.

فتوحيد الألوهية لا يختلف مَنْ ذكره من القدامى والمحدثين في أن معناه هو تخصيص الله تعالى بالعبادة، واستحقاقه إياها دون سواه، وهذا المعنى في التوحيد مما أجمعت عليه الأمة، ونطقت به آيات القرآن، وجاء به دين الإسلام، ولا يختلف عليه من المسلمين اثنان.

وتوحيد الربوبية يراد به: الاعتقاد بأن الله تعالى وحده خالق كل شيء، ومليكه ومدبّره، لا رب سواه، لا يُرجى إلا نفعه، ولا يُخشى إلا ضرُّه، فهو الخالق الرزاق، الضار النافع المغيث، الذي بيده الأمر كلُّه، ما من حركة ولا سكون في الأرض ولا في السماء إلا بإذنه، وثبوت هذا التوحيد لله تعالى أيضًا لا يختلف عليه أهل الإسلام، من صرح منهم بهذا التقسيم ومن لم يصرح، فعلام النزاع إذن ؟!!

ثالثاً: سلامة المنهج في خطاب الآخرين

ويكون ذلك باتباع قواعد الأئمة السابقين في أدب الاختلاف، وهي كثيرة، أذكر منها ما وقع بسبب الإخلال به أثرٌ مباشر على الخطاب في واقعنا المعاصر:

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية: ص ٧٦ -٨٧ .

١- الاعتراف باختلاف العلماء:

اختلاف العلماء في المسائل الاجتهادية التي يحتملها النص، أو التي لا نص فيها، أمرٌ ثابت، وليس في مقدور أحد فرض قول واحد على أهل الكرة الأرضية في مسألة اجتهادية، فإن ذلك من العنت والحرج، ومخالفة ما كان عليه الناس على عهد رسول الله ﷺ والأئمةُ من بعدهم.

والتطبيق القولي والعملي عن الصحابة والتابعين ومَن بعدهم يدل على صحة ذلك وسلامته، وأنه محل اتفاق بينهم.. قال ابن عبد البر: «اجتمع عمر بن عبد العزيز، والقاسم بن محمد، فجعلا يتذاكران الحديث. قال: فجعل عمر يجيء بالشيء مخالفًا فيه القاسم، وجعل ذلك يشق على القاسم، حتى تبين فيه، فقال له عمر: لا تفعل، فما يسرني أنّ لي باختلافهم حُمْرَ النعم. وقال عبد الرحمن بن القاسم بن محمد: لقد أعجبني قول عمر بن عبد العزيز: ما أحب أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا؛ لأنه لو كانوا قولاً واحدًا كان الناس في ضيق، وإنهم أئمة يُقتدى بهم، فلو أخذ رجل بقول أحدهم كان في سَعة» (١). والأصل في هذا اختلاف الصحابة في فهم حديث النبي ﷺ: «لا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إلا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ»(٢). وإقرارِ النبي ﷺ لعمل الطائفتين.

والاختلاف داخل جماعات المسلمين، التي تعددت اليوم وانقسمت لعدم سلامة المنهج، يجب تقبُّله من حيث المبدأ، والتعامل معه بأدب الاختلاف وإن أخطأ، فهو اختلاف اجتهاد وفتوى، وليس اختلافَ بغي؛ إذ كل فريق من هذه الجماعات طالبٌ للحق، ينزع من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وسيرة أصحابه، وسلف الأمة، وله في فهم الأدلة طريق واستنباط، ومَن رأينا منه الحرص على الاقتداء والاهتداء بهدي النبي ﷺ بصدق ظاهر، فلا نطالب بالتفتيش على سريرته، ونتهمه فيها، فذلك عمل أهل البدع، قال ﷺ: «إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ وَلا أَشُقَّ بُطُونَهُمْ» (٣).

---

(١) جامع بيان العلم: ٢/٨٠ .

(٢) البخاري، كتاب المغازي، باب: مرجع النبي ﷺ من الأحزاب، ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم .

(٣) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب: ذكر الخوارج وصفاتهم .

ومن أخطاء عدم الاعتراف باختلاف العلماء أن الصدور لم تتسع للخلاف في مسائل من مواضع الاجتهاد، اختلف فيها من قبلنا من أهل العلم بأدلة وحجج، فليس في الاجتهاد تحجير، ولا يُحتج باجتهاد على اجتهاد، وليس للعالم أن يُكره الناس على اتباع قوله وفتواه، ولا أن يُشنّع على من خالفها، إلا إذا كانت فتوى المخالف شاذة لا يحتملها الدليل، أما إذا كانت الفتوى يحتملها الدليل، فليس لمن رأى خلافها من أهل العلم أن ينكر على أهلها، ولا أن يُلزمهم بترك ما عندهم إلى ما عنده.

وفي هذا يقول أبو حنيفة رحمه الله تعالى: «هذا الذي نحن فيه رأي لا نُجبر أحدًا عليه، ولا نقول يجب على أحد قبوله بكراهية، فمن كان عنده شيء أحسن منه فليأت به»[١].. ويقول سفيان الثوري رحمه الله تعالى: «ما اختلف فيه الفقهاء فلا أنهى أحدا من إخواني أن يأخذ به»[٢].

وأراد الخليفة المنصور من الإمام مالك أن يضع له كتابًا يحمل الناس في كل البلاد عليه، فقال له: «ما لَك إلى ذلك سبيل، إن أصحاب النبي ﷺ افترقوا بعده في الأمصار فحدّثوا، فعند كل أهل مصر علِم».

ويقول ابن تيمية: «ليس لأحد أن يُلزم غيره باتباع قوله فيه، وليس له ولا لغيره أن يُشنّع على المخالف، ولكن يتكلم فيه بالحجج العلمية»[٣]، ويقول أيضًا: «... ثم إنه إذا فرض أن الدليل الشرعي يوجب الرجحان لم يُعبْ على من فعل الجائز، ولا يُنفّر عنه لأجل ذلك»[٤].

ولا أعلم في كلام التربويين وأرباب المناهج المعاصرة كلامًا أبلغ في التوجيه والإنصاف والتجرد والتسامح في العلم من كلمة الشافعي -رحمه الله تعالى-

---

(١) الانتقاء: ص ١٤٠ .

(٢) الفقيه والمتفقه: ٦٩/٢ .

(٣) انظر مجموع الفتاوى: ٧٩/٣٠ وما بعدها.

(٤) المصدر السابق: ٢٤٢/٤ .

حين قال: «وددت أن الناس تعلموا هذا العلم، ولا يُنسب إليّ شيء منه، وأوجر عليه ولا يحمدوني»[١]، وقوله: «ما ناظرت أحدًا إلا دعوت الله أن يُظهر الحق على يديه».

والدعوة إلى القول الواحد وما عداه لا يقبل، مهما ادعى قائلها من التمسك بالكتاب والسنة، هي دعوة إلى العودة إلى فرض التقليد، وقفل باب الاجتهاد، ويذلك يعود الأمر إلى القول الذي تتفق الأطراف كلها على عدم صوابه.

٢- طالب الحق مأجور أخطأ أو أصاب ولا يعنَّف:

طالب الحق المجتهدُ في الوصول إليه مأجور على اجتهاده أخطأ أو أصاب، وما كان السلف يبدّعون من أخطأ، ولا يفسّقونه ولا يكفّرونه، بل يكتفون بتخطئته ولا يزيدون، والدليل على ذلك قول النبي ﷺ: «إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»[٢]. ويدل له أيضًا ما جاء في الصحيح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ فَدَعَاهُمْ إِلَى الإِسْلامِ فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا أَسْلَمْنَا، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: صَبَأْنَا.. صَبَأْنَا، فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُ مِنْهُمْ وَيَأْسِرُ... حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرْنَاهُ، فَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ» مَرَّتَيْنِ[٣]. فإن خالدًا اجتهد وفهم من قولهم: صبأنا، الإعراضَ عن الإسلام، وهم أرادوا أسلمنا، ولم يعاقبه النبي ﷺ وعذره وتحمّل دية من قُتل. وإذا كان الجاهل قد عُذر بجهله في العقيدة، فمن باب أولى المجتهد المتأوّل في الفروع.

والصحابة ومَن بعدهم من أهل القرون الخيّرة كانوا يختلفون في مسائل العلم،

(١) الشافعي حياته وعصره: ص ٢٤ .

(٢) البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، حديث رقم: ٧٣٥٢ .

(٣) البخاري، كتاب الأحكام، باب: إذا قضى الحاكم بجور أو خلاف أهل العلم فهو رد، حديث رقم: ٤٣٣٩ .

وما كانوا على قول واحد في كل مسألة، وما كانوا يعنفون من خالفهم لو أخطأ ولا يجرحونه لمجرد المخالفة، بل كانوا يكتفون ببيان خطئه، ويعذرونه ويترحّمون عليه، امتثالاً لما علمهم القرآن: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾(١)، ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

ولقد بلغ من حال السلف في إعذار بعضهم أن الواحد منهم كان يتعلّم من العلم ما لا يحتاج إلى العمل به، بل ليجد به لمخالفه العذر، يقول ابن المبارك: «إني لأسمع الحديث فأكتبه وما من رأيي أن أعمل به، ولا أن أحدّث به، ولكن أتّخذه عدة لبعض أصحابي، إن عمل به أقول: عمل بالحديث» (٣).

٣- التنزه عن تصنيف الناس بالانتماء إلى المذاهب:

شاع في الآونة الأخيرة على ألسنة بعض طلبة العلم وأخذوه من شيوخهم -عن طريق التسجيلات الصوتية المسموعة والنشرات المكتوبة- تكفيرُ أو تبديعُ كثير من الجماعات والطوائف المخالفة لمنهجهم، القديمة والمعاصرة على حد سواء. وهذا علاوة على خطئه وبطلانه ومخالفته للسُّنَّة، ولما كان عليه الأئمة عند التنازع والاختلاف، فإن شيوعه أفسد ذات البين، وأشاع الفتنة والفرقة بين المسلمين، وسبّب نُفرة من قائله، ترتب عليها ردّ ما معه من الحق، فصار مخالفوه أيضًا لا يقبلون منه صَرْفًا ولا عدلاً، ولا علمًا ولا قولاً، فأورث ذلك كراهية للحق ذاته، بسبب الأحكام الخاطئة، وخلل المنهج.

كما شاع أيضًا بين بعض هذه الجماعات امتحان الناس وتصنيفهم بالانتماء إلى الشيوخ، بدل المنزلة في العلم والتقوى والعمل الصالح، فمن انتمى إلى فلان

(١) الفتح: ٢٩ .
(٢) الحشر: ١٠ .
(٣) الكفاية: ص ٤٠٢ .

ومذهبه فهو على الحق ويُسمع قوله، ومن كان على مذهب آخر فهو مبتدع ولا يؤخذ عنه علم ولا يُقبل له خطاب.

وليس في الكتاب والسنة تصنيف الناس بالانتماء، وإنما تصنيف القرآن للعباد: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1]، واتفقت الأمة على أن كلَّ أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، والكمال عزيز كما يقول العلماء، والخطأ لا يسلم منه أحد عدا المعصوم، فلم يبق إلا التعصب[2].

٤ - لا يُترك علم الرجل لخطئه:

كان ابن عباس يقول: لا ربا إلا في النسيئة، ولا ربا فيما كان يدًا بيد[3]. وكان يليّن في متعة النساء[4]، وما بدّعه أحد من الصحابة ولا مَن بعدهم، ولا أشاعوا في البلاد أنه ضال، ولا حرّضوا طلاب العلم على ألا يأخذوا منه العلم ولا يسمعوا له في غير تلك النازلة، بل نزلوه منزلته، واعتذروا له عن قوله هذا، بأنه لم يبلغه النهي.

وكان من المتكلمين في الرجال متشددون، كيحيي بن سعيد القطان، وأبي الحسن القطان، وأبي حاتم الرازي، حتى إنهم ضعّفوا بعض الثِّقات، بل منهم من تحامل لعداوة أو غيرها فتكلم في أئمة أعلام، كما تكلم ابن أبي ذئب في مالك، وكما تكلم النسائي في أحمد بن صالح المصري الحافظ. وقد ردّ أهل العلم أقوالهم فيما تعنّتوا فيه وتحاملوا به لعداوة أو منافسة مما لا يسلم منه البشر، وبيّنوا أنه لا يُلتفت إليها، ولا يعوّل عليها، وبقيت أقوالهم فيما عدا ذلك مرجعًا وحجة، فلم يشوهوا صورتهم في أعين الناس لخطئهم، ولم يحذروا منهم؛ لأنه لا معصوم إلا من عصمه الله.

---

(١) الحجرات: ١٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء: ٩٩/١٠ .

(٣) مسلم، حديث رقم: ١٥٩٦ .

(٤) شرح النووي على مسلم: ١٩٩/٩ .

ودواوين السنة اشتهرت فيها الرواية عن كثير من المبتدعة، فأخذوا عنهم ما علموا صدقهم فيه، وردّوا عليهم ما ابتدعوه [١].

يقول ابن القيم: «وَمَنْ لَهُ عِلْمٌ بِالشَّرْعِ وَالْوَاقِعِ يَعْلَمُ قَطْعًا أَنَّ الرَّجُلَ الْجَلِيلَ الَّذِي لَهُ فِي الْإِسْلَامِ قَدَمٌ صَالِحٌ وَآثَارٌ حَسَنَةٌ، وَهُوَ مِنْ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ بِمَكَانٍ، قَدْ تَكُونُ مِنْهُ الْهَفْوَةُ وَالزَّلَّةُ، هُوَ فِيهَا مَعْذُورٌ، بَلْ وَمَأْجُورٌ لِاجْتِهَادِهِ ;فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُتَّبَعَ فِيهَا، وَلَا يَجُوزُ أَنْ تُهْدَرَ مَكَانَتُهُ وَإِمَامَتُهُ وَمَنْزِلَتُهُ مِنْ قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ »[٢].

ويقول الذهبي: «ولو أن كلَّ من أخطأ في اجتهاده مع صحة إيمانه وتوخِّيه لاتباع الحق أهدرناه وبدّعناه، لقَلَّ من يسلم من الأئمة معنا»[٣].

ولو عوقب المخطئ من العلماء بترك قوله لعوقب أهل العلم جميعًا، بل لعوقب جميع المسلمين، فإنه ما منهم من أحد إلا وله أقوال اجتهد فيها، أو قلد فيها، وهو مخطئ فيها، فلو عاقب الله المخطئ لعاقب جميع الخلق[٤].

الاختلاف في واقعنا المعاصر:

جانب كبير من الاختلاف في الخطاب في واقعنا المعاصر يجري على غير الصواب، ليس بين عامة المسلمين أفرادًا وجماعات فحسب، بل بين العلماء والمصلحين أيضًا، على حين أن الذي تقتضيه مسؤولية العاملين لله، العاملين بشرعه، أن يجري الخلاف

بينهم -إن جرى- على سنن المهتدين، ومنهج المجتهدين؛ منهج الاستدلال المضبوط بقواعده العلمية.

والاختلاف بين كثير من أهل العلم في أيامنا أخطأ سبيله القويم الذي كان

---

(١) انظر: آداب الشافعي ومناقبه: ص ١٨٥ .

(٢) إعلام الموقعين: ٣/ ٢٢٠ .

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٤/ ٣٧٦ .

(٤) انظر: مجموع الفتاوى: ٣٥/ ٣٧٨ .

عليه أئمة المؤمنين، ولم يسلم في غالبه من المحاذير؛ محاذير الانتصار للنفس، والتعصب للرأي والشيخ والجماعة والطائفة، ومغالبة الخصم، وأنفة الرجوع إلى الحق، وقسموا العلماء على نحو ما قسمت غلاة الطرق شيوخهم ورؤساءهم، وتحزبوا تحزب الطوائف الجاهلة، وحلت أخوة الانتماء إلى الشيخ والجماعة محل أخوة الإيمان التي لا يعرف القرآن أخوة غيرها .. ودخل بينهم التصنيف الذي هو داعي الفرقة؛ هذا عالم رباني، وهذا غير رباني، وهذا مبتدع، وهذا إخواني، وهذا معطّل، وهذا مرجئ، كل ذلك باسم هجران صاحب البدعة، أو باسم الولاء والبراء، الذي أصابه من التشدّد وعدم سلامة التطبيق ما أصاب غيره، وانعكست آثار ذلك كله على الخطاب الديني سلبًا، ورميه بالغلو والتطرف.

المأمول من أهل العلم عند الاختلاف أن تتجه الهمة إلى إحقاق الحق، وجمع الكلمة، والتعاون على ما فيه مصلحة الأمة، وما ينفع الناس في أمور الدنيا والعاقبة، والتماس العذر للمخالف في الأمور الاجتهادية بعد بيان خطئه بالحسنى والنصح إن كان مخطئًا، كما كان الحال عند سلفنا الصالح..

والإخلاص والعمل لله ابتداءً ودوامًا من المتصدين للخطاب الديني ضروري لسلامة النتائج، وتحقيق الأهداف، فمن أراد الإخلاص سهُل عليه ترك ما لنفسه من أجل إصلاح غيره، ولا يلقّاها إلا الصابرون، ومن انقطع دونه حميّة وأنفة؛ حتى لا يقال غُلب وأُفحم، دون مبالاة بالنتائج والأهداف، ذهب عمله أدراج الرياح.

رابعًا: التقيد بالشروط والآداب الشرعية للخطاب الديني

من أهم شروط الخطاب الديني وآدابه الشرعية التي بفقدها يتحرك الخصام، وبمراعاتها يحصل قبول الخطاب من الآخرين، ما يلي:

١- تأهل المتكلم للخطاب:

كم جرَّ الإخلال بهذا الشرط في الخطاب زَلَّات لأهل العلم وهفوات، حيث

تسمع من وقت لآخر بخطاب تضج به أركان الدنيا، ويصُك مسامع سكان الأرض في ساعات، وينكره أهل العلم ويغضب له أهل الدين، ولكن أنى لنا بمن ينتهي إذا نُهِي؟.

٢- الاعتناء بالدليل:

يُعاني الخطاب على أيدي بعض المنتسبين إلى العلم الذين لا يُمحِّصون القول ولا يلتفتون إلى الدليل، وينابذونه منابذة كلية، وينكرون على من ينبههم إليه، أو يطالبهم به، ولا يرجعون فيما يقولون حتى إلى ما دُوِّن في المصادر الأولى المعتمدة من أمهات الكتب، التي تذكر صحيح العلم ولا تجرد الفقه من الأثر، بل يقنعون أحيانًا بما تنفرد به بعض الحواشي المتأخرة في مسائل غريبة حذر منها المحققون من المتقدمين، زاهدين في الدليل، معرضين عنه، بل لا يبالون أن يطلقوا على العمل المخالف لما ألفوه وتقلدوه بأنه بدعة، ولو كان ثابتًا عند المخالف بسنة صحيحة.

وقد انتقد ابن عبد البر الفقهاءَ الذين يلتزمون المسائل المجردة عن الدليل ويرون أنها منتهى غايتهم، ولا يستدلون عليها بالآثار، فقال عنهم إنهم: «طرحوا علم السنن والآثار، وزهدوا فيها، وأضربوا عنها، فلم يعرفوا الإجماع من الاختلاف، ولا فرقوا بين التنازع والائتلاف، بل عَوَّلوا على حفظ ما دُوّن لهم من الرأي والاستحسان الذي كان عند العلماء آخرَ العلم والبيان، وكان الأئمة يبكون على ما سلف وسبق لهم فيه، ويودون أن حظهم السلامةُ منه»(١).

وقد أوجد الإعراض عن الدليل بالكلية في الخطاب في الوقت الحاضر طبقة جامدة من المنتمين إلى العلم، تُعطِي تسليمًا وقبولاً، بل تفضيلاً لكل ما وُجد في بعض الحواشي المتأخرة، من أقوال غريبة، وتُفتي به مهما كانت مخالفته واضحة للكتاب والسنة ولأصول المذاهب المعتمدة، وما دُوِّن في مصادره الأولى، ولا يشك

---

(١) جامع بيان العلم: ٢/١٧٠ .

عاقل في أن الغريب الذي تفردت به هذه الكتب دخيل على الفقه، تسرَّب إليه من الكتب التي تعتمد في الأحكام الشرعية الخواطر والكرامات، حتى إنك لو قلت لأحدهم هذا الحكم ذكره فلان في شرح كذا، أو حاشية كذا لوقف عنده، والتزم به، وجعله حجة، أما لو قلت له: هذا مخالف لقول الله تعالى، أو قول رسول الله ﷺ، أو لقول إمام المذهب نفسه الذي يتقلده، كأبي حنيفة أو مالك أو الشافعي، فإنه يتحير، ويتعلق بما وجده غريبًا في ذلك المصدر المتأخر مما لا أصل له عند الأئمة المتقدمين، ولا في دواوينهم، ويتأول لما وجده في هذه الكتب المتأخرة مخالفًا لصحيح العلم بتأويلات متكلَّفة لا يقبلها عقل ولا نقل، فأعطى بذلك لكل من دبَّ وهبَّ ومن لم يتأهل من الفريق المقابل في النزاع ذريعة للحطِّ من فقه الأئمة والانتساب إليهم والاستخفاف بهم بحجة العمل بالكتاب والسنة والتحاكم إلى الدليل، فالتفريط من الفريق الأول في الدليل واعتمادهم من المصادر في العلم ما لم يعتمد، قوبل من الفريق الثاني بالإفراط والتسفيه للتراث الفقهي الذي هو مفخرة للمسلمين.

وقد حذر القرافي وغيرُه من المحققين من الاعتماد في الفتوى على ما انفردت به الكتب المتأخرة، فقال: «تحرم الفتوى من الكتب الغريبة التي لم تُشتهر، حتى تتضافر عليها الخواطر ويُعلَم صحة ما فيها، وكذلك الكتب الحديثةُ التصنيف -ويقصد حديثة بالنسبة إلى عصره- إذا لم يشتهر عزوُ ما فيها من النقول إلى الكتب المشهورة، أو يُعلم أن مصنّفها كان يعتمد هذا النوع من الصحة، وهو موثوق بعدالته»[١]، ويقول: «إن حواشيَ الكتب تحرم الفتوى بها، لعدم صحتها والوثوق بها»، ومراده إذا كانت الحواشي غريبة النقل، كما قيّد ذلك ابن فرحون في التبصرة بعد أن نقل كلام القرافي[٢].

وقال أيضًا في شرح المحصول: «ينبغي أن يُحذّر مما وقع في زماننا من

(١) الإحكام في تمييز الفتاوى من الأحكام: ص ٢٦٢ .

(٢) انظر: تبصرة الحكام: ص ٦٩ .

تساهل بعض الفقهاء بالفتوى من الكتب الغريبة التي ليس فيها رواية المفتي عن المجتهد بالسند الصحيح، ولا قام مقام ذلك شهرةٌ عظيمة تمنع من التصحيف والتحريف بسبب الشهرة، وبالغ بعضهم في التساهل حتى صار إذا وجد حاشية في كتاب أفتى بها، وهذا عدم دين وبعدٌ شديد عن القواعد» (١)..

وقال: «كان الأصل يقتضي ألا تجوز الفتوى إلا بما يرويه العدل عن العدل عن المجتهد الذي يقلده المفتي حتى يصح ذلك عند المفتي، كما تصح الأحاديث عند المجتهد، لأنه نقل لدين الله في الوصفين، وغير هذا كان ينبغي أن يحرم، غير أن الناس توسعوا في هذا العصر، فصاروا يفتون من كتب يطالعونها من غير رواية، وهو خطر عظيم في الدين، وخروج عن القواعد» (٢).

وقال النووي: لا يجوز لمن كانت فتواه نقلاً لمذهب إمام -إذا اعتمد الكتب- أن يعتمد إلا على كتاب موثوق بصحته، وبأنه مذهب ذلك الإمام، فإن وثق بأن أصل التصنيف بهذه الصفة لكن لم تكن هذه النسخة معتمدة فليستظهر بنسخ منها متقنة، فإن لم يجد إلا في نسخة غير موثوق بها، قال ابن الصلاح: ينظر، فإن وجده موافقًا لأصول المذهب -وهو أهل لتخريج مثله في المذهب- فله أن يفتي به، وإن لم يكن أهلاً لتخريج مثله فلا يجوز له ذلك(٣).

٣ - الاعتناء بفقه الدليل ومراعاة مقاصد النصوص:

لا يكفي في خطاب الآخرين التجمل بالدليل ورفع شعاره حتى تنضم إليه الرغبة في فقه الدليل، والتوجه إلى الاعتناء بمقاصد النصوص، وإعمالها مجتمعة، دون الوقوف عند حرفية بعضها بما يتضارب مع نصوصها الأخرى ..

يقول ابن عبد البر: «أما طلب الحديث على ما يطلبه كثير من أهل عصرنا

---

(١) نفائس الأصول في شرح المحصول: ٩/٤١١١، وانظر الجواهر الثمينة: ص ٢٨٦ .
(٢) الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام: ص ٢٦١ .
(٣) المجموع شرح المهذب: ١/٨٠ .

اليوم دون تفقّه فيه، ولا تدبّر لمعانيه، فمكروه عند جماعة أهل العلم»(١)، ويقول: «الذي عليه جماعة فقهاء المسلمين وعلمائهم ذم الإكثار، دون تفقه ولا تدبر، والمكثر لا يأمن موافقة الكذب على رسول الله ﷺ» (٢).

وقد كان لاتجاه الصحوة الإسلامية التي اعتنت بالدليل، ورفعت راية العمل بالكتاب والسنة جهدٌ عظيمُ القدر، كان له أثره النافع في الاهتمام بتراثنا الإسلامي، وتنقيته من الدخيل والموضوع، وهو جهد مبارك مشكور مأجور بفضل الله تعالى كل من أسهم فيه، وسعى إليه مخلصًا لمولاه، يُفرح قلب كل مؤمن؛ لأنه نصر لدين الله وكتابه وسنة نبيه ﷺ، ولكنه ترك سلبيات بارزة سيئة الأثر في خطاب الآخرين، نشأت عند جماعات ممن انتسبوا إلى هذ المهيع القويم عن الخطأ في المنهج، بسبب انعدام المُربِّي، وتلقي العلم عن الشيوخ، والتأدب في الطلب بأدب العلماء، وبسبب الاكتفاء بالخلاصات والنشرات الصغيرة في مسائل العلم عن المطولات وأمهات الكتب..

وأدَّى هذا الخلل إلى التعصب وضيق العَطَن، وتسطيح المفاهيم الشرعية للنصوص؛ بالإعراض عن مقاصدها، وانقسام أتباع بعض هذه الجماعات فيما بينها انقسامًا عظيمًا، وغلوِ كل طائفة في التشبث بما عندها والتشدد فيه والتعصب إليه، ورفض خطاب الآخرين رفضًا مطلقًا لا يقبل المراجعة ولا النظر، ولا يُعذر فيه مجتهد باجتهاد، بل التشنيع والتضليل والرفض لكل مخالف في الخطاب من القدامى والمحدثين، ولم يَسْلَم من مطاعنهم حتى الأئمة المشهورون الذين شهد لهم أهل الإسلام قاطبة بالعدالة والأمانة، وصحة العلم، والإصابة في العمل، وهم العُمْدة، ومِنْ طريقهم وصلت إلينا السنن، ولا يقبل قول عند هذه الجماعات إلا ممن كان على مسلكهم في رفض المخالف في الخطاب، والطعن فيه، والإغراق في الظاهرية والحرفية التي تتضارب معها نصوص الوحي، كل

(١) جامع بيان العلم: ١٠٢/٢ .
(٢) المصدر السابق: ١٢٤/٢ .

ذلك بحجة العمل بالكتاب والسنة، وهو دون شك خلل نشأ عن عدم التقيد بشروط وآداب الخطاب.

وتَصدّى لتوجيه الخطاب من هذه الجماعات طلبة علم، حملوا الناس أحيانًا على أقوال شاذة مهجورة من أهل العلم بحجة إحياء سنن متروكة، كما حدث في بعض البلاد في أحد الأعياد التي وافقت الجمعة، حين أفتوا بالاكتفاء بصلاة العيد عن الظهر والجمعة معًا، فلم يصلوا ظهرًا ولا جمعة، وأسقطوا فرضًا مجمعًا عليه من أركان الإسلام، بشبهة ليس عليها أثارة من علم، ولا يقبلها إلا سقيم الفهم بزعم إحياء سنة، فضيعوا بذلك ركنًا من أركان الدين.

وكما حدث مؤخرًا أيضًا عندما تَصَدَّى بعض هذه الجماعات إلى الإفتاء بإلزام إفطار الناس يوم عرفة بعد أن عقدوا صومه لأنه وافق السبت، خلافًا لجمهور أهل العلم، استنادًا في فتواهم إلى حديث مختلَف في صحته، وفي متنه نكارة تُخالف عددًا من الأحاديث الثابتة المتفق على صحتها.

والخطأ في هذه الفتوى ليس من جهة الأخذ بالقول المخالف للجمهور الذي لا يرى صوم السبت مطلقًا، وإن وافق يوم عرفة - وإنما من جهة عد هذه الفتوى الصومَ في ذلك اليوم منكرًا يجب تغييره، وإلزام من عقد صومه بالفطر، وهذا دون شك خطأ نشأ عن التعصب، لا من اتباع الدليل على قواعد أهل العلم.

وتعاني المساجد في كثير من بلاد المسلمين هذه الأيام لعدم المرجعية الموحدة في الخطاب من انقسام في صفوف المصلين بسبب أقوال متضاربة، منها الغريب عن صحيح العلم، من المنابذين للدليل، ومنها المغرقة في الحرفية من المناصرين للدليل عن غير فقه، وأكثره خلاف في مسائل خلافية أو مما يدخل في نطاق المندوب أو المكروه، وحدة المسلمين مقدمة على التعلق به لمن له فقه وبصيرة، إلى أن يتعلم الفريقان من السنن ما يرجع بهما إلى الصواب، والحل عندي في هذه وفي مثلها من المسائل العالقة إنما يكون بالتحاكم إلى الاجتهاد الجماعي على النحو الذي تقدم.

٤- بيان المتكلم في العلم للمخاطب منهجه ومذهبه:

معظم الذين يبث لهم الخطاب الديني في الإعلام لا يبينون مناهجهم ولا مذاهبهم، ولا يعزون العلم ولا يُوَثِّقونه، ولا يبالون بهذا الأمر، وصار العزو إلى أهل العلم ومذاهبهم كأنه يَحُط من قدر العالم، بعد أن كان التوثيق والتأصيل والرجوع إلى مصادر العلم ومذاهب الأئمة علامةَ التثبت، الذي يعلو به قدره، ويرتفع ذكره، صار عدم العزو إلى المذهب والتثبت في نسبة الأقوال إلى أصحابها شهادةً بعلو كعب المتكلم في الدين، وأنه في نظر أنصاف المتعلمين مجتهد، يأخذ من الكتاب والسنة رأسًا، لا يحتاج إلى أقوال أهل العلم، ولا إلى ذِكْرها أو العزو إليها، وهذا خلاف ما عليه العلماء وذوو التحقيق منهم، فمن لا يرجع إلى المصادر، ولا يُوَثِّق علمه لا يُوثَق بعلمه عندهم.

٥- تجنب ذكر الضعيف وشاذ العلم من أجل الدنيا:

العمل بالراجح من أقوال أهل العلم واجب لا راجح؛ لأن الرجحان تتقوى معه غلبة الظن على أن ما دل عليه هو الحق، والعمل بما غلب على الظن أنه الحق واجب؛ لأن خلافه اتباع للهوى، قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلاَّ الضَّلَالُ﴾[١].

يقول الشوكاني عن العمل بالراجح: «... أنه متفق عليه، ولم يختلف في ذلك إلا من لا يعتدّ به، ومن نظر في أحوال الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم، وجدهم متفقين على العمل بالراجح وترك المرجوح»[٢]. ويدل على وجوب العمل بالراجح حديث معاذ في ترتيب الأدلة، ففيه النص على تقديم القرآن على السنة، والسنة على الرأي، فلا تجوز الفتوى بضعيف الأقوال.

---

(١) يونس: ٣٢ .

(٢) إرشاد الفحول: ص ٢٧٦ .

٦ - تأثير المنصب والإعلام:

مما يدخل في إطار الإخلال بشروط الخطاب وآدابه أن يَنْجَرَّ العالم، تحت تأثير الإعلام أو المنصب والوظيفة، إلى تنازلات يداهن فيها؛ إرضاء للمنصب أو الإعلام، الذي يقوده في الغالب اللادينيون؛ وذلك بإصدار أقوال غريبة في قضايا العصر، مثل المرأة، والربا، وقضايا الأموال والبنوك، وغير ذلك من موضوعات العصر، وأحيانًا تصدر هذه الآراء للجمهور عن طريق الإعلام المباشر، المرئي أو المسموع، باسم التيسير ورفع الحرج دون روي وتَأَنٍّ.

ولو عُرضت تلك الأقوال على أصحابها بعيدًا عن تأثير الإعلام والرأي العام، أو تأثير السلطة والمنصب، لرأوا فيها رأيًا آخر؛ حيث إن الناظر حين يُقلِّبها يجد أنها لا تتجه ولا تقوم إلا على شيء واحد واضح، لا يُخفي نفسه، وهو أنها خطاب مجامَلَة لإرضاء غير الملتزمين بالإسلام، الذي هو في نظرهم متّهم بالجمود في طرحه لقضايا العصر.

٧ - عدم التوسع في المسائل الكلامية:

من محاذير الخطاب الديني التوسع في المسائل الكلامية للعامة وإقحامهم في تفصيلات من مسائل العقيدة لا قِبل لهم بها، ولا هي واجبة عليهم لتصحيح إيمانهم، كالتفصيل في متشابه صفات الرب عز وجل وكلامه؛ إذ لا فائدة لهم من الخوض فيها سوى إثارة الجدل ووقوع الشُّبَه، إذ لا شك في صحة الإيمان المجمل على ما جاء في حديث جبريل عليه السلام وهو الذي يطيقونه، وهو الذي كان رسول الله ﷺ يقبله من أصحابه حين إسلامهم، كما دَلَّت عليه أحاديث إسلام الأعرابي، وإسلام أبي ذر، وخالد بن الوليد، وحديث بَهز بن حكيم، وغيرِهم من الصحابة.

فلم يكن ﷺ يفصلّ لمن يأتيه منهم راغبًا في الإسلام مسائل الصفات، أو كلام الله تعالى، بل كان يكتفي منه بالتصديق والتسليم بما يجب الإيمان به إجمالاً، والنطقِ بالشهادتين، وتعليمه أركان الإسلام الظاهرة، ليعمل بها.

روى بَهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال: «قُلْتُ: يَا نَبِيَّ الله، مَا أَتَيْتُكَ حَتَّى حَلَفْتُ أَكْثَرَ مِنْ عَدَدِهِنَّ -لأَصَابِعِ يَدَيْهِ- أَنْ لا آتِيَكَ وَلا آتِيَ دِينَكَ، وَإِنِّي كُنْتُ امْرَأً لا أَعْقِلُ شَيْئًا إلا مَا عَلَّمَنِي الله عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولُهُ، وَإِنِّي أَسْأَلُكَ بِوَحْيِ الله، بِمَ بَعَثَكَ رَبُّكَ إِلَيْنَا ؟، قَالَ: بِالإِسْلامِ، قُلْتُ: وَمَا آيَاتُ الإِسْلامِ ؟، قَالَ: أَنْ تَقُولَ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَى الله، وَتَخَلَّيْتُ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ» (١).

يقول ابن عبد البر: «إنه مَنْ نَظَر إلى إسلام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة وسعد وعبد الرحمن وسائرِ المهاجرين والأنصار، وجميعِ الوفود الذين دخلوا في دين الله أفواجًا، علِمَ أن الله عز وجل لم يَعرِفه واحد منهم إلا بتصديق النبيين بأعلام النبوة، ودلائلِ الرسالة، لا مِن قِبَل حركة، ولا من باب الكل والبعض، ولا من باب كان ويكون، ولو كان النظر في الحركة والسكون عليهم واجبًا، وفي الجسم وفي نفيه، والتشبيه ونفيه لازمًا، ما أضاعوه، ولو أضاعوا الواجب ما نطق القرآن بتزكيتهم وتقديمهم، ولا أطنب في مدحهم وتعظيمهم، ولو كان ذلك من عملهم مشهورًا أو من أخلاقهم معروفًا لاستفاض عنهم، ولشُهروا به، كما شُهروا بالقرآن والروايات» (٢).

وفيما كتبه ﷺ إلى هِرَقل وكِسرى وغيرهما من الملوك ما يدل على ذلك ويؤكده، وأنه ﷺ لم يزد في دعاء المشركين إلى الإسلام على دعوتهم أن يؤمنوا بالله وحده، ويصدقوه فيما جاء به، فمن فعل ذلك قَبِل منه(٣).

والامتناع عن تفصيلات مسائل العقيدة في الخطاب الديني للعامة هو سبيل سلف الأمة، وأئمة المذاهب الذين هم محل القدوة، سئل الإمام مالك عن أهل البدع، قال: «أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله تعالى وصفاته، وكلامه وعلمه وقدرته، ولا يكفون عما سكت عليه الصحابة والتابعون» (٤). وقال للسائل

---

(١) سنن النسائي، كتاب الزكاة، باب: وجوب الزكاة، حديث رقم ٢٤٣٦ .

(٢) التمهيد: ٧/١٥٢ .

(٣) انظر: فتح الباري: ٧/١٢١ .

(٤) الآداب الشرعية: ١/٢١٠ .

عن الاستواء: «الإقرار به واجب والسؤال عنه بدعة»، وقال: أخرجوه. ونقل الحافظ ابن عبد البر الامتناع عن الكلام في كل ذلك عن الفقهاء والعلماء قديما وحديثا من أهل الحديث والفتوى، قال: وإنما خالف في ذلك أهل البدع(١).

يقول ابن عبد البر: «الكلام في صفات الباري يستبشعه أهل السنة، وقد سكت عنه الأئمة، فما أشكل علينا من مثل هذا الباب بشبهة أمررناه كما جاء، وآمنا به كما نصنع بمتشابه القرآن، ولم نناظر عليه؛ لأن المناظرة إنما تسوغ وتجوز فيما تحته عمل، ويصحبه قياس، والقياس غير جائز في صفات الباري تعالى»(٢)، وقال: كان مالك يقول: «أدركت أهل هذا البلد -ويعني المدينة- وهم يكرهون المناظرة والجدال إلا فيما تحته عمل، قال: يريد مالك -رحمه الله- الأحكام في الصلاة والزكاة والطهارة، ولا يجوز عنده الجدل فيما تعتقده الأفئدة، مما لا عمل تحته أكثر من الاعتقاد» (٣).

ومن كلام لابن عقيل الحنبلي: «يكفي في صحة إيمان المسلم أن يقول القرآن كلام الله، ولا يخوض فيه، وهو الذي كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون، فيسكت عمَّا سكتوا عنه، فإن الصحابة ماتوا وما خاضوا في القرآن ولا في الصفات، ومن رأى أن طريقة المتكلمين أجود من طريق أبي بكر وعمر فبئس الاعتقاد» (٤).

واستُفْتِيَ الغزالي -رحمه الله تعالى- في صفة كلام الله تبارك وتعالى، فكان من جوابه: «وأما الخوض في أن كلامه تعالى حرف وصوت، أو ليس كذلك فهو بدعة، وكل من يدعو العوام إلى الخوض في هذا فليس من أئمة الدين، وإنما هو من المُضِلِّين، ومثاله من يدعو الصبيان الذين لا يُحسنون السباحة إلى البحر»(٥)..

---

(١) المجموع شرح المهذب: ١/٩٠ .

(٢) التمهيد: ١٩/٢٣١ .

(٣) التمهيد: ١٩/٢٣٢ .

(٤) من كلام لابن عقيل، انظر الآداب الشرعية: ١/٢٠٤ .

(٥) المجموع شرح المهذب: ١/٩٠ .

ويقول أيضًا: «الصواب للخلق إلا الشاذ النادر الذي لا تسمح الأعصار إلا بواحد منهم أو اثنين سلوك مسلك السلف في الإيمان المرسل والإيمان المجمل بكل ما أنزله الله تعالى، وأخبر به رسوله ﷺ من غير بحث وتفتيش، والاشتغال بالتقوى، ففيه شغل شاغل» (١).

والحمد لله أولاً وآخرًا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) السابق، نفس الجزء والصفحة.

محتويات البحث

أبحاث

المحور الثاني:

آفاق التواصل مع الآخر

من الجوانب الفقهية
في علاقة الإسلام بالغرب

أ. د/ صلاح الصاوي

الأمين العام لمجمع فقهاء الشريعة

بأمريكا

مقدمة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه..

أيها السادة الحضور، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وحياكم الله جميعًا، وطبتم وطاب ممشاكم، وتبوأتم من الجنة منزلاً بإذن الله.

أستهل هذه الكلمة بتوجيه كلمة شكر وعرفان للسادة وأصحاب الفضيلة القائمين على تنظيم هذا المؤتمر المبارك، وأسأل الله أن يجعل من عملهم هذا نورًا يسعى بين أيديهم يوم القيامة، وأن يقر أعينهم برؤية ثماره خيرًا عميمًا يمتد نفعه إلى الأمة كلها بإذن الله، اللهم آمين.

موضوع هذه الكلمة **من الجوانب الفقهية في علاقة الإسلام بالغرب**، وترجع بي الذاكرة إلى الوراء، إلى فجر الإسلام وأيامه الأولى، عندما كتب النبي ﷺ إلى هرقل عظيم الروم يقول له: «أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإنْ أبيت فعليك إثم الأريسيين». ثم ما كان بعد ذلك من علاقات تراوحت بين الحرب والسلم؛ في مؤتة، واليرموك، وأجنادين، ثم الحروب الصليبية، والحملات الاستعمارية الحديثة، وأخيرًا هذه الهجمات الظالمة التي تتوالى على الأمة على نحو غير مسبوق في تاريخنا المعاصر، وتثير هذه العلاقة جملة من القضايا نوجز أهمها في النقاط التالية:

- الغرب جزء من أمة الدعوة، وخصوصية العلاقة مع أهل الكتاب.
- ليسوا سواءً.
- البر والقسط هو أساس العلاقة في التعامل مع المسالم من غير المسلمين.
- تعظيم عقود الأمان والوفاء بمقتضياته.
- المحافظة على الحرمات خارج ديار الإسلام.
- إعلان النكير على المعتدين.
- التظاهر وسيلة من وسائل الإنكار التي ألِفَتها المجتمعات الغربية.

- المقاطعة الاقتصادية للمعتدين.
- القتال في الإسلام إنما يكون لدفع الحرابة وكف العدوان.
- تعظيم أمر الدماء، وتغليظ العقوبة عليها.
- وحدة الأمة سلمًا وحربًا.
- حرمة المظاهرة على المسلمين.

١ - الغرب جزء من أمة الدعوة:

الغرب جزء من أمة الدعوة، فقد علم من دين الإسلام بالضرورة عموم بعثته ﷺ، فهو رحمة الله للعالمين، ورسوله إلى الناس أجمعين، الغرب والشرق في ذلك سواء، ولهذا شاع في المصطلحات الإسلامية تعابير: أمة الدعوة وأمة الإجابة، أمة الدعوة هي العالم بأسره، وأمة الإجابة هم من آمن به ﷺ واتبع النور الذي أُنزل معه، وللغرب في هذه المنظومة من الخصوصية ما ليس لغيره من بقية هذه الأمة، فجذورهم ترجع في الجملة إلى أهل الكتاب، ولأهل الكتاب من الخصوصية ما ليس لغيرهم؛ فقد أباحت الشريعة طعامهم، وأحلت نكاح نسائهم، بما لم تجزه مع فئة أخرى من غير المسلمين، وعقدت لأهل الكتاب الأمان في مجتمعاتها، وأعطتهم على ذلك ذمة الله ورسوله، وللنصارى منهم اعتبار أخص ورد ذكره في كتاب الله عز وجل عندما قال تعالى: **﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾**(١).

وقد كانت دعوته ﷺ صك تحرير للبشرية كل البشرية، ووثيقة إعلان لحقوق الإنسان جنس الإنسان، تخرجه من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق

---

(١) المائدة: ٨٢.

الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، وكانت الرسالة الأولى المنوطة بهذه الأمة هي حمل هذا النور النبوي إلى مختلف أرجاء الأرض، وفتح مغاليق القلوب لهذا الحق، فالأمر إذن ليس خصوصية عداء للغرب، ولا خصوصية موالاة للشرق، فإن كلاً من الغرب والشرق يتضمن البرّ والفاجر، وينتظم في سلكه المسلم والكافر، ولا يُعقد ولاء ولا براء في الإسلام على غرب ولا شرق، وإنما يُعقد على أساس الإيمان بالله ورسله، فقد حرر الإسلام بني البشر من التعصب للأعراق والألوان والألسنة، ومحض ولاءهم للحق الذي نزل من عند الله، وأمرهم بأن يكونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين، وهو بهذا لا يفرق بين من يقيم في دار الإسلام أو يقيم خارجها، فهذه شريعة عامة تخاطب المسلم أينما كان، فوق كل أرض وتحت كل سماء، فالمسلم لا ينصر أحدًا على باطل، مسلمًا كان أو غير مسلم، فردًا كان أو كيانًا سياسيًا، غربيًا كان أو شرقيًا، قال تعالى: **﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**(1) ؛ أي لا يوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين..

وقال تعالى: **﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾**(٢)، فأمر تعالى بمباينة من حاد عن الحق فطغى، واستحب العمى على الهدى، ولو كان من أقرب الأقربين، فالقضية إذن ليست موقفًا يقفه المسلم ضد الغرب عامة، ولا ضد دولة بعينها منه بصفة خاصة، وإنما هو منهج عام،

(١) المجادلة: ٢١ .

(٢) التوبة: ٢٤ .

الشرق والغرب فيه سواء، فلو أن أحدًا من بني قومه تعدى وجار، فإن نصرته له أن يضرب على يده، وأن يمنعه من الظلم، لا أن يشاركه فيه، أو يعينه عليه، فإن من نصر قومه على الباطل، فهو كالبعير الذي تردى، فهو ينزع بذنَبه! كما قال ﷺ وليس لنا مثَل السوء!

وقد رأينا في تاريخ الإسلام من ذلك العجب؛ لقد رأينا كيف حرر الإسلام أتباعه من وصمة التعصب الأعمى للقبيلة أو العشيرة، بل ولأواصر النسب والرحم والقربى، عندما لا تكون على الحق. ولقد كانت غزوة بدر امتحانًا لهذا المعنى في نفوس المؤمنين، فانتصر الولاء للإيمان على الولاء لكل ما سواه. ولن تنسى ذاكرة التاريخ ما وقع في فتح سمرقند، عندما استعدى أهلها عمر بن عبد العزيز على القائد الفاتح؛ لأنه دخل عليهم ديارهم قبل دعوتهم إلى الإسلام، فأمر قاضيه أن ينصفهم، فقضى ببطلان الفتح، وإخراج الجيوش الفاتحة المنتصرة خارج سمرقند، حتى تستوفي إجراءات الفتح كافة، كما جاءت في النصوص الشرعية، وانسحبت القوات فعلاً، وكان ذلك سببًا في إسلام أغلب أهل سمرقند!.

٢- ليسوا سواءً:

هذا وإن أهل الملل الأخرى في الغرب أو غيره ليسوا سواءً، فكما أن أهل البدع الموافقين لهذه الأمة في أصل الدين ولكنهم يخالفونهم في بعض الأصول الكلية القطعية ليسوا سواءً: فمنهم الرؤوس والأئمة، ومنهم العامة وأشباه العامة، وبين هؤلاء وأولئك مراتب، ولكل فريق من المعاملة والأحكام ما يستحقه، ومن الظلم البَيِّن أن نسلك الجميع في نسق واحد.

قال ابن القيم رحمه الله في الطرق الحكمية: «فأما أهل البدع الموافقون لأهل الإسلام ولكنهم مخالفون في بعض الأصول كالرافضة والقدرية والجهمية وغلاة المرجئة ونحوهم، فهؤلاء أقسام:

أحدها: الجاهل المقلد الذي لا بصيرة له، فهذا لا يكفَّر ولا يفسَّق ولا ترد شهادته إذا لم يكن قادرًا على تعلم الهدى، وحكمه حكم المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوًا غفورًا.

القسم الثاني: المتمكن من السؤال وطلب الهداية ومعرفة الحق، ولكن يترك ذلك اشتغالاً بدنياه ورياسته ولذته ومعاشه وغير ذلك، فهذا مفرط مستحق للوعيد، آثم بترك ما وجب عليه من تقوى الله بحسب استطاعته، فهذا حكمه حكم أمثاله من تاركي بعض الواجبات، فإن غلب ما فيه من البدعة والهوى على ما فيه من السنة والهدى رُدّت شهادته، وإن غلب ما فيه من السنة والهدى قُبلت شهادته.

القسم الثالث: أن يسأل ويطلب ويتبين له الهدى ويتركه تقليدًا وتعصبًا أو بغضًا أو معاداةً لأصحابه، فهذا أقل درجاته أن يكون فاسقًا، وتكفيره محل اجتهاد وتفصيل».(١)

نقول: إذا كان هذا التفصيل في أهل البدع على النحو الذي أحكمه يراع ابن القيم رحمه الله، فإن هذا المبدأ يرد في أهل الملل الأخرى، فإن أهل الملل الأخرى المخالفين لهذه الأمة في أصل الملة ليسوا سواءً: فمنهم المسالمون ومنهم المعتدون، ومنهم الجهلاء ومنهم المعاندون، ولكل فريق حكمه، وما يناسبه من ألوان التعامل، وقد جعل الله لكل شيء قدرًا، ولم تأتِ شريعة الله -عز وجل- بالتسوية بين المختلفين ولا بالتفريق بين المتماثلين، وبالعدل قامت السماوات والأرض، وقد تفاوت هديه ﷺ في معاملة أهل الملل الأخرى، من القتال إلى الموادعة المطلقة أو المؤقتة؛ حسبما يستحقه كل فريق، وحسبما تقتضيه المصلحة العامة لجماعة المسلمين، وهكذا ينبغي أن يكون مسلك من يرثونه ويقومون في الناس مقامه من بعده، بأبي هو وأمي ﷺ.

---

(١) الطرق الحكمية، ص ٢٥٤ .

وفي سورة الممتحنة تأصيل لهذا الحكم الكلي، حيث فرقت بين المسالمين والمعتدين، وجعلت ذلك قرآنًا يتلى على مدى الزمان وعلى مدى المكان.. إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وينطفئ سراج الحياة! ولهذا فإن من الخطأ البَيّن هذا التعميم الذي نلمسه من بعض المشتغلين بالعمل الإسلامي في بعض المواضع، عندما يصنف أمة بأكملها أو قارة بأكملها في موقف المحارب بإطلاق أو المسالم بإطلاق، فلم يزل في كل أمة المسالمون والمعتدون والجهلاء والمعاندون..

فالتسوية بين القادة والمقودين، والتسوية بين الرؤساء والمرؤوسين، وإطلاق القول بأن الجميع محارب، والجميع في مقام التهييج على هذه الأمة، من الإطلاقات الفاحشة التي تحتاج إلى مراجعة. وقد رأينا مظاهرات حاشدة في مجتمعات كثيرة تعلن رفضها لسياسات قادة بلادها وتأييدها لحق الشعوب المعتدى عليها في الانتصار والمقاومة، ومن هؤلاء من حوكم، وتعرض لعقوبات جائرة بسبب هذه المواقف، والذي يقتضيه العدل وتقتضيه المصلحة العامة للإسلام والمسلمين تثمين مواقف هؤلاء، والتمييز بينهم وبين المعتدين من بني جلدتهم، بل واستثمار مواقفهم في نصرة الحق الإسلامي، وإقامة الحجة على الذين ظلموا منهم!.

٣- البر والقسط هو أساس العلاقة في التعامل مع المسالم من غير المسلمين

وقد جعل الله برهان ذلك قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿**لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾(١).

والبر هو أعلى درجات حسن الخلق، ومنه برّ الإنسان لأمّه وأبيه، وقد ندبت إليه الآية الكريمة في التعامل مع المسالمين من غير المسلمين، قال تعالى: ﴿**فَإِنِ**

---

(١) الممتحنة: ٨ .

اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾(١)، ومن ذلك كفالة حقوقهم، وحفظ عهودهم، ومواساتهم في مصابهم، وتهنئتهم فيما لم يكن من خصوصيات دينهم من مناسبات اجتماعية، وإقامة العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتبادل الخبرات في مختلف مناحي الحياة، وغيره.

ومن صور البر والقسط: وقوع التعاون المثمر والعادل معهم في كل ما يمثل مصلحة مشتركة للفريقين، وقد رأينا حديث النبي ﷺ عن حلف الفضول وكان ذلك في الجاهلية، حيث اجتمع رؤساء قريش وزعماؤها وتعاهدوا فيما بينهم على: مساعدة الضعيف، وإغاثة الملهوف، ومساعدة المحتاج، ولقد حضره رسول الله ﷺ يومئذ، وقال في الإسلام بعد ذلك: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحبّ أنّ لي به حُمُر النِّعم، ولو أُدعى به في الإسلام لأجبت».

وقد تنشأ بعض الوشائج النفسية مع فريق من غير المسلمين لاعتبارات اجتماعية كقرابة أو مصاهرة أو مصلحية كتجارة وتبادل منافع ونحوها، وهي لا تزال في إطار العفو، ما لم تحمل على إبطال حق أو إحقاق باطل أو إسقاط واجب أو فعل محرم أو تُزيّن مظاهرتهم على المسلمين، وكل ما جاء في القرآن من النهي عن موادة القوم إنما ينصرف إلى المحاربين منهم. وقد أجاز الإسلام الزواج بالمحصنات من الذين أوتوا الكتاب، والمصاهرة تنشئ من الوشائج النفسية ما لا يُجحد، ولكن هذه الوشائج ليست من جنس الحب في الله الذي جعله الله تعالى وقفًا على جماعة المسلمين، فالمسلم أخو المسلم، ولو لم يلقه في حياته، ولو لم يدخل معه في معاملة قط، ومحبته لله في الله لا تزيلها الخلافات الطارئة ولا الاختناقات العابرة، فهي رابطة وثق الله عراها بيده، فلا يحل لأحد أن يفصمها كائنًا من كان، أما محبة غير المسلم فهي التي تنشئها مثل هذه الاعتبارات، توجد بوجودها وتنتهي بانتهائها.

---

(١) النساء: ٩٠ .

٤- تعظيم عقود الأمان والوفاء بمقتضياته:

ومن معالم العلاقة مع الغرب خاصة -أو مع غير المسلمين بصفة عامة- تعظيم ما يُعقد معهم من عقود الأمان والتي تمثلها المعاهدات والاتفاقات الدولية المعاصرة على مستوى الدول، أو تأشيرات الدخول والاستقدام على مستوى الأفراد.

والأمان عهد بالسلامة من الأذى، ويعرفه الفقهاء بأنه عقد بين المسلم وغير المسلم على الحصانة من لحوق الضرر من كل منهما إلى الآخر، سواء منه أو ممن وراءه إلا بحقه، ومثله الجوار، وقد عنون البخاري في صحيحه فقال: (باب أمان النساء وجوارهن)، فإذا أعطي الأمانَ أهلُ الحرب حرم قتلهم ومالهم والتعرض لهم.

والعقود التي تفيد الأمان ثلاثة: الأمان، والهدنة، والذمة.

- فإن تعلق الأمان بعدد محصور فذلك الأمان.
- وإن كان إلى غاية فتلك هدنة.
- وإن كان مؤبداً فهذه هي الذمة.

والهدنة والذمة من أعمال السيادة التي تفوض إلى السلطة العامة، بخلاف الأمان فإنه حق لهذه السلطة ولكل مسلم بالغ عاقل.

أ- دليل مشروعية الأمان:

❖ قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ**﴾(١).

❖ قوله ﷺ: «ذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين». (٢)

---

(١) التوبة: ٦ .

(٢) متفق عليه.

يقول الحافظ ابن حجر: «ذمة المسلمين واحدة»؛ أي أمانهم صحيح، فإذا أمّن الكافرَ واحدٌ منهم حرم على غيره التعرض له.

❖ حديث أم هانئ قالت: ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح، فوجدته يغتسل وفاطمة ابنته تستره، قالت: فسلمت عليه، فقال: «من هذه؟»، فقلت: أنا أم هانئ بنت أبي طالب، فقال: «مرحبا بأم هانئ»، فلما فرغ من غسله، قام فصلى ثمان ركعات ملتحفا في ثوب واحد، فلما انصرف قلت: يا رسول الله، زعم ابن أمي أنه قاتل رجلاً قد أجرته، فلان بن هبيرة، فقال رسول الله ﷺ: « قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ»(١). وقيل هما رجلان: جهدة بن هبيرة ورجل من بني مخزوم كانا فيمن قاتلا خالد بن الوليد ولم يقبلا الأمان، فأجارتهما أم هانئ وكانا من أحمائها.

ب - مَنْ يمنح الأمان؟

الأمان يصح من كل مسلم بالغ عاقل مختار، ذكرًا كان أو أنثى، حرًّا كان أو عبدًا، وفي أمان الصبي والعبد خلاف بين أهل العلم.

وقد جاء في المغني عن فضيل بن يزيد الرقاشي أن عمر بن الخطاب ط جهز جيشًا فكنت فيه فحاصرنا موضعًا، فرأينا أنَّا سنفتحها اليوم، وجعلنا نقبل ونروح، فبقي عبد منا فراطنهم وراطنوه، فكتب لهم الأمان في صحيفة، وشدها على سهم ورمى بها إليهم فأخذوها وخرجوا، فكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب فقال: العبد المسلم رجل من المسلمين ذمته ذمتهم!.

ج- بِمَ ينعقد الأمان؟

ينعقد الأمان بكل ما يدل عليه من لفظ سواء أكان صريحًا أم كان كناية، كما ينعقد بالكتابة أو الرسالة أو الإشارة المفهِمَة.

---

(١) رواه البخاري، أبواب الجزية والموادعة، باب: أمان النساء وجوارهن.

وشبهة الأمان في هذا الباب كالأمان، فكل إشارة يفهم منها العدو أنه قد أمن فهي أمان ولو قصد المسلون بها إلى نقيض ذلك، وقد جاء في فقه المالكية: «ثم الأمان يكون بلفظ أو إشارة مفهمة، أي شأنها فهم العدو الأمان منها، وإن قصد المسلمون بها ضره كفتحنا المصحف وحلفنا أن نقتلهم، فظنوه تأمينا فهو تأمين. بل إذا أمّن أحد من عامة المسلمين حربيًّا، ولم تُمضِ السلطة العامة أمانه فلا يحل الإضرار بهذا المؤمَّن، بل يجب أن يرد إلى مأمنه؛ لأن له شبهة أمان وهي قائمة مقام الأمان في عصمة دمه وماله ووجوب رده إلى مأمنه».

جاء في شرح الزرقاني على مختصر خليل: «إذا نهى الإمام الناس عن التأمين فأمّنوا، فإنه لا ينفذ إلا إذا أمضاه الإمام، فإن لم يمضه رده إلى مأمنه»[1].

ويقول الأوزاعي: «إن غزا الذمي مع المسلمين فأمّن أحدًا، فإن شاء الإمام أمضاه، وإلا فليرده إلى مأمنه»[2].

وعلى هذا فيدخل في صور الأمان في واقعنا المعاصر تأشيرات الدخول المتداولة بين الدول، ودعوات الزيارة سواء من الأفراد أو من المؤسسات أو من قبل الدولة، وعقود العمل واستقدام الفنيين والخبراء ونحوه.

د- الآثار المترتبة على الأمان:

إذا انعقد الأمان ترتب عليه التزام المسلمين بعدم إلحاق الضرر بالمؤمَّن سواء أكان المؤمن هو الحربي في دار الإسلام، أم كان المؤمن هو المسلم في دار الحرب.

يقول ابن قدامة في المغني: «الأمان إذا أعطي لأهل الحرب حرم قتلهم ومالهم والتعرض لهم»[3].

---

(١) شرح الزرقاني على مختصر خليل: ١٢٢/٣ .
(٢) فتح الباري: ٦ / ٣١٦ .
(٣) المغني: ١٠ / ٤٣٢ .

ويقول الشافعي في الأم: «إذا دخل قوم من المسلمين بلاد الحرب بأمان، فالعدو منهم آمنون إلى أن يفارقوهم، أو يبلغوا مدة أمانهم، وليس لهم ظلمهم ولا خيانتهم» (١).

ولا يحل لمسلم أن يخيس في عهده، فالغدر قبيح عند الأمم كلها، فضلاً عن هذه الأمة التي تتبوأ مقام الشهادة على الأمم قاطبة، ولكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدرته، وقد بيَّن النبي ﷺ أن من خصال المنافق: إذا عاهد غدر.

وفي حديث عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ: «من قتل نفسًا معاهدة بغير حقها لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا» (٢).

فمن كان بينه وبين قوم ميثاق وجب عليه أن يُتم إليهم عهدهم إلى مدتهم، ولا يحل له أن ينكث فيه بحال، وإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم على سواء، وأعلمهم بالمنابذة والمصارمة، والنصوص في ذلك صريحة وقاطعة! قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾(٣). ومعنى قوله تعالى: ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ :أي أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم، حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أي تستوي أنت وهم في ذلك. (٤)

وأخرج الإمام أحمد وغيره عن سليم بن عامر قال: كان معاوية يسير في أرض الروم وكان بينه وبينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر! وفاءً لا غدرًا! إن رسول الله ﷺ قال: «ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلنّ عقدة ولا يشدها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء»، قال: فبلغ ذلك معاوية، فرجع، وإذا الشيخ عمرو بن عبسة. (٥)

---

(١) الأم للشافعي: ٤ / ٢٤٨ .
(٢) رواه البخاري، كتاب الجزية، باب: إِثْم مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا بِغَيْرِ جُرْمٍ.
(٣) الأنفال: ٥٨ .
(٤) تفسير ابن كثير: ٤/٧٩ .
(٥) رواه الإمام أحمد، مسند الشاميين، حديث عمرو بن عبسة رضي الله تعالى عنه.

ويقول النووي رحمه الله: «واتفق العلماء على جواز خداع الكفار كيف أمكن الخداع، إلا أن يكون فيه نقض لعهد أو أمان فلا يحل»(١).

والذي نخلص إليه أن دخول المسلم إلى إحدى دول الغرب دخولاً رسميًّا بموجب التأشيرة التي تُمنح له يعتبر بمثابة عقد أمان موقت، يوجب عليه أن يأمنه هؤلاء على دمائهم وأموالهم وأعراضهم، وألا يخالف أنظمة بلادهم ما أقام بين أظهرهم، إلا ما تعارض منها مع دينه؛ لأن عقده مع ربه أسبق وأوجب وأولى بالوفاء، لا سيما وأن دساتير هذه البلاد تكفل الحرية الدينية لكل من يقيم على أرضها، وتعتبر ذلك من المهام الأولية للدولة.

وقد رأينا شؤم الغدر في تاريخنا، وكيف جرَّ على الأمة ما جرّ من الويلات والنكبات، ولا تنسى ذاكرة التاريخ ما جرى للأمة من شنائع ومجازر على أيدي التتار، وقد كان أول ذلك حماقة ارتكبها أحد ملوك المسلمين غدرًا ببعض رسل التتار، وقد دفعت الأمة ثمن ذلك فادحًا فيما توالى بعد ذلك من أهوال جسام تقشعر لهولها الأبدان!.

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: «وقد قتل جنكيز خان من الخلائق ما لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم، ولكن كان البداءة من خوارزم شاه؛ فإنه لما أرسل جنكيز خان تجارًا من جهته معهم بضائع كثيرة من بلاده فانتهوا إلى إيران، فقتلهم نائبها من جهة خوارزم شاه وأخذ جميع ما كان معهم، فأرسل جنكيز خان إلى خوارزم شاه يستعلمه: هل وقع هذا الأمر عن رضى منه، أم أنه لم يعلم به فأنكره؟. وقال فيما أرسل إليه: من المعهود من الملوك أن التجار لا يُقتلون؛ لأنهم عمارة الأقاليم، وهم الذي يحملون إلى الملوك ما فيه التحف والأشياء النفيسة، ثم إن هؤلاء التجار كانوا

على دينك -كانوا مسلمين- فقتلهم نائبك، فإن كان أمرًا أمرتَ به طلبنا بدمائهم، وإلا فأنت تنكره وتقتصُّ من نائبك.. فلما سمع خوارزم شاه ذلك من

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: ٧ / ٣٢٠ .

رسول جنكيز خان، لم يكن له جواب سوى أنه أمر بضرب عنقه، فأساء التدبير، وقد كان خرِّف، وكبرت سنه، وقد ورد في الحديث: «اتركوا الترك ما تركوكم، فلما بلغ ذلك جنكيز خان تجهز لقتاله وأخذ بلاده، فكان -بقدر الله تعالى -ما كان من الأمور التي لم يسمع بأغرب منها ولا أبشع» (١).

٥ - المحافظة على الحرمات خارج ديار الإسلام

ومن معالم العلاقة مع الغرب أن تبذل لهم حقوقهم في الدعوة إلى الله عز وجل، وتؤلَّف قلوبهم على الإسلام خاصة ممن يقيم بين أظهرهم من المسلمين، فإن على المسلم المغترب خارج ديار الإسلام رسالة سامية تتمثل في حفظ الإسلام على أهله ودعوة غير المسلمين إلى الإسلام، وأول ذلك وآكده أن يحافظ المسلمون على هويتهم في هذه المجتمعات باجتماعهم على الإسلام وتحاكمهم إلى الشريعة، وإقامة ما يتسنى لهم إقامته من معالم الدين وأن لا يستبيحوا شيئًا من المحرمات بحجة الإقامة خارج ديار الإسلام، فإن المسلم مطالب بتقوى الله حيثما كان، والدعوة بلسان الحال أبلغ من الدعوة بلسان المقال، فإن حال واحد في ألف واحد أبلغ من مقالة ألف واحد في واحد، ونحن نؤكد على هذا المَعْلم نظرًا لما شاع في بعض أوساط بعض الجاليات الإسلامية المقيمة في المجتمعات الغربية من الترخص في بعض المحرمات القطعية في الشريعة، بدعوى أن المسلم ليس ملتزمًا بإقامة أحكام الإسلام الاقتصادية والمالية خارج ديار الإسلام، وأنه يباح في دار الحرب من العقود الفاسدة ما لا يباح مثله داخل ديار الإسلام، وقد ترتب على ذلك استباحة كثير من هذه الحرمات مما يوشك أن تنتقض معه عرى الإسلام عروة عروة في هذه الأوساط، وفي ذلك من الخطورة على حاضر الدعوة ومستقبلها في هذه المواقع ما فيه؛ الأمر الذي يقتضي ضرورة التنبيه

(١) البداية والنهاية: ١٣/ ١١٩ .

والنكير؛ إذ لا شيء يحمل الناس على الإصغاء لدعوة الحق في هذه المجتمعات، مثل أن يكون الدعاة إليه والمتبعون له ممن يقيمونه في حياتهم، فيحلون حلاله ويحرمون حرامه.. ولقد مضى على إقامتنا في هذه المجتمعات أكثر من خمسة عشر عامًا، وكل يوم ينقضي يزيدنا إيمانًا بهذه الحقيقة، فلم نملّ من تكرارها على مسامع الجاليات الإسلامية المقيمة في الغرب: أقيموا الإسلام في نفوسكم تفتح له أسماع الآخرين وأفئدتهم.

وإن من آكد وسائل البلاغ في هذا المجتمع إقامة جالية مسلمة قوية تحل الحلال وتحرم الحرام وتقف حيث أوقفها الله ورسوله، وتقدم للناس في هذه المجتمعات شهادة الواقع -بعد شهادة النصوص والأدلة -أن الحياة في رحاب الإسلام نعمة لا تعدلها نعمة، وأنها ممكنة وليست ضربًا من الخيال أو ضغثًا من الأحلام! ولا يخفى أن انتشار الإسلام في كثير من بقاع العالم كان من خلال التجار الدعاة الذين حملوا أخلاق الإسلام إلى هذه المجتمعات ففتحوا بها قلوبهم واستنارت بها بصائرهم واستجابت لدعوة الحق.

هذا وإذا كانت المحافظة على الهوية الإسلامية في هذه المجتمعات تتمثل في الاجتماع على الإسلام بإقامة الشعائر واجتناب المحرمات، مع اعتبار الضرورات؛ على أن تقدر بقدرها ويُسعى في إزالتها. فكيف يتأتى دعوة غير المسلمين إلى الإسلام أو حتى تعريفهم به في ظل جالية يتملك المسلمون فيها محلات لبيع الخمور والخنزير ويسهمون في إشاعتها في هذه المجتمعات، ثم يقولون للناس: إننا أتباع دين يحل لأتباعه الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، وإنه يحرم عليهم الاتجار في الميتة والخمر ولحم الخنزير، وينهى عن الزنى والربا وأكل أموال الناس بالباطل، أيًّا كانت المرتكزات الفقهية لهذا الترخص وأيًّا كان حظ القائمين عليه من النظر؟

وإن ما نسب إلى السادة الأحناف أو من غيرهم عن دار الحرب وعن جواز التعامل فيها بالعقود الفاسدة يجب أن يؤخذ في سياقاته الاجتماعية والسياسية والتاريخية، فلم يكن أهل الإسلام فيما مضى يتوطنون خارج ديار الإسلام بصورة

دائمة، وينشئون في مهجرهم مراكزهم ومؤسساتهم الإسلامية، ويتاح لهم فيها من حرية الدعوة وحرية العمل وحرية الكلمة ما هو متاح لجالياتنا المسلمة المقيمة في الغرب، والتي يفوق تعداد بعضها عدد السكان الأصليين من بعض دول عالمنا الإسلامي! ويتحدثون فيها عن قضية توطين الدعوة وتحويلها من دعوة مهاجرة يحملها طلاب وافدون يقيمون فيها بصورة عارضة إلى متوطنين أصليين يحملون جنسية هذه المجتمعات ويوطنون لإقامتهم فيها بصورة نهائية أو شبه نهائية. وفي إطار هذه النظرة تغير موقف فقهائنا من قضية التجنس، فلم تعد تحمل ما كانت تحمله من دلالات أدّت ببعض أهل الفتوى إلى القول بردة المتجنس عن الإسلام في وقت من الأوقات !.

إن الإصرار على تسمية هذه المجتمعات دار حرب سوف يحمل من اللوازم ما لا يقول به ولا يلتزمه أشد الناس تحمسًا لهذا الإطلاق، من حرمة الإقامة فيها وعدم الاعتداد بدماء المقيمين فيها ولو كانوا من المسلمين، وانفساخ عقود الزواج بين الزوجين إذا هاجر أحدهم إلى هذه الديار.. وغير ذلك مما هو مسطور في بعض كتب السادة الأحناف ولا يقول به من يتحمس لهذه التسميات! .

لقد كان فقهاؤنا فيما مضى يتحدثون عن حرمة السفر بالمصحف إلى ديار الكفار، وكانوا مصيبين في ذلك غاية الإصابة في ظل السياقات التاريخية والسياسية السائدة يومئذ، واليوم هؤلاء الفقهاء أنفسهم يتنافسون في حث الأمة على طباعة المصاحف وترجمة معانيها ونقلها إلى هذه البلاد، ويعتبرونها قربة من أجَلِّ القربات، وهم اليوم مصيبون في ذلك أيضًا غاية الإصابة، لتغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والظروف والأحوال.

كيف تتأتى المحافظة على الهوية الإسلامية مع تبني هذا المذهب ؟

إن فتح هذا الباب سيفتح بابًا عريضًا واسعًا إلى خلع الربقة والتفلت من التكاليف، فسوف يمتد الأمر إلى الربا والميسر، وفي الولايات المتحدة ولاية يقوم اقتصادها كله على الميسر، ويؤمها المترفون والذين في قلوبهم مرض من بني

جلدتنا، وفضائحهم في هذا الشأن باتت تزكم الأنوف!. وقد يتدرج الناس من استباحة العقود الفاسدة في باب الأموال إلى استباحتها في باب الأبضاع! ألم تر إلى ما يشيع في هذه المجتمعات من المراقص والأندية الليلية، وهي مشروعة من الناحية القانونية وتتم تحت سمع وبصر المسئولين في هذه المجتمعات؟ فهل على المسلم من حرج إن هو عمل في هذه البارات والمراقص باعتبارها من العقود الفاسدة التي أجازها السادة الأحناف ليتذرع بها إلى أخذ أموالهم التي هي -بناءً على تخريجهم -على أصل الحل؟ وهل يجرؤ على القول بذلك عَالِم أو غير عَالِم؟.

وإذا أبيح الأمر أبيحت الوسائل المفضية إليه، فإذا جاز بيع الخمر ولحم الخنزير جاز السعي إلى تملكها لبيعها، فلا حرج على المسلم أن يتملك مزرعة لتربية الخنزير أو مصنعًا لإنتاج الخمور، فإنه إن فعل كان هذا أحظى له في باب المال، فمن مزارعه أو من مصانعه إلى المستهلك مباشرة! وذلك أحظ له وأكثر استجلابًا لأموالهم التي هي على أصل الحل! بل لا حرج في فتح بعض المؤسسات التعليمية لتعليم أصول الميسر، رجاء أن يتخرج فيها مقامرون محترفون يجيدون فنون هذه اللعبة ويتمكنون معها من استجلاب أموال القوم ما دامت على أصل الحل، وما دامت الذريعة إلى الحلال حلالاً؛ لأن الأصول التي أجازت بيع الخمر والخنزير لغير المسلمين قد يعوَّل عليها نفسها في إجازة السعي إلى امتلاك مشروعات اقتصادية تستثمر في هذا المجال بجامع استجلاب أموال القوم التي هي ابتداء على أصل الحل!.

ومن ثم، فلا أحسب عالمًا منصفًا يقر مثل هذا المسلك الفقهي في ظل كل هذه المتغيرات في واقعنا المعاصر، مهما كان حظ هذا المذهب من النظر.

٦ - إعلان النكير على المعتدين

وإذا كان هذا هو أساس المعاملة مع المسالم لأهل الإسلام من غير المسلمين، فإن للذين ظلموا منهم منهجًا آخر في التعامل يبدأ من إعلان النكير والاحتجاج

بالكلمة والتظاهر والمقاطعة ونحوه، وينتهي بالمجالدة بالسيوف بحسب مدى تحقق القدرة وتوقع الظفر وغلبة المصلحة. ونظرًا لمسيس الحاجة إلى شيء من البسط فيما يتعلق بالتظاهر والمقاطعة، فقد رأيت أن أفردهما بكلمة مستقلة نظرًا لشيوعها في واقعنا المعاصر.

٧ - التظاهر وسيلة من وسائل الإنكار التي ألفتها المجتمعات الغربية

التظاهر -كما عرفه المعجم الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة-هو إعلان رأي أو إظهار عاطفة في صورة مسيرة جماعية، وهو وسيلة معاصرة من وسائل التعبير عن الرأي، وتوجيه القرار السياسي في المجتمعات الديموقراطية، ويعد من الحقوق الدستورية المكفولة في معظم هذه الدول، وتنظم القوانين في العادة حدود ممارسة هذه الحق، حيث تشترط له إذنًا مسبقًا وميقاتًا محددًا، وتحظر بطبيعة الحال المساس بالممتلكات والمرافق العامة.

والتظاهر -كما لا يخفى -مما تختلط فيه المصالح والمفاسد، وتتزاحم فيه المنافع والمضار، فهو يشتمل على جملة من المصالح كما يشتمل كذلك على جملة من المفاسد، وهذا هو الشأن في كثير الأمور في أزمنة الفتن وغربة الدين، حيث تختلط المصالح والمفاسد، فلا تكاد تجد مصلحة محضة، ولا تكاد تجد مفسدة محضة، ويكون ذلك من أسباب الاختلاف والتفرق، فمن الناس من ينظر إلى جانب المصلحة وحدها ويغفل النظر إلى المفاسد وقد تكون راجحة، ومن الناس من ينظر إلى جانب المفسدة وحدها ويضرب الذِّكْر صفحًا عن المصالح وقد لا تكون مرجوحة، ومنهم من يحاول الموازنة بينهما، وقد تنضبط الموازين في يده وقد تضطرب، والمسدَّد من سدده الله عز وجل .

ولا يخفى أن الجهاد بالكلمة، وإنكار المنكر بالقول مما أحكم وجوبه في الشريعة، ويبقى النظر بعد ذلك في وسائله وأساليبه، وهي تختلف باختلاف الزمان والمكان والأحوال.

هذا ويتمتع التظاهر في المجتمعات الغربية بالشرعية والحماية القانونية، وتنظم القوانين ممارسته، كما تنظم ممارسة أي حق آخر من الحقوق المشروعة، وهو وسيلة من وسائل الضغط المشروعة للتعبير عن الرأي، وتشكيل الوعي السياسي لدى صناع القرار في هذه المجتمعات. وللناس في هذه المجتمعات دربة بممارسته، تحول دون أن يتحول إلى وسيلة من وسائل الفوضى أو التخريب للممتلكات والمرافق العامة.

وللمسلمين المقيمين في هذه المجتمعات رسالة لا بد أن تبلَّغ، وفي أعناقهم أمانة يجب أن تؤدَّى. إن عليهم حماية عرض الإسلام وعرض الأمة المسلمة من سهام الشانئين والمبطلين، كما أن عليهم دعم القضايا الإسلامية في المعترك الدولي، بتصحيح الصورة المغلوطة التي تقدمها وسائل الإعلام في هذه المجتمعات، ثم بمحاولة الوصول إلى صناع القرار لعرض هذه القضايا وبسط بيناتها، ودحض أباطيل خصومها، وحملهم على شيء من العدل والإنصاف في التعامل معها. ولا يخفى أن القرارات التي تحاك في هذه المجتمعات ذات أثر بالغ ومباشر على المجتمعات الإسلامية، وكل ذلك إنما يتم من خلال الوسائل التي اعتمدتها هذه المجتمعات للتعبير عن الرأي، ولقياس توجهات الرأي العام، ولكل مجتمع آليته وأساليبه في ممارسة حقوقه وفرض إرادة مواطنيه.

وإذا أردنا أن نكيف هذا العمل بموازين الشريعة فنستطيع القول بأن التظاهر - في الإطار الذي تقرره له المجتمعات الغربية - يمكن أن يكون وسيلة من وسائل الصدع بالحق، وأسلوبًا من أساليب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبابًا من أبواب الجهاد بالكلمة، لا سيما إذا تعين في بعض المواقع وسيلة إلى تحقيق هذه المقاصد السابقة.

ولا يرد على هذا التكييف القول بأن بيننا وبين القوم -بمقتضى الإقامة بين أظهرهم -عهودًا وعقودًا تحتم عدم منابذتهم ومبادرتهم بالعصيان وإعلان التمرد؛ لأن التظاهر حق دستوري، تقرره دساتير هذه البلاد، وتنظمه قوانينها، وتكفل حرية التمتع به، وتحرس الممارسين له، ولا تحمل لهم هذه الحساسية التي تحملها الكيانات السياسية المتنفذة في المجتمعات الشرقية.

ولا يخفى -من الناحية المقابلة -أن التظاهر تكتنفه بعض المفاسد، منها:

- إضعاف مفهوم الولاء والبراء، عندما يلتقي البر والفاجر، والمسلم وغير المسلم في فسطاط واحد، وفي خندق واحد، وعندما ترتبط مصلحة كل طرف بالآخر، فيحرص على استرضائه واستمالته، وعدم إثارة ما يسوؤه من الأقوال أو الأفعال أو المواقف.
- ما يكتنف هذه التظاهرات من الاختلاط الفاحش بين الرجال والنساء، وتقديم الكاسيات العاريات في صورة الممثل للإسلام، والمتحدث عن الأمة، والمعبر عن همومها ومواقفها.
- ما يؤدي إليه الاستغراق في هذا العمل من تراجع الجهود الدعوية والتربوية.
- إضعاف مفهوم الجهاد والاستعلاء بالحق ومفاصلة أهل الباطل، ولفت القلوب عن التعلق بالله عز وجل، والتعويل في طلب النصرة واستعادة حقوق الأمة على هذه الكيانات السياسية التي ما قامت ابتداء إلا لحربها، والتي أمعنت في النكاية في الإسلام والمسلمين.

ولا شك أن هذه المفاسد متفاوتة سواء في تحققها أو في جسامتها، ولكن أصلها موجود على كل حال، ومنها ما يمكن تطويقه وتقليل مفاسده، ومنها ما قد يعسر فيه ذلك، ولكن تبقى مقابلة ذلك بما يمكن أن يتحقق من المصالح، ومدى ما يبذل من الجهود للتقليل من هذه المفاسد.

أ - محذور إضعاف مفهوم الولاء والبراء

إن محذور إضعاف مفهوم الولاء والبراء وارد، والذريعة إليه قريبة، ولكن تعاظم هذا المحذور في بعض المواقع إنما يعكس هشاشة الجهود التربوية التي يبذلها القائمون على العمل الإسلامي، والتي يفترض أنها تحصن السواد الأعظم من رجالهم من هذا المحذور. إن الولاء والبراء من حقائق التوحيد أو من مقتضياته، والتوحيد هو القضية التي يجب أن يعنى بها العاملون للإسلام في كل

موقع، فوق كل أرض وتحت كل سماء، فإذا أحسن الدعاة القيام بهذا الواجب تراجع هذا المحذور، وفُهمت هذه الأعمال في إطارها الصحيح، وأدرك الناس أن التعاون على عمل من أعمال البر العام لا يعني بالضرورة ولاءً ولا قربى، وأن الْتقاءَ المصالح في لحظة من اللحظات مع فريق من غير المسلمين، والسعي المشترك من أجل تحقيقها إنما هي تدابير مرحلية تمليها المصالح والحاجات أو الضرورات، ولا يعني بحال من الأحوال اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، أو أن أولياء الشيطان قد صاروا أولياء للرحمن !.

ب- قضية الاختلاط بين الرجال والنساء

أما قضية الاختلاط بين الرجال والنساء فهو مما عمت به البلوى في هذه المجتمعات، وليس هذا خاصًا بالتظاهرات وحدها. إن من ينكر هذه العمل بسبب الاختلاط يذهب في اليوم التالي إلى الجامعة، ويقضي السواد الأعظم من ليله ونهاره في مثل هذا الاختلاط أو أشد، وحيثما شرق أو غرب فالاختلاط يطارده: في الحافلة، وفي الطائرة، وفي المطعم، وفي السوق، وفي الشارع، وفي كل مكان، ومع هذا لم يقل أحد بتوقف الحياة بسبب هذا الاختلاط، وعلى الناس أن يلزموا بيوتهم، ويوقفوا مسيرة حياتهم بسبب هذا الاختلاط، وإنما يقال للناس: اتقوا الله ما استطعتم، واجتهدوا في تقليل هذه المفاسد ما استطعتم، وما يعجزكم فالتمسوا العفو عنه من الله عز وجل، والأصل إقامة المصالح الشرعية الكلية، وإن اعترض في طريقها بعض المناكر الجزئية.

ومن ناحية أخرى، فإنه يُتوسع في مقام الدفع العام بما لا يُتوسع به في مقام التربية والبناء، أرأيت لو اشتعل حريق في بلد من البلاد، وتمثلت فريضة الوقت في تكاتف الجهود لإطفائه، هل يتسنى أن يصد عن المشاركة في ذلك أحد مهما كان له من القصور أو التقصير في بعض الجوانب؟ إن الجواب البدهي على ذلك هو النفي، وعندما تقيم المراكز الإسلامية عشاءً خيريًا لجمع التبرعات، يغشى هذه الاجتماعات البر والفاجر، وهي تفتح أبوابها للجميع، وتستقبل التبرعات من

الجميع، بل لو جاءها تبرع غير مشروط من كافر قبلت به، ولا توقف قبول التبرع على تحقيق مستوى معين من التقوى لا تقبل الصدقة إلا به!.

إن الأصل في خنادق الجهاد أنها تفتح لأهل الملة قاطبة برهم وفاجرهم، بل إن الاستعانة بغير المسلم، وإن كانت موضع نظر، فإن الراجح أن ما ورد من النهي عن ذلك منسوخ، وأن المسألة من مسائل السياسة الشرعية التي تفوض إلى نظر الإمام أو أهل الحل والعقد في جماعة المسلمين.

ج - تراجع الجهود الدعوية

أما تراجع الجهود الدعوية بسبب الاستغراق في هذا العمل، فلا يخفى أن هذه التظاهرات موسمية، وأنها ليست من الأعمال التي يستغرق فيها الناس ليل نهار، واشتغال الناس بها في إبان الإعداد لها لا يعني بالضرورة أنها تستغرق جل حياتهم بالكلية، أو أنها تصرفهم عن الجهود الدعوية والتربوية، اللهم إلا في فترات الإعداد وهي يسيرة ومحدودة. كما أنها ليست بديلاً من الأعمال الدعوية أو التربوية، بحيث يتعين على المسلم أن يختار إما أن يكون من المتظاهرين، أو مع الدعاة والمربين (!) وإنما هي محور آخر من محاور العمل الإسلامي يقف على التوازي مع بقية المجالات ليس بديلاً منها ولا متعارضًا معها، ومع هذا تبقى أهمية التذكير بهذه المحاذير وتنبيه الناس إليها ضرورة دعوية لا ينبغي أن يمل الناصحون من قولها، ولا أن يمل المشتغلون بهذه الأعمال من الاستماع إليها، فإنها تنبههم من غفلة، وتوقظهم من سِنة، وتحول بينهم وبين أن تقتطعهم هذه الأعمال عن المسار الأصيل للحركة الإسلامية.

د - إضعاف مفهوم الجهاد

أما ما ذكر من إضعاف مفهوم الجهاد والمفاصلة فهو موضع نظر، بل قد يكون عكسه هو الصحيح؛ لأن هذه الدعوة لا تدعو إلى الانسحاب من ميادين القتال إلى ميادين التظاهر، وإنما تدعو المقيمين في هذه المجتمعات إلى أن يرفعوا

أصواتهم بالإنكار على المظالم، وتعريف العالم بما يرتكب ضد إخوانهم من المجازر، وأنهم إن فاتهم شرف جهاد السيف لتقطُّع أسبابه فلا أقل من جهاد الكلمة، والتظاهر وفقًا لآليات هذه المجتمعات من أقوى وأمضى صوره، وعلى هذا فلعل عكس ما ذكر في هذه المسألة هو الصحيح؛ إذ توقد هذه الأعمال جذوة الجهاد في النفس وتحرك فيها لواعج الشوق إليه.

هـ - صرف القلوب عن التعلق بالله عز وجل

أما ما ذكر من لفت القلوب عن الله -عز وجل- والتعلق بغيره في طلب النصرة فهو محذور قائم في جميع الوسائل البشرية التي يسلكها المجاهدون، حتى في جهاد السيف نفسه، فإنه إذا وُكل المجاهدون إلى أنفسهم، وأعجبتهم كثرتهم، وقالوا: لن نُغلب اليوم عن قلة، فقد حبط العمل، وامتُهد طريق إلى البوار والخيبة!. نعم قد تكون الذريعة إلى هذا المحذور في باب التظاهر أبين وأقوى، ولكن المخرج لا يكون بإلغاء هذه الوسائل، وإنما بحسن التربية وحسن الإعداد، وإشاعة الربانية وتصحيح المفاهيم المغلوطة، ومرابطة الحراس للدين على هذه الثغور فلا تؤتى الأمة من قبلهم.

و- كون هذا العمل مُحْدثًا لم ترد الإشارة إليه في كتاب من كتب التراث

أما ما ذكر من كون هذا العمل محدثًا لم ترد الإشارة إليه في كتاب من كتب التراث، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه، فلا يخفى أن الوسائل والأساليب الدعوية والجهادية لا تنحصر في صور معينة، بل هي من مسائل السياسة الشرعية التي تدور في فلك الموازنة بين المصالح والمفاسد.

إن إنشاء الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية والشهرية واتخاذها منابر لاستفاضة البلاغ وإقامة الحجة لم يكن معروفًا في عهد السلف، فلا يُحتج أحد بأن الصحف والمجلات لم تكن من هدي السلف، فهي رجس من عمل الشيطان،

فيصادرها ويسعى في خرابها (!) وقل مثل ذلك في كل ما استُحدث من آليات وأساليب، ولم يكن موضع نكير من أحد من علماء المسلمين، هذا بالإضافة إلى ما جاء في السيرة من اصطفاف المسلمين غداة الجهر بالدعوة في مسيرتهم التي خرجوا بها من دار الأرقم ليعلنوا على الملأ في مكة إسلامهم وبراءتهم مما يعبدون من دون الله، وخروج الناس يوم مؤتة للنكير على الجيش القادم لما قام به من مناورة وانسحاب يقولون لهم يا فرَّار! فررتم في سبيل الله؟! فيقول لهم النبي ﷺ: «بل هم الكُرّار إن شاء الله».

٨- المقاطعة درءاً للصيال وكفاً للعدوان

المقاطعة هي الامتناع عن معاملة الآخرين اقتصاديًا أو اجتماعيًا وفق نظام جماعي مدروس، وهي من وسائل المقاومة المشروعة في واقعنا المعاصر، وقد قننتها المواثيق الدولية، وتتسع لها قواعد السياسة الشرعية.

وإذا كان الأصل هو حرية التعامل في الطيبات بيعًا وشراءً، أيًا كان المتعامل معه برًا أو فاجرًا، مسلمًا أو كافرًا، فإن المقاطعة عندما تتعين سبيلاً لدفع صيال أو كف عدوان فإنها تصبح من الوسائل المشروعة للمقاومة، بل لا يبعد القول بأن تكون من الواجبات المحتومة، طبقًا لما تمهد في الشريعة من أن الوسائل تأخذ حكم المقاصد حِلاً وحرمة.

وتطبيقًا لهذه القاعدة، فإذا كان التعامل مع المعتدي يتضمن تقوية له، وإعانة له على بغيه وعدوانه بما يصيبه من الربح، ووجد بديلا من السلع التي تُشترى من المعتدي سواء أكان من خلال استجلابها من مسلم أم من مسالم، فإن الأدلة الشرعية تتظاهر على حرمة هذا التعامل وتشدد النكير على فاعله.

ولقد كانت المقاطعة من أفعل الأسلحة في الحروب قديمًا وحديثًا، وقد استخدمه المشركون في محاربة النبي ﷺ وأصحابه، فآذاهم إيذاءً بليغًا.. واستخدمه المحاربون لهذه الأمة من المعاصرين فأحدث في المواضع التي استُخدم فيها أضرارًا فادحة، وما خبر العراق ببعيد.

والمقاطعة سلاح في أيدي الأمة دائمًا، فلا ينبغي أن تُغلب عليه، لا سيما إذا أعوزتها الأسلحة الأخرى، وإذا ثبت مضاء هذه السلاح وشدة تأثيره فلا تستطيع الحكومات -مهما كانت مستبدة ومتسلطة- أن تفرض على الناس أن يشتروا بضاعة من مصدر معين أو من دولة بعينها.

وعلى سبيل المثال: لقد رأينا ما جرى في بعض الدول الغربية من اعتداء سافر على مقام خاتم الأنبياء، ومن صلف واستكبار من بعض القائمين على الأمر في حكومات هذه البلاد. ولما كانت هذه الدول تعتمد في جل اقتصاداتها على ما تصدره للعالم الإسلامي من منتجاتها الزراعية وغيرها، فإن أدنى ما يمكن القيام به تعبيرًا عن الاستياء والاستنكار لهذه الجريمة النكراء وصيانةً لمقام النبوة من تطاول المعتدين هو الامتناع عن التعامل مع منتجات هذه الدول المعتدية، وإشاعة هذا الأمر على مستوى الشعوب في مختلف أرجاء العالم الإسلامي؛ باعتبار ذلك هو الصوت الوحيد الذي يتسنى الاستماع إليه في مثل هذه الأجواء والذي يمكن مع استمراره أن يضع حدًا لهذه الجريمة التاريخية النكراء، وأن يمنع من امتدادها إلى ما جاورها من الدول.

ومن ناحية أخرى، فإن في المقاطعة أبعادًا تربوية ودعوية لا تقل في أهميتها عن الأبعاد الاقتصادية التي تتضمنها، فهي تتضمن -فيما تتضمن- ما يلي:

- تربية الأمة على التحرر من العبودية والتبعية الاقتصادية لهذه السلع والمنتجات التي تستنزف بها مقدرات البلاد لصالح هؤلاء المعتدين.
- إحياء مفهوم الولاء والبراء، وتجديد معاني الأخوة الإسلامية في صور واقعية ومحسوسة، وتأكيد معنى البراءة من المعتدين، وحمل حكوماتهم على القيام بدورها في الضرب على أيدي سفهائهم وكفهم عن عدوانهم.

وينبغي أن يصدر بهذه المقاطعة قرار من أولي الأمر، لتكون المقاطعة جماعية ولتكون آثارها فعالة وموجعة، فإذا تردد بعض الولاة في القيام بواجبهم لأي سبب من الأسباب انتقلت المسؤولية إلى العلماء، الذين يتعين عليهم أن يخاطبوا الأمة بذلك، فإن أولي الأمر في الأمة فريقان: أهل العلم وأهل القدرة؛ العلماء

والأمراء، فإذا تباطأ الأمراء عن دورهم في حمل الأمة على ما يقتضيه النظر الشرعي فإن الأمور موكولة إلى العلماء، وقد أخذ الله عليهم الميثاق بالبيان، وتوعدهم أبلغ وعيد على الكتمان.

هذا وإن وجوب المقاطعة يشمل المستهلكين كما يشمل التجار المستوردين لهذه السلع، حتى تتكامل الأدوار في تفعيل هذا السلاح ليكون منتِجًا لآثاره ومفضيًا إلى مقصوده.

٩- القتال في الإسلام إنما يكون لدرء الحرابة وكف العدوان:

سواء أكانت الحرابة واقعة بالفعل، وهو ما يسمى بجهاد الدفع، أم متوقعة ولاحت نذرها بدلائل قوية وبينات يقينية وهذا هو جهاد الطلب، ولم تخرج حروبه كلها ﷺ عن ذلك لمن تدبر السيرة وأمعن النظر في حروبه وغزواته ﷺ، وهذا هو الذي عليه جمهور الفقهاء في هذه المسألة؛ والأدلة على ذلك كثيرة:

❖ منها: قوله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(١).

❖ ومنها: ما شرع من تخيير الكفار بين الإسلام وبذل الجزية والقتال.

❖ ومنها: النهي عن قتل من لا شأن له بالقتال، كالنساء والصبيان وكبار السن والمنقطعين للعبادة الذين لا يشاركون المقاتلين بالفعل أو الرأي.

وفي تقرير هذا الأصل يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وإذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد، ومقصوده أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، فمن منع هذا قوتل باتفاق المسلمين، وأما من لم يكن من أهل الممانعة والمقاتلة كالنساء والصبيان والراهب والشيخ الكبير والأعمى والزَّمِن (الضعيف) ونحوهم، فلا يُقتل عند جمهور العلماء إلا أن يقاتِل بقوله أو فعله، وإن كان بعضهم يرى إباحة قتل الجميع لمجرد الكفر إلا النساء والصبيان، والأول هو

---

(١) البقرة: ٢٥٦ .

الصواب، وذلك أن الله أباح من قتل النفوس ما يحتاج إليه في صلاح الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾(١)، أي أن القتل وإن كان فيه شر وفساد ففي فتنة الكفار من الشر والفساد ما هو أكبر» (٢).

وصفوة القول في ذلك أن هذه الأمة أمة هداية، وليست أمة بغي وحرابة، وحيثما أمكن استحياء النفوس بالإيمان أو بالأمان فلا ينبغي العدول عن ذلك، فإن الله تعالى لم يبح من قتل النفوس إلا ما يُحتاج إليه في صلاح الخلق، ولعل الله أن يخرج من أصلابها من يعبد الله تعالى ويوحده.

١٠- تعظيم أمر الدماء وتغليظ العقوبة عليها:

أيها السادة، إن تعظيم أمر الدماء، وتغليظ العقوبة عليها، واشتداد غضب الله على المجترئين عليها بغير حق، مما استفاض تقريره في الشريعة المطهرة، وأكدت عليه نصوص الوحيين قرآنًا وسنة، فلا يزال العبد في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا، وكل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافرًا، أو مؤمنًا يقتل مؤمنًا متعمدًا، ومن هنا كانت عقوبة القصاص في الشريعة؛ صيانةً لدماء البشر، وحمايةً لها من المفسدين في الأرض..

وكانت عقوبة الحرابة -وهي أشد وأغلظ- حمايةً للمجتمع من غوائل المارقين عليه، وتأكيدًا لحرمة الأمن العام في الشريعة المطهرة، قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٤).

---

(١) البقرة: ١٩١ .

(٢) السياسة الشرعية: ص ١٣٢ وما بعدها.

(٣) النساء: ٩٣ .

(٤) البقرة: ١٧٩ .

وهذا التعظيم للدماء في الإسلام شريعة عامة، لا يفرِّق فيها في الأصل بين مسلم وغيره، فلا تستباح الدماء في دار الإسلام إلا بإحدى ثلاث: القتل العمد، أو الزنا بعد الإحصان، أو الردة بعد الإيمان.. قال ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة»[(١)].

ولا تستباح خارج دار الإسلام إلا في الحرب المشروعة التي تكون لدفع العدوان: العدوان على بلاد الإسلام، أو العدوان على الإسلام نفسه، بفتنة الناس عنه، أو صدهم عن سبيله، ووضع المعوقات في طريقه، ومصادرة حق البشر في اختياره، قال تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿**وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيراً**﴾[(٣)]، وفرق بين الحرب المشروعة كما عرفتها مواريثنا الفقهية والتاريخية، والحرب المقدسة كما شاعت في الأوساط الغربية، والتي يراد بها إكراه أهل ملة على الدخول في ملة أخرى عنوة وتحت بارقة السيوف! فإن هذا ما لا يُعرف له نظير في ملة الإسلام، انطلاقًا من هذا المبدأ القرآني الخالد: ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ**﴾[(٤)].

ولهذه الحرب المشروعة شرائط وآداب لا تتحقق المشروعية إلا باستيفائها، منها على سبيل المثال: تجنب الغدر، فمن كان بينه وبين قوم ميثاق وجب عليه أن يُتم إليهم عهدهم إلى مدتهم، ولا يحل له أن ينكث فيه بحال، وإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم على سواء، وأعلمهم بالمنابذة والمصارمة، والنصوص في ذلك

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب القسامة، باب: ما يباح به دم المسلم.

(٢) البقرة: ١٩٠ .

(٣) النساء: ٧٥ .

(٤) البقرة: ٢٥٦ .

صريحة وقاطعة.. قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾(١)، ومعنى قوله تعالى: ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ :أي أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم، حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أي تستوي أنت وهم في ذلك (٢).

وأخرج الإمام أحمد وغيره عن سليم بن عامر قال: كان معاوية يسير في أرض الروم وكان بينه وبينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر! وفاءً لا غدرًا! إن رسول الله ﷺ قال: «ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلنّ عقدة ولا يشدها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء»، قال: فبلغ ذلك معاوية، فرجع، وإذا الشيخ عمرو بن عبسة (٣).

ومنها تحريم القصد بالعدوان إلى غير المقاتلين، فإن من شريعته ﷺ أن لا يقصد بالعدوان إلى غير المقاتلين، سواء أكانوا من النساء أم الأطفال أو الشيوخ أو الأُجَراء أو المنقطعين للعبادة في الصوامع والأديرة ونحوها. والنصوص في ذلك صحيحة وصريحة، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ، فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان (٤).

وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن رباح بن الربيع رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ، فرأى الناس مجتمعين على شيء، فبعث رجلاً فقال: «انظر علامَ اجتمع هؤلاء ؟»، فجاء فقال: على امرأة قتيل! فقال: ما كانت هذه لتقاتل! قال: وعلى المقدمة خالد بن الوليد، قال: فبعث رجلاً فقال: «قل لخالد: لا يقتلن امرأة ولا عسيفًا» (٥).

---

(١) الأنفال: ٥٨ .

(٢) تفسير ابن كثير: ٤/٧٩ .

(٣) رواه الإمام أحمد، مسند الشاميين، حديث عمرو بن عبسة رضي الله تعالى عنه.

(٤) متفق عليه.

(٥) سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في قتل النساء.

وفي رواية عند ابن ماجه: «انطلق إلى خالد بن الوليد فقل له: إن رسول الله ﷺ يأمرك يقول: «لا تقتلن ذرية ولا عسيفًا» (١). لا يستثنى من ذلك إلا حالة الاختلاط وانعدام القدرة على التمييز، كما لو تترس المقاتلون ببعض هؤلاء وجعلوا منهم دروعًا بشرية ونحوه.

ومن معالم العلاقة مع غير المسلمين إقامة العدل والقسط، وتحريم الانتقام بالظنة والتوزيع الجزافي للتهم، فالعدل في الإسلام شريعة عامة، لا تتفاوت بتفاوت الأديان أو الأوطان، وقد قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لله وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾**(٢)، وقال تعالى: **﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾**(٣).

ونحن بهذا لا ننكر حق البشر في دفع الصائل ورد العدوان، وملاحقة مرتكبي الجرائم والضرب على أيديهم، لكن هذا لا بد أن يتم في إطار ضوابط الحق والعدل التي اتفقت عليها الشرائع السماوية، والقوانين الوضعية على حد سواء.

١١- تحريم مظاهرة المشركين على المسلمين

ومن معالم العلاقة مع غير المسلمين عامة تحريم مظاهرتهم على المسلمين، فالمسلم أخو المسلم مهما اختلفت الألسنة والألوان والبلدان، فلا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله ولا يحقره، ولا يظاهر عليه أحدًا من المشركين، ومثل هذه البدهيات لا تحتاج إلى حشد أدلة وسوق براهين، وحسبنا قول الله عز وجل: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾**(٤)، وقد نزلت هذه الآية وما بعدها في كتاب كتبه حاطب بن أبي بلتعة

---

(١) سنن ابن ماجة، كتاب الجهاد، باب الغارة والبيات وقتل النساء والصبيان.

(٢) النساء: ١٣٥ .

(٣) المائدة: ٨ .

(٤) الممتحنة: ١ .

في لحظة من لحظات الضعف البشري إلى أهل مكة يخبرهم فيه بما اعتزم عليه رسول الله ﷺ من قتالهم، فكيف بمن يظاهر على فريق من أمته بالسلاح، ويشارك مشاركة فعلية فيما يشن عليه من حروب إبادة شاملة !؟

ولقد نعى الله على اليهود في كتابه اقتتالهم تحت رايتي الأوس والخزرج، فقد والى فريق منهم الأوس، ووالى فريق منهم الخزرج، فكان يقع القتال بين المعسكرين، فيقاتل اليهودي المحالف للأوس اليهودي المحالف للخزرج، فإذا انتهى القتال كانون يفادون الأسارى من الفريقين، فنعى الله عليهم ذلك وجعله إيمانًا ببعض الكتاب وكفرًا ببعض؛ لأنهم يقتلونهم على خلاف حكم التوراة، ففي حكم التوراة أن لا يُقتل، ولا يُخرَج من داره، ولا يظاهَر عليه من يشرك بالله ويعبد الأوثان من دونه ابتغاء عرض الدنيا، ثم يفتكّون أساراهم ويفادون قتلاهم نزولاً على حكمها، وذلك في قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾(١). فقد نعى الله على اليهود اقتتالهم تحت رايتي الأوس والخزرج، ولم يجعل من وجودهم تحت هذه الرايات عذرًا لهم، ومانعًا يمنع من لحوق الإثم بهم، واستحقاقهم العقوبة في الدنيا والآخرة..

ولقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما بأنه قال: « أنّبهم الله بذلك من فعلهم، وقد حرم عليهم في التوراة سفك دمائهم، وافترض عليهم فيها فداء أسراهم، فكانوا فريقين: طائفة منهم بنو قينقاع حلفاء الخزرج، والنضير وقريظة وهم حلفاء الأوس، فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب، خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، وخرج النضير وقريظة مع الأوس، يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه، حتى تسافكوا دماءهم بينهم، وبأيديهم التوراة يعرفون فيها

---

(١) البقرة: ٨٤ .

ما عليهم ولهم، والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان، ولا يعرفون جنة، ولا نارًا، ولا بعثًا، ولا قيامة، ولا كتابًا، ولا حلالاً، ولا حرامًا، فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم -تصديقًا لما في التوراة، وأخذًا به-بعضهم من بعض: يفتدي بنو قينقاع ما كان من أسراهم في أيدي الأوس، ويفتدي النضير وقريظة ما كان في أيدي الخزرج منهم، ويطلبون ما أصابوا من دمائهم، وقتلى من قتلوا منهم فيما بينهم، مظاهرةً لأهل الشرك عليهم. يقول الله تعالى ذكره حيث أنبهم على ذلك: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾؛ أي تفادونهم بحكم التوراة وتقتلونهم، وفي حكم التوراة أن لا يُقتل، ولا يخرج من داره، ولا يظاهَر عليه من يشرك بالله، ويعبد الأوثان من دونه ابتغاء عرض الدنيا، ففي ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج فيما بلغني نزلت هذه القصة» [١].

١٢- وحدة الأمة سلمًا وحربًا

والمسلمون أمة واحدة، حربهم واحدة، وسلمهم واحد، وليس لأحد أن ينحاز عن الأمة وأن يعقد دونها حربًا أو سلمًا منفردًا بمعزل عن بقية المسلمين، فلا حرب ولا سلم من فريق من المسلمين إلا برضى وتشاور مع بقية المسلمين، فإن آثار هذه المواقف المصيرية لا يختص بها القائمون بها أو المباشرون لها وحدهم، بل تمتد لتطال بقية المسلمين، وقد رأينا كيف أن عملاً غير مسؤول وقع مؤخرًا جرّ الأمة كلها إلى سلسلة من الكوارث والفجائع، ولهذا يفرق أهل العلم بين جهاد الدفع وجهاد الطلب، ويجعلون الثاني -وهو الذي تحدد الأمة ميقاته زمانًا ومكانًا-إلى القيادة العامة في جماعة المسلمين، ولا يستقل به أصحاب الولايات الإقليمية أو القطرية، أما جهاد الدفع فهو الذي يفوض إلى القيادات القطرية في إطار النظر العام لإمام المسلمين.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣١٩/١ .

بقي شيء لا بد من ذكره في نهاية التعقيب على هذه النقطة: أنه قد يسع المسلم في بعض الأحوال أن لا ينصر أخاه المسلم، إذا لم يهاجر إلى جماعة المسلمين، وكانت خصومته مع قوم بينه وبينهم ميثاق، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾[1]. فهؤلاء الذين لم يهاجروا إلى جماعة المسلمين، يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم من الفيء والغنيمة نصيب، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، بيد أن لهم حق النصرة إذا استنصرونا في الدين على قتال عدو لهم ليس بيننا وبينه ميثاق، أما إذا استنصرونا على قوم من الكفار، بيننا وبينهم ميثاق، فلا نصرة لهم في هذه الحالة، لقوله تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾، يقول ابن كثير: «أي مهادنة إلى مدة، فلا تخفروا ذمتكم، ولا تنقضوا أيمانكم، مع الذين عاهدتم»[2]. لكن الذي لا يسعه بحال من الأحوال أن يظاهر عليه المشركين، وأن ينحاز مع الكفار المحاربين لقتاله معهم، فإننا لا نعرف أحدًا من علماء الأمة أباحه، ولا سطر قط في ديوان من دواوين الإسلام!.

هذا ما تيسر جمعه في هذه العجالة على ضيق من الوقت وشح في المصادر، والله أسأل أن يوفقنا لمزيد من التحرير لهذه المسائل في المستقبل بإذن الله، وأن يجعل ما نقوله أو نكتبه حجة لنا لا علينا، وأن ينفع به كاتبه وقارئه ومستمعه، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم.. اللهم آمين.

---

(١) الأنفال: ٧٢ .

(٢) تفسير ابن كثير: ٩٧/٤ .

محتويات البحث

الاختلاف والتواصل..
الواقــــع والمرتجَــى

السيد / علـي فضـل اللـه
نائب رئيس جمعية المبرات الخيرية
بلبنـــــان

مقدمة:

بعد التقدير لهذا المؤتمر ولمنظميه وراعيه ولدولة الكويت العزيزة، يمكن لنا أن نتساءل: هل نحن هنا لنستهلك الكثير من الكلمات والعناوين، ثم يخرج بعد ذلك كلٌّ منّا إلى قمقم ذاته، أو قمقم موقعة الطائفي أو المذهبي أو الفكري أو السياسي، ليتحصن فيه في مواجهة الآخر، أم أننا في وقفة مع الذات، ومع ما يجري في الحياة حتى نحدد الوسائل التي من خلالها نستطيع أن نتجاوز كل السلبيات الواقعة التي تشكل مادة خصبة تسبب الإساءة إلى فكرنا وثقافتنا وتاريخنا، ومن ثَمَّ نتجه للعمل معا لا لحساب الآخرين بل لحساب نؤمن به، ونلتزم، ولا نخاف في الله لومة لائم؟.

وفي هذا المجال، لا بد من تأكيد العناوين التي نحملها والتي تركز دائما على بناء العقول المنفتحة على الكل، والقلوب المفتوحة للجميع، والألسنة الدافئة بلغة الحوار من موقع الاحترام، وفي الوقت نفسه النفوس المستعدة للاستشهاد في سبيل الحفاظ على عزتها وحريتها وكرامتها.

إننا لا نريد أن ننطلق في هذا اللقاء من ردة الفعل، فنؤكد الصورة التي ينعتنا بها الكثيرون في هذا العالم لجهة أننا أهل التطرف ومن الساعين لإلغاء الآخر بالإرهاب والعنف، وغير ذلك من المفردات السلبية التي لا نستطيع إلا أن نقول إنها انطلقت في قواعدها وأسسها من الآخر لا من واقعنا وأفكارنا، أو نشير إلى أنها كانت ردة فعل على ما قام به هذا الآخر خلال تاريخ طويل مسببا لنا الكثير من الآلام والمعاناة، ومصادرًا للقرار والثروات، بل سنعمل على تحديد مفرداتنا والقواعد التي نتحرك على أساسها أو التي ينبغي السعي إليها، ولن نكون في ذلك مدافعين، بل موضحين وآملين وجه الحقيقة لا غير.

الاختلاف عنوان الحياة:

الاختلاف معناه أن ينهج كلٌّ شخص طريقًا مغايرًا للآخر في حاله أو في فعله أو في قوله، والخلاف أعم من الضدّ؛ لأن كل ضدين مختلفان، وليس كل مختلفين ضدّين.

ولما كان الاختلاف بين الناس قد يفضي إلى التنازع فقد استعيرت هذه الكلمة للإشارة إلى المنازعة والمجادلة، حيث قال الله سبحانه: ﴿**فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾(١)، ﴿**وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ**﴾(٢)، ﴿**إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ**﴾(٣)، ﴿**إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾(٤).

وهذا الاختلاف عندما يبقى في مجاله الطبيعي فإنه يبقى على عنوانه، ولكن عندما يشتد ويسعى كل من الفريقين للدفاع عن نفسه وإقناع الآخرين به أو حملهم على تنبيه يسمي جدلا.

ولذا يسمي الجدل في اللغة: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وهو مأخوذ من جدلت الحبل إذا فتلته وأحكمت فتله، فكل واحد من المتجادلين يحاول أن يفتل صاحبه ويجدله بقوة وإحكام على رأيه الذي يراه. وعندما تشتد خصومة المتجادلين ويؤثر كل منهما الغلبة، بدل الحرص على ظهور الحق ووضوح الصواب، فإنه يتحول إلى نزاع وشقاق.

وقد خلق الله -سبحانه وتعالى- هذا الكون متنوعًا من ناحية الأشكال والصور والألوان، والأطعمة والخصائص والثمرات. ولم يحِد الإنسان عن هذه الصورة.. فالله سبحانه أيضًا أودع في الإنسان هذا التنوع من ناحية تكوينية؛ تنوع في الذكر والأنثى، واختلاف في اللون الأبيض والأسود والأحمر والأصفر، وتمايز في القدرات الجسدية والعقلية والفكرية.

---

(١) مريم: ٣٧ .

(٢) هود: ١١٨ .

(٣) الذاريات: ٨ .

(٤) يونس: ٩٣ .

ومن الناحية الاجتماعية اختلاف في العادات والتقاليد، واللغات واللهجات، والشعور والقبائل، وتعدد في الطبائع والسلوك، وتنوع في الأديان والمذاهب والفرق، وتعدد في الأساليب والتوجهات والانتماءات، وأكثر من رأي في فهم القضايا والنصوص ومسار الأحداث، والنظرة إلى التاريخ والمستقبل.

إيجابية التنوع:

يساهم التنوع في خلق مناخ إيجابي في الحياة الثقافية والفكرية والواقع العملي لكونه:

١- يساهم في استثمار أكبر قدر من الطاقات والفعاليات وأصحاب الخبرات الموجودة في المجتمع، بحيث يؤدي كلٌّ ما عنده وإن تعددت الأساليب والمواقع والأهداف.

٢- يثري الحياة الإنسانية بالنتاجات المتنوعة التي تسهل لكل فرد أن يأخذ من هذا النتاج ما يناسبه وما يرغب به دون ضغط.

٣ - يبعد عن الحياة الإنسانية جوَّ الرتابة والجمود، ويضفي عليها جوًّا من الحيوية والتفاعل.

٤ - يساهم في تحريك الفكر البشري الذي يحلق بحرية في كل الآفاق بعيدا عن الحدود المفروضة التي تجمده وتحد الكثير من طموحاته.

لكن هذا التنوع والاختلاف لم يخلُ من السلبيات التي نشأت والتي عُبر عنها من خلال الفتن والمشاكل التي استعرت في داخل المجتمعات والشعوب والحضارات والأديان والمذاهب المتنوعة؛ وهو ما قد يدفع البعض إلى التأكيد على أن الاختلاف هو المشكلة، وأن الحل بالتالي في إزالة هذا الاختلاف، من خلال إلغاء الآخر وتدميره وقهره بكل الوسائل.

وعلى أساس ذلك نشأت ثقافة الحقد والكراهية وثقافة العنف والإرهاب بمعناها الحقيقي لا المستجدّ كما يطرحه الغرب. لكن الواقع يثبت أن الاختلاف لم يكن إلا عندما يخرج عن مداه وحدوده، وينبعث في المجتمع ليتحول إلى حالة

من البغي والعدوان كما أشار الله -سبحانه تعالى- إلى ذلك: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾(١).

ويخرج عن مداه أيضا عندما يسعى إلى تحريك العصبية الإلغائية في المواقع المختلفة، ليتجه أحد أطراف الاختلاف -وهو صاحب العصبية- إلى إلغاء الطرف المقابل انطلاقا من الشعور بالفوقية، بحيث لا يشعر معه المتعصب أن للآخر وجودًا أو كيانًا، فالحياة عنده لا يمكن لها أن تتسع لأكثر من طرف أو فئة أو مجتمع أو شعب.

دعوة للتواصل:

لذلك ولأجل تجاوز كل الواقع الذي يتحدى الحاضر والمستقبل بسبب انبعاث روح التمزق في داخل المجتمع ومنع تأكيد الكراهية والعنف في أرجائه، وتعزيزًا لإيجابيات التواصل التي ينبغي أن تكون قاعدة كل المجتمعات، فإنه لا بد من السعي الحثيث للأمور التالية:

١- إزالة العوامل التي تساهم في منع التواصل:

ثمة عوامل تساهم في منع التواصل مع الآخر، أبرزها:

أ - إلغاء أو تهذيب الشعور بالتفوق الذي يشعر معه الإنسان بقدرته على الاستغناء عن الآخرين؛ فالفرد والمجتمع والشعب والأمة مهما بلغوا من القدرات والإمكانيات يبقون بحاجة إلى الآخرين وإلى الاستفادة من حالة التنوع في حياتهم.

---

(١) البقرة: ٢١٣ .

ب - عدم إساءة الظن بالآخرين، حيث إن التجارب المريرة والظروف الصعبة التي قد يواجهها الأفراد وتواجهها المجتمعات تدفع إلى الخوف من الآخر وإساءة الظن به، وبالتالي يتم الاندفاع إلى رفض كل ما عنده.

وإذا كان هذا التوجه مبرراً في مرحلة معينة أو دائرة خاصة، فإنه لا بد من وضع الأمور في موضعها، والحرص على ألا يتحول هذا التوجه إلى حالة عامة تلغي التواصل مع الآخرين في كل المجالات، لكن مع الحذر الواعي والتحرك الدقيق المدروس الذي يؤمن إمكانية الاستفادة من إيجابيات الآخرين وترك سلبياتهم.

ج-عدم الخوف من التواصل، فإذا كان الخوف على الخصوصية التي تتملك الفرد أو المجتمع مبرراً، فإنه لا يجوز أن يتحول هذا الخوف إلى حالة مرضية تجعل الإنسان ينفرد بعيدا عن الآخرين؛ إذ يمكن الحفاظ على الخصوصية والتعامل في الوقت نفسه مع الآخرين، ولا يعدم الساعي إلى ذلك وسيلة لتحقيقه، وإن اضطُّر إلى تقديم تنازلات معينة، فإنها يمكن أن تبقى في دائرة الضرورات التي تبرر المحظورات.

د-عدم الفهم السلبي لمبدأ الاعتزال الذي أشار إلية القرآن الكريم في سورة الكهف عن أصحاب الكهف **﴿وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إلا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِن رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا﴾**(١)، ولفت إليه سبحانه في إطار حديثه عن النبي إبراهيم **﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً ❁ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾**(٢). كذلك ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «العزلة سلامة» (٣). وقد يستند البعض إلى هذه النصوص التي تؤكد قيمة الاعتزال عن الحياة وعن الواقع الإنساني، لكن هنا لا يجوز التعميم على حالات

---

(١) الكهف: ١٦ .

(٢) مريم: ٤٨-٤٩ .

(٣) زيادة الجامع الصغير للإمام السيوطي، حرف العين، فصل: المحلى بأل من حرف العين.

لها سياقها وظروفها، فالقرآن الكريم يمثل دعوة الانخراط في الحياة بكل ضوضائها وضجيجها وذلك من أجل إصلاحها، لذلك نجد الحديث الوارد عن رسول الله ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»(١).

وقد أخرج البيهقي أن رسول الله ﷺ فَقَدَ رجلا، فسأل عنه فجاء، فقال: يا رسول الله، إني أردت أن آتي هذا الجبل فأخلو فيه وأتعبد، فقال رسول الله ﷺ: «يصبر أحدكم ساعة على ما يكره في بعض مواطن الإسلام خير من عبادته خاليًا أربعين سنة» (٢).

أما القيمة في الاعتزال فتتأكد عندما لا يستطيع الإنسان أن يعبر عن إيمانه إلا بالاعتزال، وقد يفرض الواجب الرسالي على الداعية إلى الله عندما يغلق هذا المجتمع أو ذاك قلبه وعقله عن الإيمان، أن يغادر إلى مجتمع آخر لينفتح عليه وعلى رسالته كما حصل للنبي إبراهيم عليه السلام، فيما أشار إلية القرآن الكريم.

٢- السلبيات المترتبة على عدم التواصل:

إذا كان الإسلام حث على التواصل الإنساني فلدوره المركزي في تنمية الحياة الإنسانية وازدهارها، ذلك أن لعدم التواصل سلبياته الكبرى، ومنها:

أ - بدون التواصل يفقد المجتمع حضوره ودوره والكثير من الإيجابيات التي تحصل من خلال تفاعله مع العالم الآخر، لذا نجد الإسلام استطاع -من خلال كسر قيود العزلة التي أنتجتها الجاهلية- أن يخترق أسوار العالم ويصنع حضارة بعدما استفاد من كل العناصر الإيجابية الموجودة عند الآخرين وسعى إلى تطويرها، من دون أن يقدم قادة الإسلام أي تنازل عن قيمه ومبادئه، بل في إطار حرصهم على دفع الآخرين لأخذ هذه القيم وتبنيها وتحويل الأعداء إلى أصدقاء.

---

(١) رواه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء.

(٢) كنز العمال للمتقي الهندي، تتمة كتاب الجهاد من قسم الأفعال، باب في فضله والحث عليه.

ب – يؤدي فقدان التواصل إلى شلّ القدرة على متابعة التغيرات الحاصلة في العالم والاستفادة من إيجابياتها؛ فالانحسار في الدائرة ذاتها، والاكتفاء بما تعرف أو تملك، سرعان ما يؤديان بالأمة إلى الهلاك.

ج – ينتج عن عدم التواصل الوقوع في حالة من الركود؛ لأن التفاعل الحضاري والفكري والثقافي والعلمي يعني التفاعل والاستفادة من تجارب الآخرين وما عندهم، ويدفع إلى التنافس والتطور، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم: **﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾**(1).

د– يدفع عدم التواصل بالإنسان إلى الوقوع في قبضة الحسد وبالتالي العنف تجاه الآخر، فالاكتفاء بالذات والاستغراق في خصوصيتها يجمد حركة الحياة، فيما الحياة تستمر عند أولئك الذين يسخرون كل طاقتهم وعلاقاتهم وتواصلهم لامتلاك ثمرات عملهم، التي يتمنى المنفرد زوالها، وعندها سرعان ما سيجد نفسه في دائرة العنف الكلامي أو العنف العملي.

٣ ـ التربية على التواصل:

ويتم ذلك من خلال تأكيد العناوين التالية:

❖ أن الهدف الأساسي من التواصل هو ما حدده القرآن الكريم –أي التعارف– بحيث يعرف كل فريق ما عند الآخر من قدرات وإمكانيات وتوجيهات وأفكار؛ كي يسهل على المتواصلين معرفة ما عند بعضهم البعض من مصادرها الأساسية، ولخلق مناخات للتفاعل ورسم قواعد مشتركة للعمل.

❖ إلغاء حالة التشنج التي قد يُوجِدها الاختلاف، لذلك كان التأكيد على المخلصين دينيًا وإيمانيًا على ضرورة إلغاء التوتر الناشئ من هذا الاختلاف الذي قد يعتبره البعض مقدسًا، ولهذا كانت الدعوة للذين لا يؤمنون بدين: **﴿وَإِنَّا أَوْ**

---

(1) المائدة: ٤٨ .

إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[1]، حيث الدعوة للتحرك معًا نحو البحث عن الحقيقة التي ينبغي اعتبارها ضائعة.

وهكذا في الحديث مع أهل الكتاب: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[2].

وفي الخلاف المذهبي: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا﴾[3]، وأيضًا في دائرة التنوع الديني: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[4].

❖ لا بد للتواصل أن يبنى في كل مواقعه على أساس البر والتقوى؛ حيث إن هدف التواصل ينبغي أن يكون البر، وروحيته تنطلق من التقوى، بحيث لا يستثني حتى التجمعات والمنظمات والمؤسسات والمعسكرات الدولية وغير الدولية، التي تقوم سياستها على استغلال الشعوب الأخرى أو السيطرة عليها أو إقصائها، وقد حث الإسلام على التربية للوصول إلى التعامل الإيجابي مع المختلف، ونزع عناصر الكراهية والحقد التي قد تنفذ إلى النفوس أولاً؛ تمهيدًا لبنائها انطلاقًا من القاعدة القرآنية التي تقول: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[5]، ثم تنتقل عملية التغيير إلى كل الواقع التزامًا بواجب الأمر بالمعروف والتواصي بالحق.

ضمن هذا الجو يمكن لنا الإشارة إلى عناوين أساسية تساعد في بناء وعي تربوي واقعي بمعالجة إشكالية الاختلاف:

---

(١) سبأ: ٢٤ .

(٢) آل عمران: ٦٤ .

(٣) النساء: ٥٩ .

(٤) الممتحنة: ٨ .

(٥) الرعد: ١١ .

أ - التأكيد على أن الاختلاف ليس هو المشكلة في تحويل الاختلاف إلى نزاع وشقاق وبُعد عن الآخر.

ب - تعزيز القواسم المشتركة التي تساهم في تقريب القلوب وبالتالي الأفكار.

ج - تعزيز ثقافة الاختلاف في كل أرجاء المجتمع، بحيث يفهم كل طرف الآخرَ من مصادره الحقيقية، لا مما يُتَداول في الشارع أو وسائل الإعلام المغرضة أو الكتب المشوهة.

د - القبول بأن الحق قد يكون إلى جانبك، وقد يكون إلى جانب الآخرين، والخطأ كما قد يكون عند غيرك يكون عندك.

هـ - اعتبار أن الاختلاف سنة الله في خلقه، فلا ينبغي أن يسيء إلى سلامة المجتمع والأمة وحاضرها ومستقبلها.

و- ترسيخ قاعدة أن الرفق هو القاعدة، والعنف ليس إلا استثناء كما قال رسول الله ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف» [1].

ز - التحديد الحقيقي لمفردات الفكر الذي يلتزم به الفرد والمجتمع وإخضاعه للنقد الذاتي، وتمييزه عما هو فكر الآخرين، بحيث لا ينطبق من خلال الأفكار الغائمة التي لا تتحدد فيها لا مسائل التوافق والتواصل مع الآخرين... فقد يعتقد البعض بوجود اختلاف مع الآخر، وهو غير موجود، كما قد يعتقد بتوافق معه وهو غير صحيح.

لذا لا بد من الحرص على وعي المصطلحات والمفاهيم والعقائد بشكل دقيق وواضح لا لبس فيه ولا غموض.

ح - عدم النظر بسوء إلى الآخر عند الاختلاف معه، بل القاعدة هي: «احمل أخاك المؤمن على سبعين محملا حسنًا، ولا تظنَّن بكلمة خرجت من أخيك سوءًا وأنت تجد لها في الخير محلا».

---

(١) رواه الإمام مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق.

ط- اعتبار الحوار هو القاعدة في كل الخلافات، وإخراج الاختلاف من دائرة التوتر الذاتي إلى ساحة التوتر الفكري والعملي.

وسائل التربية على التواصل:

أ- دور الأسرة:

تمثل الأسرة الدور الأساسي في بناء العلاقة مع الآخر عندما يتم توجيهها لتأكيد التنوع، واحترام الرأي الآخر؛ وذلك عندما تعمل على توجيه أفرادها إلى جعل الحوار هو قاعدة التعامل فيما بينهم، فلا تبنى علاقة الأب مع الأولاد على أساس العنف والضغط عليهم لقبول ما يملى عليهم، أو على قاعدة أنا الأب وعلى الأولاد أن ينفذوا، بل لا بد أن يترك للولد حرية التعبير عما عنده بكل حرية، وأن يناقش ويحاور وأن يحترم رأيه كما يطلب منه أن يحترم الرأي الآخر، ويتقبله إن كان فيه إيجابيات واضحة.

كما ينبغي الحرص -في بناء الأسرة- على نبذ الكراهية والحقد للآخر لأنه مختلف، بل تبيان سلبية أفكاره وإظهار سلبيتها، فيما النظر بإيجابية إلى أفكاره الإيجابية والقيِّمة. فلا حبَّ مطلقًا ولا كراهية مطلقة، كما ينبغي العمل على بعث المحبة في داخل الأسرة؛ لأن المحبة عندما نبني في أرجائها فهي تنعكس إشعاعا في كل أرجاء المجتمع، المتنوع في الأفكار والانتماءات.

ب- المناهج التعليمية:

تؤدي المناهج في التعليم دورًا بناءً في بناء فكر الطلاب وتوجهاتهم. وفي هذا الإطار ينبغي الدفع بالمناهج التعليمية والتربوية بعيدًا عن سياسة الانغلاق المعهودة التي لا تقدم الآخر على صورته الحقيقية، وإن قدمته فإنها تقدمه بصورة مشوهة وغير واقعية، ومحكومة بعدائية غير مبررة؛ حيث لا بد من مناهج تعليمية تقدم صورة المجتمع كما هي بكل تنوعاته وفئاته. وإن رغب أصحاب

المناهج في تغليب فكر على آخر وأسلوب على آخر أو أولوية على أخرى، فليكن ذلك بشكل موضوعي؛ كي يتمكن كل الذين يلتزمون هذا المنهج أن يحترموا الرأي المختلف لا أن يرجموه أو يواجهوه بالسلبية التي يشهدها الواقع.

ج - وسائل الإعلام:

وعلى هذا الخط فإن للوسائل الإعلامية الدور الكبير الفاعل والمؤثر، بحيث بات يغلب تأثيرها على أي دور آخر؛ حيث المطلوب منها السعي الحثيث لتعزيز التواصل بين المجتمعات والشعوب والحضارات والأديان والفئات المختلفة. ويجب أن لا تكون هذه الوسائل -كما نشهد في وسائل الإعلام- مصدرًا لبعث الكراهية ضد المسلمين انطلاقا من الصور المشوهة التي يقدمها أحدهما عن الآخر، أو مصدرًا للتحريض على الفتن المذهبية؛ إذ لا بد للإعلام الواعي أن يعمل على تقديم الصورة في الواقع الذي انطلق فيه، كما الصورة السلبية. والصورة المشرقة عند المختلف كما الصورة السلبية على قاعدة قوله تعالى: **﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾**(١). فالعدالة هي القاعدة التي ينبغي على الجميع الحرص عليها في تقديم الذات أو الآخر.

كما ينبغي السعي في تقديم الصورة والصورة المقابلة والرأي والرأي الآخر، والدين والدين الآخر، والمذهب والمذهب الآخر، بكل موضوعية. إن هذا الأمر بتنا نشاهده في بعض المؤسسات الإعلامية لكن ليس هو القاعدة غالبًا، حيث لا تزال القاعدة هي أنا لا الآخر؛ خوفا من الآخر أو رغبة في طمس معالمه. وإن قُدّم الآخر فإنه لا يؤتي برموزه الذين يحسنون تقديمه، بل برموز لا تحسن التعبير عنه ولا تقديمه بالصورة الصحيحة.

قد لا نستطيع أن نطلب من الإعلام الموجه أن يكون موافقا للرأي المغاير له،

---

(١) المائدة: ٨ .

فكل إعلام له من يدعمه ويوجهه، وكلٌّ يريد أن يعزز فكرته، لكن لا بد من تقديم الآخر بشكل موضوعي ومنطقي، وأن يكون منطلق دعاء الإمام زين العابدين ط عندما يتوجه إلى الله في قوله: "اللهم فكما كرهت لي أن أظلِم، فقني من أن أُظلَم".

د- مراكز العبادة:

لمراكز العبادة دورها الكبير للتحرك ضمن الصورة التي تنطلق منها وتعبر عنها، فبيوت الله التي تنطق باسمه ينبغي أن تعبر عن الله الذي يفيض على كل عباده بالخير، رغم أنهم يسيئون إليه ويبادلونه بالمعصية، " تتحبب إلينا بالنعم ونعارضك بالذنوب، خيرك إلينا نازل وشرُّنا إليك صاعد، ولم يزل ولا يزال ملك كريم يأتيك عنا بعمل قبيح، فلا يمنعك ذلك من أن تحوطنا بنعمك وتتفضل علينا بكرمك، فسبحانك ما أعظمك وأحلمك وأكرمك".

كما أن الله أكد على الحوار من خلال محاورته للملائكة، حتى إبليس لم يخرج به عن هذه القاعدة، ودعا أنبياءه إلى أن يكونوا دعاة حوار كما في خطاب الله سبحانه للنبي ﷺ في علاقته بالمشركين عندما قال لهم: **﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾**[1]، ومع أهل الكتاب: **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾**[2]، وفي علاقة المسلمين مع بعضهم: **﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ﴾**[3].

لذلك لا بد للمساجد والمعابد أن تكون ملتقيات حوار، وأن نسعى مع كل الذين يحترمون الآخر لاعتماد توجه مشترك، والعمل على تبيان مواقع الاختلاف بكل

---

(١) سبأ: ٢٤ .
(٢) آل عمران: ٦٤ .
(٣) النساء: ٥٩ .

دقة وموضوعية بحيث يستطيع الداخل إلى المسجد أن يفهم تنوعات المسلمين واتجاهاتهم وتنوعات الأديان الأخرى والأفكار المطروحة في المجتمع بالأمانة التي يدعو الله إلى تأديتها، وهكذا حتى في الكنائس وكل دور العبادة الأخرى.

وبذلك تستطيع المساجد أن تُخرِّج جيل الله الذي يلتقي على الله في كونه الخالق للكل، كما قال الإمام علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «الناس صنفان: إما أخ في الدين أو نظير لك في الخلق».

وهذا الأمر ينبغي السعي إلي تعزيزه في كل النوادي الاجتماعية والثقافية وكل المواقع الاجتماعية والدينية، والحرص الدائم أن يكون الآخر حاضرا فيها أو مشاركا أو مطمئنا إلى أنه سيقدَّم التقديم الذي يرضى عنه.

وبذلك نستطيع أن نخفف من كل التشنج الذي ينتجه الاختلاف، ما يعزِّز الإحساس بالتواصل المتبادل والاحترام الكامل والوعي لما عند الآخر، كما الوعي لما عند الذات والمجتمع، فلا يسهل على الأعداء أن يتحركوا على قاعدة فرِّق تسد، أو إشعال الفتن ساعة يشاءون من خلال نفخ روح الاختلاف وتجبيرها لحسابهم.

صيانة التواصل:

حيث لا بد من التأكيد على حفظ التواصل من خلال رد المؤتمرات الداخلية والخارجية والانفعالات التي قد تؤدي إلى تعميق الهوة بين الحضارات المختلفة أو الأديان والمذاهب المختلفة وبين الاتجاهات المتنوعة، لذلك لا بد من صيانة التواصل من خلال:

١- الوعي بأهميته ونتائجه الإيجابية على المتواصلين، وأنه لا يستفيد منه طرف دون الآخر.

٢- إن الانفعال والتوتر لا يحل مشكلة بل يفاقمها ليحصد نتائجها الوخيمة، ولذلك كان التأكيد من الله -سبحانه وتعالى- على منع سباب حتى المشركين؛ لأن

السباب لا يؤدي إلا إلى مثله، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾(١).

وقد أشار الإمام علي ط إلى ذلك عندما رأى قومًا من أهل العراق يسبون أهل الشام كرد فعل على سبابهم، فقال لهم: «إني أكره لكم أن تكونوا سبَّابين، فلو وصفتم أفعالهم وذكرتم حالهم لكان أصوب في القول وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم».

وقال عليه السلام عندما أوصى ابن عباس: «يا ابن عباس، لا يكن أفضل ما نلت من دنياك بلوغ لذة وشفاء غيظ، بل إطفاء باطل وإحياء حق».

٣ - الحرص على الاحترام المتبادل ليساهم في حل الكثير من تشنجات الاختلاف الذي قد يؤدي في نهاية المطاف إلى التقارب التام، وفي هذا السياق لا بد من اختيار الكلمة الطيبة انطلاقًا من قوله سبحانه: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾(٢)؛ حيث إن الكلمة الطيبة تترك أثرًا طيبًا في النفوس، وتذيب الكثير من جليد الاختلافات.

٤ - الوعي التام لأجهزة المخابرات التي تعمل في الليل والنهار من أجل إثارة الفتن المتنوعة ليكون لها الدور والحضور الفاعل في الواقع الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي من باب "فرِّق تَسُد".

٥ - النظر بمسؤولية إلى الخطاب الديني، بحيث يُسْعى دائما إلى التأكيد على عناصر الألفة لدفع الفتن، وعنصر القوة في وجه الأعداء، انطلاقًا من قوله سبحانه: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾(٣)، ﴿لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾(٤).

---

(١) الأنعام: ١٠٨ .
(٢) الإسراء: ٥٣ .
(٣) الفتح: ٢٩ .
(٤) النساء: ١١٤ .

٦ - التأكيد على إيجاد مؤسسات وهيئات تعنى بكبح الخلافات وتحويلها من دائرة التوتر والانفعال إلى دائرة الفعل والحوار.

٧ - تأهيل المجتمع ليقف بقوة وشدة أمام الذين يعملون على صناعة الفتن في واقعنا، والذين يسعون في الليل والنهار لخلق فتن طائفية ومذهبية بين الشعوب والدول الإسلامية.

٨ - الوقوف أمام المنطق التكفيري الذي يسعى إلى تكفير الآخر في الدائرة الإسلامية أو في دوائر الخلاف الأخرى.

٩- إعادة النظر في الكثير من المفاهيم وتوضيحها؛ كي لا تبقى غائمة في أذهان المسلمين مثل: الإسلام، الكفر، الإيمان، الشرك، الارتداد، الإرهاب، السلام، العنف والجهاد، وغيرها من المفردات التي تدخل في دائرة الجدل في الواقع الإسلامي وغير الإسلامي.

١٠- التأكيد على ا لتربية المستمرة في المساجد والإعلام واللقاءات الدينية والاجتماعية والعامة على معرفة الآخر من مصادره الأصلية، وعلى تقبل الاختلاف سواء قُبِل عذر الاختلاف أم لا.

١١- التأكيد على الحوار بين الإسلام والغرب، الإسلام والمسيحية وبقية الأديان، كما بين المذاهب الإسلامية بتنوعاتها، وبين الشرق والغرب، وبين الاتجاهات السياسية والاجتماعية.

١٢- تأكيد التواصل من خلال أعمال مشتركة وأهداف واحدة سواء أكانت اجتماعية أم سياسية أم جهادية؛ بحيث تساهم في تعزيز التلاقي وتخفيف التشنج، وتوجيه الجهود في الاتجاه المشترك.

التأكيد على رؤية إسلامية للآخر:

يشهد الآخر في النظرة الإسلامية حضوراً كبيراً؛ حيث انصب الكثير من الخطاب الإسلامي على الإشارة إلى التنوعات الموجودة في الواقع الإنساني،

والتشديد على الاعتراف بالآخر، وتبيان أسلوب التعامل معه؛ لأن الإسلام دين للعالمين لم يختص بفئة معينة، ولم يكن في أطروحته مركزًا على الدائرة الإسلامية، بل توسع لصياغة علاقة المسلمين مع غيرهم.

فالله سبحانه أشار إلى أن الاختلاف قاعدة في الحياة وسنة كونية: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾**(١)، **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى﴾**(٢).

وقد أظهر الله التنوع في الواقع الذي ينتج شعوبًا مختلفة، وحضارات متنوعة حيث قال سبحانه: **﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾**(٣)، حيث اعتبر أن العلاقة بين مكونات الأسرة العالمية الواحدة سواء في شعوبها أو قومياتها يبنى على أساس من التفاهم والتعارف.

كما أذن سبحانه بوجود التفاوت في الأوضاع الاجتماعية؛ وهو ما جعل الناس تحتاج إلى بعضها، وفرض عليها حالة من التواصل، سواء الإيجابي أو السلبي: **﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾**(٤).

لكن التنوع الآتي من طبيعة الخلق والمواقع التي يتحرك فيها الناس، وإن كان من آيات الله، فإن الاعتبار الأساسي عند الله هو للخصائص الذاتية للإنسان التي تمثل مقاييس التفاضل عنده، وينبغي أن تكون بين الناس، وذلك في ضوء قوله تعالى: **﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾**(٥).

---

(١) الروم: ٢٢ .
(٢) الحجرات: ١٣ .
(٣) الحجرات: ١٣ .
(٤) الزخرف: ٣٢ .
(٥) الحجرات: ١٣ .

أما فيما يتصل ببناء نظام الحياة الإنسانية؛ فقد حرص القرآن الكريم على التأكيد أن الناس كانوا أمة واحدة تجمعهم شريعة متكاملة أرسلها الله لهم لتنظيم حياتهم، وقد أرسل الله الرسل كي ينبوا حياتهم في ضوئها، وليسدوا ثغرات الاختلاف التي قد تنشأ نتيجة تضارب المصالح وتناقضها. ولكن الذي حدث هو الإصرار على التمسك بموقع الاختلاف نتيجة البغي والعدوان... فيما بقي الآخرون يهتدون بهدى الله الذي حماهم من كل عناصر الضعف هذه، قال تعالى: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾(١)، ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا**﴾(٢)، ﴿**وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾(٣)، ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ**﴾(٤).

فالنظرة الإسلامية تشير إلى أن الله أراد من الاختلاف أن يؤدي إلى تكامل بين بني الإنسان، على قاعدة تأكيد عناصر الوحدة في داخل المجتمع الكبير والصغير.. ولهذا كانت دعوته ﴿**وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ**﴾(٥)، ﴿**وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾(٦)، ﴿**وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾(٧).

---

(١) البقرة: ٢١٣ .
(٢) النساء: ١٠٥ .
(٣) النحل: ٦٤ .
(٤) آل عمران: ١٩ .
(٥) آل عمران: ١٠٣ .
(٦) الأنفال: ٤٦ .
(٧) آل عمران: ١٠٥ .

ولكن هذا الواقع من الاختلاف -وبعد حصوله- لم يمنع الرسالة الإسلامية من الاعتراف بالنتائج التي ترتبت عليه، سواء على المستوى الديني أو المستوى المذهبي أو على مستوى قومي وعرقي حيث يدعو الإسلام إلى التعامل معه بكل إيجابية.

وحتى في مسألة الاختلاف الديني كان هذا الدين حريصًا على أن يكون حاسمًا في التعبير عن فكره بكل تفاصيله، والإشارة إلى النقاط التي يرى خطأ الآخر فيها وعدم صوابه، لكنه وإن تحدث عمن يختلف معه فكريًا بلسان الكفر أو مجافاة الحقيقة، فإنه كان حريصًا على أن يُبْقي باب الحوار مفتوحًا عندما قال للذين لا يؤمنون بالدين أبدًا ولا بالرسالات السماوية ﴿**وإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾(١).

وأشار إلى الخلاف الذي قد يحدث في الدائرة الإسلامية: ﴿**فإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ**﴾(٢)، كما أشار إلى القاعدة الإسلامية في نشر الدين ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾(٣)، ﴿**فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾(٤)، وأكد على العدالة في التعامل مع الآخر المختلف حتى لو وصل الخلاف إلى حد البغي والعدوان.. ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾(٥).

ودعا إلى البر مع الذين يختلفون فكريًا ودينيًا مع المسلمين عندما لا يقاتلونهم ولا يعملون على إخراجهم من دينهم، ولا يسعون لإخراجهم من ديارهم،

---

(١) سبأ: ٢٤ .
(٢) النساء: ٥٩ .
(٣) البقرة: ٢٥٦ .
(٤) الكهف: ٢٩ .
(٥) المائدة : ٨ .

قال عز وجل: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(١).

وحث على التعامل مع الناس على أساس الأحسن في القول في ردود الفعل على الإساءات ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(٢).

وقال في إطار حديثه عن الأسلوب الذي ينبغي انتهاجه في مواجهة المشاكل التي تحدث في داخل المجتمعات المتنوعة والأفراد المختلفين: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ﴾(٣)، وهو أسلوب اللين، والأسلوب الذي يوحي بالسلام. ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(٤). ادرس المناخ الذي أنت فيه، ادرس الناس الذي يتخبطون في المشكلة معك أو تتخبط في المشكلة معهم، أو في الظروف الموضوعية التي تحيط بك.. فكر في الكلمة الحسنى والأسلوب الأحسن والمناخ الأحسن والتخطيط الأحسن.. ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.. فكر في الحل الذي يحوِّل عدوك إلى صديق؛ لا إلى صديق عادي وإنما إلى صديق حميم، صديق يحتضنك ويحتضن فكرك وإنسانيتك وقضيتك. ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾، الذين لا يعيشون الصراع الفكري والسياسي بعصبياتهم، ولكن يعيشونه بعقولهم، ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(٥) حظ عظيم من الوعي.

ونحن نقرأ أيضًا في حديث رسول الله ﷺ: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه»، و «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف» (٦). فعندما تُحل المشكلة بالعنف أو تحل باللين

---

(١) الممتحنة: ٨ .
(٢) الإسراء: ٥٣ .
(٣) فصلت: ٣٤ .
(٤) المؤمنون: ٩٦ .
(٥) فصلت: ٣٥ .
(٦) رواهما الإمام مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق.

فإن أجر الحل بالرفق يزيد على أجر الحل بالعنف، ومعنى ذلك أن الإسلام يعلن للإنسان أن عليه أن يكون منفتحًا على الآخر ولا يتعقد منه..

وهكذا في التجربة الإسلامية، فقد استطاع الإسلام أن يقدم تجربة رائدة عبَّر عنها العلامة الفرنسي جوستاف لوبون عندما قال: «رأينا في آي القرآن أن مسامحة محمد ﷺ لليهود والنصارى كانت عظيمة للغاية». ويصف روبرتسن في كتابه (تاريخ شارلمان) أن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى.

ويقول سير ت. أرنولد في كتابه (الدعوة إلى الإسلام): «إن القوة لم تكن عاملا حاسمًا في تحويل الناس إلى الإسلام، فمحمد عقد حلفًا مع بعض القبائل المسيحية، وأخذ على عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية، كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم».

ويقول آدم متز في كتابه (تاريخ الحضارة الإسلامية): «إن الكنائس والبِيَعَ ظلت في الدولة الإسلامية كأنها خارجة عن سلطان الحكومة، معتمدة في ذلك على العهود وما أكسبتهم من حقوق، وقضت الضرورة أن يعيش اليهود والنصارى بجانب المسلمين، فأعان ذلك على خلق جو من التسامح لا تعرفه أوربا في القرون الوسطى. وكان اليهودي أو النصراني حرًا أن يدين بدينه».

ولكن هذا الجو المليء بقيم التسامح والمحبة لا يعني أن الإسلام رفض العنف بالمطلق، فهو أشار إلى إمكانية العنف كاستثناء لا من أجل الدعوة إلى الدين؛ حيث إن الدعوة بنيت على أساس الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ﴿**ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[1]، ولكن لأجل ردِّ التحدي ﴿**وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ**﴾[2]، ﴿**وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ**﴾[3]. حيث أمرت بقتال من

(١) النحل: ١٢٥ .
(٢) البقرة: ١٩٠ .
(٣) النساء: ٧٥ .

يريد الاعتداء، وقد تكون وقاية من الآخر ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾[١]، ولكن دائما كان التوجيه القرآني ﴿وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾[٢].

وعندما تحدث القرآن عن ردِّ التحدي أبقى المجال مفتوحًا للعفو واعتبره أقرب للقيمة الرسالية ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾[٣]. وهنا لا يكون العفو حالة ضعف، ولكنها حالة إنسان يملك قوة أن يرد الاعتداء بمثله ومع ذلك يعفو.. لذلك، فإن ما يتحدث عنه البعض من أن الإسلام يطرح الجهاد كالسيف المسلَّط على رؤوس المختلفين معه ليست له أية واقعية..

وعندما يتحدث البعض عن الفتوحات الإسلامية، فإن الفتوحات لم تكن للسيطرة على الآخرين ولا لفرض الدين الإسلامي عليهم، بل لإفساح المجال لهذا الدين أن يتحرك بحرية ليصل إلى العقول بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، عندما لا تتوافر إلا هذه الوسيلة لحصول ذلك، وهنا نورد قول جوستاف لوبون الذي يتحدث فيه عن الفتوحات الإسلامية: «ما عرف التاريخ فاتحًا أرحم من العرب».

إن العرب عندما انطلقوا إلى الأندلس حملوا للغرب ثقافة متطورة، وكان التأمل العقلي مصدر المعرفة الوحيدة، فجاءوا بالتجربة لتكون مصدرًا أساسيًّا للمعرفة، ومن خلاله استطاع الغرب أن ينطلق وينفتح على كل إبداع، حتى قال جواهر لال نهرو في كتابه (لمحات في تاريخ العالم) عندما تحدث عن الحضارة الإسلامية: "إنها أمُّ الحضارات الحديثة".

في مقابل هذا الجو قد يتحدث البعض عن حوادث ١١ سبتمبر وعن الإرهاب الإسلامي، وهنا لا بد أن نشير إلى عدة ملاحظات:

---

(١) الأنفال: ٥٨ .
(٢) البقرة: ١٩٠ .
(٣) البقرة: ١٩٤ .

١- عندما نقارن بين هذه المسألة في تأثيراتها السلبية في الغرب على المسلمين وعلى العرب تستوقفنا حالة اضطهاد متنوعة في أشكالها ضد العرب والمسلمين في أكثر من واقع غربي، بحيث صار الإنسان المسلم يخشى على نفسه من أن يواجه اضطهاداً متنوعاً.. ولا نزال نلمس ذلك في عمليات الإساءة المتواصلة إلى رسول الله ﷺ وإلى مفهوم الجهاد الإسلامي، وغيره من الرموز والعناوين الإسلامية، بينما نلاحظ -وبشكل عام- أن الغربيين سواء أكانوا أمريكيين أم بريطانيين أم فرنسيين ممن يعيشون في العالم الإسلامي لم يعرض أحدٌ لهم بسوء سوى في بعض ردّات فعل صغيرة محدودة جدّاً؛ وهو ما يعني أن الإنسان العربي والمسلم لا يؤاخذ الناس بفعل ما يقوم به بعضهم، وإنما يضع القضية في نطاقها الخاص، كما في القرآن الكريم ﴿ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (١).

٢ – وهكذا عندما نقارن بين المنظمات الإرهابية حسب اصطلاح الغرب وبين المنظمات المماثلة في الغرب، نجد القائمة مليئة بأسماء المنظمات الإرهابية هناك، وهذا ما تبينه الإحصاءات حول الجريمة هناك، حتى يقال: إن إحصاءات الجريمة تفوق كل الإحصاءات في البلدان العربية والإسلامية، ناهيك عن إرهاب الدولة الذي يحظى بدعم الغرب الرسمي، كما هو حال إرهاب إسرائيل.

إن هذه الصورة التي نقدمها عن الإسلام والمسلمين لا تعني أن ليس هناك من يعتبر العنف قاعدة، ومن يسيء في الأسلوب حتى في تعامله مع الإسلام، ولكن علينا أن لا نعمم القاعدة ونعتبرها تمثل صورة المسلمين العامة، وأن نفصل في الوقت نفسه بين صورة المنظمات التي تعمل لتحرير أرضها كما في كل بلد عربي وإسلامي تحتل أرضه، وبين صورة الذين يفجرون الناس ويرددون عناوين ليس لها مصداقية في واقع الإسلام وفي حركته.

---

(١) الزمر: ٧ .

وأخيرا: لا بد أن نؤكد على أن رسالة الإسلام هي رسالة اليد المفتوحة للغرب والشرق وكل الأديان والاتجاهات، لكنها المبنية على أساس الاحترام المتبادل والحرية المتبادل والعزة المتبادلة والإكرام المتبادل على أساس القيمة: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾**[1].

---

(١) الحجرات: ١٣.

محتويات البحث

الموضـــوع	رقم الصفحة

آفاق التواصل مع الآخر ومبادئه

سماحة الشيخ / محمد علي التسخيري
الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب
بين المذاهب الإسلامية

تمهيد:

نتناول في هذا التمهيد ثلاث نقاط:

الأولى: يمكننا القول بأن مفهوم (نحن) ومفهوم (الآخر) يمكن أن يكونا نسبيين، على ضوء المحور الذي نستند إليه؛ فقد يكون هذا المحور هو الذات الشخصية، أو الذات المذهبية في إطار الدين الواحد، أو الذات الدينية، أو الذات المؤمنة بدين سماوي، أو الذات المؤمنة بمطلق قيمي حتى وإن لم تؤمن بدين سماوي، وحينئذ يختلف (الآخر) باختلاف محور (الذات)، وتختلف نوعية (العلاقة) بينهما سعة وضيقًا، وتتنوع آفاق التواصل، وبالتالي تختلف الأشكال وآليات التواصل تبعًا لذلك.

وما نركز عليه في هذا البحث هو محور الذات الإسلامية، فيكون (الآخر) هو ما عدا المسلمين سواء كانوا متدينين بدين سماوي أو مؤمنين بمطلقات قيمية أم لا. وبطبيعة الحال يختلف خطابنا بما فيه استدلالاتنا باختلاف المخاطب، واختلاف القيم المشتركة بيننا وبينه.

الثانية: لا يمكننا أن نفصل المسألة الاجتماعية؛ أي (الأسلوب والآليات الخطابية والسلوكية أو فلنقل: نظام التعامل) عن المسألة الفلسفية؛ أي (كيفية تقييم الوجود بما فيه التاريخ والإنسان)، فهما مرتبطتان؛ ولذا كانت (الأيديولوجيا) مرتبطة تماما بالسلوك، فلا يدعي الفصل بينهما إلا المغالطون. وقديما ادعت (الرأسمالية) الفصل بين العقيدة والسلوك الاجتماعي ولكنها في الواقع كانت قد آمنت بالمادية، ثم وضعت نظريتها الاجتماعية.

وعليه: إن لم نحدد الأسس النظرية الفلسفية المشتركة يصعب الالتزام بالمنطقية في مجال تحديد الأساليب وآليات التعامل مع الآخرين. ومن هنا سوف نركز على الأسس النظرية التي تشكل المشترك فيه مقدمة لتحديد هذه الآليات.

الثالثة: قيل الكثير عن النظريات الفلسفية التي نظرت إلى الوجود نظرة كلية فرأته يتلخص في (وحدة متكثرة) أو (كثرة متوحدة)، ومنها نظرية (الحكمة

المتعالية) للمرحوم صدر المتألهين الشيرازي، وتتلخص في كون الوجود حقيقة خارجية لا يوجد فيها تباين أو تنوع بل هي ذات واحدة؛ وحدة متكثرة وكثرة متوحدة قائمة على أساس الإيمان بالوجود المشكك المؤدي إلى تنوع في العلل والمعاليل، والقوى والفعاليات، ولكنه لا يعد تنوعًا في الماهيات، وإنما هو تنوع في حد الوجود وقوته وضعفه ودرجاته ومراتبه.[1]

ولسنا بصدد تأييد هذه الرؤية أو ردها بقدر ما نحاول التأكيد على أن كل الفلاسفة والعرفاء يدركون حقيقة جامعة، وهي هذا الالتحام بين وحدة هذا الوجود المترامي وبين تنوع مظاهره وتجلياته، ولكنهم يختلفون في تفسير ذلك..

وإذا ما ركزنا على الوجود الإنساني اتضحت لنا هذه الحقيقة بشكل أعمق؛ فنحن من جهة ندرك وجدانًا -ودونما شك- وجود مساحة أصيلة تميز النوع الإنساني عن غيره، وتبعًا لذلك تميز العمل والسلوك الإنساني عن السلوك الحيواني، فضلا عن الحركة النباتية أو الجمادية.. كما ندرك وجود تنوع واسع في الألوان واللغات والأجناس والأذواق والثقافات وغير ذلك.

ومن هنا، ونتيجة لنظرة موضوعية فاحصة، نجد الإسلام بمقتضى انسجامه مع الفطرة والواقع الإنساني أقر أمورًا تنطلق من الواقع وتنظم هذه العلاقة أروع تنظيم؛ وهو ما يشكل أروع نظرية إنسانية في العلاقات بين بني البشر. وقد سعينا في هذا البحث لتبيين بعض الملاحظات أو الأضوية في هذا المجال، مستندين إلى النصوص الإسلامية المتعلقة بهذا الموضوع.

الملاحظة الأولى: التنوع لطف إلهي له غاياته الكبرى في الخلق.

وقد حفلت الآيات القرآنية بما يدل على هذه الحقيقة، مثل:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ

---

(١) الملا صدرا والحكمة المتعالية، فارسي، ص ٥٦ .

التَّي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٥).

إلى غيرها من الآيات الشريفة التي تجعل التنوع سنة إلهية ونعمة على الموجودات وأهمها الإنسان؛ تسهل له حياته إلى جانب ما لا يحصى من الظواهر التي تدل على التخطيط الإلهي الحكيم لهذه المسيرة الإنسانية المتكاملة.

ولا ريب في أن التنوع -كما تشير بعض النصوص- ضروري لتحقيق التعارف السليم مقدمة للتعاون البنَّاء لتحقيق أهداف الخلقة الإنسانية، كما أنه ضروري لفسح المجال لانطلاقة العقل نحو الاجتهاد والإبداع والابتكار وتطوير الحياة عبر الاستفادة من قدرة التجريد العقلي والخلاص من أسْر الظروف الحسبية لتصور الحالة الأفضل، وبالتالي التخطيط لتحققها.. وهو ضروري للتنافس في الخير

(١) البقرة: ١٦٤ .
(٢) آل عمران: ١٩٠ .
(٣) الروم: ٢٢ .
(٤) الزخرف: ٣٢ .
(٥) الحجرات: ١٣ .

لتحقيق الدفع التكاملي المطلوب، بما فيه التسخير المتبادل للطاقات والتعاون اللازم.

ثم إن هذا التنوع لا بد أن يعني الاعتراف بتنوع الرؤى والمواقف والمذاهب، ومن هنا لا نجد أي تأكيد على وحدة الأفكار إلا ما يتميز به المسلم عن غيره.

الملاحظة الثانية: عملية الحوار والإيمان بالقيم المشتركة والمطلقة

إن الإنسان يطمح -كما قلنا-بفطرته إلى تغيير الواقع إلى الشكل الأمثل، وهو يحتاج في كل مراحل التغيير إلى الإيمان بالقيم الثابتة وعلى النحو التالي:

أولا: في مرحلة إيمان الإنسان بذاته.

ثانياً: في مرحلة العبور إلى خارج الذات.

ثالثًا: في مرحلة صياغة الفكر وتكوين الصورة عن الحاضر والمستقبل، انطلاقًا نحو التغيير إلى الأفضل.

رابعًا: في مرحلة نقل الفكرة إلى الآخرين وتلقي أفكارهم.

خامسًا: في مرحلة السَبّر والتقسيم والتمحيص والتداول.

سادسًا: في مرحلة الاستنتاج والاقتناع.

سابعًا: في مرحلة التخطيط للتغيير.

وأخيرًا: في مرحلة تنفيذ التغيير وتحقيقه.

وخلاصة الأمر: إن هناك تلازمًا تامًا بين المسيرة الحضارية الإنسانية التغييرية وعملية الحوار والإيمان بالقيم المشتركة والمطلقة.

القيم المشتركة مطلقة واقتضائية:

إننا وبالتحليل النفسي الوجداني الذي اعتمدناه في مسيرتنا هذه ندرك وجود

منظومتين من القيم إحداهما مطلقة التأثير لا تحدها حدود أو ظروف معينة، والأخرى هي قيم الحالة الطبيعية أو (قيم الأصل)؛ وهو ما يعني تحولها إلى النقيض أو فقدانها التأثير المطلوب إذا طرأت ظروف أخرى.

ومن أمثلة المنظومة الأولى: قيمة العدالة، فهي مطلوبة مهما كانت الظروف.. وكذلك تقديم الشكر للمنعم المتفضل.

ومن أمثلة المنظومة الثانية: حفظ الذات، حفظ الكرامة، التعاون، الدفاع عن المستضعفين والسلام والأمن، والتغيير إلى الأفضل، والرحمة والإيثار والأمانة.

فقد يكون الصدق في بعض الأماكن نتيجة ما يؤول إليه من تبعات ظلمًا لا عدالة، وكذلك السلام أحيانًا بما يؤدي إليه من جرأة على حرمات الإنسانية. فإذا كانت العدالة قيمة مطلقة، فإن السلام قيمة نسبية نعمل على تحقيقها إذا عادت وجهًا من وجوه العدالة، ونرفضها إن كانت ظلمًا، ولكن التساؤل الأساس هو: ما معايير العدالة؟ وكيف نتأكد من تحقيقها؟.

إن الأديان السماوية كلها تؤكد على معيارين:

الأول: معيار تعبدي نستفيد فيه من علم العالم المطلق وهو الله تعالى، وهو تعليمات الدين الثابتة، التي نتأكد من كونها صادرة من الله سبحانه؛ ذلك أننا نتأكد قبل ذلك من علم الله الشامل، ومن لطفه ورحمته بالإنسان المخلوق ومن عدالته وتمتعه بكل صفات الكمال، فهو لا يريد بالإنسان إلا الخير، ولا يخدع الإنسان وإنما يكشف له كل الواقع ويريد له كل الخير.

الثاني: معيار وجداني يكفي فيه التأمل في الأعماق وقناعاتها، أو فلنعبر بأنه يكفي فيه الرجوع إلى الفطرة نفسها.

وما يساعدنا في اكتشاف العمق الفطري كون هذه القناعة - أيّة قناعة كانت- من ملازمات الطبيعة الإنسانية، ولذلك نجدها متوافرةً لدى كل أبناء الإنسان في مختلف ظروفهم وحالاتهم الفردية والاجتماعية وأزمنتهم وأمكنتهم.

ولكي نتأكد من هذا المعنى نستطيع أن نطرح هذا السؤال على أي إنسان: (هل

تعتبر أن السلوك الفلاني سلوك إنساني أم إنه سلوك حيوانيّ ؟)، فمثلا لنركز على (قتل اليتامى والعجزة والمستضعفين للتلهي والتشهي)، مثل هذا السلوك يعد سلوكًا وحشيًا من قبل أي إنسان بلا ريب، والقرآن الكريم أحيانًا يعيد الإنسان إلى تأمله الوجداني وقناعته الفطرية حينما يقول: ﴿**أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ**﴾[١]، ويترك أمر تعيين الطيبات له، ويقول: ﴿**إنَّما حَرَّمَ ربِّيَ الفواحشَ**﴾[٢]، ويترك أمر تعيين الفواحش له أيضًا ويعتبر الخروج عن الحالة الإنسانية (فسقًا) وانحرافًا عن الطبيعة ﴿**نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[٣].

الملاحظة الثالثة: التواصل الفكري مع الآخرين

إن التركيبة الوجودية الفطرية تتطلب التواصل الفكري مع الآخرين عبر صياغة الفكرة داخليًا ونقلها عبر الطريقة الرمزية واللغوية إلى الآخرين، والتعرف على ما يفكر به الآخرون ليتم التفاعل بين الأفكار وبالتالي تطويرها.

ولكن هذا التفاعل يحتاج إلى قواعد يدركها الإنسان بالوجدان إجمالا، وتبلورها وتوضحها إرشادات الوحي أيما توضيح، ونحن نعتقد أن الوحي – بالإضافة إلى كشف المجالات المعرفية المجهولة لدى الإنسان في سبيل تسهيل وصوله إلى كماله-يستهدف أن يبرز له كوامنه الفطرية واستعداداته النفسية، ويوضح له بجلاء إدراكاته العملية.

ومن هنا نجد القرآن الكريم يعرض أمام الإنسان نظريته الحوارية المتكاملة الشاملة لمرحلة ما قبل الحوار ولأهدافه ومواضيعه وأخلاقه وشروطه اللازمة كي يحقق هدفه المنشود، دون أن يقع فريسة الجهل والتعصب والنرجسية والاعتداد بالنفس والعناد والخرافات والتقليد الأعمى والتهويش والاستخفاف. وأمثال ذلك

(١) المائدة: ٥ .
(٢) الأعراف: ٣٣ .
(٣) الحشر: ١٩ .

مما يتعقبه القرآن بكل دقة ويعمل على نفيه، وتنقية الحياة الفكرية منه؛ ليتسنى للإنسان أن يحاور بكل صفاء وموضوعية، وبروح حضارية تواقة للكمال.

الملاحظة الرابعة: الحوار يستلزم الاعتراف بالآخر

مما يتردد في بعض الكتابات أن الحوار يستلزم الاعتراف بالآخر، أو يعني التردد في الموقف وعدم الوثوق منه، أو يعني وضعه إلى مستوى الفكر الآخر، وربما قيل إن موقف من يطلب الحوار هو موقف الضعيف الذي يطلب أن يعترف به الآخرون.

ولكننا نعتقد أن كون الحوار سبيلا منطقيّا إنسانيا ينفي عنه كل هذه الأمور؛ فهو لا يستلزم الاعتراف بالآخر ولا يتطلب أن يعترف الآخر به، وإنما يبحث عن مسيرة ومساحة مشتركة، أو عما إذا كان الآخر ينظر إلى نقاط مبهمة لا يتفهمها ويحتاج الأمر إلى توضيح ما..

نعم، من شرط الحوار احترام الآخر وعدم الإساءة إليه أو إثارته ليخرج عن حالته الطبيعية، وهذا منهج قرآني أصيل. وهو أيضًا لا يعني التردد في الموقف بقدر ما يعني الثقة به، وقد دعي الرسول ﷺ ليقول للمشركين: ﴿**وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾[1] وهو أعظم الناس إيمانا. إن الواثق لديه القدرة على الدخول في الحوار؛ لأنه مطمئن من جوهرته الثمينة فلا يخاف عليها من نقد ناقد.

الملاحظة الخامسة: دراسة الجوانب المشتركة بين المتحاورين

مما يرتبط بعملية الحوار أن الهدف العام يجب أن يكون دراسة الجوانب التي يشترك فيها المتحاوران، وإن كان ذلك الاشتراك في الخطوط الجوهرية دون

---

(١) سبأ: ٢٤ .

التفاصيل، ثم دراسة إمكان التوسع في هذه المساحة عبر سبر أبعاد المسائل والتوصل فيها إلى محاور مشتركة، ثم يأتي بعد ذلك التخطيط لتحويل المساحة المشتركة إلى واقع مجسّد، وهنا يبرز أمران:

أولهما: أن هذا المقصد عام متّسع يمكن تطبيقه على كل المتحاورين مهما كانت مواقفهما النظرية والعملية. وها نحن اليوم نعيش دعوة للحوار بين العالم الإسلامي والغرب. ورغم اتساع الهوة بينهما، وقيام الغرب بكل ما من شأنه القضاء على الهوية الإسلامية، وتوجيهه الإهانة للمقدسات الإسلامية السامية ورغم أنه فعل كل ذلك بدوافع صليبية متطرفة أو صهيونية حاقدة، فإن المجال ما زال مفتوحًا، كما نرى الحوار بين العقلاء من الطرفين يحاول حل القضايا العالقة، وتبين المساحة المشتركة، وهذا لا يمنع من العمل الرادع ضد العناصر المتطرفة وإيقافها عند حدها بمختلف الأساليب المناسبة.

وثانيهما: أن المساحة المشتركة كلما اتسعت اتسعت معها المسؤوليات المشتركة، وتبع ذلك تعاون أكبر في المسار الحضاري المشترك حتى لو تطلب الأمر تجميد بعض الخلافات لصالح ذلك. ومثال على ذلك نطرح هنا مسألة الحوار بين الأديان الإبراهيمية والتعاون لصد موجة الإلحاد والعلمانية، ورفع مستوى المعنويات، وتقوية حركة التوازن الحضاري؛ لأن الأديان تشكل روح الحضارات، حتى ولو حاولت بعض الحضارات التنصل من روحها الدينية وادعاء العلمانية.

الملاحظة السادسة: تفعيل المشترك الإنساني

ونحن نعتقد أن المسؤولية الحضارية مسؤولية مهمة يوليها الإسلام أشد الاهتمام؛ حيث يربي في المسلم رؤية إنسانية واسعة تجعله يفكر في الآخرين، فإما هم إخوة في الدين أو نظراء في الخلق -كما يعبر الإمام علي في نهج البلاغة- وينصر كل مستضعف مهما كان اتجاهه، ويدعم كل حركة عادلة مهما كان لونها، وهو يعتقد أن لكل كبد حرى أجرًا كما يعبر الرسول الأكرم ﷺ .. بل هو يعشق الطبيعة ويحبها، ولا يؤذي حتى الحيوانات الأليفة، إنها إذن خلقية حضارية.

وهي -كما قلنا- تتسع باتساع المساحة المشتركة؛ فمسؤولية المسلم تجاه المسيرة الإنسانية ورفدها ومحو الظلم منها كبيرة، وتجاه المتدينين أكبر، وتجاه المسلمين أكبر وأكبر، وهكذا حتى يصل الأمر إلى المحلة المشتركة والعائلة المشتركة.

الملاحظة السابعة: الدفاع عن حقوق الإنسان

إن مسألة الدفاع عن حقوق الإنسان تندرج في الملاحظة السالفة بقوة؛ وذلك لأننا نعتقد أن الله أودع في الفطرة الإنسانية ما تدرك به هذه الحقوق، وما به يتم ضمانها للنوع الإنساني، وحتى الحقوق المكتسبة من قبيل ما يستحقه المتقون والمحسنون والصالحون والآباء والأقارب من احترام وشكر وضعت في الفطرة منا شيء لانتزاعها، وتدركها النفس الإنسانية بـ (العقل العملي) كما يسميه الفلاسفة، أو بالوجدان وهو خصيصة فطرية تتواجد مع الإنسان وتلومه إن انحرف عن الصبغة الطبيعية الإنسانية.

ومن هنا نقول: إن الإسلام ينطلق في نظريته عن حقوق الإنسان من منشأ واقعي فطري وينسجم في كل تشريعاته مع هذا المنشأ، في حين تعجز النظريات المادية -وهي لا تؤمن بالفطرة- عن إقامة مثل هذا البناء على أسس متينة، بل إننا نعتقد أن الحديث عن العدالة والأخلاق والذوق الفني، بل وعن المعرفة الإنسانية لا معنى له إذا أنكرنا الفطرة.

الملاحظة الثامنة: التفاعل لا الصدام الحضاري

إن العالمية هي اتجاه طبيعي يخرج به الإنسان عن دائرته الضيقة إلى المساحة الإنسانية الواسعة، ومن كثرته إلى وحدته، ومن همومه المحدودة إلى المسؤولية الكبرى، وبالتالي فهي حركة مباركة. ونحن نشهد اليوم كيف ترابطت المصالح واشتبكت الأمور في مجال البيئة والإعلام والحقوق والعلوم والطاقة وغير ذلك،

إلا أن المذموم والخطير في الأمر أن هناك حركة شيطانية تحاول الهيمنة ثقافيًا واقتصاديًا وعسكريًا لسرقة هذا النتاج الحضاري، وتحقيق أهدافها وسحق الآخرين؛ وهو ما نسميه اليوم بالعولمة المجنونة والحمقاء والأمركة وما إلى ذلك مما يتطلب أن تتحرك البشرية كلها ضد هذا الاستغلال الحضاري المقيت.

الملاحظة التاسعة: حماية الأمن الفردي والاجتماعي

لا ريب في كون الأمان مطلبًا إنسانيًا فطريًا يستمد جذوره من أهم غريزة وجدت في فطرة الإنسان، وهي غريزة (حب الذات)، وهذه الغريزة تعمل مع باقي الغرائز بشكل متناسق لتحقيق سير إنساني متوازن نحو الأهداف التكاملية العليا للإنسان.. فلا يكفي وجود الدوافع الغريزية لتأمين المسير المتوازن، وإنما يجب تأمين جو طبيعي للذات الفردية وللذات النوعية كي تدفعها تلك الدوافع نحو أغراضها المنشودة.

وتأكيدًا من الفطرة نفسها على توفير الجوّ الآمن، نجد العناية الإلهية قد غرست فيها بديهيات الحكمة، والميول نحو العدل، والنفور من الظلم والاعتداء، بل ومنحتها القدرة على تعيين الكثير من مصاديق العدل والظلم؛ وهو ما يمهد لها السبيل للاتصال بالخالق العظيم وتقديم معاني الولاء له، وحينئذ تنفتح لها آفاق الوحي، وتكتشف بذلك الأطروحة السماوية الرحيمة التي تعطيها المخطط الكامل للمسيرة، وتضمن لها كل ما يوصلها إلى أهدافها.

فالأمن إذن حاجة إنسانية دائمة لا تغيّرها الظروف، وليس ظاهرة عرضية حتى يقال إنها معلولة لوضع اجتماعي معين إذا ما تبدلت هذه الظاهرة معه. ومن هنا أيضًا يكون من الطبيعي أن نتصور الحاجة إلى نظام شامل يتكفل بحماية الأمن الفردي والاجتماعي على مدى مسيرة الإنسان الطويلة.

ولا يمكننا أن نتصور حدودًا لمسألة حماية السلام والأمن إلا في إطار مسألة التكامل الإنساني ذاتها، بعد أن ندرك أن الفطرة - كما قلنا - هي معيار الحقوق الإنسانية كلها بشكل إجمالي. وأنها التي فرضت حماية الأمن الإنساني لتحقيق

الهدف الكبير، وحينئذ لن يقبل الأمن تحديداً إلا إذا خرج عن وظيفته الحياتية، وعاد عنصراً ضد الأمن نفسه، فلا معنى إذن لضمانه.

وإلا فكيف نتصور الفطرة التي أعلنت الحاجة إلى الأمن وهي تسمح للفرد بالقضاء على أمن نفسه هو، أو أمن الآخرين، وبالتالي على أمن المسيرة الإنسانية كلها دون أن تحدده بما يردعه عن فعلته، حتى ولو كان ذلك بتهديد أمنه؟.

محتويات البحث

آفــاق

التواصــل مع الآخــر

الأستــاذ/ فهمــي هويــدي

الكاتب والمفكر الإسلامي

(١)

آفاق التواصل مع الآخر في التصور الإسلامي تقوم على ثلاثة أعمدة، هي:

الأول: أن الآخر إنسان له حصانته وكرامته.. وعديدة هي الآيات القرآنية التي تعلي من شأن الإنسان، حتى تعتبره بحق مخلوق الله المختار.. من تلك الآيات قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾[١]، ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾[٢]، ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ**﴾[٣]، ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾[٤]، ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾[٥].

وعبّر الشيخ محمد الغزالي عن تلك الرؤية في تقديمه لكتابه حول (حقوق الإنسان) بقوله: «إن قَدْر الإنسان في نظر الإسلام رفيع، والمكانة المنشودة له تجعله سيدًا في الأرض وفي السماء؛ ذلك أنه يحمل بين جنبيه نفخة من روح الله، وقبسًا من نوره الأقدس. وهذا (النسب السماوي) هو الذي رشح الإنسان ليكون خليفة عن الله في أرضه، وهو الذي جعل الملائكة، بل صنوف المخلوقات الأخرى، تعنو له وتعترف بتفوقه».

ومن المهم أن نلاحظ في هذا الصدد أن الآيات التي تمجد الإنسان وتعلي مرتبته فوق كل المخلوقات، تتناول الإنسان لذاته لا لاعتقاده؛ من حيث هو تكوين بشري، وقبل أن يصبح مسلمًا أو نصرانيًا أو يهوديًا أو بوذيًا، وقبل أن يصبح أبيض أو أسود أو أصفر..

---

(١) الإسراء: ٧٠ .

(٢) التين: ٤ .

(٣) الأعراف: ١١ .

(٤) البقرة: ٣٠ .

(٥) الحجر: ٢٩ .

وليس صحيحًا على الإطلاق أن تلك الحفاوة القرآنية من نصيب المسلمين دون غيرهم كما يتصور البعض؛ ذلك أن النصوص القرآنية شديدة الوضوح في هذه النقطة بالذات، فهي تارة تتحدث عن «الإنسان» وتارة تتحدث عن «بني آدم»، ومرات أخرى توجه الحديث إلى «الناس». وهذا التعميم لا تخفى دلالته على أي عقل منصف ومدرك للغة الخطاب في القرآن الكريم، التي تستخدم موازين للتعبير غاية في الدقة، تحسب بها متى يكون الخطاب للإنسان وللناس عامة، ومتى يوجه الكلام للمؤمنين والمسلمين قبل غيرهم.

إن أوسع الكرامات التي يقررها الإسلام للإنسان، وأعمها وأدومها، هي تلك التي ينالها الفرد منذ ولادته، بل منذ تكوينه جنينًا في بطن أمه.. كرامة لم يؤدِّ لها ثمنًا ماديًا ولا معنويًا، ولكنها منحة السماء التي منحته فطرته، والتي جعلت كرامته وإنسانيته صنوين مقترنين في شريعة الإسلام.. بهذا عبر الشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز في مؤلفه «نظرات في الإسلام»، وأضاف قائلا: إن حقيقة تلك الكرامة تتمثل في كونها سياجًا من الصيانة والحصانة، هي ظل ظليل ينشره قانون الإسلام على كل فرد من البشر: ذكرًا أو أنثى، أبيض أو أسود، ضعيفًا أو قويًا، فقيرًا أو غنيًا، من أي ملة أو نِحْلة فرضت.. ظلٌّ ظليل ينشره قانون الإسلام على كل فرد يصون به دمه أن يسفك، وعرضه أن ينتهك، وماله أن يغتصب، ومسكنه أن يقتحم، ونسبه أن يبدل، ووطنه أن يخرج منه أو يُزَاحم عليه، وضميره أن يُتَحكَّم فيه قسرًا.

واستطرد الشيخ دراز قائلا: «بهذه الكرامة يحمي الإسلام أعداءه كما يحمي أبناءه وأولياءه.. إنه يحمي أعداءه في حياتهم، ويحميهم بعد موتهم؛ يحميهم في حياتهم، فيحول دون قتالهم إلا إذا بدءوا بالعدوان؛ ويحميهم في ميدان القتال نفسه؛ إذ يؤمنهم من النهب والسلب والغدر والاغتيال.. ثم يحميهم بعد موتهم؛ إذ يحرم أجسادهم على كل تشويه أو تمثيل (بنص الحديث الشريف).. إن هذه الكرامة التي كرم الله بها الإنسانية في كل فرد من أفرادها، هي الأساس الذي تقوم عليه العلاقات بين بني آدم».

الثاني: إن النصوص الإسلامية لم تكتف بالتأكيد على القيمة المطلقة للإنسان، ولكنها أقامت، انطلاقًا من تلك الحقيقة، كمًا من الجسور بين المسلمين وغيرهم يفتح الطريق واسعًا لأخوة بني الإسلام؛ من أجل بناء حياة تملؤها المودة والرحمة.

فثمة نصوص مباشرة في هذا المعنى خاطبت كافة خلق الله من كل جنس ولون وملة:

❖ **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**(١).

❖ **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾**(٢).

❖ **﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾**(٣).

❖ « أيها النّاسُ، إن رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وإنّ أَبَاكُمْ واحِدٌ، كُلُّكُمْ لآدمَ وآدمُ من تُراب، أكرمُكُمْ عندَ الله أتْقَاكُمْ، وليس لعربيّ فَضْلٌ على عجميّ إلاّ بالتّقْوى، ألاَ هَلْ بلَّغْتُ، اللّهُمّ اشهد. قَالُوا: نَعَمْ، قَال: فَلْيُبَلِّغِ الشاهدُ الغائبَ».(٤)

وقد كان من دعائه ﷺ في صلاة آخر الليل: «اللهم إني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت، وأن العباد كلهم إخوة»(٥).

هذه النصوص تذكر بالأصل الواحد لبني الإنسان، وتنبه إلى ثمة حكمة إلهية في اختلاف الخلق شكلا وموضوعًا، مؤكدة أنه ليس في هذه الدنيا إنسان بطبيعته أفضل من إنسان؛ إذ الكل من نفس واحدة، أبوهم آدم وأمهم حواء..

---

(١) الحجرات: ١٣ .
(٢) النساء: ١ .
(٣) لقمان: ٢٨ .
(٤) من خطبة الرسول في حجة الوداع.
(٥) رواه أبو داود، كتاب الصلاة ، باب: ما يقول الرجل إذا سلم.

والتفاضل فقط أمام الله سبحانه، وله معيار واحد هو: التقوى، التي هي الإيمان والعمل الصالح.

وثمة نصوص أخرى في السياق ذاته تخاطب أصحاب الأديان الذين يؤمنون بالله سبحانه:

❖ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾(١).

❖ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٢).

وعلى صعيد ثالث – في الاتجاه ذاته- تخاطب المسلمين مجموعة تالية من النصوص، مذكرة ومنبهة:

❖ ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(٣).

❖ ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾(٤).

❖ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾(٥).

❖ ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ

---

(١) البقرة: ٦٢ .

(٢) المائدة: ٦٩ .

(٣) البقرة: ١٣٦ .

(٤) الشورى: ١٣ .

(٥) النساء: ١٥١ .

وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾(١).

هنا تفتح الآيات باب التلاقي بين المسلمين وغيرهم، معلنة أن المسلمين مؤمنون بكل الأنبياء والرسل، وأن جوهر الرسالات السماوية واحد في غير تعارض أو تنافر.

على صعيد رابع تخاطب النصوص محمداً عليه الصلاة والسلام، معززة معاني وحدة الأديان، وبشرية الرسالة، وهدف البعثة الأكبر:

- ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾(٢).
- ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾(٣).
- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾(٤).
- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(٥).

هذه النصوص في مجموعها تقيم في حقيقة الأمر عديداً من نقط اللقاء بين المسلمين والآخرين، وتشق جسوراً تسع كل جهد مخلص من أجل إقامة عالم يحفظ للإنسان كرامته وسعادته ورخاءه.

الثالث: إن اختلاف الناس في الدين واقع بمشيئة الله تعالى.. والمسلم يوقن أن مشيئة الله لا رادَّ لها ولا معقب، كما أنه -سبحانه وتعالى- لا يشاء إلا ما فيه الخير والحكمة. وهذه العبارة أوردها الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه عن غير المسلمين، وحقيقة الاختلاف هذه تعطي الآخر شرعية تعزز حقه في الكرامة والصيانة.

ومعنى الاختلاف الذي أراده الله عبرت عنه آيات عدة في القرآن، منها قوله

---

(١) البقرة: ٢٨٥ .
(٢) فصلت: ٤٣ .
(٣) الأعراف: ١٥٨ .
(٤) سبأ: ٢٨ .
(٥) الأنبياء: ١٠٧ .

تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ❖ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾(١).

❖ ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(٢).

❖ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٣).

تلتقي هذه الآيات الثلاث على المعنى الذي نحاول لفت الأنظار إليه هنا؛ وخلاصته أن الله -سبحانه وتعالى- أرادنا أن نكون مختلفين، لحكمة قصدها العليم الخبير؛ وهو ما لا ينبغي أن يكون موضع استغرابنا أو إنكارنا، وإنما من مقتضى سلامة الإيمان والرضا بما قسم الله -سبحانه وتعالى- وقدَّر، أن نقبل هذا الوضع ونتعامل معه على أنه حقيقة واقعة، ونستخلص منه كل خير ممكن.

وفي تفسير الآيتين الأوليين من سورة هود، يقول الشيخ رشيد رضا صاحب «المنار»: « ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ أيها الرسول الحريص على إيمان قومه، الآسفُ على إعراض أكثرهم عن إجابة دعوته واتباع هدايته، ﴿لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على دين واحد، بمقتضى الغريزة والفطرة، لا رأي لهم فيه ولا اختيار. وإذن لما كانوا هم هذا النوع من الخلق المسمى بالبشر وبنوع الإنسان؛ بل لكانوا في حياتهم الاجتماعية كالنحل أو النمل، وفي حياتهم الروحية كالملائكة، مفطورين على اعتقاد الحق وطاعة الله عز وجل؛ فلا يقع بينهم اختلاف، ولكنه خلقهم بمقتضى حكمته كاسبين للعلم لا ملهَمِين، وعاملين بالاختيار، وترجيح بعض الممكنات المتعارضة على بعض، لا مجبورين ولا مضطرين. وجعلهم متفاوتين في الاستعداد وكسب العلم واختلاف الاختيار». (٤)

---

(١) هود: ١١٨ -١١٩ .

(٢) يونس: ٩٩ .

(٣) النحل: ٩٣ .

(٤) تفسير المنار: ١٢/١٩٣ .

(٢)

لما كان التعدد في الخلق من حِكَم الله التي أراد بها إغناء التنوع بين البشر، وتحفيزهم على التعاون والتعايش والتكامل، وهذا ما نفهمه من الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1]، فإن بذل الجهد لتحقيق التواصل مع الآخر يغدو مطلبًا شرعيًا، سواء للتعاون في البر والخير، أو لتحقيق التعايش الآمن، أو لتبليغ الرسالة التي تقرر النصوص الشرعية أنها موجهة إلى البشر كافة..

والمبدأ المقرر في القرآن يدعو لأن تقوم العلائق في هذه الحالة على قاعدة البر والقسط؛ إذ ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[2] ؛ وهو ما يعني أن مدَّ اليد إلى الآخر ومبادلته مشاعر المودة ليس أمرًا مطلقًا، ولكنه مشروط برغبة الآخر في التعايش والمسالمة، أما حين يمارس الآخر عدوانًا على المسلمين أو فتنة لهم في دينهم، فإن الأمر لا بد أن يختلف؛ حيث يتعين رد العدوان ورفع الظلم والفتنة بكل السبل.

في هذا الصدد فإنني ألفت النظر إلى ستة أمور هي:

(١) أننا نخطئ إذا ما اعتبرنا الآخر «الأجنبي» هو الغرب وحده؛ لأن ذلك يخرج الشرق والجنوب من دائرة اهتمامنا، في حين أن تواصلنا مع تلك العوالم الأخرى مطلوب أيضًا، ليس لغرض التبليغ فحسب، وهو أمر مهم لا ريب، ولكن أيضًا لأن ذلك يقوي من موقف المسلمين في مواجهة الضغوط الغربية؛ من حيث إنه لا يتيح للقوى الضاغطة أن تنفرد بالدول الإسلامية وتفرض عليها مشيئتها.

---

(١) الحجرات: ١٣ .

(٢) الممتحنة: ٨ .

وقد رأينا في السجال الحاصل الآن حول المشروع النووي الإيراني أن القيادة الإيرانية استعانت بروسيا والصين في مقاومتها للضغوط الأمريكية والأوربية عليها.

(٢) أننا ينبغي أن نكون واعين بأن الآخر الغربي ليس شيئًا واحدًا، ولكنه عوالم مختلفة؛ فأمريكا غير أوربا، وكما أن هناك تمايزات داخل أوربا ذاتها؛ حيث تختلف إنجلترا عن فرنسا وألمانيا مثلا، فإن ثمة تمايزات أخرى داخل الدولة الواحدة؛ ذلك أن الديمقراطيات الغربية تحفل بالقوى السياسية والمؤسسات التي قد تتباين في مواقفها إزاء القضية. ولذلك من المهم أن تكون تلك الخرائط واضحة في ذهن العقل الإسلامي؛ لكي لا يضع الجميع في سلة واحدة، ولكي يعرف إلى من يتوجه، ومن يُخَاطِب.

(٣) أننا في تعاملنا مع الغرب ينبغي ألا نستسلم للصياغة التقليدية التي تعتبرهما معسكرين مختلفين؛ لأن ثمة متغيرًا مهمًا حدث خلال العقود الأخيرة أدخَلَ الإسلام ضمن المنظومة الغربية، بحيث حوَّله إلى الديانة الثانية في أكثر من بلد غربي (إنجلترا وفرنسا مثلا)، وثمة مؤشرات تدل على أنهم أكبر عددًا من اليهود في الولايات المتحدة.. في ظل ذلك المتغير أصبح يعيش في الغرب الآن (أوربا والولايات المتحدة) حوالي ٣٠ مليون مسلم عند الحد الأدنى، وهؤلاء يتعذر فصلهم عن الغرب؛ لأنهم غربيون من الناحيتين الواقعية والقانونية، ولذلك يتعين وضعهم في الحسبان، كما يتعين التفكير في الإفادة منهم، باعتبار احتكاكهم اليومي بالمجتمعات الغربية؛ الأمر الذي يوفر لهم ظروفًا أفضل في فهم تلك المجتمعات وكيفية التفاعل أو التعامل معها.

(٤) أننا لا نستطيع تجاهل أن الثقافة الغربية ما زالت متأثرة بأصداء الحروب الصليبية، وأجوائها المشحونة بمشاعر الرفض والاتهام والتجريح للمسلمين؛ مجتمعات وعقيدة. وتحفل الموسوعات الغربية والكتب المدرسية بالإشارات المعبِّرة عن تلك المشاعر. كما أننا لا نستطيع تجاهل أن الدول الغربية، خصوصًا بعد انهيار الدولة العثمانية، تحولت إلى الهجوم على العالم الإسلامي،

ومـا زالت دولـه الكبـرى حـتـى اللحظة الراهنـة تمارس ذلك الهـجـوم الذي كـان احتـلال العـراق أحـدث تجلياتـه، ناهيـك عن تحيـز تلك الدول المستمـر إلى جانب إسـرائيل في احـتـلالهـا لفلسطين، ومـسـانـدتهـا فـي أن تصـبـح القـوة العـسكرية المهيمنة في المنطقة العربية؛ وهو ما يفسر الاحتشاد الدولي الراهن لمنع إيران من استكمـال مـشـروعهـا النووي، مع استـمـرار غض الطـرف عن التسلح النووي في إسرائيل.

(٥) أن أحد الشروط الأساسية لإنجاح التواصل مع الآخر هـو توافر الاقتناع بالندية التـي تؤسس قـاعـدة الاحـترام المتبـادل، ومـا أعنيـه بـالندية هنا هو القـبـول بفكرة تعـددية النمـاذج الحضـارية، وحق كل حضـارة في أن تُبْقي على مـقـومـاتهـا دون التحـاق أو انسحـاق بـحضـارة أخـرى. وإذا جاز لنا أن نتصـارح في هذه النقطة فإننا يجب أن نعترف بأن الحضارة الغربيـة التي تتمـتـع بقـوة مشهـودة مـا برحت تقـوم بدور المهيمن على الحضـارات الأخرى. وفيمـا يخص النخب السيـاسيـة على الأقل، فـإن ممارسـاتهـا لا تدل على اقتناعها بحق النمـاذج الحضـارية الأخـرى في الاحـتـفـاظ بذاتها وخـصـوصـيتهـا، ومن ثَمَّ حقـهـا فـي البقـاء والاستمرار. وإذ نـقـدر للحـضـارة الغـربيـة إنجـازاتهـا، فـإننا ينبـغي أن نتـعـامل مـعـهـا بـحسـبـانهـا تجـربة حضـارية لهـا احـتـرامهـا، وهنـاك الكثيـر الذي يمكن أخذه أو تعلمـه منهـا، ولكنهـا ليست مثلا أعلى يتعين احتذاؤه، ناهيك عن الذوبان فيه.

(٦) أننا ينبغي أن نكون واعين بأننا لن نستطيع - ولا ينبغي - أن نتقدم باتجاه التـواصل مـع الآخـر فـي الغـرب أو حـتـى في الشـرق، دون أن نحـقق التـواصل مع الآخـر الشـقـيق في داخل الوطن ذاتـه؛ بل أزعم أن نجـاح التـواصل مع الآخـر في الداخل، بمـا يتـرتب عليـه من قـوة وتماسك النسـيج الوطني، من شـأنه أن يقـدم نموذجًا جديرًا بالتقـدير والاحتـرام، يوفر ظرفًـا مواتيًـا لإنجاح التواصل مع الآخر الخارجي.

(٣)

إذا أردنا أن نتواصل مع طرف فينبغي أن نفهمه جيدًا، وأحسب أن غياب فهم الآخر يمثل إحدى الثغرات التي نعاني منها في جانبنا العربي والإسلامي. ومراكز البحوث المتخصصة تعد آلية مهمة في فهم الآخر والتعرف عليه، وهذا ما ينقصنا؛ لأننا نفتقد مراكز الدراسات الأمريكية والأوربية والآسيوية التي تبين لنا خرائط تلك المجتمعات وموازين القوى فيها، ومواضع التأثير في القرار السياسي أو في الرأي العام. وغني عن البيان أن توافر تلك الخرائط من شأنه أن ينير الطريق أمام الجهات المعنية بالتواصل، بحيث تعرف إلى أين تتجه بخطابها وكيف، وفي أي وقت.

إنهم في الولايات المتحدة وأوربا يتابعون بدقة مشهودة، ويترجمون يوميًا، ما تنشره الصحف وتبثه قنوات التلفاز؛ الأمر الذي يمكنهم من رصد مؤشرات وتوجهات الخطاب الإعلامي في العواصم العربية. وذلك أيضًا ما نفتقده؛ حيث لا تتوافر لنا مثل هذه الجهود، وهو ما يدعوني إلى القول بأننا لا نعرف جيدًا خرائط الغرب الذي نريد أن نخاطبه؛ فليس صحيحًا مثلا أن الغرب على إطلاقه عدو لنا، صحيح أن في المجتمعات الغربية متعصبين وكارهين للإسلام والمسلمين، تدعمهم وتدفعهم بقوة المؤسسات الصهيونية التي لا يجدي معها حوار، ولكن هناك أيضًا أصدقاء ينبغي أن نحرص عليهم، وهناك قطاع غير قليل من المحايدين المستعدين للاقتناع إذا ما تلقوا خطابًا رصينًا ونزيهًا يحترم عقولهم.. وإلى هاتين الدائرتين ينبغي أن يتوجه المسلمون بمساعي التواصل.

أما أين هؤلاء؟ ومن هم؟ وكيف يمكن الوصول إليهم؟ وما أجدى الوسائل في مخاطبتهم؟ لن تتوافر لنا الإجابة على تلك الأسئلة إلا إذا كانت «الخرائط» التي أتحدث عنها بين أيدي الجهات المعنية بعملية التواصل؛ وهو ما يستدعي تساؤلا آخر حول تلك الجهات، أحسب أن الإجابة عليه ليست سهلة، لماذا؟ لأننا إذا تحدثنا عن العالم العربي مثلا فسنجد أن هناك مؤسسات سياسية (مثل الجامعة العربية) وأخرى دينية (الأزهر ورابطة العالم الإسلامي)، وفي الوقت ذاته سنجد

مؤسسات إقليمية (مجلس التعاون الخليجي)، وهناك مؤسسات عديدة على المستوى الوطني أو القطري. على المستوى الحكومي مثلا هناك وزارات الخارجية والأوقاف والإعلام، هذا غير الجامعات والمجالس الوطنية المهتمة بالثقافة والدراسات الإستراتيجية، وهي جهات لها علاقات بالخارج، ويمكن أن تؤدي دورًا فعالا في التواصل معه.

عند الحد الأدنى، فإن التنسيق بين تلك الجهات جميعها يصبح واجبًا إذا أخذ شأن التواصل على محمل الجِدّ، لكي تكون الرسالة واحدة، وخالية من التشويش أو التناقض.

(٤)

في التواصل مع الآخر، هناك دور لا يمكن التقليل من شأنه تقوم به الجاليات المسلمة التي تعيش في الغرب، التي إذا وعت ونشطت وقدمت نموذجًا مشرفًا، فإنها تستطيع أن تؤدي دور الجسر الإيجابي بيننا وبين الغرب. أما فيما يخص عالمنا العربي فثمة دور تقوم به المؤسسات الرسمية، وثمة جهد آخر تنهض به المؤسسات الأخرى الأهلية والدينية والثقافية..

فإذا كانت وسائل الإعلام خاضعة لسلطان الدولة - كما هو الحال في أغلب الأقطار العربية - فإن البث الإعلامي باللغات الأجنبية يساعد على التفاهم وتصحيح الصور المغلوطة. كذلك فإن مواقع شبكة الاتصالات الدولية (الإنترنت) التي تخصصها وزارات الأوقاف لشرح المعتقدات والإجابة على أسئلة الآخر، لها دورها المهم الذي لا ينبغي التقليل من شأنه. ويفترض في هذه الحالة أن تكون الكيفية التي تقدم بها الشروح والإجابات التي ترد على أسئلة السائلين معبِّرة عن الفكر الوسطي ومروِّجة لنهج الاعتدال، الذي هو الرسالة الأساسية المراد توصيلها.

في كل الأحوال، فإن وسائل الاتصال الحديثة تظل بابًا للتبليغ وتصحيح المفاهيم متعدد المداخل، وإذا أحسنَّا استخدام تلك الوسائل، ووفرنا لها الكوادر البشرية التي تتمتع بالكفاءات المطلوبة (إجادة اللغة - الالتزام بالفكر الوسطي)، فسيكون بوسعنا أن ننجز الكثير على صعيد التواصل المنشود.

على صعيد آخر، فان حوارات أهل الأديان تظل بابًا آخر يتعين طرقه والإفادة منه. ونحن هنا لا نتحدث عن العقائد وخلافاتها، لكننا نتحدث عن الأمور المتفق عليها، خصوصًا في مجال تثبيت الإيمان والدفاع عن الأخلاق والفضائل.

وإذا ما توازى ذلك مع حوارات مثقفي الجانبين التي تتم في المؤتمرات والمنتديات المختلفة، فإن دائرة التواصل يمكن أن تتسع، بحيث تتيح مجالا أرحب للفهم والتفاهم حول القضايا التي تهم المجتمع الإنساني.

ولا بأس من التوسع في إنشاء جمعيات الصداقة مع أبناء الدول الأخرى، شريطة أن يتم ذلك بالتنسيق بين الدول العربية والإسلامية؛ لكي تشمل تلك الجمعيات أكبر عدد ممكن من دول العالم، غربه وشرقه.

في الوقت ذاته، فثمة أنشطة عالمية عدة يتعين ألا يغيب المسلمون عنها، ليس فقط لتحقيق مصالحهم، ولكن أيضًا لمد جسور التواصل والتفاهم. بعض تلك الأنشطة يتعلق بحقوق الإنسان، ومكافحة آثار العولمة، والدفاع عن البيئة، ومحاربة العنصرية والفقر، وإغاثة ضحايا الكوارث... إلخ.

أخيرًا: ثمة حقيقة أرجو ألا تغيب عن أذهاننا طول الوقت؛ هي أننا لن نستطيع الدفاع عن الوسطية حقًا إلا إذا مارسناها في حياتنا وعلاقات مجتمعاتنا؛ ذلك أن النموذج الذي يقام على الأرض ويلمسه الجميع أبلغ وأنفع وأجدر بالثقة والتقدير من آلاف الكلمات التي نطلقها في الهواء معبرين عن تعلقنا بالاعتدال وامتداحنا للوسطية.

ولست أشك في أن ذلك النموذج المنشود -إذا تحقق- فإنه سيفرض نفسه على الآخرين، وسيكون خير مبلِّغ عنا وخير مصحِّح للمفاهيم المغلوطة التي تروج ضدنا. وفي هذه الحالة – التي أرجو ألا يطول انتظارنا لها – فالآخرون هم الذين سيطرقون أبوابنا داعين إلى التواصل، ولن نصبح مضطرين للإلحاح عليهم والركض وراءهم.

أبحاث

المحور الثالث: ماذا يريد كل منا من الآخر؟

ماذا يريد
المسلمون من الآخر؟

د. باسم كمال خفاجي
مدير المركز الدولي لدراسات أمريكا والغرب
رئيس تحرير دورية (قراءات غربية) الإلكترونيـــة

مقدمة:

أصبحت الأمة الإسلامية في الأعوام الأخيرة محورًا مهمًّا من محاور السياسات الدولية والعالمية بسبب الموقع التاريخي والجغرافي، والقوة البشرية والاقتصادية للأمة، وأخيرًا للتأثير الحضاري الهام الذي تلعبه الأمة الإسلامية في مسيرة البشرية، ومن أجل ذلك كله اهتم العالم بهذه الأمة، وكثرت التساؤلات حول: ماذا تريد الأمة الإسلامية من الآخرين؟ وكذلك ماذا يريد الآخرون من هذه الأمة؟.

وعندما تتعامل الأمة الإسلامية مع الآخر يُلاحظ وجود نزاع بين أبناء الأمة حول الأسلوب الأمثل للعلاقة مع الآخر، يرى قلة من المسلمين أن القبول المطلق للآخر هو الطريق الصحيح للعلاقة معه، وخاصة إن كان ذلك الآخر هو الغرب.. يتحدث أحد أنصار هذا التيار قائلا: "الجواب الواحد الواضح لإنهاء التخلف والتأخر هو أن نندمج في الغرب اندماجًا؛ في تفكيرنا وآدابنا وفنوننا وعاداتنا ووجهة نظرنا إلى الدنيا"(١).

البعض الآخر -وهو قلة أيضًا ولكن ذات صوت مرتفع- يرى أن الرفض المطلق لكل ما عدا العالم الإسلامي هو الخيار الأمثل للنجاح في الدنيا والنجاة في الآخرة، ويأخذ هذا الفريق عددًا من الصور والأشكال التي تبدأ من الانعزال التام عن الحياة اليومية للأمة ومجرياتها إلى ظهور حالات الغلو المخالفة للشرع في التعامل مع الآخر.

أما الفريق الثالث - وهو الغالب من الأمة - وإن كان الأقل صوتًا والأضعف إعدادًا وحجة حتى الآن، فهو الفريق الذي يسعى إلى التوفيق بين قوة الانتماء للأمة وكفاءة التعامل مع الآخر.

---

(١) وهو الدكتور زكي نجيب محمود، نقلا عن (ثلاثة نماذج للتعاطي مع الآخر الغربي)، محمد محفوظ، البلاغ، الإسلام والغرب وحوارات المستقبل، ٢٠٠٣م.

ومن المهم قبل أن نناقش (ماذا يريد المسلمون من الآخر؟) أن نعرف أولا ماذا نقصد بالآخر، وعلاقة هذا الآخر بالأمة الإسلامية من واقع الفهم القرآني والهدي النبوي اللذين يشكلان معًا معالم التصور الإسلامي حول العلاقة مع غير المسلمين.

تعريف الآخر:

إن كثرة الحديث عن الآخر في الإعلام العربي والعالمي يخفي أحيانًا إشكالية يقع الكثيرون فيها، وهي عدم وضوح تعريف محدد وواضح لهذا الآخر أحيانًا، والوقوع في التعميمات الخاطئة كثيرًا،ومحاولة حشد وتوحيد الخصوم أحيانًا أخرى، ولذا من المهم أن يكون لدينا تعريف واضح بمقصد كلمة "الآخر" والتي يبنى عليها البحث والدراسة في هذا المقال.

إن تعريف الآخر يبدأ دائمًا وينطلق من تعريف الذات؛ فالآخر هو ما يخالفها أو يختلف عنها، وليس بالضرورة من يعاديها أو يصادمها. وفي حال الأمم والشعوب فإن الآخر هي تلك الشعوب والأمم التي لا تشترك معها في التراث الفكري والثقافي أحيانًا، وفي منظومة القيم والتوجهات السياسية في أحيان أخرى. وفي حال الأمة الإسلامية - وسعيًا وراء الوضوح في هذا البحث - فإننا نميل إلى تعريف الآخر بأنه "غير المسلمين" بمختلف أنواعهم؛ أفرادًا ومجتمعات ودولا.

ومن المهم في هذا السياق أن نوضح مجموعة من الحقائق المرتبطة بهذا التعريف حتى تتضح صورة الآخر بشكل أكثر واقعية وشمولا:

❖ الآخر ليس هو الغرب تحديدًا ... والغرب لا يشكل إلا جزءًا هو الأقل من الآخر الذي نتعامل ونتحاور معه، رغم أهمية وقيمة هذا الجزء الأقل. ففي عالم يصل عدد سكانه إلى أكثر من ٦,٥ مليار نسمة، فإن الآخر غير المسلم يزيد عن ٤ مليارات من البشر، وبينهم أقل من مليار نسمة من الغرب؛ أي أن الغرب لا يمثل عدديًا إلا أقل من ٢٥٪ من ذلك الآخر الذي يساهم معنا في تشكيل القرية الكونية التي نعيش بين جنباتها.

❖ الآخر ينقسم إلى شعوب وأفراد من ناحية، وأنظمة وحكومات من ناحية أخرى، ويجب أن لا نحمل الشعوب والأفراد تبعات المواقف الرسمية والحكومية، والعكس أيضًا صحيح؛ فكما نميل في العالم الإسلامي إلى الاختلاف أحيانًا كثيرة عن مواقف الدول التي نحمل هوياتها، ولا نقبل أن تُنسب بعض مواقف هذه الدول لنا كأفراد، فمن المهم أيضًا أن نعطي الآخر هذا الحق نفسه في تمايز الفرد عن السلطة، وعدم إلزام الشعوب -بالضرورة- بمواقف الحكومات.

❖ الآخر ليس نوعًا واحدًا جامدًا من البشر أو الأنظمة، ولكنه متغير ومتنوع ويجمع بين من يرغب في التعرف على ثقافة الأمة الإسلامية ودينها، وبين من يهتم بتبادل المصالح معها فقط، وبين من يتخوّف من الأمة، وأخيرًا -وهم القلة- من يعاديها ويرغب في مصادمتها.

ولذلك يمكن أن يقسم الآخر من ناحية اهتمامه وعلاقته بالأمة الإسلامية إلى: "راغب" و"محايد" و"متخوف" و"معاد"، ويجب أن يتنوع الخطاب الإسلامي الموجه إلى الآخر ليناسب المخاطب؛ فليس كلٌ أسلوب صالحا للجميع.

❖ إننا نعتز بالتميز عن الآخر ليس رغبة في الاختلاف أو الصدام معه ابتداء، ولكن إدراكًا لخصوصية الثقافات والعقائد، واعتزازا بها واهتمامًا بالتعرف على ذلك الآخر، وسعيًا نحو التكامل البشري معه لما فيه خير الإنسانية؛ لذلك فإن الآخر يعيننا في كثير من الأحيان على أن نتعرف على أنفسنا، وأن ننافس معه على الأفضل لشعوبنا، وأن نتكامل معه أيضًا لما فيه الخير للجميع، وأن نواجهه أحيانًا لنحفظ الأمة من هجمات القلة من المعتدين، وتلتزم الأمة الإسلامية في كل ذلك بالمنطلقات الشرعية من هدي القرآن والسنة النبوية.

ماذا نريد من الآخر؟

تسعى الأمة الإسلامية -دائمًا وعبر تاريخها- إلى التكامل مع حضارات العالم، والتعاون مع الآخر لما فيه خير البشرية، لذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لِكُلٍّ

جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(١)، وفي قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢).

إن المعنى الرباني في عبارة "فاستبقوا الخيرات" يلخص العلاقة بين الأمم من خلال الهدي الرباني، وهو تنافس من أجل الخير، ودرس للقوى المحتلة التي تسعى أن تحول العالم إلى صراعات عرقية وسياسية وفكرية وثقافية مستمرة ومتتالية.

إننا ننظر إلى الآخر من خلال الوعي بالآيات القرآنية التي تحثنا على التعارف والتعرف على الشعوب الأخرى، ومن خلال الهدي النبوي الذي يؤكده على الأسرة الإنسانية الواحدة،كما ذكر النبي صلوات الله عليه وسلامه: "يا أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد ,ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا عجمي على عربي ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى "إن أكرمكم عند الله أتقاكم"(٣).

مطالب عملية من الآخر:

❖ إننا نريد أن يتفهم الآخر أن الأمة الإسلامية تنتصر دائمًا لدينها، ولا تقبل إهانة أي رموز مقدسة لأي دين سماوي، وأهمها -في نظر الأمة - رموز ومقدسات الأمة الإسلامية. إننا ندعو شعوب العالم إلى أن تشاركنا في المناداة بضرورة إيجاد صياغة دولية ومفهوم مشترك ملزم للجميع في مسألة العلاقات بين السياسة الدولية وحريات التعبير واحترام المقدسات.

---

(١) المائدة: ٤٨ .

(٢) البقرة: ١٤٨ .

(٣) السلسلة الصحيحة: ٦/ ٤٤٩ .

❖ نحن نريد من الآخر ألا يتخوف من الإسلام أو من أهله، وأن يعي بالمقابل مصادر قوة الأمة الإسلامية الحضارية والعقدية والفكرية التي تستمدها من كتاب الله وسنة النبي ﷺ. إننا ندعو العالم إلى أن يشاركنا العدل وإنصاف الآخر ومحبته وتقديره حقًا.. كما يقول أحد علماء الأمة الأجلاء[1]، فلم يوجد في القرآن سورة لخديجة زوج محمد، ولا فاطمة بنت محمد، ولكن وجدت سورة مريم، وسورة لأسرة المسيح، هي سورة آل عمران، وعمران هذا هو والد مريم ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[2].

❖ نطلب من الآخر أن يترك للمسلمين حريتهم، وحقهم في أن يحكموا أنفسهم وفق عقائدهم التي آمنوا بها، ولا يفرض عليهم نظامًا لا يرضونه، فالاختلاف حق للجميع، والتسامح والحوار ليس مدعاة لفرض المعتقدات على الآخر، أو إجباره على القبول بقواعد ونظم تخالف ما ارتضته الشعوب لنفسها من دين وشريعة. إننا لا نقبل من الآخر النظرة الأحادية التي لا تستوعب هذه الأمة الإسلامية، ولا تسمح للشعوب بفسحة التنوع والاختلاف، ولا تسمح بالتعددية الإنسانية.

❖ نعي أن الفهم والتعاون بين الدول والشعوب يجب أن يكون متبادلا ومشتركًا، بمعنى أنه في الوقت الذي نسعى فيه إلى توضيح صورة الإسلام الحضارية الحقيقية للأمم والشعوب الأخرى، فإننا نطمح ألا يكون ذلك على حساب التنازل عن استحقاقاتنا ولا التفريط في استقلالنا [3].

الحوار لا يكون إملاءً من طرف قوي على طرف ضعيف لا يسمح له بالاختلاف، فليس هذا حوارًا. إننا نؤمن بالحوار الجاد والتفاوض مع الآخر في حال الاختلاف، ولكن لا نسمح لأنفسنا كذلك أن نجلس على موائد حوار لا نكون

---

(١) وهو الدكتور يوسف القرضاوي، حفظه الله تعالى ورعاه.

(٢) آل عمران: ٣٣ .

(٣) الأنا والآخر في مؤتمرات ثلاث، د. يوسف مكي، التجديد العربي، ١٤ ديسمبر ٢٠٠٥م.

فيها ندًا ومفاوضًا قويًا، ونسعى إلى تقوية أمتنا لتكون أهلا للجلوس على موائد الحوار الجاد، ونؤمن أن الحوار يجب أن يتركز على نقاط الاختلاف، وليس فقط على عناصر الاتفاق.

❖ نريد من الآخر أن يساهم معنا في محاربة ظواهر الإرهاب المعاصر؛ إرهاب الأفراد وإرهاب الدول أيضًا؛ أعمال الإرهاب ومظاهره؛ وكذلك أسبابه الحقيقية من ظلم واعتداء على الشعوب. يجب أن تدان كل صور الإرهاب المعاصر، وخصوصًا ما ترتكبه دولة عظمى في حق الشعوب، أو كيانات دخيلة في حق شعوب محتلة، ونطلب من العالم أجمع أن يشاركنا في تجريم قتل الأبرياء العزَّل الآمنين سواء من خلال أفعال فردية لا تتفق مع الأديان، أو أعمال عسكرية تخالف قوانين العالم والمعاهدات.

❖ نريد من الآخر أن يتعاون معنا من أجل أن يكون الإعلام العالمي إعلامًا صادقًا موضوعيًا.. وألا يتحول الإسلام والمسلمون إلى "أعداء" للعالم من أجل إرضاء قلة من المعادين. يجب أن يتكاتف العالم من أجل ألا توصم الشعوب بصور نمطية كريهة، تحمل معاني العداء وبغض الآخر. يجب أن يتعاون الجميع من أجل أن تسود روح التسامح بين الشعوب.

إن الأمة المسلمة أمة مسالمة، وهي أيضًا أمة قوية بمعتقدها وشعوبها وثرواتها، وهي تمثل شخصا من بين كل خمسة أشخاص يعيشون في عالم اليوم، فهل يعقل أن يكون ٢٠٪ من عالم اليوم من دعاة الإرهاب، كما يصورنا البعض!.

❖ إننا ندعو الآخر إلى نبذ فكرة "صراع الحضارات"، وإلى نبذ فكرة الصراع ابتداءً بين الأمم والشعوب، واستبدال ذلك بالمسابقة إلى الخيرات، والتدافع والتنافس الشريف من أجل إسعاد البشرية وسلامتها واستقرارها. إننا لا نوافق على صراع الحضارات ليس لأننا ضعفاء أو نخشى الانهزام؛ فهذه الحضارة الإسلامية باقية منتصرة ما بقي الليل والنهار، ولكننا لا نوافق على صراع الحضارات و لا نسعى إليه رفقًا بشعوب العالم.. ورحمة بالإنسانية من أن تجر إلى حروب لا نهاية لها.

نحن نريد أن يفهم العالم أننا دعاة سلام من منطلق قوة داخلية لا ينضب، وتأييد رباني لا شك فيه، ولسنا دعاة سلام من منطلق ضعف أو مهانة. إن شواهد الأعوام الأخيرة - وكثير منها مؤلم - يقطع أن الصراع مع أمة الإسلام مكلف ومرهق للجميع.

❖ نريد من عقلاء العالم أن يتحدوا في وقف الاعتداء على الشعوب المسلمة المسالمة، وإعطاء الحقوق لأهلها في فلسطين والعراق وكشمير وغيرها من شعوب الأمة. لقد تسامحت الأمة الإسلامية مع من هاجمها من قبل، ونريد من الغرب - كما يدعو علماء الأمة - أن يتحرر من عقدة الحقد القديمة الموروثة من الحروب التي سماها الغرب "صليبية" ولم نسمها نحن كذلك، نريد من الغرب أن يتخلى عن نظرة الاستعلاء تجاه هذه الأمة؛ فالأيام دول، والشرق عائد إلى سيادة الكون، ولا نقبل أن تكون النظرة التي ينظر بها الغرب إلى العالم نظرة السيد إلى عبده.

❖ إذا كان الآخر لا يريد أن نحاكمه بأفعال القلة الطائشة منه، كما يطلب منا مؤخرًا في شأن الإساءة إلى نبي الأمة، فيجب أيضًا ألا نُجَرَّم نحن بأفعال القلة منا أيضًا التي تخالف إجماع الأمة سواء في الغلو والتطرف أو في الإفراط والتفريط.

إن هذه الأمة ليست أمة من الغلاة، وليست أمة من الضعفاء، ومن يحكم عليها بأيهما، فهو فاقد للرؤية الصحيحة والثاقبة لحاضر ومستقبل العالم الإسلامي، ومن يتهمنا اليوم بالغلو تسبب بالأمس القريب في معظم فظائع وكوارث القتل والحروب في عالمنا المعاصر، والتي حصدت عشرات الملايين من البشر، وسعت إلى إبادة المخالف في أفران الغاز، ولم يفعل ذلك مسلم على مر التاريخ.

❖ نريد من الآخر أن يساهم معنا في مستقبل أفضل للبشرية، وندعو الآخر إلى التعاون معنا حول الأهداف المشتركة. إننا لا نريد - ولا نقبل - للبشرية مستقبلا سوداويًا لا يقوم إلا على مبدأ الصراع.. ولذلك فإن من أهداف أمتنا أن تستبدل ذهنية الصراع التي تسيطر على واقع اليوم وأحلام -بل كوابيس - الكثيرين في الغد، إلى واقع يجمع بين التناغم والتعايش والسلام.

❖ نريد أن يتحول الصراع مع الكون إلى التناغم مع الكون.

❖ نريد أن يتحول الصراع مع الآخر إلى التعايش مع الآخر.

❖ نريد أن يتحول الصراع مع النفس إلى السلام مع النفس.

❖ نؤكد تحديدًا للغرب والشرق والآخر بالعموم أننا نريد أن يعرف العالم أجمع كيف نحب رسولنا، وأن يتعلم منا كيف أن حرية التعبير لا تتعارض مع احترام مشاعر الآخرين. نريد من الآخر أن يعرف أننا نعشق الحرية الحقة؛ حرية أن نُحِبّ وأن نُحَبّ.. حرية أن نحترم الآخر وأن يحترمنا الجميع. إن الحرية الحقة أن تلزم نفسك باحترام حريات ومشاعر الآخرين، وهو ما ندعو إليه في عالم اليوم.

❖ ندعو الغرب وباقي العالم غير الإسلامي إلى الوقوف معًا لمواجهة أعداء الإيمان بالأديان، ودعاة الإلحاد في العقيدة والإباحية في السلوك، ندعوهم أن نقف جبهة واحدة ضد هؤلاء الذين يريدون دمار البشرية بدعاواهم المضللة، وسلوكياتهم الغاوية[1] **﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ❖ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾**[2].

❖ ندرك أن الكثيرين من أبناء الغرب -ومن أبناء الأمة الإسلامية أيضًا- يريدون أن تكون التصورات والقناعات التي تخرج عن الأمة الإسلامية مرضية للخارج، وهو ما نتفهمه ، ولكن الأهم -في نظرنا- أن تكون هذه القناعات حقيقية وليست متكلفة أو مجاملة، أو منعزلة عن الواقع الثقافي والفكري للأمة الإسلامية.

إن إرضاء الآخر بهذا الشكل خداع لا يليق بالأمة، وهو يفسر أيضًا عدم جدوى الحوارات وتوصيات المؤتمرات العديدة السابقة التي اهتمت بالصياغة

---

(١) نقلا عن الدكتور يوسف القرضاوي.

(٢) الفرقان: ٤٣-٤٤ .

المناسبة للآخر على حساب الحقائق على أرض الواقع. إن الواقع يجب أن يعبر عن سماحة ديننا، ويجب أن نسعى إلى تغييره لا إلى تزيينه للآخر، حتى لو اضطرت الأمة إلى الانتظار قليلا أو كثيرًا إلى أن يتم إصلاح واقعها حتى نقول ما نفعل، ونفعل ما نقول.

ويمكن أن نختصر أهم ما نريده من الآخر في الأمور التالية:

١- الفهم قبل الحكم.

٢ - العدل والإنصاف.

٣ - عدم إطلاق التعميمات والأحكام.

٤- ألا يسعى الآخر إلى تشويه صورة الأمة أو رموزها.

٥ - أن يقبل الجميع بحق الاختلاف ليس فقط في الوسائل، ولكن في الأفكار والقيم والمعتقدات.

٦ - قبول التسامح القلبي بين الشعوب، وليس فقط التسامح العقلي.

٧ - البعد عن ازدواجية المعايير.

٨ - جدية الحوار حول نقاط الاختلاف وليس محاور الاتفاق.

٩ - مقاومة الميل إلى القناعات المسبقة والصور النمطية.

١٠ - ألا يقع العالم فريسة لذهنية الصراع وفكر الصدام.

١١ - أن يتعاون الجميع لإزالة أسباب الإرهاب، وليس فقط مظاهره.

الخلاصة:

عندما تعرف أحد علماء الغرب على القرآن، وقبله وشهد بالإسلام، وهو أستاذ جامعي في جامعة كمبريدج،خطب في جمع من المسلمين قائلا: "لقد نمتم طويلا، وتخلفتم كثيرًا، واستفقتم فقلدتم الغرب تقليدًا دقيقًا، ولكنكم لن تسايروهم علميًا ولا سياسيًا ولا اقتصاديًا ولا بأي وسيلة أخرى، ولكن يمكن لكم أن تجبروهم على أن ينقادوا لكم بالإسلام". إن هذه العبارة تلخص رؤية الأمة الإسلامية التي لا ترغب بالضرورة في مواجهة الآخر أو الصدام معه، ولكن في إتاحة الفرصة له فقط ليتعرف على الإسلام، ومن ثم يختار لنفسه ما يناسبها من دين أو اعتقاد.

إن الأمة الإسلامية لا تعادي أحدًا ابتداء ولكنها أحيانًا تُعَادَى من قلة من الآخر الذي يسعى إلى إقصاء الأمة وتهميشها بل وإلغائها في بعض الأحيان، ولذلك تنتفض الأمة لتقاوم وتدافع عن هويتها وتحفظ دينها وكرامة رموزها، ولا تخشى الأمة من مواجهة الاعتداء ولكنها ترغب دائمًا في السلام وتجنح إليه، وترغب في التعايش السلمي مع دول العالم وجميع الأمم والشعوب.

نرى من جانب آخر أن شمولية النظرة إلى الآخر هي عملية ملحَّة ومطلوبة في هذه الحقبة؛ فهي أولا تحررنا من إسقاطاتنا من جهة، ومن جهة أخرى تفتح وعينا على أمم تحث الخطى نحو منافسة القطب المتربع على عرش الهيمنة الدولية (١).

إن العلاقة بين المسلمين والآخر لا بد أن تقوم على أساس المبادئ الإنسانية النبيلة التي بشرت بها الأديان السماوية، التي تنطلق من الإيمان بوحدة الأصل الإنساني وبوحدة المصير وبالأخوة الإنسانية، وبالعمل الجماعي في إطار التعاون الإنساني النزيه من أجل إشاعة قيم الخير والعدل والسلام. ولا بد أن تقوم هذه العلاقة أيضًا على أساس أحكام القانون الدولي بحيث يكون الحق فوق القوة،

---

(١) خواطر حول العلاقة بين الأنا والآخر، د. يوسف مكي، التجديد العربي، ١٦ مارس ٢٠٠٣م.

وتسود في الأرض وتهيمن على العلاقات الدولية قوة القانون لا قانون القوة، وبذلك نُوجِّه معًا في عمل إنساني تضامني، هذه العلاقة نحو المستقبل المزدهر للبشرية جمعاء [1].

إن الانفتاح على الآخر والتعاون معه لا يعني ولا يقتضي أن نقايض قيمنا بالاندماج في ثقافة الآخر أو قبول أن تفرض علينا. نحن نعارض الولاء الأعمى للغرب بنفس درجة معارضتنا للرفض الكامل له أيضًا.

ونحن ندرك أن العلاقة بين العالم الإسلامي والغرب تحديدًا علاقة متوترة في الفترة الأخيرة، ولكننا ندعو الغرب إلى إعادة تقييم مواقفه من هذه الأمة أولا، ثم ندعو كذلك أبناء الأمة الإسلامية إلى عدم تجريم الغرب كله بأفعال البعض، وأن نتذكر دائمًا أننا أمة تقتدي بخالقها في تقديم الرحمة على العدل، والمحبة على الكراهية، والدعوة على كل ما سواها.

إن الأمة الإسلامية تدرك أن الاختلاف سنة كونية، وأن التدافع والتنافس بين الشعوب والأمم يسمح للبشرية بدفع عجلة التقدم إلى الأمام، ومع ذلك فإن الاختلاف ليس مبررًا للتخاصم بين الشعوب، وإنما هو حافز للتعرف على الآخر والتكامل معه لما فيه خير الإنسانية. وعندما يتعدى البعض ويتجاوز حدود التعارف إلى الاعتداء أو الرغبة في الهيمنة، فإن الأمة الإسلامية تتعاون مع الآخرين من العقلاء للدفاع عن مصالحها، وحماية أمتها والانتصار لرموزها ومقدساتها، ولتحجيم مخاطر الاعتداء وحفظ الاستقرار والسلام بين شعوب العالم، ومقاومة أسباب الإرهاب وليس فقط مظاهره، ولذلك سميت الأمة الإسلامية -بفضل خالقها ورحمته- أمة وسطًا.

---

(١) نحن والآخر، عبد العزيز بن عثمان التويجري، المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم الثقافية-إيسيسكو، الشرق الأوسط، ٣ أكتوبر ٢٠٠٥م، العدد ٩٨٠٦ .

محتويات البحث

ماذا نريد من الآخر؟

د. إسماعيل لطفي جافاكيا
رئيس الكلية الإسلامية
جالا - تايلاند

مقدمة:

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عِوَجًا، قيّما لينذر بأسًا شديدا من لدنه ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصّالحات أنّ لهم أجرا حسنا. والصّلاة والسّلام على النبيّ الأمّي الذي أُوْحِيَ إليه قرآن عربي غير ذي عِوَج، وعلى آله وصحبه ومن سلك سبيلا غير مُعْوَج، وبعد:

فإن كان العِوَج سلبا والقيّم إيجابا، وكان نفي السّلب في حدّ ذاته إيجابا، فكيف إذن تكامَلَ نفي السّلب مع إثبات الإيجاب في تعقيب وترتيب ؟! (ولم يجعل له عِوَجا.. قيّما)؛ الأمر الذي يعني مزيد توكيد وتشديد معنى الإيجاب.

وتقويم العِوَج -من حيث كونه فريضة إسلامية- هو تثبيت المسلم على الثوابت الإسلامية مع المرونة المطلوبة في الخطوات العمليّة.

وتقويم العِوَج -من حيث كونه قضيّة إنسانيّة وضرورة مصيريّة- هو مقوّمات درء مقاصد ثقافة غير ذي عِوَج مع مكمّلات درء مفاسد ثقافة الذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجا.

وإنّه يسرّني ويشرّفني باسم رئيس الكليّة الإسلاميّة جالا - جنوب تايلاند، ومبعوث وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة الكويتيّة بتايلاند، أن أتقدّم بجزيل الشكر وجليل التقدير إلى اللجنة الشرعيّة لتعزيز الوسطيّة والرّد على الفكر المتطرّف بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة بدولة الكويت، على نبل تواصلها معي، وحسن ظنّها بتقديمها الدّعوة الميمونة لمشاركتي في هذا المؤتمر العالمي المبارك، مغتنما هذه الفرصة الكريمة لألقي على مسامعكم الطيّبة كلمة حول: (متطلّبات الذات من الآخر).

والآمال المنشودة معقودة على تلبية النّداء الرّباني بتجديد الرّداء الإيماني نحو تعزيز التنافس الثقافي والحضاري، لا تغرير التنافش الثقافي والحضاري، والله متمّ نوره.. **﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾**.

تمهيد:

للإسلام ثقافة قيّمة غير ذات عوج، تنهض على التسامح واحترام الرأي الآخر، وإن كان معارضا، ونبذ الإكراه والعنف والتعصّب. تلك الثقافة التي عاش بها المسلمون الأوائل عندما كان الإسلام في ذروة نقائه، وكان المسلمون في قمّة عزّتهم وقوّتهم.

فالإسلام دين رحمة للناس أجمعين، قال الله تعالى: ﴿**هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾(١). وفيه الخير للعالمين: للمؤمنين خاصّة، ولغير المسلمين عامّة. ويدرك ذلك كلّ ذي عين وبصيرة، ولا يجحد خيره وفضلَه إلاّ من جهل حقيقته، أو كان من المستكبرين، قال تعالى: ﴿**ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾(٢).

أمّا خير الإسلام لأهله فواضح لا مِرْية فيه، ولا يجادل فيه إلاّ مكابر، وأما خيره لغير المسلمين فلا أدلّ عليه ممّا حفظه الإسلام لهم من الحقوق، وما عاملهم به من التسامح.

فالتسامح بذور في أعمق أعماق القيم الإسلاميّة، تجسّد ذلك جليًا في موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم من مشركي مكّة الذين آذوه من قبل، لمّا نزل من القرآن إذن له للمعاقبة بالمثل: ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ**﴾(٣). وقال ﷺ : "نصبر ولا نعاقب"(٤)، اختار العفو والصّبر، تفضّلا واحتسابا، وإنّه فضيلة في أرقى صورها، وأنقى حالاتها.. وجنى ثمارها قلوبٌ مؤتلفة على دين قيّم.

إنّ المسلمين الذين تربّوا على هدي المصطفى يشعرون بأنّ الناس جميعا من

---

(١) الجاثية: ٢٠ .

(٢) الروم: ٣٠ .

(٣) النحل: ١٢٦ .

(٤) أحمد: ١٣٥/٥، الترمذي: ٣٦١/٤- ٣٦٢، الحاكم: ٣٥٩/٢ .

لدن آدم عليه السلام إلى قيام السّاعة مؤمنهم وكافرهم أفراد أسرة واحدة، يقول ﷺ: "الناس بنو آدم، وآدم من تراب"(١). وإنّهم جميعا إخوة، يظهر ذلك في دعائه ﷺ دبر كلّ صلاة: "اللهمّ ربّنا وربّ كلّ شيء، أنا شهيد أنّك أنت الرّب وحدك لا شريك لك. اللهمّ ربّنا وربّ كلّ شيء أنا شهيد أنّ محمّدا عبدك ورسولك. اللهمّ ربّنا وربّ كلّ شيء أنا شهيد أنّ العباد كلّهم إخوة"(٢)، وإدراك هذه الحقيقة يؤهلهم للتعارف الفعلي، والتفاهم الإيجابي، والتعايش السّلمي للتكامل البشري في هذا الكون.

ويبلغ الإبداع في السّماحة الإسلاميّة أعلى قممه في ذروة لم يرْقَ إليها نظام قبل الإسلام ولا بعده عندما قبل الاجتهاد الخطأ، وأثاب عليه. إنّه احترام وتشجيع لعقل الإنسان ليس له نظير، ومن ذلك الاحترام انبثق الوضوح، وصدق النوايا، وبالاصطلاح المعاصر (الشفافيّة).

إنه مبدأ تفعيل في دين أصيل، يرفض مجرّد الأماني، ويطالب بما وقر في الفؤاد الذي يصدقه العمل.. **﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً﴾**(٣).

ولئن ضُرِب المثل لوجوب التسليم بشهادة الأقربين: **﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾**(٤)، لتكوننّ شهادة غير المسلمين للإسلام أحرى بالقبول والرّضا. يقول الدكتور نظمي لوقا: "ما أرى شريعة أدعى للإنصاف ولا أنفى للإجحاف والعصبيّة من شريعة تقول: **﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا﴾**(٥)، فأيّ

---

(١) حديث حسن، أخرجه الترمذي: رقم الحديث (٣٩٥٦).

(٢) حديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده: الفتح الرباني ٥٤/٤، أبو داود: عون المعبود رقم (١٤٩٤)، ٣٧٢/٤-٣٧٤، وابن السني في "عمل اليوم والليلة" رقم (١١٣)، إسناده ضعيف.

(٣) النساء: ١٢٣ .

(٤) يوسف: ٢٦ .

(٥) المائدة: ٨ .

إنسان بعد هذا يكرم نفسه، وهو يدينها بمبدأ دون هذا المبدأ، أو يأخذها بدين أقل منه تساميا واستقامة؟[١].

والمسلمون على العموم، والمؤمنون على الخصوص - ابتداء - في حاجة إلى جهد حقيقي لتثمين التجارب الآنفة، واستقاء الدّروس المناسبة منها، ومدى مواءمتها للمتغيّرات الآنية في عصر العولمة وعصر الإصلاحات لاستشراف الرؤى الآتية، وإعادة بناء وتصويب رؤية النخبة، والمساهمة في تكوين الأمّة التي تحقق سلامة القيم الإسلاميّة، وقدرتها على الإنتاج في كلّ الأحوال والمآل؛ إذ الأزمة في الحقيقة أزمة نخبة تؤدّي إلى ضعف الأمّة وغياب فعاليّاتها.

ولعلّ أهم الدّروس التي ينبغي هضمها يكمن في غبش الرؤية، والتباس الأمور، وغياب منهاج رسل ربّ البريّة.

المنهاج الإسلامي إزاء الآخر:

القاعدة الأساسيّة التي وضعها الإسلام لحياة البشر هي - بدون شك - الطمأنينة والسلام والاستقرار. والأصل في العلاقة البشريّة عند الإسلام، فرديا كان أو جماعيا أو دوليا، علاقة الدعوة والخير.. والتعارف والتعاون، لا علاقة العداوة والشر والتنافر والتباين. فلو تمعنّا تعاليم الإسلام تبيّن لنا بوضوح أنّ الأصل في الإسلام هو دعوة الناس أجمعين لتحقيق الفلاح والسّلام الحقيقي الشامل للجميع في الدارين: الدنيا بالأمن والاستقرار، والآخرة بالجنة دار القرار، كما قال تعالى: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[٢].

فالخير الذي تدعو إليه الأمّة هنا هو الإسلام، وهو نظام حياة البشريّة جمعاء

---

(١) د. نظمي لوقا، محمّد الرّسالة والرّسول، ص ٢٦ .

(٢) آل عمران: ١٠٤ .

جاء به المصطفى محمّد ﷺ من عند الله وحيًا من أجل رحمة للعالمين في الدارين. وهذا هو الهدف الأسمى من رسالة الإسلام ودعوته، ولكن شاء الله العليم الحكيم أن يرفض بعض الناس قبول هذا الخير والتعاون على تحقيق هذا السلام الإسلامي الشامل في الدارين. ومع ذلك، فإنّ الإسلام يدعو أيضا جميع الناس إلى التعارف والتعاون على البر والتقوى من أجل تحقيق السلام الجزئي في هذه الدنيا، ويرفض تمام الرفض التعدّي والتعاون على الإثم والعدوان. فقد حدّد القرآن أساس العلاقة بين البشر في قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**(١).

والتعارف كمحور العلاقات بين البشر على اختلاف شعوبهم وقبائلهم وألوانهم وألسنتهم، له مدلول أبعد من مجرّد معرفة الشخص لاسم الآخر، بل التعارف الذي يؤدي إلى أعلى تبادل منافع البر، وأجلى تفاعل مصالح التقوى فيما بينهم.

ومن أجل تحقيق معنى هذا التعارف الهادف يتطلب معرفة طبيعة العلاقة السلميّة الإيجابيّة، وتبادل المعرفة أو المعارف بكلّ ما فيها من معنى ومبنى، وميادينها الفسيحة ومجالاتها المتعدّدة، فكلّما تحققت أهداف المعرفة أو المعارف المتبادلة بين الشعوب والأمم على مختلف المستويات ضاقت مساحة الخلاف أو الاختلاف المفضي إلى حدوث البغضاء والشحناء والعداء المؤدي إلى التصادم، ويلحق الأضرار الفادحة بالمجتمع الإنساني.

وبذلك كان السّلم هو الحالة الأصليّة التي تهيئ للتعارف الهادف والتعاون وإشاعة الخير بين الناس على مختلف الشعوب والقبائل. ففطرة التعارف تؤدي إلى التعاون بين الأطراف المتعارفة، وقد شرع الإسلام التعاون على البرّ والتقوى؛ لكونهما جماع الخير والسّلام للإنسانيّة في الدارين، ومنع التعاون على الإثم

(١) الحجرات: ١٣ .

والعدوان الذي كثيرا ما وقع بين أهل الدنيا؛ لكونهما جماع الشرور والأضرار التي تفضي إلى الحروب والنزاعات وتؤجج نيران الصّراع المدمّر لمشروع السّلام ولسعادة البشريّة[١].

متطلبات الذات من الآخر:

إنّ علاقات الذات بالآخر في تقدير الإسلام تتميّز بمعايير دينيّة شرعيّة راسخة علميًا وعَمَليًا، مبدؤها وغايتها إحقاق الحق والحقوق، وإلزام العدل والاعتدال، وإحلال السّلام والإسلام، وإيفاء العهود والعقود، واحترام أصول التداول، ومراعاة حقوق التعامل، واستقلال الدّول، مع الاحتفاظ بحق الدّفاع الشرعي عنها، ومنع كل أشكال العدوان عليها.

وإذا اهتزّت هذه المعايير وجنح الآخر إلى تجاوزها، ظلّ الذات على هذه الثوابت، حتى تتوافر الظروف المناسبة للعودة إلى هذه المعايير والتقيّد بها.

ويتكيّف الإسلام مع نمط العلاقات الدّوليّة المعاصرة القائمة على أساس الإقليميّة والجغرافيّة، والسيادة العليا لكلّ دولة، والاعتراف بالدّول الأخرى؛ لأنّ من حقوق الدّولة الطبيعيّة في القانون الدولي المعاصر: حق البقاء، وحق الدّفاع الشرعي، وحق المساواة، وحق الحريّة، وحق الاحترام المتبادل.

وقواعد الإسلام أو مبادئه الدوليّة واضحة تتمثل في حرصه على إقرار حالة السّلم العالمي والأمن الدّولي، والتوكيد على إشاعة المودة والحرص على التعاون الخيّر لما يحقق مصالح البشريّة: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى**﴾[٢]، وهذا عام يشمل المسلمين وغيرهم، تخاطبهم الآية الكريمة للتعاون على كلّ ما هو بنّاء للحياة الخيريّة والتعايش السّلمي، ثمّ التمسّك بالحقوق الثابتة الشرعيّة، وإعمال

---

(١) انظر: د. إسماعيل لطفي، الإسلام دين السلام، ط١ / ٢٠٠٤م، مركز خدمة المجتمع - الكلية الإسلاميّة جالا، ص: ٢٨-٣٠ .

(٢) المائدة: ٢ .

منطق الحق والمساواة والعدل في كلّ الأحوال: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(١)، والوقاية من الشرّ والفتنة: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(٢)، ومناصرة المستضعفين: ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾(٣)، وتفضيل كرامة الإنسان: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(٤)، والتزام المعاهدات ووجوب الوفاء بها: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾(٥).

فالتقيّد بالعهود والمواثيق شريعة ربانيّة وفريضة إسلاميّة كبقيّة فرائض الإسلام، ولم يقتصر الإسلام من جانب الذات على مجرّد الوفاء بالعهد، بل عدّ قاتل المعاهد بأنّه قد ارتكب جُرما لم يرح على إثره رائحة الجنّة: "من قتل معاهدا – وفي لفظ: من قتل قتيلا من أهل الذمة – لم يرح رائحة الجنة"(٦).

السّلام غاية العلاقات في الإسلام(٧):

ما أكثر النصوص الشرعيّة في الإسلام الدّاعية إلى إيثار السّلم ونبذ الجُرم، وتقرير كون الأصل في العلاقات الدّوليّة هو السّلام لا العدوان، وأنّ الباعث على القتال إنّما هو مقاومة أشكال الحرابة والبغي والفساد، وليس المخالفة في الدين، ومن هذه الآيات القرآنيّة:

---

(١) المائدة: ٨ .
(٢) الأنفال: ٢٥ .
(٣) الأنفال: ٧٢ .
(٤) الإسراء: ٧٠ .
(٥) النحل: ٩١
(٦) رواه البخاري: كتاب الديات، باب: إثم من قتل ذميًا بغير جرم، رقم الحديث (٣١٦٦).
(٧) انظر: د. إسماعيل لطفي جافاكيا، المرجع السّابق، ص: ٣٤-٣٥ .

١ - القرآن المكي: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(١).

٢ - القرآن المدني: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾(٢).

وأبرز ما يدلّ على أنّ الإسلام دين يفضّل السّلام على الحرب والعنف، أنه يأمر المسلمين ألاّ يتأخروا عن الاستجابة لدعوة السّلام، ولو كانوا محاربين في ميادين الحرب، فلا يردّونها أبدا، قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

ويقول الشيخ محمّد رشيد رضا: "ولمّا كان جنوح العدو للسّلم قد يكون خديعة لنا لنكفّ عن القتال، ريثما يستعدّون هم له أو لغير ذلك من ضروب الخداع، وكان من المصلحة في هذه الحال أن لا نقبل الصّلح منهم، ما لم نستفد كلّ ما يمكننا من تفوّقنا عليهم، لم يُعد الشارع احتمال ذلك مانعًا من ترجيح السّلم، بل قال: ﴿وإن يريدوا أن يخدعوك فإنّ حسبك الله﴾ ... وهو برهان على أنّ الإسلام دين السّلام، لكن عن قدرة وعزّة، لا عن ضعف وذلّة "(٤).

ويحرص المسلمون -انطلاقا من شريعتهم- على تنمية العلاقات الفرديّة والدّوليّة بحسن نيّة، وتوجيهها نحو السّلم والأمن والإخاء الإنساني والتعاون الاقتصادي والأمني في مختلف المجالات المشروعة، على أن تصان الحقوق الإسلاميّة.

إنّ سبيل المسلمين في مختلف الأحوال السّلميّة والحربيّة، ولا سيّما حال سوء

---

(١) يونس: ٩٩ .

(٢) البقرة: ٢٥٦ .

(٣) الأنفال: ٦١-٦٢ .

(٤) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: ١٠/١٤٠ .

العلاقات الخارجيّة أو الداخليّة مع الآخر؛ اللجوء إلى الحوار البنّاء، وإعمار قواعد الحكمة والوسطيّة، ونبذ كلّ أنواع التوترات. وإنّ الحوار الهادف -بشكل عام- يزكّي النفس، ويصقل المواهب، ويشحذ الهمم، ويمكّن من البرهان، ويؤصّل للحقيقة، ويؤسّس للحياة المشتركة، ويوسّع دائرة التفاهم، وينمّي الخبرات والطّاقات، ويمنح الفرد الشفافيّة والسّلوك الحضاري؛ شريطة أن تستكمل فعلا شروط الحوار. (١)

وكما هو هذا التنظير الربّاني مطلوب من الذّات التطبيق الإنسانيّ، كذا هو مطلوب من الآخر التفعيل الإنسانيّ بالملتقى الإيمانيّ، وكما هي هذه القواعد الإسلاميّة أو مبادئ الإسلام الدوليّة، كذا هي متطلبات الذّات إزاء الآخر من إثبات الإيجاب ونفي السّلب؛ بناء على ما قضاه الله ﷻ وأراده من جميع خلقه في مواضع عديدة من التنزيل الجليل:

أولا: إثبات الإيجاب

١ - التعارف للتآلف والتعايش، قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾**(٢).

٢ - الحوار للتفاهم، قال تعالى: **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾**(٣).

فالمراد بالـ (سواء): العدل، يعني: تعالوا بنا إلى كلمة عادلة مستقيمة مستوية إذا أتيناها نحن وأنتم كنّا على السّواء والاستقامة. ثمّ فسّر الكلمة فقال: ألاّ نعبد

---

(١) انظر: عمر عبيد حسنة، مقدّمة كتاب الأمّة: الحوار.. الذات والآخر، العدد (٩٩)، محرّم ١٤٢٥هـ، ص ١٦ .

(٢) الحجرات: ١٣ .

(٣) آل عمران: ٦٤ .

إلاّ الله، ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فهذه الأصول المتفق عليها في تفسير الكلمة يجب علينا التعاون على إقامتها[(١)].

وفي حالة إعراض الآخر، وعدم التلبية إليها يأمرنا الله أن نثبت على هذه الكلمة بقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، أي: مخلصون بالتوحيد، منقادون بما أتتنا به الأنبياء كلّهم [(٢)].

٣-الاهتداء للهداية، قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[(٣)].

هكذا حرص رسول الله ﷺ للجميع، يتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾[(٤)] فتلك أهمّ أهداف البيان: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[(٥)].

٤ - الإيمان الشامل للخير والمثوبة، قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[(٦)]، وقوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[(٧)].

وقد ذمّ الله عز وجل نقيض الإيمان الشامل بقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾[(٨)]، وقوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ

---

(١) وكذلك في قراءة عبد الله ﴿إلى كلمة عدل﴾ .الواحدي، الوسيط: ٤٤٦/١، محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: ٣٢٦/٣ .

(٢) الواحدي، الوسيط: ٤٤٧/١، البغوي، معالم التنزيل: ٣١٢/١ .

(٣) آل عمران: ٢٠ .

(٤) النحل: ٣٧ .

(٥) آل عمران: ١٠٣ .

(٦) البقرة: ١٣٦ .

(٧) الأعراف: ١٥٨ .

(٨) آل عمران: ٩٨ .

الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(١)، أمّا الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، فأولئك لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون.

٥ - اتباع ملّة إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٢)؛ وذلك باتباع الإسلام الحنيف السّمح، ملّة محمّد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، المندرجة تحت ملّة إبراهيم عليه السلام (٣) في قوله تعالى:

❖ ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾(٤).

❖ ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٥).

❖ ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٦).

٦ - التكامل للتكافل، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾(٧).

وعن هذه الآية ثمّة رواية: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين، إنّكم تقرءون آية في كتابكم، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا، قال: وأيّ آية؟ قال: قوله: اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي، فقال عمر: والله إنّي لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ، والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ، عشيّة عرفة في يوم جمعة(٨).

---

(١) البقرة: ٨٥ .
(٢) آل عمران: ٩٥ .
(٣) الواحدي، الوسيط: ١/٤٦٥ .
(٤) آل عمران: ٨٣ .
(٥) البقرة: ١٣١ .
(٦) الأنعام: ٧١ .
(٧) المائدة: ٣ .
(٨) البخاري: ٤٣، مسلم: ٥٣٣٤ .

إنّه لا غَرْوَ ولا ضَيْرَ أن تنزل هذه الآية الكريمة على خير البرية البشير النذير، وطالما وضع الآخر هذه الآية في ميزان التقدير، فيمكن للآخر التكامل مع الذات للتكافل، خصوصا إذا وضع الآخر في الاعتبار قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

وسياق الآية ولحاقها في معرض الحديث عن الآخر، وقد قال رسول الله ﷺ: "ثلاثة يُؤْتَوْن أجرهم مرّتين: رجلٌ من أهل الكتاب آمن بنبيّه وآمن بي فله أجران، وعبدٌ مملوكٌ أدّى حقّ الله وحقّ مواليه فله أجران، ورجلٌ أدّب أمَتَه فأحسن تأديبها، ثمّ أعتقها وتزوّجها فله أجران"(٢).

٧ - الإصلاح للصّلاح، قال تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾(٤).

٨ - الحذر من عذاب الله على الظالمين، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾(٦)، وقال تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾(٧).

(١) النحل: ٢٨ .
(٢) البخاري: ٣١٩٠، مسلم: ٢١٩ .
(٣) هود: ٨٨ .
(٤) النساء: ١١٤ .
(٥) الأنفال: ٢٥ .
(٦) القصص: ٥٩ .
(٧) الأعراف: ٤، ٥ .

ثانيا: نفي السّلب

١ – عدم الغُلُوّ في الغُلُو، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ...﴾[(١)].

٢ – عدم اتباع الظن والهوى، قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[(٣)].

٣ – عدم التمادي في التعادي، قال تعالى: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[(٤)].

٤ – عدم الانجراف نحو الانحراف، قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[(٥)]. سياق الآية ولحاقها في معرض الحديث عن الآخر.

٥–عدم الاختلاف للائتلاف، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ وَمَنِ

---

(١) النساء: ١٧٠، ١٧١ .
(٢) النجم: ٢٨ .
(٣) البقرة: ٨٧ .
(٤) المائدة: ٢ .
(٥) البقرة: ٧٥ .

اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾(١).

٦ - عدم الصّد عن سبيل الله، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾(٢).

٧ - عدم الانتقام من المؤمنين بالله، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ﴾(٣).

٨ - عدم كتمان الحق وإلباسه بالباطل، قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٤).

٩ -عدم قتل أهل الخير من الآمرين بالقسط والدعاة إلى الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ﴾(٦).

١٠ - عدم اتباع خطوات الشيطان، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾(٧).

١١ -عدم الإفساد وإيقاد نار الحرب، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾(٨)، وقال تعالى: ﴿وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٩).

---

(١) آل عمران: ١٩ -٢٠ .
(٢) آل عمران: ٩٩ .
(٣) المائدة: ٥٩ .
(٤) آل عمران: ٧١ .
(٥) آل عمران: ٢١ .
(٦) الصّف: ٥ .
(٧) النور: ٢١ .
(٨) المائدة: ٦٤ .
(٩) الأعراف: ٨٥ .

خاتمة:

تلك مقوّمات إثبات الإيجاب ومحصّلات نفي السّلب من الوحيين غير ذي عوج، هي

(ذلك الدّين القيّم.. دين الإسلام والسّلام) الذي يُنذر غير المؤمنين بالبأس الشديد من لدن القويّ العزيز، ويهدي المؤمنين في الحياتين لأقْوَم سبيل، ويبشّرهم في الدّارين بأجر كبير.

وفي الأخير نقول لمنْ لم يُجب داعي الله إلى الإسلام وكلمة سواء: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾[(١)].

ونقول للجميع موضّحين عن موقفنا السّلمي بقوله تعالى: ﴿**فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ**﴾[(٢)].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، وأفوّض أمري إلى الله إنّ الله بصير بالعباد. وصلّى الله على نبيّنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم.

سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله ربّ العالمين.

---

(١) الكافرون: ١ -٦ .

(٢) الشورى: ١٥ .

محتويات البحث

نحـن والآخـر..
نحـو علاقـة أفضـل
بين مكونات المجتمع الإنساني

أ.د/ أحمد الراوي

رئيس اتحاد المنظمات الإسلامية
في أوربا

بين يدي الموضوع

الحمد لله وكفى، وصلاة وسلام على عباده الذين اصطفى.. وبعد:

غني عن القول إن الإسلام يطرح رسالة سامية للإنسانية، فهي رسالة صلاح وإصلاح، رسالة تنوير وتغيير نحو الأفضل، رسالة تطوير تنسجم مع سنن الحياة وحركة الكون، وهي رسالة من شأنها أن تمكِّن لعلاقة أفضل بين مكونات المجتمع الإنساني.

وكما هي سنن الله في الأقوام وفي حركة التاريخ، فسيكون للقيم السامية خصومها، وسيكون للحق أعداؤه، وللعدالة مناهضوها، وسيكون هناك أيضًا من يخشى النور الذي يتسرب إلى الظلام، بل سيجد المستفيدون من بعض التناقضات في فضائنا الإنساني، والمستغلون لها في التواصل الإيجابي بين مكوناته ما يهدد مصالحهم ويقتطع من نفوذهم. إننا ندرك ذلك جيدًا، ولكن ذلك لا ينبغي أن يثنينا عن متابعة الرسالة ذاتها، وتطوير العلاقة التفاعلية بين ما اصطلح عليه بـ "نحن" من جانب و"الآخر" من جانب مقابل.

ومن المؤسف اليوم أن نتناول هذه المسألة في ظل موجة جديدة من التوتر، على خلفية قضية الرسوم الكريهة المسيئة للمقام النبوي الشريف، وهي قضية تندرج -بكل أسف- ضمن مسلسل مَقِيت من التحريض ضد الإسلام وأمته، وتلحق بوقائع التشويه المتواصل لصورة الإسلام والمسلمين في أنحاء متفرقة من عالمنا الصغير، فيما يبدو أنها موجة مدفوعة برغبة تكريس القلق من الإسلام والارتياب من المسلمين، وإثارة الضغائن والأحقاد، وهو ما نرفضه بشدة، خاصة وأنها إعادة إنتاج خطير لصورة كريهة كان يفترض بها أن تنمحي في عصر التواصل المفتوح بين الأمم والتدفق الحرّ للمعلومات.

ونود في هذا المقام أن نؤكد للجميع أن "اتحاد المنظمات الإسلامية في أوربا" معني تمامًا بقطع الطريق على سوء الفهم المتبادل، ومن الواضح بالنسبة لنا أن المرحلة الراهنة تقتضي مضاعفة الجهود البناءة والمثمرة؛ سعيًا إلى واقع أفضل. فنحن نعي جيدًا أن الحوار بين الحضارات إن كان أحد شعارات المرحلة الراهنة

التي تعيشها البشرية؛ فإن الصراع هو مسار معاكس، هناك من يتبناه ضمنًا في عديد من الدوائر الحضارية، أو يدعو له جهرًا، بل وينظِّر له.

من هنا، وفي مواجهة هذه المحاذير ننبه مجددًا إلى أن الحوار بين الحضارات لا ينبغي له أن يتحول إلى شعار بلا مضمون، أو أن يغدو مظهرًا بلا جوهر؛ وإنما تتوجب ترجمته في أرض الواقع بميادينه المتشعبة. وطالما أن الحوار بين الحضارات يحتاج إلى تجسيد وتطوير، فإنه يجدر بنا أن نلفت إلى ضرورة تعميم رؤى الحوار وقِيَمه الإيجابية في عدد من الميادين الهامة والحساسة، التي تمثل في واقع الأمر مفاصل حساسة في الحياة الإنسانية؛ وهو ما سنحاول الإسهام في معالجته، بما يتيحه المجال في سياق هذه الورقة.

مدخل عن "نحن".. وعن "الآخر":

إن إدراكنا لأنفسنا، حق الإدراك، لا يتأتى بمعزل عن إدراكنا للآخر وفهمنا له. وإذا ما قيل قديمًا: "وبأضدادها تعرف الأشياء"، فإن ذلك يرشدنا كذلك إلى أن فهمنا للآخر يعيننا على تصويب تصورنا لأنفسنا، مثل ما يرشدنا ذلك الفهم إلى مداخل التعارف الإنساني المتبادل. ولا ريب أنه لولا "الآخر" لما كانت "نحن"، والعكس صحيح أيضا؛ أي أننا مدعوون أيضًا إلى فهم أفضل لأنفسنا، ومن أبعاد ومناظير شتى؛ كي ندرك من الآخر أبعادًا إضافية.

ومع ذلك؛ فعلينا أن نبدي شيئًا من الحذر من مغبة تصنيف حالة التنوع البشري ضمن نَسَق من الأضداد والمتناقضات؛ ذلك أننا إذ ننظر إلى هذه التعددية من منظار قرآني أكد على قيمة التعارف بين البشر، إذ يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾(١).

---

(١) الحجرات: ١٣ .

مَنْ "نحن"؟ ومَنِ "الآخر"؟

يسهل أن نقول: إن "نحن" نشير بها إلى أنفسنا، أي الدائرة البشرية التي نعنيها في حديثنا في سياق ما، أما "الآخر" فهم أولئك الذين لا يقعون في إطار من نعنيهم بـ "نحن". هكذا هو التصنيف ببساطة، إلا أن الأمر ينطوي في حقيقته على أقدار من التعقيد والتداخل، التي قد تلزمنا بأن نتحاشى وضع الحدود الجامدة التي تفصل المعنيين بـ "نحن"، عن أولئك المعنيين بـ "الآخر"؛ ذلك أننا، ونحن نعتز بقيم التواصل والتعارف في عالمنا، مدعوون إلى أن نلتفت إلى ما يجمع ولا يفرق، وأن ندقق النظر في المشترك الجامع بدلا من التركيز على الفواصل والحدود، أو تصنيف الجموع البشرية ضمن معسكرات متباينة تمامًا. ولا شك أن هذا المطلب لا يعني إلغاء "الذات" ولا إهمال خصوصياتها، أو طمس الهوية، كما أنه يتنافى ضمنًا مع اتجاه التوحيد الثقافي المذموم.

بيد أنّ منظورنا لـ "نحن" و"الآخر" كثيرًا ما يسقط في إغواءات الاستقطاب الثنائي النمطي الذي شاع توصيفه مثلا في ثنائيات كـ "الإسلام والغرب"، أو "العالم الإسلامي والعالم الغربي" أو حتى "العرب والغرب" وما إلى ذلك. والحقيقة أننا إذا ما نشدنا فهم عالمنا الذي نعيش فيه، وجب علينا ألا نختزل هذا الفيض الإنساني الزاخر بالتنوع في ثنائيات جامدة على هذه الشاكلة، فأمامنا -عندما نتحدث في العالم الإسلامي عن حوار الحضارات- الكثير من الأمم والشعوب والثقافات، مما لا يُقبل اختزاله في الغرب وحده؛ فالأمم الآسيوية والهندية، والشعوب الأفريقية واللاتينية، وغيرها أيضا، جميعها تتجاهلها تلك النظرة القاصرة المشدودة إلى تجاذبات العلاقة بين الشرق الإسلامي والغرب الأوروبي.

ولكننا إذا ما أعلنَّا انحيازنا إلى حوار الحضارات وخيار الوفاق بين الثقافات، يكون علينا بالتالي أن ندرك أن الأمر يتعلق بقدر أوفر من التنوع الحضاري والثقافي، مهما استلب الغرب الأنظار، ومهما انشغلنا بمسعى الوفاق المعاكس لفرضية صدام الحضارات المؤسفة بين العالمين الإسلامي والغربي.

"نحن" و"الآخر".. بمعيار الدوائر الحضارية:

إذا كان من اليسير تتبع الحدود السياسية والجغرافية بين الدول والشعوب؛ فإنه من العسير وضع حدود جامدة للدائرة الحضارية الواحدة؛ فالمسلم الأوروبي مثلا ينتمي إلى الدائرة الحضارية الإسلامية، ولكنه في الوقت ذاته جزء من الفضاء الغربي، ويحفل الواقع البشري بأمثلة شبيهة إلى الدرجة التي تجعلنا نستنتج أن الخارطة الحضارية والثقافية مفعمة بالتداخلات والتقاطعات التي هي -بحد ذاتها- من قنوات الحوار والتفاعل والتعارف بين الدوائر الحضارية. فالتنوع سنة كونية، كما أنه مقدمة للتعارف وفق ما يستقي المرء من المعين القرآني الذي لا ينضب.

ولعل هذا ما يقودنا -تلقائيًّا- إلى تسليط الأضواء على حقيقة ماثلة في وعينا؛ وهي أن الحضارة الإسلامية قامت بالفعل على أرضية التواصل الحضاري، وتميزت حقًّا بهذه الخصوصية في مسيرتها. وقد كان ذلك من بين العوامل الحاسمة التي أتاحت لها فرص الاستمرار لقرون مديدة في العطاء المتجدِّد، الذي شكل في محصلته الحافلة حلقة هامة في التاريخ الإنساني.

وبالمقابل: نجد مثلا أن النهضة الأوروبية بدءًا من القرن الميلادي الخامس عشر، لم تكن لتقوم لولا تلك الإفادة من تراكمات التراث الإنساني والجهد البشري عبر مراحل التاريخ المتلاحقة. وستكون تلك هي المعادلة ذاتها لأية أشواط لاحقة من النهوض الحضاري سيُقدَّر لعالمنا أن يشهده.

كان واضحًا أيضًا أن التاريخ البشري الذي قد يراه بعضنا حافلا بالحروب الطاحنة بين الأمم، كان هو ذاته شاهدًا على التبادل بين الحضارات، وهو تبادل ظل قائمًا على الدوام، وإن شهد مراحل من المد والجزر؛ أي أن بوسعنا الاستنتاج هنا أن الحضارات تميل للتكامل فيما بينها رغم أن الذين يحسبون أنهم يمسكون بزمامها قد يجنحون أحيانًا نحو الصراع والتصادم.

ولا شك أن التلاقح بين المدنيّات والثقافات والحضارات ظاهرة ثريَّة وحافلة منذ فجر التاريخ الإنساني، رغم أن أتباع هذه المدنيات والثقافات والحضارات لا

يميلون عادة للاعتراف بحجم ما عاد عليهم من مكاسب متواصلة من خلال هذه الحالة التكاملية الباهرة، فغالبًا ما يكتفون بإحصاء بصماتهم التي طبعت جوانب من البيئات المدنية والثقافية والحضارية للآخرين، وهي بالمناسبة إحدى السمات المألوفة في العلاقة المتبادلة بين "نحن" و "الآخر".

وتأسيسًا على ذلك، فإننا في "اتحاد المنظمات الإسلامية في أوربا"، نحمل الرؤية التي تقول: إن الحوار بين الحضارات ليس ظاهرة جديدة، بل هو لازم للحضارة لا انفصام لها عنه، خاصة وأن الحضارة الواحدة تتنفس من فضاء الحضارات الأخرى.

نحو أسس عامة لعلاقة أفضل لمكونات المجتمع الإنساني:

ثم إننا في تناولنا للعلاقة المتبادلة بين "نحن" و"الآخر" سنتولى طرح تساؤلات عن الأدوار التي ينتظر من دائرتي "نحن" و"الآخر" المفترضتَيْن القيام بها وأخذها بعين الاعتبار. هنا نستطيع أن نضع أسسًا عامة، آخذين بعين الاعتبار حركة العصر وَعِظَات التاريخ، ومستشرفين أيضًا آفاق المستقبل.

أسسٌ ومداخل لعلاقةٍ تفاعليةٍ بنّاءة بين مكونات المجتمع الإنساني

أولا: إدراك التنوع في الدائرة الواحدة مدخل أفضل للفهم:

من الملائم في سياق تناولنا لهذا الموضوع أن نعتبر إدراك التنوع أساسًا عامًا، ومدخلا أفضل لفهم الذات وما نسميه بالآخر.

فكما استخدمنا تعبيرات من قبيل "نحن" و"الآخر" ربما تبادر إلى بعض الأذهان أن الأمر يتعلق باستقطابات ضمن دوائر متجانسة أو ذات لون واحد، إلا أن واقع الأمر يبدو مختلفًا، طالما أنه حتى فى الدائرة الواحدة يمكن العثور على حالة من التنوّع والتعددية.

ومن اللافت للانتباه: أن مروجي خطاب الخصام بين الأمم والشعوب -أينما كانوا- يحرصون على تجاهل التباينات والفوارق التي لا بد من وجودها في أيِّ سياق بشري. وكثيرًا ما يعمد هؤلاء إلي إبراز القواسم المشتركة في أي أمة أو شعب أو مجتمع، والتعظيم من شأن الملامح العامة والتركيز عليها، دون الحرص على التفاصيل وواقع التمايز الداخلي.

وانطلاقًا من كوني مسلمًا في البيئة الغربية، واقفًا على رأس مؤسسة معنيّة أيضا بالحوار والتواصل والتفاهم المتبادل، هي "اتحاد المنظمات الإسلامية في أوربا"؛ فإنّ مِنّ بين ما يشغلنا دائما مطلب الارتقاء بالعلاقة التفاعلية بين الجانبين الأوروبي والإسلامي، انطلاقًا من التوجيهات والقيم الإسلامية، وأخذًا بعين الاعتبار خصوصيّة الوجود المسلم في أوربا. وكثيرًا ما كنا نلحظ بوضوح كيف تجنح الأصوات التي تعوِّل على إثارة نزعات الخصام المتبادل إلى تنميط الطرق المقابل لها، ووضعه في قالب جامد لا يتوافق مع الواقع.

فمن جانب، يلحظ المرء أولئك الذين يقفون موقفًا مناهضًا للإسلام ويمارسون طقوس الإساءة للثقافة الإسلامية، بل ويعربون عن ضيقهم بالمسلمين،

وربما يتولَّون التحريض ضدهم. فهذه الفئات، التي كثيرًا ما تتبنى خطابًا متشنجًا، بل وقد يذهب بعضها في بعض الحالات إلى حد المراهنة على القطيعة مع المسلمين أو حتى الصدام معهم نجدها عاجزة عن رؤية حقيقة التنوع الثري في واقع المسلمين، سواء حول العالم أم في البيئات الأوروبية ذاتها. فما يجري في العادة هو ترويج لصور نمطية كريهة، يمكننا توقعها في ملابسات العصر الأوروبي الوسيط، ولكن من المثير للقلق أن نعثر عليها في قلب ما نسميه "مجتمع المعلومات"، الذي يفترض أنه يخوض انطلاقة جديدة إلى آفاق معرفية منفتحة في القرن الحادي والعشرين.

أما في الجهة المقابلة، فلا بد أن نشير أيضًا إلى انطباعات شائعة في بعض الأوساط المسلمة، من قبيل اعتبار "الغرب" إجمالا كتلة أحاديّة خالية من التباينات. فهناك من يتناول "الغرب" بوصفه رقعة متجانسة، بما يبعث على الظن بأن الأمر يتعلق بنمط أحاديٍّ يسهل اختزاله في أحكام واستنتاجات عامة. والحقيقة أن ما قد نراه في الجغرافيا بسيطًا، لا يبدو لنا كذلك بحسابات الاجتماع.

فالغرب أيضًا، ينطوي على تباين داخلي عميق، ويعرف تعددية غزيرة في كثير من الحقائق القائمة على الأرض والتفاصيل المنزوية في ثنايا المشهد. لذا، فإن حديث بعضهم عن "المجتمع الغربي" يفقد مبرراته وجدواه، طالما أن الأمر يتعلق بشعوب متنوعة ومجتمعات متباينة، ثم إن المشترك الغربي لا يرقى بحال إلى درجة إذابة الفوارق البينية أو محو الخصائص الذاتية لكل شعب من الشعوب التي يمكن اعتبارها غربية، أو لكلِّ مجتمع يقع ضمن هذا السياق.

ونحن -من كل الأطراف- معنيون تمامًا بفهمٍ أدقّ للواقع الذي نتناوله، أيًّا كان ذلك الواقع. فلا ريب أن التصورات المتشكلة في وعينا إزاء ما نسميه "الآخر" عندما تكون محاكية للواقع الفعلي ذي الصلة نكون بالتالي أقدر على الخروج باستنتاجات وأحكام بهذا الشأن، فـ "الحكم على الشيء فرع تصوره"؛ وهو ما يعني أننا سنكون بالتالي أكثر قابلية على التعاطي الإيجابي والتواصل البنَّاء مع ذلك الواقع.

خلاصة القول هنا: إن الفهم المتبادل أساس لا بد منه لعلاقة صحيّة متبادلة، وأما الجهل بالآخر، وبالذات أيضًا، فهو السبيل الأقصر إلى سوء الظن والتوجس المتبادل، بل ويفتح الباب على مصراعيه أمام إثارة الضغائن والأحقاد أحيانًا، كيف لا و"المرء عدو ما يجهل"؟.

ثانيًا: تبني نهج التعارف الإنساني:

الأساس الثاني يتمثل في قيمة التعارف الإنساني، فلو حاولنا أن نُمْعِن النظر في هذه القيمة لوجدنا أنها تنطوي على أبعاد مركبة، تشتد حاجتنا -نحن البشر- إليها في هذا العصر على نحو خاص.

فالتعارف من ضروب التواصل الإنساني السامية التي تتأسس على النظرة الإيجابية للتنوع البشري. وبالمقابل: لا تغيب عن الأذهان تلك الفلسفات والأيدلوجيات والمذاهب الفكرية والاجتماعية والسياسية التي تعاملت مع التنوع إياه باعتباره عبئًا أو وِزْرًا ينبغي طمسه أو الخلاص منه، أو حتى التعامل معه بمنطق الاستعلاء من جانب والاستصغار من جانب آخر.

والتعارف هنا يتقدم، وبأشواط فسيحة، على مفهوم التسامح، بما يعنيه هذا الأخير ضمنًا من احتمال الآخر والاصطبار عليه، وبكل ما يشي به ذلك من تمايز بين البشر وانسداد في خطوط التواصل الأمثل. أما التعارف، فهو عملية تفاعلية باستحقاق، تقوم على أساس توقع كل طرف أن لدى الطرف الآخر ما يفيده.

ومن المثير للأسف، أن نجد من يحصر مفهوم الإفادة بالانتفاع المادي وحده؛ ذلك أن الإفادة تنفتح على آفاق إنسانية بلا حدود، تتقدمها القيم الإيمانية، والمعاني الأخلاقية، ومفاتيح السمو الإنساني، والتجارب الحضارية، والمكتسبات العلمية، والتراكمات التقنية، وتتصل أيضا بشتى مجالات الحياة البشرية.

ثم إن التعارف لا ينهض إلا على أرضية الاحترام المتبادل، وما أحوجنا إليه في عالمنا. ولو توافر هذا الاحترام لما دخل عالمنا في أزمة الرسوم المسيئة للمقام

النبوي الشريف مثلا، التي نعيش تداعياتها اليوم، إلا أن نزعة الامتهان والإساءة للآخر والنيل من المقدسات على هذا النحو المقزز، وإغلاق منافذ الإنصات للآخر والحوار معه من جانب المعنيين في بلد كالدنمارك، كفيلة بتسميم الأجواء كما شهدنا، وتهديد سبل التواصل الإنساني ذاتها، وإشعال الحرائق هنا وهناك.

أما الاحترام، فلن يتشكل في بيئة لا تتيح المجال للقبول بالآخر؛ أي أن يقبل هذا "الآخر" دون أن يضطر للخروج من ذاته، أو أن يُفْرَض عليه التنصل من خصائصه الجوهرية. فالقبول المتبادل المشار إليه ينطوي على أبعاد أعمق مما يحسب بعضهم.

إلا أن ذلك لا يعني التسليم بالانحرافات والضلالات، أو غض الطرف عن المظالم والتجاوزات التي يفيض بها عالمنا المثخن بالآلام؛ وإنما المطلوب من الجميع أن يقبلوا واقع التعددية البشرية وأن يقروا حقيقة التنوع الثقافي والحضاري، وأن يجري ذلك على أرضية من الثقة بالذات وبقدراتها على إفادة الآخر أيضا بلا استعلاء، علاوة على فرص الاستفادة منه بلا استغلال.

ثالثًا: استلهام دروس الماضي وتجارب الحاضر

الأساس الثالث يتمثل في ضرورة استلهام عظات التاريخ والاسترشاد بدروسه عندما نقرر الانطلاق بالعلاقة المتبادلة بين "نحن" و"الآخر" صوب المستقبل؛ أي أن علينا أن نحدد جملة من "أخطاء الماضي" مما لا يجوز اجتراره في مراحل لاحقة.

ومن ذلك:

- أنه لا يقبل إخضاع شعوب لهيمنة شعوب أخرى بأي صورة من الصور، وأن الاستمرار في علاقات الإخضاع القسري هذه من شأنه أن يفتح أبواب الشرور على البشرية جمعاء.
- وأنه لا يجوز إفساح المجال أمام أيٍّ من ضروب الاستغلال للبشر، أو

التعدي على كرامتهم الإنسانية، كما لا يسمح بممارسة التفرقة العنصرية أو أيٍّ من صور التمييز والإذلال.

❖ وأن إطلاق العنان للعلوم والتقانة بلا ضابط من إيمان أو أخلاق إنما يعود بالعواقب الوخيمة على الإنسان وعالمه، ويفرغ المكتسبات العلمية والتقنية من كثير من جدواها المنشودة.

❖ وأن محاولة فرض قوالب أحادية على حضارات العالم وأممه وشعوبه ومجتمعاته الإنسانية لا يعكس نظرة قاصرة ونزعة استعلائية وحسب؛ وإنما يهدد أيضًا فرص الإفادة الجماعية من التنوع الثري في عالمنا المعاصر الصغير لصالح التنميط الثقافي القسري.

❖ وأن الطموح المشروع للرخاء الاقتصادي لا ينبغي أن يتم عبر بوابة الجشع والنهم غير المحدود للأرباح المجانية بلا انضباط من شقاء الآخرين وكَدِّهم. فلا يجوز بالتالي أن يدفع بعض البشر من فقرهم المدقع ثمنًا للثراء الفاحش الذي يتقلب فيه بشر آخرون، وإنما يتوجب البحث عن مفاتيح علاقات إنسانية متوازنة، وهو ما يمكن استلهامه من قيم الإسلام المقررة في هذا الباب أيضًا، والتي تتيح المجال أمام العيش الكريم وتكافؤ الفرص للجميع.

❖ وأن احترام حقوق الإنسان وحرياته لا ينبغي أن يبقى أسيرًا للمواثيق وحدها، بل تتوجَّب ترجمة هذه المواثيق على صعيد التطبيق أيضًا، بلا تلكؤ ولا تردد.

❖ وأن الحرية التي ينبغي أن تكون مكفولة دومًا تقتضي التحلي بالمسؤولية، وأن الحرية بلا مسؤولية تفقد قيمتها الإنسانية الحقة.

❖ وأن البشرية جمعاء معنية تمامًا بأن تتضافر جهودها في اجتثاث الفقر والجوع والمرض، وأن تتداعى إلى فتح الأبواب أمام البشر كافة لجني ثمار العلوم والمعارف التي هي حصيلة الجهد البشري المتراكم عبر عصور متلاحقة.

❖ وأن إيقاد نيران الحروب وتفجير الصراعات لن يسفر سوى عن إثقال

البشرية بمزيد من التوترات، وحصد أعداد لا تحصى من الأرواح البريئة، علاوة على تعميق حالات الاستغلال والانتهاك للكرامة الإنسانية، ولحريات الأمم وخيارات الشعوب.

❖ وأن النظام الدولي الذي تم تصميمه وفق توازنات ما بعد الحرب العالمية الثانية، واتخذ فيما بعد طابع الأحادية القطبية بحاجة إلى إصلاح جوهري، يضمن التوازن داخل الأسرة الدولية من جانب، ويكفل الديمقراطية في العلاقات بين الدول من جانب آخر، بما يتجاوز الامتيازات الاستثنائية التي تستأثر بها أطراف بعينها، وبالشكل الذي تحقق الجميع من إمكانية استغلاله حتى في شن الحروب وتأجيجها أو في الصمت على المظالم والانتهاكات وتمريرها.

رابعًا: التكافؤ الحضاري وتعزيز القواسم المشتركة وحماية التنوع:

من أجل علاقة أفضل بين مكونات المجتمع الإنساني؛ فإننا جميعًا مطالبون بالدفاع عن القيم والمبادئ والأخلاقيات المشتركة بين الأمم والثقافات والحضارات؛ كالعدل والحرية والحقوق، وعلينا أن ندعو من مواقعنا إلى تعزيز هذه القواسم المشتركة، والوصول إلى "كلمة سواء" في هذا الشأن.

ولا بد هنا من الانتباه إلى أن الوصول إلى "كلمة سواء" إنما يمس دلالات المفاهيم أيضا، ويقضي بالحوار حولها بشكل متكافئ، بما لا يلغي الحق في التنوع بشأنها أيضا؛ إذ إن جملة من المفاهيم لا يمكن لها أن تُنتزع من خلفياتها التاريخية والثقافية الخاصة بكل بيئة، ليجري تعميمها قسرًا على بيئات أخرى، لها ما تعتز به من الخصوصيات.

أي أن مفهوم "كلمة سواء" لن يترجم على أرض الواقع بدون إشراك مكونات المجتمع الإنساني كافة بصورة متكافئة في التعبير عن هذا المجتمع وتسيير أموره. والحقيقة أن هذه المسألة تتجاوز حدود مستجدات كـ "إصلاح الأمم المتحدة" (التي تتخللها عمليات إشراك مزيد من الدول في الدوائر الفاعلة لصنع

القرار الدولي) أو في وضع آليات أفضل لـ "الديمقراطية الدولية" (كإصلاح مجلس الأمن) إلى ما هو أبعد من ذلك؛ كضرورة تدعيم الثراء الحضاري والثقافي في عالمنا، والحيلولة دون صبغ بيئتنا الثقافية العالمية بصبغة أحادية.

ومن هنا، بوسعنا الإشارة إلى التوصل إلى ميثاق اليونسكو للتنوع الثقافي كمعبِّر عما يمكن أن نعتبرها إرادة أممية لحماية الهويَّات والخصوصيات في عصر العولمة. وإذا كانت تلك خطوة في الاتجاه الصحيح، فإن المنتظر هو المضي الجاد في سبيل حماية التنوع إياه بخطى واثقة وبمردودات ملموسة.

إن ما ننشده في هذا المجال يتمثَّل في السعي إلى تحقيق حالة التكافؤ بين الأطراف الحضارية الفاعلة. ونقصد بذلك أن تكون العلاقة التفاعلية بين الحضارات والثقافات قائمة على مبدأ النِّديَّة والوفاق، وهي حالة لا يتم معها الشعور باستعلاء طرف حضاري على الآخر، أو بهيمنة حضارة على الحضارات الأخرى.

ولا يقصد بالتكافؤ بين الأطراف الحضارية الفاعلة أن تكون هذه الأطراف جميعًا على المستوى ذاته من "الإنجاز" كمًّا وكيفًا، و"الحضور" حجمًا ومستوى، اللذَيْن يمكن قياسهما على أرض الواقع؛ ذلك أن سنن الله في الأمم والمجتمعات وحركة التاريخ تقوم على التبادلية في الريادة وعلى التفاوت في النجاحات من أمة إلى أخرى ومن زمن إلى آخر، فتعرف الأمم مراحل نهوض تارة ومراحل ضمور تارة أخرى.

إنما يقصد بالتكافؤ بين الأطراف الحضارية الفاعلة؛ أن يسود الاعتقاد بأن كافة هذه الأطراف شريكة في الميراث الإنساني العام، وبوسعها أن تساهم بجدارة في صنع الحاضر والمستقبل، وأن يتم إدراك هذه الحقيقة والتعامل بمقتضاها دون إلغاء أو إقصاء أو تهميش.

ولا ينبغي أن يتبادر إلى الأذهان أن إدراك التكافؤ إياه هو مطلب موجَّه إلى أطراف حضارية دون أخرى، بل هي قناعة ينبغي أن تتأصل لدى جميع الأطراف بلا استثناء، وهي رسالة موجهة إلى "نحن" (الذات) بقدر لا يقل عن توجهها إلى

"الآخر"؛ إذ ينبغي أن يدرك الواقفون في مواقع الريادة العالمية أنهم ليسوا وحدهم في ساحة الفعل الحضاري، لا في الماضي ولا في الحاضر، فضلا عن المستقبل، وأن بوسع الفاعلين الحضاريين الآخرين، بارزين كانوا أم كامنين، أن يبرهنوا بشكل أو بآخر على فاعليتهم التي قد يحسب أنها خاملة أو خامدة، أو حتى يظن أنها قاصرة أو منعدمة بالكامل. كما يدرك بموجب ذلك من يرون أنفسهم في منأى عن مواقع الريادة تلك أنهم -وبحق- شركاء في السياق الحضاري الإنساني العام، وأن لديهم مخزونًا بالوسع البرهنة على جدواه في الفعل الحضاري في الحاضر وفي المستقبل.

إن التواصل والحوار، والإقناع والمحاججة إنما ينبغي أن تقوم في جملتها على مبدأ التكافؤ، بل وعلى أرضية من احترام الآخر المقابل وعدم التقليل من شأنه. وما أروع ما نستلهمه من المعين القرآني في مجال أدب التواصل مع المخالفين، كما نجد مثلا في قوله تعالى: ﴿**قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * قُل لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾[١].

وهكذا، فالرسالة إلى "الذات" تتمثل هنا تارة في وضعها في سياقها الإنساني العام، بما يقطع الطريق على نزوعها المتوقّع إلى الاستعلاء، وإلغاء الآخر أو طمسه من الوعي الذاتي، وتتمثل تارة أخرى في إدراك المقدرات الذاتية وإمكاناتها القابلة للتفعيل، بما يقطع الطريق على التهميش الاختياري للذات أو الشعور بالدونية، وبما يحرك أيضًا كوامن الفعل الحضاري المتألق.

ومن شأن التكافؤ بين الأطراف الحضارية الفاعلة أن يعزز إدراك واقع التنوع الحضاري والثقافي في عالمنا، والتعامل الإيجابي مع حالة التنوع هذه باعتبارها إثراء للتجربة الإنسانية المشتركة.

ومن المؤسف أن مفهوم التنوع الثقافي قد ظل متجاهَلا، ولم يَحُز على

---

(١) سبأ: ٢٤، ٢٥ .

إرهاصات الاهتمام الفعلي إلا في الأعوام القليلة الماضية؛ فقد ساد طويلا الانطباع بقصور الدوائر الحضارية غير الغربية عن الفعل والإسهام، حتى ذهبت بعض الأصوات إلى حد التنظير للجمود الحضاري، وتصوير عجلة الفعل الحضاري الإنساني وكأنها قد توقفت عن الدوران، بزعم أنها بلغت محطتها الأخيرة أو "نهاية التاريخ"، بحسب تعبير فرانسيس فوكوياما الذي تحدث أيضًا عن "الإنسان الأخير".

إن هذا الفهم المؤسف لا ينطوي على نزعة الاستعلاء الحضاري المقيتة وحسب، وإنما يقوم أيضا على مصادرة المستقبل لحساب الحاضر، بقدر ما يعكس عدم الثقة في قدرات الأجيال المقبلة على تطوير خياراتها الحضارية.

ومن هنا، فإننا نبارك مساعي المنادين باحترام التنوع الحضاري والثقافي وحمايته وتعزيزه، ونشدّ في الوقت ذاته على أيدي المحذِّرين من خطورة الأحادية الثقافية التي ترمي إلى صبغ العالم بحضاراته وأممه وشعوبه بلون واحد في حالة تعميمية فاضحة لا يمكن تصوّر نجاحها.

ومقابل ذلك، ينبغي أن ندرك أن أيسر السبل لتعزيز التنوع الثقافي يتمثل في تحريك كوامن الفعل الحضاري لدى شتى الأطراف، وأرى -بصفة خاصة- أن الدائرة الحضارية الإسلامية عليها أن تقدم مشروعها الحضاري المتجدد للإنسانية اليوم.

خامساً: الإصلاح في ميدان التعليم والثقافة والإعلام

التعليم والثقافة من المفاصل الحساسة بالنسبة للأمم والشعوب، ولا يمكن لنا أن نتخيل عجلة حوار الحضارات وهي تتحرك إلى الأمام لتدفع الأمم المنضوية في الدوائر الحضارية المتنوعة نحو التعاون المثمر، دون أن تكون العملية التعليمية والثقافية مؤهلة لتحقيق هذه الحالة التفاعلية المنشودة.

فيما يتعلق بالتعليم:

إن التعليم الذي يشكل شخصية الإنسان، والثقافة التي تصنع الوعي بـ "نحن" و بـ "الآخر"، يتحملان في العادة قسطًا وافرًا من المسؤولية عن مدى النجاح المتحقق في ميدان التفاعل الإيجابي بين الحضارات.

وإذا ما كان علينا في "اتحاد المنظمات الإسلامية في أوربا"، بوصفه مؤسسة إسلامية أوربية، أن نتحلى بالرؤية الناقدة في هذا الملف الشائك، فإننا في الحالة الأوربية سنكون إزاء قصور الكثير من المناهج التعليمية المعمول بها في بلدان القارة، في مجال التنشئة على قيم التعارف الإنساني والقبول بالآخر (المسلم مثلا). وقد أكد العديد من البحوث والدراسات التي أجريت في هذا الحقل أن مناهج التعليم لم تساهم بما فيه الكفاية في مكافحة الانطباعات السلبية الراسخة في الوعي الجمعي إزاء الإسلام والمسلمين، بل غذتها في كثير من الأحيان.

وهذا يقتضي تكاتف الجهود الرامية لتنقيح المناهج المدرسية في بلدان أوربا مما علق بها من شوائب لها انعكاساتها السلبية على فرص الحوار بين الحضارات في النضوج في واقع الأجيال الجديدة.

فيما يتعلق بالثقافة:

وفيما يتعلق بالثقافة بشكل عام؛ فإن صعود لافتة العولمة في السنوات الأخيرة، قد حمل معه الكثير من الهواجس المعلومة، التي كان من بينها ما يتصل بالثقافة، ومن هنا برزت الدعوة الدفاعية للحفاظ على التنوع الثقافي في ظل اتجاه، يراه بعضهم كاسحًا، نحو تنميط الثقافات متعددة المشارب في قالب أحادي عالمي، ذي صبغة غربية طاغية.

إننا في الوقت الذي ندعو فيه إلى إثراء التفاعل الإيجابي بين الثقافات والتواصل بينها، لنحذِّر من عواقب التصورات والممارسات التي تنضح بعقدة

الاستعلاء الثقافي، والتي تتجاهل ذلك الرصيد الهائل من التراكمات البشرية الكامنة في الدوائر الحضارية على تعددها. ولا جدال أن مساعي الحوار بين الحضارات تفقد مصداقيتها وجدواها إذا لم تقم على مبدأ الاحترام المتبادل بين المنتسبين لهذه الحضارات على تنوعها.

ربط الحرية الإعلامية بالمسؤولية:

محطات متلاحقة نجتازها منذ سنوات عدة وصولا إلى أزمة الرسوم المسيئة للمقام النبوي الشريف. وفي تلك المحطات جميعا ندرك أكثر فأكثر كم ينبغي أن تتحلى وسائل الإعلام بالمسؤولية، وكيف أن الحرية الإعلامية تفرض التزامات أيضًا. وعبر السنوات الأخيرة بكل ما تخللها من أزمات استرعى انتباهنا أن بعض وسائل الإعلام لم يتحل بالحساسية الكافية، بل عمد أحيانًا إلى التشويه والتحريض وإشعال الحرائق.

ولا ريب أن العيش في "مجتمع المعلومات" إنما يعنى كذلك أن بقاء وسائل الإعلام في منأى عن مسؤولياتها الأخلاقية والأدبية أمر لا يحمد عقباه. وإزاء ذلك ينبغي التذكير بأن الوصول إلى علاقة إيجابية متقدمة بين "الآخر" و"نحن" إنما يتطلب أيضًا الكثير من الجهود الرامية لمكافحة التشويه واجتثاث التحريض وخطاب الكراهية في وسائل الإعلام. ويقتضي هذا تعاملا أكثر فاعلية من كافة الأطراف ذات الصلة مع وسائل الإعلام، ووضعًا للأوساط الإعلامية أمام مسؤولياتها الأدبية في تشجيع الحوار والتفاهم المتبادل.

فقد جاء تطور وسائل الاتصال بين البشر بمثابة فرصة واعدة لتشجيع التواصل الإيجابي المثمر بين الحضارات. ويقتضي هذا أن يكون الاتصال في الاتجاهات المتعددة لا على هيئة ضخ ثقافي في اتجاه أحادي. والحالة السلبية الأخيرة ليست بعيدة عن عالمنا بكل أسف، وهو الذي يشهد تمركزًا للمنتجات الثقافية والإعلامية ولإمكانات البث والاتصال في بؤر محددة في ما يعرف بعالم الشمال، كما عليه الحال بالنسبة لـ "هوليوود" التى تقطع لذاتها نصيب الأسد

مما يشاهده البشر حول العالم، دون أن تتحلى صناعتها السينمائية، في الغالب، بالمسؤولية التي تقتضيها هذه المرتبة.

سادساً: إصلاحات اقتصادية وإنمائية

كيف يمكن الزعم بأن الاقتصاد يلقي بظلاله على العلاقة بين مكونات المجتمع الإنساني؟ ولماذا ينبغي الالتفات إلى التنمية حتى عندما ننشغل بتناول قضية من قبيل "نحن" و"الآخر" ؟

لعلنا نجد تفسير ذلك في حقيقة أن التفاوت المذهل بين أمم العالم في معدلات الوفاة ما زال أحد التداعيات المقلقة بالنسبة لدعاة الحوار بين الحضارات؛ إذ لا يتمتع المنضوون في إطار الدوائر الحضارية المتنوعة بمنسوب متكافئ أو متقارب من العيش الكريم. فالحقائق المفزعة في هذا الشأن معروفة للجميع، وهي تتمثل باختصار في أن ما لا يزيد عن عشرين في المائة من البشر ينعمون بأكثر من ثمانين في المائة من خيرات كوكبنا المشترك هذا، بينما تجد أغلبية البشر ذاتها محاصرة بآفات الفقر والجوع والمرض والجهل.

وغني عن القول إن القلق في هذا الميدان له مبرراته؛ فالمستقبل لا يبدو وردياً في عيون قطاعات واسعة من الأجيال الجديدة في كثير من أمم الأرض؛ فالعولمة الاقتصادية باتت -شئنَا أم أبينَا- عنواناً لمرحلة قاتمة نعيش إرهاصاتها، تتعاظم فيها الفجوات الهائلة بين الأمم الصناعية والأمم النامية في معظم قطاعات الحياة، بل وتنعكس على تعاظم الفجوات البينية وخيمة العواقب في الدول الصناعية ذاتها.

أما الممارسة الاقتصادية فتبقى بحاجة إلى تطعيمها بالقيم الإنسانية التي تنبذ التعامل مع الإنسان على أنه مجرد حلقة في سلسلة الإنتاج والاستهلاك الدائرية. كما أنها تقتضي الالتفات إلى حجم الحيْف الذي يطال المتضررين من نشاط كثير من الشركات متعددة الجنسية مثلا، أو إجراءات تتبعها مؤسسات اقتصادية دولية، أو حتى سياسات تعتمدها دول وتكتلات اقتصادية.

أما فيما يخص التنمية، فإن المؤشرات المتاحة لنا جميعًا تتحدث عن حالة من الإخفاق المزمن منيت بها سياسات التنمية الدولية بعجزها عن ترجمة شعاراتها الكبرى إلى نتائج ملموسة، وسط حالة من المراجعة للرؤى التي قامت عليها تلك السياسات التي أفلست على أرض الواقع. ونزعم أن افتقار هذه السياسات إلى الجدية اللازمة في التعامل مع الملف الإنمائي، فضلا عن تعميم حلول إنمائية أحادية، تتجاهل الخصوصيات الحضارية والفوارق بين البيئات الثقافية للشعوب المستهدفة بالتنمية؛ هما من بين العوامل الجوهرية التي قادت إلى هذا الإخفاق.

وما يزيد من تعقيد الموقف ما يشهده الإنفاق الإنمائي للدول الصناعية من تراجع واضح منذ نهاية الحرب الباردة، فقد تم طي ملف التنافس بين القطبين على اجتذاب مناطق النفوذ في العالم الثالث، التي لم تعد، وفقًا لمنطق المصالح التنافسية، تستحق القدر المسبوق من الإنفاق.

وزيادة على ذلك؛ ما زلنا شهودًا على نماذج من ربط المساعدات الإنسانية بالاستقطابات السياسية، واستعمال الإنفاق الإنمائي أداة للإستراتيجيات الخارجية لمصالح بعض الدول، وهو ما يقتضي مراجعة مدفوعة بوازع أخلاقي؛ أخذًا بعين الاعتبار أيضًا أن ذلك المنحى المؤسف يبعث برسالة خاطئة بشأن طبيعة النوازع التي تحكم العلاقة بين الأطراف الدولية.

وإجمالا، وفي ظلال هذه الحالة المثيرة للأسف والقلق في آنٍ، يجب علينا التحذير من عواقب الحرمان والبؤس والجهل التي تطال قطاعات واسعة من الأمم والشعوب. فالأمر يتعلق هنا بمرتع لآفات التطرف والعنف والحروب، وهي ملابسات لا تخدم مساعي التواصل الإيجابي والتفاهم بين مكونات مجتمعنا الإنساني.

ومن هنا، نؤكد أن العلاقة الصحية التي تجمع "نحن" و"الآخر" تبقى بحاجة إلى ما يعززها من تحركات جادة في القطاعات الاقتصادية والإنمائية التي تعين على إزاحة مشاعر الغبن والإجحاف، وتحقق لشركاء الإنسانية عيشًا كريمًا وآمنًا، وتحقق التوازن بين النظم الاقتصادية والقيم الإنسانية.

محتويات البحث

ماذا يريد
الآخر من المسلمين؟

القس / عمانويل غريب
راعي الكنيسة الإنجيلية الوطنية
بالكويت

تقدمة:

في البداية أشكر اللجنة الشرعية لتعزيز الوسطية والرد على الفكر المتطرف بوزارة الأوقاف والشئون الإسلامية على دعوتها لي بالحضور والمشاركة في هذا المؤتمر، وأدعو الله أن يرشدنا لما فيه خير مجتمعاتنا. ويمكنني أن ألخص الموضوع في ثلاث نقاط:

١ - الفهم الصحيح:

إن كثيرا من المفاهيم الخاطئة قد تسللت إلى أفكار إخواننا المسلمين عن فكر الذين يختلفون عنهم في العقيدة، وقد بنيت هذه المفاهيم على مصدرين أساسيين هما:

أ - المعلومات المتواترة وأفكار وفتاوى أناس غير متخصصين وغير متعمقين في الدراسة والفهم الصحيح لنظرة دينهم إلى الآخر.

ب- مظاهر التحرر والإباحية التي تظهر على السطح في المجتمعات الغربية، بينما القيم الروحية والمبادئ السامية التي بنيت عليها حضارتهم لا تظهر في الصورة.

لذلك فنحن نهيب بإخواننا المسلمين المتخصصين الأمناء.. تصحيح المفاهيم الخاطئة التي توارثتها المجتمعات الإسلامية في نظرتها للآخرين ممن يختلفون عنهم في العقيدة.

٢ - الاعتراف بالآخر:

إن العالم يتكون من شعوب وقبائل وأمم مختلفة في اللون واللغة والدين والعادات والتقاليد والقيم والأفكار والعقائد، وكل الكتب السماوية تعلن هذه الحقيقة بوضوح. وعلى الجميع أن يعترفوا بحق الآخرين في الحياة الكريمة،

فنحن نشترك جميعًا في أننا أبناء آدم وحواء، فالبشر من هذه الناحية إخوة، والاعتراف المتبادل في حق الحياة الحرة الكريمة دون تهديد أو اضطهاد بسبب لون أو جنس أو دين من المبادئ الأساسية التي يريدها الآخر من المسلمين.

يجب التركيز على أن البشر متساوون، ولا فضل لواحد على الآخر إلا بالتقوى كما هو معروف لديكم.. وكلما اقترينا من الله عز وجل، كلما اقترينا من بعضنا البعض، فالاحترام المتبادل وإعطاء كل ذي حق حقَّه –دون النظر لأي اعتبار آخر– هو من ضمن ما يطلبه الآخر من المسلمين.

والكتاب المقدس يذكر في هذا المجال: "فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضًا بهم" (متى: ٧ – ١٢).

٣ - التواصل المستمر:

إن الحوار والتواصل في جو من الألفة والمودة يكسر الحواجز ويسقط الأسوار ويصحح المفاهيم، ويعطي الفرصة لكل طرف للاطلاع على تفاصيل الصورة عن قرب، فلا تطمس الملامح بسبب البعد والنظرة العابرة.

إننا نحتاج أن نجلس معًا ونتحاور لكي نجد أهدافًا مشتركة نتفق عليها ونسعى معًا لتحقيقها في مجتمعنا الذي نعيش فيه؛ فنحارب معًا الإلحاد ومشكلة الإدمان التي تحصد أرواح الكثير من الشباب. وكذلك نتكاتف معًا في مساعدة المنكوبين والمشردين الذين هم بدون مأوى أو عائل.

دعونا نتواصل ونضع أيدينا معًا ونتعاون على أعمال البر والخير والتقوى. والكتاب المقدس يقول: "الديانة الطاهرة النقية عند الله الآب هي هذه: افتقاد اليتامى والأرامل في ضيقتهم، وحفظ الإنسان نفسه بلا دنس من العالم" (يعقوب: ١ – ٢٧).

محتويات البحث

البيـــان الختـــامي
والتوصيـــات

جاء هذا المؤتمر من منطلق حرص دولة الكويت على تأكيد اعتدال الإسلام ووسطيته كمنهج حياة، واعتبار كل مظاهر الانحراف المتمثلة في التطرف والتعصب والإرهاب ظواهر وأنماط سلوكية يرفضها الإسلام.. ومن أجل تقديم الصورة الناصعة عن حقيقة الإسلام التي تعمل على نشر السلام العادل، وتعميق المحبة بين البشرية جميعًا، ملقيًا الضوء على حقائق الإسلام وردّ أباطيل خصومه، مؤكدًا ضرورة الاحترام المتبادل بيننا وبين الآخر.

وقد أسفرت بحوث المؤتمر والمناقشات والمداخلات عن التوصيات الآتية:

١- يعتبر المؤتمر أن الاختلاف في الأديان واللغات والقوميات سنة كونية وظاهرة طبيعية بشرية، ولا يصح أن تكون سببًا للتعادي والتخاصم، وإنما ينبغي أن تستثمر لصالح تكامل المعرفة وإثراء الساحة الإنسانية، وتبادل المنافع ورعاية المصالح؛ تحقيقًا لخير الجميع.

٢- يدعو المؤتمر إلى ضرورة اعتماد منهج الوسطية ونبذ ما يصدر من تصرفات تحمل روح التعصب أو الازدراء للآخر.

٣ - يؤكد المؤتمر على أن الإسلام يدعو إلى مدِّ جسور التعاون مع الآخر على أساس من الاحترام المتبادل، والكرامة الإنسانية المصونة، ويرى أن الحوار والاحترام المتبادل منطلق لحل الخلافات، وإخراجها من دائرة التوتر الذاتي إلى ساحة التأمل الفكري.

٤ - يؤكد المؤتمر على أن الإسلام يحمل للإنسانية جميعها رسالة سامية تدعو إلى التسامح مع الآخر، وأن رسالته تنسجم مع نسق الحياة الإنسانية، وتمكن من إقامة علاقة أفضل مع الآخر.

٥ - يدعو المؤتمر إلى احترام الاستشراق المنصف الذي يهدف لفهم ثقافة المسلمين، معتمدًا على منهجية علمية موثوقة، ونبذ الاستشراق المغرض.

٦- يؤكد المؤتمر أن التحاور مع الآخر لا يعني التدخل في قضاياه الإيمانية أو معتقداته الشخصية، وإنما يهدف إلى توثيق أواصر الإخوة الإنسانية، بهدف تحقيق الاستقرار والأمن لشعوب العالم.

٧ - يؤكد المؤتمر على أهمية التعاون مع الآخر من خلال برنامج عملي يحقق التواصل بين الشعوب، مشدداً على دور التربية والإعلام في توسيع آفاق التعاون والحوار مع الآخر.

٨ - يؤكد المؤتمر أن من حق كل أمة التمسك بهويتها، وأن التعايش مع الآخر حقيقة تاريخية وضرورة واقعية، وأن التواصل مع الآخر تتعدد وسائله بتعدد مجالاته.

٩ - يؤكد المؤتمر على أن حقوق الإنسان وحرياته لا ينبغي أن تتخذ ذريعة للنيل من مقدسات الآخر وثوابته وخصوصياته.

١٠ - مشاريع وبرامج عملية:

❖ يوصي المؤتمر المنظمات الدولية والإقليمية إلى إصدار قانون يجرم التمييز الديني والتعدي على المقدسات الدينية لكافة الأديان.

❖ إنشاء قناة فضائية تعنى بنشر ثقافة قبول الآخر والتعايش معه يكون مقرها دولة الكويت.

❖ يوصي المؤتمر بإنشاء مرصد فكري وعلمي تكون مهمته الرصد والتحليل لكل ما ينشر عن الإسلام باللغات المختلفة ودعم الإيجابيات، والرد على الشبهات والإساءات.

❖ استحداث مقرر دراسي ضمن المناهج التربوية للتعرف على الآخر وفهم ثقافته ومعرفة خصوصياته.

الفهرس العام

المركز العالمي للوسطية

INTERNATIONAL MODERATION CENTER

www.wasatiaonline.net